رُمُوز العِلم المُقَدَّسِ

الشيخ عبد الواحد يحيى



تَّنوِيه

تعمل ترجمات 'تراث واحد *One Tradition*' على نقل آداب الحضارات العريقة فى الشرق والغرب إلى اللسان العربى، للذين تسمح ذائقتهم بالاستمتاع بأعمال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى وجلال الدين الرومى، وغيرهما من حكماء العالم العربى والإسلامى، ويجدون سعادتهم فى قراءتها، وقد حضَّنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على طلب العلم والحكمة فقال: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ"، وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم: "الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا".

وتعتبر هذه الأعمال التى نقدمها مفتاحًا لفهم الحضارات الهندوسية والطاوية والبوذية واليونانية القديمة، من حيث جوهرها الذى تجلى به الله تعالى عليها جميعًا.

ولعل ما يُضفى هذه الأهمية الكبيرة على كتب هذه المدرسة أنها تتناول بشكل أساسى موضوعات خمسة، هى علم الحقيقة أو ما وراء الطبيعة، والعقل المُلهَم، والتصوف المعرفى، والأديان مِن حولنا، ومشكلات العالم الحديث.

وهذه الأفكار والموضوعات بمركزيتها تستحق أن تخرج إلى اللسان العربى فى ترجمات شتى، لما قد يحمله ذلك من إيضاح وتفسير لها، وعونًا للقارئ على فَهم ما صَعُبَ منها.

ونأمل بترجمتنا تلك أن نكون قد نقلناها إلى مهدها القديم، وحاضنتها الأولى وهى اللغة العربية التى ألهمت أجيالًا من الأولياء والعارفين على مدار قرون عدة.

أخيرًا، ورغم ما بذلناه من جهد وعناية فى مراجعة نصوص هذه الكتب، إلا أننا نلتمس مقدَّمًا من القارئ الكريم العذرَ فى النزر مِن الخطإ الذى قد يكون تفلَّت منَّا سهوًا، فصادفه هنا أو هناك بين صفحاتها.

المحتويات

1 إصلاح العقلية الحديثة

تبدو العقلية الحديثة فى التاريخ أمرًا شاذًا، فقد كانت الوحيدة من بين كل الحضارات المعروفة التى تطورت فى اتجاه مادى صرف، والوحيدة التى لا تقوم على أية مبادئ عُليا، وقد استمرت على هذا المنوال بضعة قرون حتى الآن باضطراد ووتيرة متزايدة، ورافقها تخلف فكرى لا تملك تعويضه، ونحن نتحدث بالطبع عن الفكر القراح الذى يمكن أن نسميه 'روحانية'، فنحن نرفض إسباغ اسم 'العلم' على ما اتخذه الإنسان الحديث بمعنى السعى إلى العلوم التجريبية على أمل تطبيقها عمليًا، ويكفى مثال واحد لمعايرة هذا التخلف فى كتاب *Summa Theologica* للقديس توما الأكوينى كان فى زمانه كتابًا مدرسيًا، فأين اليوم التلاميذ الذين يمكنهم فهمه واستيعابه؟

ولم يحدث هذا التدهور على حين غرة، ويمكن تتبع مراحله فى الفلسفة الحديثة، وقد كان نسيان أو ضياع العقل الفطرى سببًا لتفشى خطأين يبدوا متناقضين ولكنهما على الحقيقة مترابطين ومتكاملين، وهما العقلانية والعاطفية، وقد بدءا من اللحظة التى غرق فيها العقل مع ويليم جيمس *William James* 'تحت الفكر' على سبيل المثال، ونظر إلى اللاشعور *subconscious* باعتباره وسيلة يستطيع الإنسان بها التواصل بالربانى، واختُزِلت فكرة الحقيقة إلى ما لا يربو عن وقائع حسية، ومن ثم تماهت مع البراجماتية النفعية *pragmatism*، وهو ما أدى إلى وأد الفكر الحق، فما قيمة الحق فى عالم لا يتطلع إلا إلى المادة والعاطفة؟

ويستحيل تناول كل النتائج المترتبة على هذه الحال فى سياقنا، ولنشر فحسب

إلى بعض ما تعلق منها بالمنظور الدينى، وننوه أولًا إلى الامتعاض الذى يصيب الشرقيين فى تعاملهم مع الغربيين بموجب أنهم يبدون بلا تراث ولا دين، وهو ما يعتبرونه أمرًا إدًا، فالشرقى لا يقبل المؤسسات الاجتماعية التى لا تعتمد بالكلية على مبادئ التراث، فالمسلم على سبيل المثال يعتبر أن كل القوانين ليست إلا حواشى على شريعة الدين، وقد كانت كذلك فى الغرب فيما مضى، ولا نحتاج فى ذلك إلا النظر فى مسيحية العصور الوسطى، لكن العلاقات قد انقلبت اليوم، وينظرون إلى الدين كظاهرة اجتماعية فحسب، ولم يعد النظام الاجتماعى مرتبطًا بالدين، والذى يعتبره المحدثون حينما يضطرون إلى ذلك مجرد عنصر من العناصر التى تسهم فى تكوين النظام المجتمعى، فكم من الكاثوليكيين اليوم يقبلون هذا المنوال فى النظر إلى الأمور بلا أى عناء؟ وقد حان الحين لرد فعل حيال تلك الميول، وتبدو هيمنة حكم المسيح الاجتماعى بديلًا مناسبًا، لكن تحقيق هذا الأمر يستلزم إصلاح العقلية الحديثة.

ولا ينبغى المرور مر الكرام على واقع أن الذين يعتقدون مخلصين أنهم على دينٍ فإن فكرتهم عن الدين قد تقلصت، ولا تأثير له على أفكارهم وأعمالهم كما لو كان منبتًا عن وقائع حياتهم، ويكاد المؤمنون والكافرون يتصرفون على النحو ذاته، فقد أصبح اليقين بما يفوق الطبيعة مجرد اعتقاد نظرى عند كثير من المسيحيين، وسوف يصابون بحرج بالغ لدى شهودهم لمعجزة، وهو ما يسمى 'مادية عملية' أو مادية الوقائع، ألا يكون ذلك أمحق خطرًا من مادية صريحة بموجب أن الذين يعتقدون بها لا يعون كنهها؟

والدين عند غالبية الناس ليس إلا تعاطفًا لا أهمية فيه للفكر، فيخلطون الدين بالتدين بحيث يُختزل إلى أخلاقية نسبية بديلًا عن المذهب الحق وهو فحسب الأمر الجوهرى، بل يختصرونه إلى أقصى حد ممكنٍ رغم أن كل شيء يستقى منه، وقد تحولت الكاثوليكية إلى 'أخلاقية' محض، ومن ثم أصبحت ممثلًا للعقلية الحديثة، وسوف نخطئ لو اعتقدنا أن الكاثوليكية ذاتها ليست بمنجاة من الميول ذاتها، وليس ذلك من حيث المبدأ يقينًا بل على المنوال الذى تُطرح به بحجة جعلها

أكثر قبولًا للعقلية الراهنة، وقد تنازلَت على نحو بالغ الفجاجة عما وجب عليها الدفاع عنه بحميَّة، ولن ننشغل بعمى الذين يجعلون من أنفسهم متآمرين على الدين دون وعيهم بحجة 'التسامح' والنوايا الخفية التى غابت عنهم، ولنلاحظ عرضًا سوء الاستخدام لكلمة 'دين' فى قول 'دين العلم' و'دين الوطنية' و'دين الواجب'، وقد يبدو استعمال هذه التعابير بلغة عرَضية بسيطة، لكنها عرَضٌ لتفشى الفوضى فى كل أين فى العالم الحديث، فاللغة تعبر بوضوح عن أحوال العقل، وهذه التعابير لا تقابِس المعنى الدينى الحق.

ولكن لنأت إلى الأمور الجوهرية، إننا ننوى الحديث عن التعاليم المذهبية التى حل محلها اعتبارات أخلاقية وعاطفية غائمة، ورغم أنها مصدر سرور لأناسى بعينهم فإنها تحبط الذين يسعون إلى غايات فكرية، وقد بقى قلائل منهم رغم كل شىء فى حاضرنا، وبرهان ذلك أن معظم الناس ينكرون نقص المذهب، ونعتبر ذلك أمرًا يدعو إلى التفاؤل رغم المظاهر الفاشية، وأنه أشد ظهورًا هذه الأيام عنه فيما سبق من سنوات قليلة، ومن الخطأ ادعاء أنه لم يعد يوجد من يستطيع فهم المذهب الصرف كما سمعنا، لكننا فى البداية سوف نقتصر على الحد الأدنى باعتباره مستوى الغالبية، وكما لو كان علينا اعتبار الكم لا الكيف، أليس ذلك نتيجة الروح الديمقراطية التى تشكل العقلية الحديثة؟ ثم هل يمكن التأكد من أن معظم الناس عاجزون عن فهم تعاليم المذهب؟ ألا يجدر بنا الظن أن الذين لا يفقهون شيئًا يمكن أن يستنبطوا أمرًا مفيدًا بأكثر مما يمكن توقعه؟

ولكن العقبة الكؤود هى الشك فى الفكر عمومًا حتى بين كثير من الدوائر الكاثوليكية بمن فيهم القساوسة، ونقول 'عقبة كؤود' لأن عدم الثقة دليل على انعدام الفهم بين الذين يتولون الوعظ وعلى قلة كفائتهم، ذلك أن روح الحداثة قد مستهم إلى درجة أكثر مما أثرت على الفلاسفة الذين ذكرناهم، حتى إنهم أنكروا الفكر الحق بالعقلانية التى كانت سلاح خُصَمائهم، ونحن متمسكون تمامًا باعتقادنا أن أهم أمر هو استعادة الفكر الحق بمعنى المذهب والتراث، وقد حان الحين للبرهان على أن فى الدين أمر أكثر من مجرد المفاهيم الأخلاقية أو عزاء

النفوس التى تهافتت بالشقاء، ولكى يجد المرء ’الغذاء‘ الذى تحدث عنه القديس بولس فى رسالته إلى العبرانيين1.

ونحن على يقين من أن هذا يذهب إلى عكس التيار السائد للعادات الثابتة التى تستعصى على الحل، فالأمر أنه ليس مسألة تحديث، بل على العكس عودة إلى التراث الذى ضللنا عنه كى نكتشف ما غاب منه، أليس ذلك أفضل من التنازلات التى لا مبرر لها لروح الحداثة كما يظهر فى اللاهوت الدفاعى أوالاعتذاريات *apologetics* التى تحاول مصالحة العقيدة مع فرضيات لا أساس لها فى العلوم الحديثة، وهو جهد لابد أن يتكرر مع العلوم التى يقفو بعضها أثر بعض؟

وسوف يظهر أن الصراع بين الدين والعلم لا يمكن أن يقوم، ذلك أن لكل منهما مجال منفصل، فكيف يمكن ألا نرى الخطر فى السعى إلى تغيير أسس المذهب التى تتعلق بما لا يحول من الحقائق الخالدة؟ وماذا علينا أن نظن فى اللاهوتيين الكاثوليك الذين تأثروا بالروح ’العلمية‘ حتى يتحسبوا بقدر يزيد أو يقل ’التفاسير‘ الحديثة و’النقد النصى‘، فى حين يمكن لمن درس الأساس المذهبى أن يبين خطئهم؟ وكيف لا يتبين المرء أن ما يسمى ’علم الأديان‘ كما تدرسه الجامعات لم يكن أمرًا آخر غير أداة حرب على الأديان وعلى كل ما بقى من روح التراث، والذى يتغيا العالم الحديث تحطيمها بما ينتهى إلى جائحة؟

وهناك الكثير مما يمكن قوله لكننا نكتفى بملاحظة نقاط قليلة فى ختام هذا الباب، والتى يقوم عليها إصلاح العقلية الحديثة كضرورة جوهرية، ولنستنتج الآن بسؤال يهمنا هنا، لماذا لا نصادف عدوانية مماثلة حيال الرمزية؟ ولابد أن ذلك بموجب صيغها فى التعبير وغرابتها عن العقلية الحديثة، وكذلك لأن الإنسان يميل إلى عدم الثقة بما لا يفهم، والرمزية وسيلة طيِّعة لتعليم الحقائق من نطاق أسمى دينيًا وميتافيزيقيًا، أى كل ما تنكره الروح الحديثة أو تهمله، وبالتالى فهى مناقضة

---

1 رسالة إلى العبرانيين، *13-5:11*, المحقق.

على طول الخط للعقلانية وكل من يعتبر نفسه ‘عقلانيًا’ حقيقيًا بلا تدبُّر، ونرى من ناحيتنا أنه لو كان المحدثون يخطئون فى فهم الرمزية فذلك مبرر لطرحها وتفسير معناها التراثى الحقيقى بقدر الإمكان لاستعادة أهميتها الفكرية الكاملة، وبدلًا من جَعلها موضوعًا للعاطفيات التى تعتبر الرمزية أمرًا تافهًا.

ولا جدال فى أن واجب إصلاح العقلية الحديثة وكل ما يعنيه ذلك، أى استعادة الفكر الحق والمذاهب التراثية اللذان لا ينفصم أحدهما عن الآخر لَوَاجِبٌ جسيم، ولكن هل يصلح ذلك مبررًا للنكوص عن الغوص فيها؟ ونعتقد أن العكس صحيح، فهذا الواجب أرحب مجالًا وأوفر غاية عما يمكن اقتراحه على "الجمعية الفكرية لنشر مذهب القلب المقدس"، خاصة وأن كل الجهود تتجه إلى القلب المقدس وتجسُّد الكلمة، وأن الشمس الروحية هى مركز العالم "حيث ينطوى فيها كنوز خبيئة من العلم والحكمة" وليس العلوم الدنيوية الفارغة التى تشكل كل معرفة الإنسان المعاصر، لكن العلم المقدس عند الذين يتذاكرونه على نحو سليم يفتح آفاقًا لا نهاية لها من المعرفة.

2 الكلمة والرمز

لقد واتتنا الفرصة لنتحدث عن أهمية الشكل الرمزى فى تداول تعاليم التراث المذهبية، ونعود الآن إلى هذا الموضوع لإضافة بعض التفاصيل التكميلية لبيان أكثر صراحة لوجهات النظر المختلفة التى يجب طرحها.

فأولا، تبدو الرمزية لنا كما لو كانت تفسيراً للطبيعة الإنسانية، والتى ليست فكرية صرفاً بل تحتاج إلى أساس حسِّي يمكن البناء عليه إلى مقامات أعلى، ولابد أن نعتمد على البنية الإنسانية كما هى واقعياً فى تركيبها المعقد بين الوحدة والكثرة، وهو الأمر الذى غاب عن خواطر ديكارت حينما عكف على الفصل القاطع بين النفس والجسد، فالذكاء المحض بالطبع ليس بحاجة إلى تعبير ظاهرى حتى يدرك الحقائق، ولا لكى يطرح ما فهمه للتواصل مع ذكاء غيره بما تيسر من التعبير الظاهرى عنه، ولكن ليس ذلك هو حال الإنسان عموما، فكل تعبير من الناحية الأصولية وكل صياغة أيًا كانت ليست إلا رمزًا للفكر فى تعبير ظاهر، وتصبح اللغة ذاتها بهذا المعنى رمزية، وينحصر التعبير بين استخدام الكلمة والرمز، والواقع أنهما قد يتوحدا كما فى اللغة الصينية الإيديوجرافية حتى اليوم، وعموماً فإن اللغة تحليلية أو 'جدلية'، فهى على منوال العقل البشرى الذى يستعملها ويعيد إنتاجها بالانضباط الممكن، فى حين كانت الرمزية بالمعنى المنضبط تركيبة و'بصيرية'، وهو ما يجعلها أكفأ من اللغة كأداة للبصيرة الفكرية، وهى تعلو على العقل الجدلى *reason*، ولابد من العناية لعدم الخلط بينها وبين الحدس الأدنى *lower intuition* التى يبالغ بعض الفلاسفة المعاصرين فى اللجوء إليه، وعليه فإن لم يكتف المرء

بملاحظة الاختلاف ورغب فى الحديث عن التعالى فسوف تكون الرمزية التركيبية رفيقًا لحديثه أيًا كان ما يقوله البعض، فهى تفتح إمكانات فكرية لا تحصى، بينما كانت اللغة بمعانيها الجامدة تفرض حدوداً ضيقة للفهم.

ولا يقولن أحد إن الشكل الرمزى لا يصلح إلا لأفهام العامة بل إن العكس هو الصحيح، فهو صالح للكافة بموجب أنه 'عون' على فهم الحقائق التى يرمز إليها على نحو 'أكمل' أو 'أعمق' بحسب البصيرة الفكرية لمستقبِلِه، فالحقائق العليا التى يستحيل فهمها والتعبير عنها، ولكنها يمكن أن تُدرك إلى حد ما باحتوائها فى رموز ستخفى عن الغالبية بلا شك ولكنها ستتجلى لمن له عين ترى.

فهل يعنى ذلك أن استخدام الرمزية ضرورة؟ وهنا لابد أن نضع فاصلًا بين الرمزية بما هى وبين الرمزية مطلقا، فما من شكل ظاهر يلزم بالضرورة، فكل الأشكال عرَضِية على السواء فى علاقتها بما ترمز إليه، وتقول التعاليم الهندوسية إن أى شكل كتمثال يرمز إلى جانب أو آخر من الربوبية يمكن أن يعتبر تكئة أو منطلقًا للتأمل لا غير، ويرد فى المتون الفيدية مقارنة توضح دور الرمز والشكل الظاهر عموما، فهى أشبه بحصان يمكن الحاج من الارتحال والوصول إلى غايته على نحو أسرع بجهد أقل عما تتطلبه الرحلة على قدميه، ولا شك أن الرجل إن لم يملك حصانًا فسوف يبلغ غايته بصعوبة أكثر، ولكنه سيكون مخطئًا لو قدم إليه أحد حصانًا ورفضه بدعوى أن الحج سيصبح أكثر قيمة لو لم يستعن بحصان أو غيره، ألا يفعل ذلك مناهضو الرمزية؟ ورغم عدم وجود استحالة للحج سيرًا على الأقدام مهما كان عناؤه إلا إذا استحال عمليًا، فكذلك الشعائر والرموز، والتى ليست ضرورة مطلقة فى حد ذاتها، بل هى مجرد وسائل مساعدة نظراً لطبيعة الإنسان.

ولكن لا يكفى اعتبار الرمزية من الجانب الإنسانى كما فعلنا الآن، فلكى نفهم معناها بالكامل لابد من النظر إليها من الجانب الربانى على سبيل القول، فبعد أن رأينا أن أساس الرمزية كامن فى طبيعة الأمور ذاتها ويتسق تمامًا مع قوانينها الطبيعية ونتذكر أن قوانين الطبيعة ليست إلا تعبيرًا عن للمشيئة الربانية

وتجلياً لها، ألا يخولنا ذلك حق توكيد الرمزية من جانبها الأصلى ’غير الإنسانى‘ كما يقول الهندوس؟ أى إن مبدئها يعود بعيدًا إلى ما يعلو على الإنسان؟

ولم يكن مفتتح إنجيل يوحنا بلا سبب حين قال "فى البدء كان الكلمة"، والكلمة أو اللوجوس فكرة وكلمة فى الآن ذاته، فهى بذاتها العقل الربانى منبع كل ’الاحتمالات‘، وتتجلى فى الوجود الذى تحقق فيه قدر من هذه الاحتمالات التى احتوى عليها تكوينه منذ الأزل، فالخلق هو عمل الكلمة وتجليها وبرهانها الظاهرى، ولذا كانت الدنيا بمثابة لغة ربانية للذين يعرفون كيف يعلمون أن الرب "السموات تُحدِث بمجد الله" المزامير *1:19*، وقد كان الفيلسوف بيركلى مصيباً حين قال "إن العالم هو اللغة التى تتكلمها الروح القدس للنفوس المحدودة"، ولكنه لم يُصِب حين ظن أن اللغة مجرد كومة من الرموز الاعتباطية حتى فى لغة الأنسان، فكل المعانى فى الأصل لها أساس فى اتساق طبيعى أو هارمونية بين الرمز وما يعنى، ذلك أن آدم تعلم من الرب معرفة طبيعة كل ما يعيش حتى يسبغ عليه أسمه، "وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء" التكوين *20:19*، وتتفق تعاليم كل الأديان على أن الاسم الحقيقى للكائن هو ذاته طبيعته وجوهره.

فلو كان الباطن هو الفكر والظاهر هو الكلمة ولو كان العالم مخلوقاً بكلمة الرب فى أول الزمان فإن الطبيعة رمز للحقائق العليا، وكل ما وجد بصيغة أو أخرى له مثال أو مبدأ فى العقل الربانى، ويترجم أو يمثل هذا المبدأ بطريقته حسب منظومة وجوده، وتتصل كل المنظومات وتتناظر مع بعضها بعضًا فى جُمَّاع كلى متسق يعكس بدوره الوحدة الربانية ذاتها، ويُكافئ ذلك أساس الرمزية، ولذا كانت قوانين المراتب الأدنى رموزًا للحقائق الأعلى حيث تكمن غاياتها العميقة، وهى مبدئها ومنتهاها، ولنذكر هنا خطأ التفسير ’الطبيعىِّ *naturalistic*‘ الحديث للمذاهب التراثية القديمة، وهو تفسير على طرف نقيض من بنية العلاقات بين مراتب الوجود، وعلى سبيل المثال لم يكن دور الرموز والأساطير تمثيل حركة النجوم، والحق إن المرء يجد فى الأساطير مخلوقات مُلهَمة بهذه الحركة، ومُقدر لها أن تعبر

بالتشاكل فيزيقيًا وميتافيزيقيًا عن أمر مختلف تماما، ذلك أن قوانين تلك الحركة ترجمة لمبادئ الفيزيقا و الميتافيزيقا التى تعتمد عليها، ويجوز أن يرمز الأدنى إلى الأسمى لكن العكس يستحيل، كما أن الرمز إن لم يكن قريبًا من المجال المحسوس أكثر من قربه إلى ما يمثله فكيف يتأتى له إنجاز الوظيفة المقدرة له؟ فالمحسوس فى الطبيعة يمكن أن يرمز إلى ما فوق الحس، والمنظومة الطبيعية برمتها رمز للمنظومة الربانية، ألا يجوز فيما تعلق بالإنسان قول إنه رمز نظرًا لحقيقة أنه "خُلِق على صورة الرب" التكوين *1:26-27*؟ ولنضف إلى ذلك أن الطبيعة تكتسب معناها الكامل فحسب حينما تعمل كوسيلة لارتفاعنا إلى معرفة الحقائق الربانية، وهو الدور الجوهرى الذى أسندناه إلى الرمزية[1].

ويمكن تمديد هذه الاعتبارات إلى ما لا يُحصى لكننا نفضل أن نترك لكل امرءٍ أن يتفكر فى ذلك بنفسه، وليس هناك ما هو أكثر من ذلك فائدة، فهذه الملحوظات لا تعدو نقاط انطلاق للتأمل شأنها شأن موضوعها عن الرموز، وكما أن الرموز تعبر على نحو ناقص فكذلك مسألتنا هنا، إلا أن هناك جانب آخر من المسألة وليس أقلها أهمية، وسوف نعكف على توضيحه فيما يلى بإيجاز.

إن الخليقة تعبير عن الكلمة الربانية كما أسلفنا، ونحن نتحدث عنها بالكناية والاستعارة والتشاكل ونحافظ على التناسب الواجب، وهو أشبه بالفكر الذى نعبر عنه بأشكال ولا حاجة بنا إلى التمييز بين اللغة وبين الرمز، والذى يحجب ويكشف فى آن، والوحى الأولانى على منوال الخلق عمل الكلمة، كما أنه اندمج فى الرمز الذى تداولته الأجيال جيلًا عن جيل منذ بداية الإنسانية، وتشاكل هذه العملية الخلق ذاته، فهل يمكن ألَّا نرى فى هذا الاندماج فى الرموز التراث 'غير الإنسانى' نوعًا من الصور المتوقعة لتجسُّد الكلمة؟ وألا يسمح ذلك إلى حد ما

---

1 وربما لن يكون بلا فائدة أن نشير إلى أن هذا المنظور الذى يدفع باعتبار الطبيعى رمزا لما يفوق الطبيعى أمرا جديدا، فقد كانت نظرية واسعة الانتشار فى القرون الوسطى وتبلورت فى أعمال القديس فرانسيس الأسيسى والقديس بو نافينتورا، كما نلاحظ أيضا أن 'التشاكل *analogy*' بالمعنى التوماوى يرتفع بنا من معرفة المخلوقات إلى معرفة الرب، فليست إلا صيغة رمزية تقوم على التناظر بين منظومة الطبيعة والمقام الربانى..

برؤية العلاقة الأسرارية بين الخلق والتجسد الذى توَّجها؟

وسوف نختم هذا الباب بملاحظات عن الرمز الكلى للقلب وخاصة على النحو الذى اتخذه التراث المسيحى وهو 'القلب المقدس'، ولو كان جوهر هذا الرمز متفق مع 'المخطط الربانى' ولو كان 'القلب المقدس' فى مركز الإنسان واقعيا ورمزيا فإن رمز القلب أو ما يكافئه لابد أن يحتل مركز المذهب الأولانى للتراث، وهو ما سوف نعود إليه فى هذه الدراسة.

3 القلب المقدس وأسطورة الكأس المقدس

أشار لاسّاى *Louis Charbonneau-Lassay* مصيباً فى مقاله[1] ’الأيقونية القديمة لقلب عيسى المقدس‘ إلى أن أسطورة القلب المقدس قد دونت فى القرن الثانى عشر من أصل أقدم بُعدًا، والحق إنها استعارة مسيحية من التراث الكلتى القديم، وتنتمى إلى ما قد يسمى "ما قبل تاريخ القربان المقدس لقلب عيسى"، وقد خطرت لى هذه المقارنة فى سياق قراءة قديمة لمقال مهم بعنوان ’القلب الإنسانى وفكرة قلب الرب فى الديانة المصرية القديمة‘[2]، ونقتبس منها الفقرة التالية "إن الصورة فى الكتابة المصرية المقدسة *hieroglyphics* غالباً ما تعنى منطوق الكلمة التى تقصدها فيما عدا معنى القلب الذى كان يُرمَز إليه بكأس، أليس قلب الإنسان كأسًا يغذى جسده على الدوام بالدماء؟"، وقد كان ذلك الكأس الذى اتُخِذ رمزًا للقلب ويحل محله فى الصور المقطعية الهيروغليفية وهو الذى ذكرنا بأسطورة القلب المقدس *Holy Grail*، وخاصة لنرى معناها الرمزى المباشر من الناحية الإنسانية والربانية وعلاقتها بقلب المسيح.

والحق إن الكأس المقدس هو الذى احتوى على دم المسيح المبارك، حتى إنه احتوى عليه مرتين، فقد استُخدِم أولًا فى العشاء الأخير ثم استخدمه يوسف الأرماتى فى جمع الدماء التى نزفت من جنب المخلِّص بطعنة رمح جندى، ولذا أصبح هذا الكأس بديلًا لقلب المسيح كوعاء لدمائه، وتحل محله لتصبح رمزًا

---

[1] *Iconographie ancienne du Coeur de Jesus ' Regnabit, June 1925.*

2"إن الدين المصرى القديم يرى أن قلب الإنسان هو ذاته قلب الرب".

يكافئه، أليس مما يدهش أن يكون الكأس رمزًا للقلب فى غابر الزمان؟ كما أن الكأس بصورة أو أخرى مثل القلب ذاته يقوم بدور مهم فى كثير من الديانات القديمة وفى الكلتية بالضرورة، والتى انحدرت منها إلينا أسطورة القلب المقدس، أو على الأقل تركيبها، وللأسف أننا لا نعرف شيئًا على وجه الدقة عن الصورة قبل المسيحية ولا أى أمر يتعلق بالمذهب الكلتى نظراً لأنه كان متداوَلًا على نحو شفاهى، إلا أن هناك توافقات كافية لتأسيس معانى الرموز الرئيسية التى صورتها، وهذا هو الأمر الجوهرى.

ولكن لنعد إلى الأسطورة بصورتها التى انحدرت إلينا حيث إن ما تذكره عن أصل الكأس يستحق الانتباه، فقد قيل إن الملائكة قد صنعته من جوهرة زمرد وقعت من جبهة إبليس أثناء سقوطه، وتذكرنا جوهرة الزمرد بجوهرة الجبهة *أورنا* التى تقوم بوظيفة عين شيفا الثالثة، وتمثل ما سمى فى الهندوسية ’حاسة الخلود‘، وربما كانت هذه المضاهاة أنسب من غيرها لجلاء رمزية الكأس، كما تصور علاقة أخرى مع القلب فى التراث الهندوسى حيث تقوم بدور مركز الكائن الذى ترتبط به تلك الحاسة مباشرة.

ويقال إن آدم قد اؤتمن على الكأس فى الفردوس الأرضى، لكنه فقده أثناء سقوطه من جنة عدن، ويتبدى ذلك واضحًا فى ضوء ما ذكرنا توًا، فالإنسان الذى انقطع عن مركزه الأصلى من جراء خطئه قد وجد نفسه محتبسًا فى النطاق الزمنى، ولم يستطع بعد ذلك أن يصل إلى النقطة التى كان يرى منها كل شىء من منظور الخلود، والفردوس الأرضى هو مركز العالم، والذى أصبح ’مركز العالم‘ الحق وقلب الرب، ألا يجوز قول إن آدم طوال إقامته فى جنة عدن كان يعيش فى قلب الرب؟

وما يتبع ذلك أشد إلغازًا، فقد استطاع شيث أن يعود إلى الفردوس الأرضى واستعاد الكأس الثمين، ويمثل شيث أحد جوانب المُنَجِّى *the Redeemer*، حيث إن اسمه يعبر عن فكرة الأساس والتوازن، ويعلن عن استعادة الحال الأولانى الذى دمره سقوط الإنسان، ومنذ ذلك الحين تحقق إصلاح جزئى على

الأقل بمعنى أن شيث والذين معه قد احتكموا على الكأس واستطاعوا إقامة فردوس على صورة الفردوس المفقود فى مكان ما من الأرض، وقد صار مركزًا روحيًا، ولا تقول الأسطورة شيئًا عمن حافظ على الكأس حتى زمن المسيح ولا كيفية تداوله، لكن أصله الكلتى يقطع بأن الدرويديين *Druids* قد قاموا بدور فى ذلك، وأنهم من بين السدنة الذين حفظوا التراث الأولانى، وعلى كل فإن وجود ذلك المركز الروحى أو حتى عدة مراكز تناظره معًا أو بالتتابع ليس موضع شك، وأيًا كانت المواقع التى أقيم فيها فالأمر المهم أن 'قلب العالم' كان من ضمن أوصاف هذه المراكز فى كل الأديان، والتى قامت على رمزية يمكن تتبع أدق تفاصيلها، ألا يكفى ذلك لبيان أن الكأس المقدس أو ما يمثله كان سابقًا عن المسيحية وحتى طوال كل الأزمنة؟ وكان على صلة حميمة بقلب الرب وعمانؤيل *Emmanuel*[3]، أى كل التجليات الواقعية والمفترضة بحسب طبيعة الحقب الزمنية بما فيها الحاضر، والكلمة الخالدة فى قلب الإنسانية الأرضية.

وتقول الأسطورة إن الكأس المقدس قد انتقل بعد وفاة المسيح إلى بريطانيا مع يوسف الأرماتى و نيكودوموس، وهنا تبدأ قصة فرسان المائدة المستديرة ومغامراتهم التى لا ننوى الحديث عنها هنا، وقد كان مقدرًا للمائدة المستديرة أن تتلقى الكأس المقدسة عندما نجح أحد فرسانها فى الحصول عليها ونقلها من بريطانيا إلى منطقة بريتانى، وربما كانت المائدة بدورها رمزًا قديمًا من الرموز التى ارتبطت بالمراكز الروحية التى نوهنا عنها، كما أن الشكل الدائرى للمائدة يرتبط بدائرة البروج *zodiacal circle*، وهو رمز آخر يستحق دراسة مستقلة، ويحوط بها اثنا عشر حكيمًا مما يرد ذكره عن كل المراكز الروحية، وحيث إن الأمر كذلك أفلا نرى فى عدد رسل المسيح الاثنى عشر علامة أخرى على اتساق المسيحية مع التراث الأولانى الذى يناسبها تمامًا؟ كما لاحظنا الصلة بين فرسان المائدة المستديرة

3 وتعنى كلمة عمانؤيل *Emmanuel* "الرب الكامن فينا". المحقق.

التى اتفقت مع الرؤى الرمزية للقديسة مارى دى فاليس[4]، والتى ذكرت فيها ’مائدة جاسبار المستديرة *round table of jasper*‘ التى ترمز إلى ’قلب سيدنا‘، كما ذكرت ’حديقة التناول المقدس للمذبح‘ التى ينبع فيها ’أربعة ينابيع من الماء الحى‘، والتى تماهى على نحو غامض مع الفردوس الأرضى، أليس ذلك برهانًا آخر على العلاقة التى أشرنا إليها؟

ولا ندَّعى بالطبع أن هذه الملاحظات المبدئية تشكل دراسة كاملة لموضوع ندر تناوله، ولكننا حاليًا سنقتصر على ذكر مجرد مؤشرات مع العلم بأنها توحى من الوهلة الأولى بأمر يدهش الذين لم يألفوا التراث القديم وصيغه الرمزية فى التعبير، ولكننا ننوى تبريرها على نحو أفضل فى مقالات قد نستطيع فيها التَّمَاس مع نقاط أخرى جديرة بالاهتمام.

ولنعد إلى أسطورة الكأس المقدس، ولنذكر أولا تعقيدًا فريدًا لم نتحسب له فى أحد التصورات اللغوية التى قد تقوم بدور لا يُنكر فى الرمزية، وربما كان له سببا أعمق مما قد نظن فى أول نظرة، فالكأس *Grail* فى بعض المخطوطات يرد بمعنى كأس *grasale* وكتاب *gradale* أو *graduale*، وقد ارتبط المعنيان عن قرب فى بعض روايات الأسطورة، فالكتاب يمكن أن يكون كتابة بيد المسيح أو أحد الملائكة على الكأس ذاته، ولسنا بحاجة إلى استنتاج أى أمر حاليًا رغم أن التوازيات يسهل وجودها فى ’كتاب الحياة‘ وبعض الرمزيات الأخروية.

ولنضف كذلك أن الأسطورة تصل ما بين الكأس المقدس وأشياء أخرى مثل الرمح فى المعالجة المسيحية، والذى ليس إلا رمح لونجينوس الفارس الإمبراطورى *centurion*، لكن العجيب أن هذا الرمح أو ما يشاكله أحد المرادفات الرمزية للكأس فى التراث القديم، فنجد فى التراث اليونانى أن رمح أخيليس كان قادرًا على شفاء الجروح التى سببها، وتعزو أسطورة من العصور

---

4 وقد كانت الراهبة مارى دى فاليس *Marie des Vallees* فى القرن السابع عشر الرائية البتول موضع سر القديس يوحنا الإيودى *St John Eudes* وملهمته، والذى كان رسول الإيمان فى مذهب قلبى عيسى ومريم المقدسَين. راجع *Regnabit, November 1924.*، المحقق.

الوسطى القدرة ذاتها إلى ’حربة الآلام *lance of the Passion*‘ مما يذكرنا بتشابه آخر من النوع نفسه فى أسطورة أدونيس أى السيد *the Lord* حينما طعنه خنزير برى وسالت دماؤه على الأرض لتنبت زهرة، وقد أشار لاسّاى إلى مكبس لخبز القربان من القرن الثانى عشر يقطر منه دم المصلوب قطرات تتحول إلى زهور، كما أشار إلى نافذة زجاج ملون من القرن الثالث عشر فى كنيسة آنجير *Angers* تسيل فيها دماء المسيح على الأرض لتنبت منها الزهور[5]، وسوف نعود إلى الرمزية الزهرية فيما بعد من جانب مختلف بعض الشيء، لكن أيًا كان تعدد المعانى التى تثيرها الرموز فإنها تتسق تمامًا مع بعضها بعضًا، وليس التعدد هنا نقيصة ولا تقصير، بل هو ميزة رئيسية فى لغة أقل محدودية عن اللغة المعتادة.

وحتى نختم هذه الملاحظات لنذكر عدة رموز احتلت موضع الكأس فى أديان متنوعة، والواقع أنها تماهت معها، ونحن لا نحيد عن موضوعنا لأن الكأس المقدس ذاته كما يُفهم من ملاحظاتنا السابقة لم يكن له فى الأصل معنى آخر غير ما يُعزى إليه ككأس مقدس أو إناء زهور حيثما وجدت، فنجد عند الهندوس الكأس الطقسى الذى يحتوى على رحيق سوما الفيدى أو رحيق هاوما المزدكى، وهى صور مسبقة لطقس التناول الذى قد نعود إليه فى مناسبة أخرى[6]، وتقوم *سوما* بتمثيل تام لرحيق الخلود *أمريتا* عند الهندوس و آمبروزيا عند اليونانيين، وهو ما يستعيد إلى الذين يشربوه ’حاسة الخلود‘ التى أشرنا إليها؟

وأحد الرموز التى نرغب فى ذكرها المثلث الذى يشير إلى أسفل، وهو تعبير شكلى عن كأس التناول، والذى نجده فى رموز هندوسية *يانتارا* فى الهند، لكن ما يثير الدهشة عندنا أنه يمثل رمز للقلب فى الآن ذاته، وهو الشكل الذى يمثله على نحو تبسيطى، وقد كان ’مثلث القلب‘ رمزًا متواترًا فى كثير من الأديان الشرقية، ويؤدى ذلك إلى ملاحظة مهمة عن شكل القلب مرسومًا داخل مثلث يصلح رمزًا لقلب الرب وقلب الإنسان، كما أن له مغزى عميقًا فى استخدامه

---

5 المرجع السابق، يناير *1925*.

6 راجع ’ملك العالم‘ الباب السادس، ترجمات تراث واحد، قيد النشر. المترجم.

شعارًا عند المسيحيين الهرامسة فى العصور الوسطى، والذين كانت مقاصدهم أرثوذكسية تماما، ولو حدث فى زمننا أن دمغه بعض الناس بالزندقة [7] فذلك لأنهم قلبوا معناه الأصلى ومن ثم أنكروا قيمته الطبيعية، وهى ظاهرة متواترة يمكن أن نجد فيها تفسيرًا لرموز بعينها قابلة لحمل معنى وعكسه، وكان لها بالتالى وجهين نقيضين، فرمزا الثعبان و الأسد على سبيل المثال يرمزا إلى المسيح و الشيطان، ولا نملك أن نصوغ من ذلك نظرية عامة، فسوف تؤدى بنا إلى البعد عن مقصدنا، لكن من نافلة القول إن هناك أمرًا يجعل من تناول الرموز مسألة دقيقة للغاية مما يتطلب عناية خاصة فى اكتشاف معناها الحقيقى وتفسيره.

وهناك رمزية تكافئ رمز الكأس هى رمز كأس الزهرة، ألا يوحى شكل كأس الزهرة بفكرة ’الوعاء‘ كما أننا نتحدث عنه فى سياق الكلام عن النبات؟[8] وتحتل زهرة اللوتس فى الشرق مكانة أسمى عنها فى الغرب، وغالبًا ما تقوم الوردة بالمهمة ذاتها، ولا نعنى بالطبع قول إن هذا هو التفسير الوحيد لرمز الوردة أو زهرة اللوتس، وعلى العكس تمامًا فقد أشرنا منذ هنيهة إلى التطريز على كسوة المذبح فى كنيسة فونتيفرو *Fontevrault*[9]، حيث نبتت الوردة من قاعدة رمح يسيل عليه قطرات دماء، وتظهر الوردة هنا مرتبطة بالرمح كما يبدو الكأس فى رمزيات أخرى، وتبدو كما لو كانت تجمع قطرات الدماء ولا تفيض من زهرة لأخرى، وحتى لوكان ذلك هو الأمر فإن كلًا من الرمزين يتكامل مع الآخر، فيؤدى سقوط الدماء فى كأس الزهرة إلى نضارة وحياة، فهو ’الندى السماوى‘ كما يُقال غالبًا فى سياق الحديث عن فكرة الخلاص أو فكرة التجدد والبعث، لكن ذلك يستدعى تفسيرًا مسهبًا حتى اقتصرنا على ذكر التوافقات بين أديان متنوعة فيما تعلق بالرمز الأخير.

وفى اتجاه آخر فقد قيل إن رمز الصليب الوردى يرتبط بخاتم لوثر *the seal of*

---

[7] *Regnabit, August-September 1924. Ed.*

[8] كلمة calice وتعنى الفرنسية كلا من الكأس وكأس الزهرة. المحقق.

[9] *Regnabit, January 1925, figure p 106. Ed.*

Luther [10]، أما نحن فنرى أنه فى الأصل رمز هرمسى صار مسيحياً أيًا كانت التفاسير 'الطبيعية' الزائفة للقرن الثامن عشر وما تلاه، ألا تحتل الوردة مركز الصليب وهو موضع القلب المقدس؟ وبغض النظر عن تمثيل الجروح الخمسة بالبتلات الخمس فى كثير من الأزهار فإن الوردة المركزية حينما تكون وحيدة يمكن أن تتماهى مع القلب والكأس الذى يحتوى على الدماء، وهو مركز الحياة ومركز الإنسان ذاته.

ولازال هناك تساوٍ رمزى آخر للكأس، وهو هلال القمر، لكن تفسير هذا الأمر يستلزم الخروج عن سياق دراستنا الحالى، ونكتفى بذكره حتى لا نهمل هذا الجانب من المسألة.

ويمكن أن نستنتج مما طرحنا من المقارنات ونأمل فى توضيحها على نحو أدق فيما بعد، فحينما نجد أن هذه التوافقات فى كل أين ألا يعنى ذلك وجود تراث أولانى؟ وكيف نفسر أن الذين يسلِّمون من حيث المبدأ بوجوده لا يذهبون إلى ما ورائه واقعياً، والواقع أنهم يسترسلون فى الحديث كما لو لم يكن له وجود، أو على الأقل أنه لم يترك أثرًا فى هدير القرون؟ وربما كان التفكر فى هذا السلوك يجعل المرء أقل دهشة للاعتبارات التى تتعلق بطبيعة الزمن والعادات الذهنية التى ترافقها، كما أن قليلًا من عدم التحيز مطلوب لاكتشاف معظم جوانب الرموز فى وحدة المذاهب الجوهرية، وهو وعى قد يتهافت فى الإنسانية ولكنه لم يختف مطلقا، وتبدو نقاط المقارنة تتضاعف كلما استطردنا فى هذا البحث مع ظهور براهين جديدة، وليست مقولة 'إبحث تجد *Quaerite et invenietis*' قد قيلت عبثًا فى الإنجيل.

[10] *Ibid., January 1925. Ed.*

تعقيب

سوف نضيف هنا بضع كلمات[11] ردا على اعتراض على منظورنا للعلاقة بين الكأس المقدس والقلب المقدس حتى لو كنا قد أجبنا فى حينها إجابة مُرضية تماما[12].

فلا يهم ما إذا كان تروى *Chretien de Troyes* أو دى بورون *Robert de Boron* لم يريا فى الأسطورة القديمة التى عالجاها كل المعانى التى انطوت عليها، إلا أنها كانت موجودة، وندعى أننا لم نفعل سوى التصريح بها بدون الاعتماد على أى أمر ’حديث‘، فمن الصعب التكهن بما رآه كتّابها فى القرن الثانى عشر، وبافتراض أنهم كانوا ’ناقلون‘ لها فحسب فنوافق على أنهم لم يروا كل ما رأى الذين ألهموا بها، أى السدنة الحقيقيين للمذهب التراثى.

---

[11] *Published in Regnabit, December 1925.*

[12] وقد كتب مراسل لمجلة *Regnabit, Oct. 1925, pp358-359* "إن دراسة رينو جينو عن الكأس المقدس وقلب عيسى المقدس دراسة مثيرة للغاية، ولكن ألا نستطيع معارضتها بما يؤدى إلى انهيارها؟ فربما لم يخطر "قلب المسيح" على بال كريتيين دى تروى *Chretien de Troyes*، وعلى كلٍ فإن قدماء الكلتيين والغاليين لم يتفكروا فيه، وعلى ذلك فإن رؤية الكأس المقدس تفسير حديث لأسطورة قديمة، وربما كانت عبقرية ولكنها سوف تثير دهشة أسلافنا"، وردّت المجلة قائلة "ربما سيخبرنا جينو يوما ما عما يرى فى دحضكم لأطروحته، لكننا نقول ببساطة إن ’جهل‘ الكلتيين و كريتيان دى تروى بقلب عيسى المقدس لن يؤدى إلى انهيار التفسير الذى طرحه جينو للكأس المقدس، فلا يؤكد أن الكلتيين قد رأو فى الكأس الغامض رمزا لقلب عيسى المقدس، لكنه دفع بأن الكأس المقدس الذى عرفه الكلتيين فى الأسطورة التى وصلت إلينا رمزا موضوعيا للقلب الحى، وهو الكأس الحق والحياة الحقة، وأن ثانيتهما مستقلة عن الأولى، وأن الكلتيين قد رأوا فى الكأس رمزا لقلب عيسى المقدس، وهو ما يعنى أن المعنى ظل خافيا حتى عن الذين أحبوا الأسطورة، ونعلم اليوم أن العبارة الملائكية المحمَّلة بالبركة تنطوى على معنى الحمل الطاهر للعذراء، فتصور أن مدارس اللاهوت عبر القرون لم تجد فى هذه الصيغة معنى نراه اليوم، فلا يعنى ذلك أن المعنى لم يوجد سلفا لكنه يعنى ببساطة أن تلك المدارس لم تعيها، وقل مثل ذلك عن الأتقياء الذين حفظوا الأسطورة". المحقق.

ومن ناحية الكلتيين فقد حرصنا على تذكر محاذير ضرورية عند التحدث فى غياب أية وثائق مدونة، ولكن لماذا يُفترض وجودها رغم الشواهد المعاكسة، ولماذا كان الكلتيين أقل حظًا من الشعوب الأخرى؟ ونحن نرى فى كل أين وليس فى مصر وحدها أن القلب هو مركز الإنسان الذى ينطوى على جوانب كثيرة من الرمزيات الربانية والإنسانية، كما أن رمز كأس التعميد فى كل أين يشير إلى مركز القلب ومركز العالم وموئل الخلود[13]، فما هو المطلوب منَّا غير ذلك؟ فنحن على وعى تام بأن الكأس والرمح أو ما يكافئهما له دلالات أخرى، كما نضيف إلى ما ذكرنا سلفًا دون إسهاب أن كل تلك المعانى فى عين المحدثين تتسق تمامًا مع بعضها البعض بغض النظر عن غرابتها، وتعبر عن تطبيقات متنوعة للمبدأ ذاته بحسب قانون التناظر والاتساق بين كثرة من المعانى فى رمزية واحدة.

ونأمل أن نبين فى دراسات أخرى أن مركز العالم يتماهى واقعيًا مع قلب المسيح كما أن هذا التماهى مذكور فى المذاهب القديمة، ومن الواضح أن تعبير 'قلب المسيح' لابد أن يُفهم بمعنى لن يتفق مع ما يسمى المنهج 'التاريخى'، بل لابد من قول أن الوقائع التاريخية ذاتها تترجم حقائقًا عليا بطريقتها لتنتظم كأحداث فى قانون التناظر، وهو الذى يسمح لنا بتفسير 'توقعات سابقة' بعينها، ولو أحببت فتفسير مسألة مبدأ المسيح والكلمة المتجسدة فى مركز الكون الكلى، ولكن من ذا الذى يجرؤ على الدفع بأن الكلمة الأزلية تاريخية أرضية، وأن تجليات الإنسان ليست واحدة جوهرية حقًا ولا تربو عن مسيح واحد تحت اسمين مختلفين؟ وهنا نتماس مع علاقة الزمنى باللازمنى، وربما لا يصح الإسهاب فى هذه المسألة أبعد من ذلك، فهذه أمور لا تملك الرمزية التعبير عنها إلا بالقدر الذى يقبل التفسير، على كل يكفى معرفة كيف تقرأ الرموز حتى تجد فيها كل ما وجدناه، ولسوء

---

[13] وقد تذكرنا أثانور الهرمسية التى تعنى 'العمل الأعظم' والتى اشتقت اسمها من 'أثانتوس' اليونانية بمعنى 'الخلود'، والنار الخفية التى تبقى أبدا وتناظر الحرارة العضوية للقلب، وقد بينا علاقته برمز واسع الانتشار هو 'البيضة'، والتى تعنى البعث والخلود، والتى يُحتمل أن نتناولها فى دراسة لاحقة، ومن ناحية أخرى لاحظنا أن الكأس فى أوراق الطاروت التى لازال أصلها سرا قد استبدلت بالقلب فى أوراق اللعب الحديثة، وهى برهان آخر على تساوى الرمزين.

الحظ أن الناس فى عصرنا على الخصوص لا يعرفون كيف يقرأونها.



4 الكأس المقدس

نشر ويت *Arthur Edward Waite* عملًا عن أسطورة القلب المقدس[1]، وهو كتاب جسيم الحجم واسع النطاق فى البحث، وسوف يجد فيه كل من اهتمَّ بالأسطورة طرحًا منهجياً لكل النصوص التى ذكرناها، كما سيجد وجهات النظر التى عالجناها من حيث أصولها ومغزاها، وأحيانًا ما تبدو معقدة أو متناقضة فى بعض العناصر، ولابد من ذكر أن غرضه لم يكن مجرد نشر كتاب تعليمى، وهو أمر يُحمَد عليه، ونتفق معه تمامًا على القيمة التافهة للأعمال التى لا تتعدى هذا الغرض، والتى لن تربو عن 'التوثيق'، لكن غايته كانت استخراج المعنى 'الباطنى' لرمزية الكأس المقدس و'السعى' إليه، لكننا مضطرون إلى قول إن هذا الجانب من كتابه لا يُرضى، وأن استنتاجاته مخيبة للأمل خاصة عندما نتذكر قدر الجهد المبذول فيه، وعلى ذلك نود أن نصوغ بعض الملاحظات التى تتعلق بموضوعنا بشكل طبيعى، والمسائل التى عالجناها سلفًا فى مناسبات أخرى.

ولا نعتقد أننا نظلم ويت لو قلنا إن عمله 'أحادى النظر'[2]، وقد نقول بالفرنسية 'جزئى' لكن ذلك ليس مضبوطًا تمامًا، وعلى كل فإننا لا نعتقد أنه انتوى ذلك، لكن هذا الأمر راجع إلى السقوط فى حمأة 'التخصص' فى شطر بعينه من الدراسة، والميل إلى اختزال كل شىء آخر إلى حدودها، وإهمال كل ما لا يستقيم معها، فمسألة أن هذه الأسطورة مسيحية أمر لا يقبل الجدل، وقد كان مصيباً فى قول ذلك، ولكن هل يشترط أن تكون كذلك بالضرورة فى الآن ذاته؟ ولن يجد الذين يعرفون الوحدة الأصولية للأديان فى ذلك بأسا، لكن ويت عزوف عن رؤية أى

1 *The Holy Grail: The Galahad Quest in the Arthurian Literature [most recent edition: New Hyde Park, NY: University Books, 1961)].*

2 *The French text has 'one-sighted' italicized and in English. Ed.*

شيء ليس مسيحيا، ويغلق على نفسه فى هذه الصورة التراثية دون غيرها من الصور التى تتصل بها 'باطنيا'، لكنه لم ينكر وجود عناصر من مصادر أخرى غير مسيحية، فسيكون ذلك نقيضًا للبراهين المعروفة، ولكنه يسبغ عليها أهمية شاحبة، ويبدو أنه يعتبرها أمورًا 'عَرَضية' كما لو كان ارتباطها بالأسطورة 'من خارجها' فحسب نتيجة البيئة التى نشأت فيها، واعتبرها تقوم على ما يسمى 'فولكلور'، ولكنه لم يهون من شأنها حيث إن اسمها ذاته يوحى بذلك التهوين، وليرضى 'نزعة' معاصرة بعينها دون اعتبار للنوايا التى تنطوى عليها، والتى يحسًن الحديث عنها بعض الشيء.

فمفهوم 'الفولكلور' كما يشيع قائم على فكرة خاطئة عن 'إبداع الجماهير' التلقائى، والتى يمكن ربطها على الفور بالأحقاد 'الديموقراطية' الثابتة، وقد قيل صوابًا "إن كل ما بُنى على ما يسمى التراث الشعبي كامن فى واقع أنها ليست من أصول شعبية"[3]، ونضيف إلى ذلك أنه لو كان هذا هو الحال غالبًا فإننا نتعامل مع عناصر من أصل تراثى بالمعنى الصحيح لكنه جاء مشوهًا أو ناقصًا أو متشظيًا، وقد يحمل قيمة رمزية حقيقية، ولذا لم تكن أصوله شعبية ولا حتى إنسانية، لكن ما كان شعبيًا ليس إلا واقع 'استمراريتها' على نحو فريد عندما تأتى من صور تراثية بائدة، وهكذا يتخذ الفلكلور معنى يقرب من 'الوثنية' بمعناه الاشتقاقى بلا جدل ولا سوء نية، وهكذا تحفظ الشعوب بقايا التراث القديم دون فهم أصولها التى انحدرت من ماضٍ سحيق، والتى تُعزى إلى نطاق غامض فيما 'قبل التاريخ *prehistory* '، وهكذا تعمل على ما يسمى ذاكرة' ما تحت الوعى الجمعى *collective subconscious* '، والتى ينتمى محتواها إلى مكان آخر[4]، وما يثير الدهشة هو أنه حينما نرجع إلى جذر الأمور التى تنطوى عليها المحفوظات الشعبية بصورة مستترة تحمل معطيات جوانية شتى، أى إنها ليست 'شعبية' جوهريًا، وسوف نتناول هذه الحقيقة فى كلمات قلائل، فحينما تكاد صورة تراثية أن تَدرُس فإن آخر ممثلوها يعمدون إلى غرسها فى الحافظة الجمعية التى تحدثنا عنها حتى لا تضيع بلا عودة، وهذه هى

3 *Luc Benoist, La Cuisine des Anges, une esthetique de la pensee (Paris: Pelleton, 1932). P74.*

4 *This is an essentially 'lunar' function, and it should be noted that, astrologi- cally, the popular masses effectively correspond to the moon, which also indicates their purely passive nature, incapable of initiative or spontaneity.*

الطريقة التى يمكن بها إنقاذ ما نستطيع منها بقدر الإمكان، وقلة الفهم الطبيعية للجماهير ضمان على أن السمات الجوانية لن تفسد فى التداول بل ستبقى شاهدًا للأجيال القادمة عن ماضٍ سحيق لمن استطاع فهمها.

وإذ أفصحنا عن ذلك فلا نرى سببًا لعزو شىء يخص التراث غير المسيحى القديم إلى الفلكلور بلا تمحيص كما لو كان استثناءًا، ويبدو أن ذلك كان مضمرًا فى ذهن ويت حين قَبِل إرجاعه إلى 'ما قبل المسيحية'، وخاصة إلى عناصر الحضارة الكلتية فى أسطورة الكأس المقدس، وبناءًاعلى هذا التفسير فليس هناك صورة تراثية مفضَّلة، ويبقى التمايز الوحيد بين ما اختفى وما بقى، وتنحصر المسألة إذن فيما إذا كان التراث الكلتى حيًا عندما دونت هذه الأسطورة؟ وهذا أمر خلافى على أقل تقدير، فربما ظل ذلك التراث يعيش أطول مما يُعتقَد عادة فى منظمات سرية على الأرجح، ومن ناحية أخرى ربما كانت الأسطورة أقدم كثيرًا مما يتصور 'النقاد' من افتقاد المتون المدونة بل الأرجح أن تداول التراث كان شفاهيًا وعاش بضعة قرون، وهو ما لا يجعلها استثنائية على أى نحو كان، ومن ناحيتنا نرى علائم اجتماع الصور التراثية التى يرجع بعضها إلى تراث قديم فى حين ينتمى بعضها الآخر إلى تراث جديد، وهو ما حدث بين الكلتية والمسيحية، وقد أصبح ما يستحق الحفظ فى الأول منطويًا فى الثانى، ولا شك أن بعض التعديل قد جرى على الصورة القديمة لتطويع عناصرها للتراث الجديد، ولكن ليس إلى مستوى آخر كما حاول ويت وصفه، فهناك تساويات غالبة بين الأديان التراثية، والمسألة إذن ليست 'المصادر' المكتوبة كما يفهمها المتعلمون، وربما كان من الصعب تحديد ما إذا كان هذا الاجتماع بينهما قد جرى، لكن ذلك أمر ثانوى وتاريخى، كما أن من السهل تصور أن تلك الأحداث لم تترك 'وثائق' مكتوبة، وربما كانت الكنيسة الكلتية تستحق انتباهًا أعمق مما أولاه لها ويت، وقد يوحى اسمها إلى المرء بذلك، وليس هناك ما لا يحتمل فى الفكرة التى ترددت من أن وراء هذه الكنيسة منظومة أخرى ليست دينية بل تعميدية كما هو الحال فى التداخل بين أديان مختلفة، والمسألة هنا بالضرورة جوانية وتعميدية، أما البرانية فسواءً أكانت دينية أم غير ذلك فلا تذهب إلى ما وراء حدود الصورة التراثية

التى تنتمى إليها، وكل ما يدور وراءها لا ينتمى إلى' كنيسة' بما هى، لكنها يمكن أن تكون عونًا خارجيًا لها، وهى مسألة سوف نعود إلى تناولها.

والملحوظة الأخرى التى تتعلق بالرمزية تفرض نفسها هنا، فهناك رموز مشتركة بين معظم الصور التراثية المنتشرة، والتى لم تنتج عن 'استعارة' تستحيل فى كثير من الحالات، بل لأنها جميعًا تمتاح من تراث أولانى واحد سواء على نحوٍ مباشر أم غير مباشر، وهذه هى حال الكأس أو الكوب، فمن أى باب يعتبر ذلك مجرد فولكلور حين يكون قبل المسيحية، فى حين أن المسيحية ذاتها تقوم على رمز التناول؟ وليس ما يُنكَر فى هذا الصدد ما قاله بورنوف[5] *Bournouf* وغيره بل التفاسير 'الطبيعاتية *naturalistc*' التى يريد البعض إقحامها على المسيحية، والتى لا تصلح فى أى مجال كان، ويتجه ما يجب عمله إلى نقيض إجراءات ويت، والتى اقتصرت على التفاسير الظاهرية السطحية، والتى يعتبرها محل ثقة طالما تعلقت بالمسيحية، ويرى أنها بلا معنى من المنظور الأصولى، فى حين أن الأمر هو تعدد الجوانب التى يمكن منها تفسير الرمز الواحد بمعانٍ متنوعة، ولا شك أن رأيه سيختلف لو تخلى عن فكرته المسبقة عن الاختلافً النوعى بين المسيحية والأديان الأخرى، ورغم أن ويت ينكر أى تطبيق لأسطورة الكأس المقدس فى النظريات التى تعلقت بما يسمى' أرباب النماء *gods of vegetation*'، وللأسف أنه لم يكن واضحًا فى حديثه عن الأسرار القديمة التى ليس لها علاقة بالاختراع الجديد المسمى 'طبيعية *naturalism*'، فأرباب النماء وغيرها من الروايات لا وجود لها إلا فى دماغ فريزر[6] *Sir James G. Fraser* ومن شاكله من الذين لا نشك فى معاداتهم للتراث.

ويبدو أن ويت قد تأثر بميول 'التطور *evolutionism*' التى تفصح عن نفسها حينما يدَّعى أن أصل الأسطورة لا أهمية له لكن الصورة التى اتخذتها هى المهمة، كما يبدو أنه يعتقد بوجود نوع من التحسين التطورى من تراث لآخر، والواقع أنه عندما يتعلق الأمر بشىء تراثى حقًا فكل شىء لابد أن يكون موجودًا

5 *Eugene Bournouf, the French linguist who deciphered the ancient Avestan language. See Le Vase sacre et ce qu'il contient. Dans I'Inde, la Perse, la Grece et dans I'Eglise chretienne (reprint: Paris: Arche de Toth, 1974). Ed.*

6 *Sir James G. Fraser, author of The Golden Bough. Ed.*

منذ البداية، ولا تفعل التغيرات التالية إلا زيادة وضوحها، ومن دون أى استخدام لعناصر خارجية جديدة، ويقرُّ ويت بوجود 'روحنة *spiritualization*' تعمل على تطعيم معنى سامياً على شيء لا يتصف بها أصلًا، فى حين أن الأمر واقعياً على العكس من ذلك، ويقترب ويت حثيثاً على هذا النحو من 'مؤرخى الأديان'، ونجد مثالا باهرا على هذا النوع من الانقلاب فيما تعلق بالخيمياء، فيتوهم ويت أن كيمياء المادة سبقت خيمياء الروح، وأن الخيمياء لم تبدأ إلا مع خونراث *Khunrath* و جاكوب بوهم *Jacob Boehme*، ولو وانته معرفة بالرسائل العربية الموجودة من قبله فلا شك أنه سوف يأخذ بها بموجب وجود النص فحسب، زد على ذلك أن اللغة المستخدمة هى ذاتها فى الحالتين، ويمكن أن نتساءل عن كيف تيقن من أى نصٍّ عن العمليات الموصوفة فى الكيمياء المادية فحسب؟ والحق إنه لم يكن ملتزما على الدوام بالإفصاح عن مسألة احتمال وجود أمر آخر، وهو أمر لابد أن يستتر بالرمزية التى شاعت فى زمنها، ولو حاول البعض فيما بعد إعلان ذلك فقد كان بدافع الانحطاط الذى يمكن تتبعه إلى الجهل بقيمة الرموز التى فرضت على الناس أخذ كل شيء بالمعنى الحرفى على نحو مادى صرف، وكما فعل 'النافخون فى النار *puffers*' الذين كانوا أسلاف الكيمياء الحديثة، ويربو ادعاء إسباغ معنى على رمز لم يكن يحتكم عليه أصلا إلى إنكار الرمزية بما هى، ويجعل منها شيئًا اصطناعياً إن لم يكن تعسفياً وإنسانياتيًا بالكامل، وقد ذهب ويت إلى الدفع بأن كل ما يجده المرء فى الرمزية كان من وضعه هو، وأم معناها يتغير بتغير العقلية التى تتناولها فى كل حقبة زمنية، ونتعرف فى ذلك على النظريات 'النفسية' العزيزة على قلوب كثير من المعاصرين، فألم نكن مصيبون فى الحديث عن' التطورية *evolutionism*'؟ وقد قلنا مرارًا ولا نملك تكرارها بما فيه الكفاية "إن كل رمز حقيقى يحمل معانية المتعددة فى ذاته منذ أصله، ذلك أنه لم ينشأ نتيجة مواضعة إنسانية بل بموجب 'قانون التناظر' الذى يصل العوالم ببعضها"، ولو رأى البعض هذه المعانى ولم يرها البعض الآخر أو رأوها جزئيًا فهى منطوية فى الرمز، وهو 'الأفق الفكرى' الذى يهم كل الناس، فالرمزية علم منضبط وليس أحلام يقظة يسترسل فيها كل امرئ بقدر خياله.

ونحن لا نعتقد فى' الاختراع الشاعرى' الذى جعل منه ويت مناطًا فى أمور النظام، فهذه الاختراعات لا تملك إلا إخفاءًا مقصودًا فى تناول الأمور الجوهرية بلفِّها فى 'الروايات' المضللة التى تخفيها على خير وجه، وحينما تجثم على الفكر طويلًا يستحيل اكتشاف معناها الأصلى، أليس هذا هو الطريق الذى انحطت به الرمزية اليونانية إلى خرافات؟ ويحيق خطره عندما يكون الشاعر ذاته ذاهلًا عن قيمة الرموز، ومن الثابت أن هذه الحالات تترى عندما يلعب الشاعر دورًا يشاكل فيه العوام حين يتجادلون فيذكرون حقائق تعميدية بلا وعى منهم، وتطرأ هنا مسألة على الخصوص، فهل كان شعراء روايات الكأس المقدس من النوع الأخير ذاهلون عنها أم واعون بعمق المعانى التى يعبرون عنها؟ وبالطبع تصعب الإجابة على هذا السؤال بأى درجة من اليقين، فهنا أيضًا قد تخدع المظاهر، وحينما يواجه المرء خليطًا من العناصر التافهة يكاد يغريه الظن بأن الكاتب لا يعرف ما يتحدث عنه، وقد لا يكون الأمر كذلك لو كانت المعميات والتناقضات أمرًا مقصودا، وأن التفاصيل الفارغة تعمل على تضليل الدنيويين على منوال إخفاء الرمز عمدًا فى رداء زخرفى معقد، وقد شاعت أمثلة من هذا النوع فى العصور الوسطى، ولا حاجة بنا إلا النظر إلى دانتى و صرعى الغرام *Fedeli d'Amore*، وواقع أن المعانى المتعالية أقل شفافية فى أعمال كريتين دى تروى عنها فى أعمال روبير دى بورون لا تبرهن بالضرورة على أن الأول أقل وعيًا من الثانى، والأدهى أننا لابد أن نستنتج من غياب المعانى فى كتاباته أن هناك خطئًا يضاهى إسناد وظيفة من النطاق المادى إلى الخيميائيين لسبب وحيد هو أنهم تقاعسوا عن ذكر أن عملهم له طبيعة روحية[7]، كما أن مسألة 'التعميد' عند كاتبى الروايات أقل أهمية مما نعتقد، فلا تمييز فيها بين الصور الظاهرية التى يُقدما بها الموضوع، ولو كنا نعالج 'إظهار' التعاليم الجوانية لا 'ابتذالها' فمن السهل فهم الصور بما هى، ونذهب إلى أبعد من ذلك إلى قول إن شخصًا دنيويًا 'يتحدث باسم' منظومة تعميدية ثم ينكب على إظهار أسرارها، وبما يعنى أن اختياره راجع إلى موهبته كشاعر أو كاتب أو لسبب

7ولو كان ويت يعتقد أن بعض الأمور شديدة 'المادية' بحيث لا تضاهى وجودا أسمى لمعانى المتن الظاهرة، فنود أن نسأله عن رأيه فى رابليه *Rabelais* و بوكاتشيو *Boccaccio*.

عرضى آخر لحسب، لقد كان دانتى على وعى تام بما يكتب عنه، أما دى تروى و بورون وكثير غيرهما فقد كان وعيهم شاحبًا بما يكتبون عنه، وربما لم يفقه بعضهم شيئًا على الإطلاق مما يكتب، لكن ذلك لا أهمية له، فقد كان وراءهم منظومة تعميدية ما أيًا كانت، ولذا يمكن التغاضى عن التشويه الناتج عن عدم الفهم حيث إن تلك المنظومة قد وجَّهتهم دون أن يفطنوا عن طريق وسيط من أعضائها قدم لهم العناصر التى تُقحَم فى عملهم، أو حتى بطرق إيحائية أو نفوذ من نوع آخر أشد غموضًا وأقل قابلية للفهم، لكنه قوى الأثر، وسوف يتبين بسهولة أن ذلك لا علاقة له بما يسمى 'الإلهام' الشعرى كما يفهمه الوسطاء، والذى لا يربو عن وهم سافر، ولا بما يسمى 'الأدب' بالمعنى الدنيوى، ولنضف إلى ذلك أنها مسألة أسرارية'، لكن هذه النقطة الأخيرة تقوم مباشرة على مسائل أخرى يتناولها الجزء الثانى من هذه الدراسة.

❀

ولا شك أن أصل أسطورة الكأس المقدس منقولة من الدرويديين إلى المسيحية عن عناصر تعميدية لمنظومة جوانية، وجرى فيها بمجرد انتقاله على نحو منتظم، وأيًا كانت الصيغ التى اتخذتها فإن تلك العناصر أصبحت شطرًا متكاملًا من الجوانية المسيحية، ونتفق مع ويت فى هذه النقطة الأخيرة، لكن لابد من قول إن النقطة الأولى قد أفلتت منه، فلاشك فى وجود جوانية مسيحية فى العصور الوسطى، وفى المتناول براهين من كل نوع على هذا الأمر، وليس إنكارها إلا عدم الفهم الحديث، وسواءً أكان من ناحية المؤيدين أو المناهضين للمسيحية، فكلاهما عقيم حيال الواقع، وهى نقطة سبق أن طرحناها فى كثير من أعمالنا، ولسنا بحاجة إلى سردها هنا، ولكن حتى بين الذين يسلمون بوجود هذه الجوانية كثير ممن يفهمونها على نحو مغلوط، ويبدو أن هذه هى الحال مع ويت بناءًا على استنباطاته، فإننا نجد فيها اضطرابًا لا بد من علاجه.

إننا نتعمد قول 'الجوانية المسيحية' وليس 'المسيحية الجوانية'، فإننا لا نعالج صورة خاصة من المسيحية بل الجانب 'الباطن' من التراث المسيحى، ولابد أن

يتضح أن ذلك ليس مجرد طريقة فى الكلام، ولو كانت هناك دواعٍ للتمييز بهذه الطريقة بين جانبين للصور التراثية أحدهما جوانى والآخر برانى، فلابد من فهم أنهما لا يشيرا إلى المجال ذاته حتى لا يحدث تناقض بينهما، خاصة وأن البرانية تتسم بصبغة تدينية بعينها، وهو ما نجده فى مسألتنا الحالية، ففى حين تتخذ الجوانية أساسًا من الصور الدينية فليس لها علاقة بالنطاق التدينى بما هو حيث إنها قائمة على نظام مختلف تمامًا، ويتبع ذلك أن الجوانية لا تملك أن تمثلها 'كنائس' أو 'طوائف' من أى نوع كان، فهذه الصور دائمًا ما تكون برانية من واقع تعريفها، كما أن هناك نقطة عالجناها فى أعمال أخرى ولا نحتاج إلا التذكير بها، فهناك 'طوائف' بعينها وُلدت من جرَّاء اضطراب بين نطاقين نتيجة 'استظهار' مالم يُفهم تمام الفهم، ويجرى تطبيقه بلا هوادة على التعاليم الجوانية، لكن المنظومات التعميدية الحقة تلتزم بنطاقها الصحيح، وتظل عزوفة عن ذلك الانحراف، وتجبرها 'صرامتها' على الاعتراف بالرشد التراثى فحسب حتى لو كان برانيًا، ويمكن أن نتيقن من أن الذين يصرون على دمغ 'الطوائف' فيما تعلق بالجوانية أو التعميدية بأنهما على خطأ يسيرون على درب مغلوط من الضلال، وليس بنا حاجة إلى تفسير أكمل حتى نستبعد كل الفرضيات من هذا النوع، ولو صادف المرء عناصرًا تبدو جوانية فى بعض الطوائف فسوف يستنتج أنها تأصلت معها، لكن الأمر على العكس، فقد انحرفت معانيها عن حقيقتها فى تلك الطوائف.

وبعد استيفاء هذه النقطة فقد انتهت بعض الصعوبات الواضحة، أو بالحرى انعدم الدافع إلى وجودها، وهكذا لا نجد سبيلًا للعجب عن موقف المسيحية الرشيدة بالمعنى المعتاد، والذى قد يكون ناتجًا عن سلسلة تداول خارج 'الخلافة الرسولية *apostolic succession*'، وكما يتضح من تعدد صورَ أسطورة الكأس المقدس، ولو طرأ سؤال عن البنية التعميدية فإن البنية الدينية لن تتأثر بوجودها على أى نحو كان، كما أنها ليست بحاجة إلى الاعتراف 'رسميا' بأيها حيث لا سلطان لها إلا فى النطاق البرانى، وكذلك عندما يتعلق الأمر بصيغة سريةٍ فى الشعائر فإننا نجد سذاجة فى التساؤل عما إذا كان حذفها أو ضياعها سيؤثر على صلاحية القُداس، فالقُداس بما هو شعيرة دينية، أما الآخر فشعيرة تعميدية،

وكلاهما صالح فى نطاقه بموجب المشاركة فى التناول، وحتى لو كانت هذه الخصيصة التناولية لن تغير شيئًا من التمايز الجوهرى بأكثر من واقع أن الرمز ذاته يُفَسَّر بناءًا على المنظورين الجوانى والبرانى مما يمنع المنظورين من الاختلاف الجوهرى بينهما حتى فى نطاقيهما المختلفين، وأيًا كان الأمر فإن التشابه الظاهرى ناتج عن التناظر بينهما، فالغاية من الشعائر التعميدية تختلف تمامًا عن غاية الشعائر الدينية، ولا وجود لمبرر من محاولة تأسيس ما إذا كانت الصيغة الأسرارية المذكورة لا تتماهى مع الصيغة المستخدمة فى بعض الكنائس التى تتبع شعائر مخصوصة بها، فأولا، فيما تعلق بالكنائس التى تدفع بالأرثوذكسية فإن الاختلافات فى الشعائر ثانوية وليست بذى بال على أى أمر جوهرى، وثانيًا، إن تنوع الشعائر لن يكون إلا دينيًا، وعلى ذلك فإنها تتساوى جميعا، ولن يقرِّبنا اعتبار أحدهما أو الآخر من فهم المنظور الجوانى.

فكم من البحث والجدل التافه يمكن تجنبه لو كان المرء على يقين من المبادئ! وحتى لو كانت الأدبيات عن الكأس المقدس قد انبثقت مباشرة أم غير ذلك عن منظومة تعميدية، ولا يعنى ذلك أنها تشكل شعيرة تعميدية كما افترض البعض، فمن الغرائب التى وصلت إلى علمنا أن هذه الفرضية لم تُطرح فيما تعلق بالأعمال التى وصفت المجاهدات الجوانية بصراحة على منوال 'الكوميديا الإلهية' أو 'رواية الوردة *Romance of the Rose*، وعلى كل فالأمر واضح فى أن الكتابات التى تطرح السمات الجوانية لا تُعَدُّ شعائرا، ويطرح ويت الذى يرفض هذا الافتراض محقًا بعض الاستحالات التى تنطوى عليها، وعلى الأخص أن على المرشح المفترض للتعميد أن يسأل سؤالًا لا أن يجيب على سؤال من يقوم بتعميده كما هو الحال عمومًا، كما نضيف إلى ذلك أن الاختلافات بين النسخ المختلفة للأسطورة لا تتقابس مع طبيعة الشعيرة، ولها بالضرورة صورة محددة، ولكن مالذى يمنع الأسطورة فى كل ذلك من أن تُلحَق بما يسميه ويت 'أسرارية مؤسسية *Instituted Mysteries*'، والتى نسميها نحن ببساطة 'منظومات تعميدية'؟ وقد قام اعتراض ويت على واقع أن فكرة هذه 'المنظومة' أقل انضباطًا وأكثرضيقًا من أكثر من جانب، فهو من ناحية يعتقد أن الشعائر 'احتفالية' فحسب، ومن ناحية أخرى يقع فى الخطأ الشائع عن تصور 'الجمعيات *societies*' على المنوال

الحديث، ولا يساوره شك فيما اعتاد عليه من جمعيات تعميدية زائفة تفشَّت فى أصقاع الغرب، ورغم أنها قد تركته بلا عدوى إلا أنه لازال متأثرًا بها إلى الحد الذى جعله لا يفهم الفارق بين التعميد الحق والتعميد الزائف، ويسبغ سمات تضاهى الجماعات الزائفة خطئًا بمنظمة تعميدية أصيلة قد تواصل معها، ويجرُّ هذا الخطأ وراءه نواتج أخرى أدت مباشرة إلى النتائج غير الإيجابية لكتابه.

ولابد أن يكون من الواضح أنه ليس فى المنظومة التعميدية ما يمكن أن يُحشَر فى هذا النطاق الضيق لمفهوم 'الجماعات' الذى وجد ويت نفسه فى متاهته، وانتهى إلى التسليم بالفرضية الخيالية فى أن التعميد يمكن أن يجرى خارج منظماته المعهودة، ولن نقوم هنا بأفضل من الإشارة إلى مقال لنا فى هذا الشأن[8]، ولا يرى ويت خارج تلك 'الجمعيات' احتمالات آخرى غير ما سماه 'كنائس سرية' أو 'كنائس داخلية *interior churchs*'، واتبع اصطلاحات مستعارة من الأسراريين على منوال إيكارتهاوزين *Eckarthausen* و لوبوخين *Lopukhin*،[9] والتى لا تربو فيها كلمة 'كنيسة' عن مفهوم المنظور الدينى، حتى لو كانت أحد الانحرافات التى يميل إليها الأسراريون تلقائيًا بمجرد إفلاتها من الرقابة الأرثوذكسية الصارمة، والواقع أن ويت من بين الكثرة التى شاعت اليوم وتخلط بين الأسرارية والتعميد، فيذهب إلى الحديث بلا تمييز بينهما كما لو كانا رديفان، ويرى أن التعميد ليس إلا 'تجربة روحية'، ونعجب ما إذا كان يفهم هذه 'التجربة' بمعنى 'نفسى'، وهو ما يحطُّ بنا إلى مرتبة أسفل من الأسرارية بمعناها المعتاد، ذلك أن الحال الأسرارى يروغ تمامًا من نطاق علم النفس رغمًا عن النظريات الحديثة التى ظهرت عند ويليم جيمس أكبر ممثليها، أم عن 'الأحوال الباطنة' التى ينتمى تحققها إلى النطاق التعميدى فليست نفسية ولا حتى أسرارية، فهى أمر أعمق

8 *See Perspectives on Initiation, chaps. 26 and 27. Ed.*

9 *The German mystic Karl von Eckartshausen (1752-1813), whose best known works are God is Purest Love and The Cloud upon the Sanctuary; and the less well known Russian mystic Ivan Vladimirovitch Lopukhin (1756-1812), whose writings on the 'Interior Church' are very scarce. See Waite's lengthy introduction to Lopukhin's Some Characteristics of the Interior Church (London: The Theosophical Publishing Company, 1912), and also Chapter vn of Book xi of his The Holy Grail, cited at the beginning of this chapter. Ed.*

وليست شيئًا يمكن أن يقال ما هو ولا من أين أتى، ذلك أنها تعنى معرفة منضبطة ومجاهدات محددة، ولا تقوم فيها العاطفية ولا الخيال بأى دور، واستبدال حقائق الدين بالمنظومة التعميدية لن يذيبها فى 'مثالٍ' ضبابى، بل على العكس ينفذ إلى أعمق معانيها 'الوضعية' 'الملموسة' حتى نشتّت السحب التى تعوقها وتحد أفق حدودها الفكرية فى المستوى الإنسانى العادى، والحق إن المفهوم الذى اعتنقه ويت لا ينطوى على أى استبدال، ولكنه على أفضل حال نوع من الاستطالة أو التمديد بالمعنى 'الأفقى'، فكل ما ينتمى إلى الأسرارية لايزال فى حوض الدين ولا يمتد إلى ما وراءه فيما يتطلب أكثر من الانتماء إلى 'كنيسة داخلية' حيث إنها 'مثالية'، أى إنها منظومة وهمية.

أما 'سر الكأس المقدس' فليس أمرًا من هذا القبيل مثل غيره من الأسرار التعميدية، ولو اكتشفنا موضع هذا السر فلابد من الإشارة إلى تركيبه 'الملموس' بين المراكز الروحية، وهو ما أشرنا إليه صراحة فى كتابنا 'ملك العالم'، أما هنا فنقتصر على ملاحظة أن ويت أحيانًا ما يتماس مع أمور يبدو معناها الحقيقى فيما وراء معرفته، فهو يتحدث عن 'بدائل' قد تكون كلماتٍ أو رموز، وقد يشير بها إلى مراكز متنوعة من حيث كونها صورًا أو انعكاساتٍ للمركز الأسمى أو إلى مراحل 'التعتيم' التى عادة ما تجرى على التجليات الظاهرة لهذه المراكز اتساقًا مع القوانين الدورية، كما أن أول هاتين الحالتين مُضْمَرٌ فى ثانيهما بشكل ما بموجب أن تشكيل المراكز الثانوية تناظر صورًا تراثية بعينها، وأيًا كان الأمر فإنه يشكل أول مرحلة من التعتيم على التراث الأولانى، وهنا يكون المركز الأسمى قد انقطع تمامًا عن الاتصال المباشر بالعالم الخارجى، ولم يعد هناك إلا الصلة عن طريق المراكز الثانوية، ومن ناحية أخرى لو اختفى أحد هذه المراكز لأمكن القول إنه قد اندمج فى المركز الأسمى الذى كان أحد فيوضاته، وهنا نجد مراتب لابد من ملاحظتها، فقد يحدث أن المركز الثانوى المذكور قد اختفى وأغلق، ويُرمز إلى ذلك كما لو كان اختفاؤه تاما، حيث إن أية حركة من الخارج تساوى عودة إلى المبدأ، ونحن ننوه هنا إلى رمزية الاختفاء التام لمذهب الكأس المقدس *the Grail*، وسواءٌ ءارتفعت إلى السماء كما ورد فى بعض المتون أم انتقلت إلى مملكة يوحنا *Prester*

John فى بعض آخر فهو الأمر ذاته فى الحالين، ويبدو أن ويت لم يعلم عنه شيئا[10].

ويحدث هذا الانسحاب من الخارج نحو الداخل بموجب أحوال العالم فى زمن بعينه أو بالحرى حال شطر من العالم على صلة بالصورة التراثية موضوع الحديث ينطبق هنا على الجانب الجوانى من التراث فحسب، أما الجانب البرانى فقد بقى كما هو فى حالة المسيحية، ولكن الصلة الواعية الفعالة للجانب الجوانى مع المركز الأسمى تظل قائمة، ولا مناص من أن تكون هذه هى الحال، إلا أن هناك ما يبقى حتى لو لم يكن منظورا، طالما استمرت هذه الصورة التراثية قائمة، ولو كان الأمر غير ذلك لصار بمثابة قول إن 'الروح' قد انسحبت تمامًا وتركت جثمانًا ميتًا، ويُقال إن الكأس المقدسة لم تعد تُرى كما كانت سلفًا، ولكن لا يُقال إنها لم تعد موجودة مطلقا، ولذا وجب التسليم بدوام وجودها 'للمؤهلين' فحسب، لكن هؤلاء قد أصبحوا ندرة أكثر فأكثر حتى صاروا استثناءًا شديد الندرة، وحيث قيل إن طائفة الصليب الوردى قد انسحبت إلى مكان ما فى آسيا سواء أكان ذلك حرفيًا أم رمزيًا فما هى احتمالات وجود تعميد فعال فى الغرب؟

10 *From the fact that a letter attributed to Prester John is obviously apocryphal, Waite draws the conclusion that he did not exist, a singular style of argument to say the least; and the question of linkages between the Grail legend and the Order of the Temple he treats in a scarcely less summary fashion. It seems that he is, no doubt unconsciously, in some haste to brush aside these matters that are both so full of significance and so incompatible with his 'mysticism'; and, in a general way, the German versions of the legend seem to us to merit more consideration than he accords them.*

5 التراث واللاوعى

لقد طرحنا فى موضع آخر دور التحليل النفسى *psychoanalysis* فى عمليات الانحراف التى تواترت بعد ’تصلُّب العالم المادى‘ الذى صبغ المرحلة الثانية من الحملة المناهضة للتراث فى الحقبة الحديثة برمتها[1]، ونعود إليه الآن نظرا لأن جحافل التحليل النفسى تكتسب أرضا جديدة باطراد، وتهاجم التراث مباشرة بدعوى تفسيره، وهكذا يشوِّه التراث ذاته على نحو من أخطر ما يكون، ولابد من التمييز بين أنواع التحليل النفسى ’المتقدمة‘ وما طرحه فرويد فى أول أمره، وما كان محدودا بالمَيل المادى الذى انتوى التمسك به، ولم يكن أقل ’شيطانية‘ بالطبع، لكنه وضع حدا لا ينبغى تجاوزه إلى ما وراء نطاق بعينه أو حتى لو ادعى تجاوزه فقد حقق به أشكالا زائفة مشوهة تسبب اضطرابات يسهل علاجها، فحين تحدث فرويد عن الرمزية فإن ما سماه بذلك خطئا لا يعدو نتاج خيال إنسانى يتغير من شخص إلى آخر، ولا يمت بصلة للرمزية التراثية الأصيلة، لكن ذلك كان المرحلة الأولى، وبقى على المحللين النفسيين تعديل نظريات ’سيدهم‘ فى اتجاه الروحانية الزائفة حتى يمكن حقن اضطراب أشد خفاءا عندما يستخدمونه فى تفسير الرمزية التراثية ذاتها، وقد كان ذلك دور كارل جوستاف يونج *Carl Gustav Jung* الذى كان لمحاولته الأولى تاريخ طويل[2]، ولابد من مراعاة أن تفسير يونج قد بدأ من مقارنة عَقَدَها كما اعتقد بين رموز بعينها وبين رسومات مرضى نفسيين، ونعترف بأن هذه الرسومات تطرح شبها كاريكاتيريا لبعض الرموز الأصيلة فتتركنا فى حيرة عن طبيعة هذا المصدر الإلهامى.

---

1 راجع ’هيمنة الكم وعلامات الزمان‘، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

2 الوردة الذهبية والطاوية بلا طاو *Le Fleur d'Or et le Taoisme sans Tao. Andre .Preau*

وما يزيد الطين بلّة أن تفسير العوامل الفردية التى لا يمكن إثباتها قد دفع يونج إلى صياغة فرضية جامحة باسم 'اللاوعى الجمعى'، والتى تظهر فيما تحت العلل النفسية *psychism* فى كافة أفراد البشرية، والتى اعتقد أنها يمكن أن تنم عن أصل الرموز وتشبيهاتها المَرَضية بلا هوادة، ومن نافلة القول إن اصطلاح 'اللاوعى' بلا أساس ولا معنى، وأن ما تقصده لا حقيقة له حيث جاء من تسمية أطباء التحليل النفسى المعروفة 'باللاشعور *subconscious*'، أى مجمل اللاستطالات السفلى للوعى، وقد طرحنا فى موضع آخر الاضطراب الذى نشأ بين 'ما دون الوعى' و'الوعى الأسمى *superconscious*'، حيث تختفى طبيعة الوعى الأسمى تمامًا من النطاق الذى يتناوله المحللون النفسيون، وحين يحدث ذلك فإن بعضًا من تجليات الوعى الأسمى تُعزى إلى ما تحت الوعى، وهذا الاضطراب ذاته هو ما نواجه هنا، فما من شك فى أن منتجات المرضى النفسيين كما يراها النفسيون نابعة مما 'تحت الوعى'، لكن كل ما كان تراثيًا لابد أن ينبثق عن 'وعى علوى *superconscious* '، أى ذلك الذى يؤسس التواصل مع ما يسمو عن الإنسان، فى حين كان ما 'تحت الوعى' يتجه إلى ما تحت الإنسان، والواقع أن ذلك فسوق محض يعترى هذا النوع من التفسير، وما يضفى عليه مظهر التبرير هو أن كل الحالات على منوال الحالة التى ذكرناها يقوم على ما 'تحت الوعى' بمحاكاة 'الوعى الأسمى' نظراً لصلته بالمؤثرات السفلية، وهذا هو مصدر الوهم الذى سميناه 'روحانية مقلوبة *inverse spirituality*' للذين يسلمون أنفسهم لخداع التزييف ولا يستطيعون حتى تمييز طبيعتهم الحقة.

وقد شاع الظن بأن نظرية 'اللاوعى الجمعى' قادرة على تفسير حقيقة أن الرمز سابق على الفكر الفردى ويذهب إلى ما ورائه، لكن السؤال الحقيقى الذى لم يُسْئَلَ هو إلى أى اتجاه يسير فيما ورائه، فهل كان يتجه إلى أسفل اعتمادًا على ما 'دون الوعى' كما يلوِّح اسمه، أم كان يتجه إلى أعلى اعتمادًا على ما تؤكده كافة المذاهب التراثية، وقد وجدنا فى مقال حديث عبارة تجلى فيها هذا الخلط بوضوح بالغ، وتقول "إن تفسير الرموز... باب ينفتح على الكل الأعظم، أى الطريق الذى يؤدى إلى متاهة الدروب المظلمة فى شخصيتنا حتى نخرج إلى النور الباهر"، ولسوء

الطالع أن 'الدروب المظلمة' دائمًا ما تؤدى إلى أمر يختلف تمامًا عن 'النور الباهر'، ولنلاحظ أيضًا غموضًا خطيرًا فيما سُمِّى 'الكل الأعظم'، وهو على منوال 'الوعى الكونى' الذى يأمل البعض فى الذوبان فيه، والذى لا يعدو مرضًا نفسيًا شائعًا من أحطِّ ما فى العالم اللطيف، وهكذا كان واقع التحليل النفسى الذى يؤدى إلى غايات عكسية على طرف نقيض من التفسير التراثى للرموز.

ونود أن نضيف هنا ملحوظة مهمة عن 'الفلكلور' الذى انحشر فى الأمور المتنوعة التى تمخضت عن فكرة 'اللاوعى الجمعى' وما تفسره افتراضًا، وهى المرة الوحيدة التى اقتربت فيها النظرية من الحقيقة، وعلى وجه الدقة نتحدث هنا عن نوع من 'الذاكرة الجمعية *collective memory*' التى تشاكل صورةً أو انعكاسًا للنطاق الإنسانى فى 'الذاكرة الكونية' التى تناظر جانبًا واحدًا من رمزية القمر، لكن محاولة إرجاع أصل التراث إلى طبيعة 'الفلكلور' بمثابة ارتكاب خطأ يماثل ما شاع حاليًا عن اعتبار 'البدائى' ناتجًا عن انحطاط، ومن الواضح أن الفلكلور الذى تشكل من عناصر من حضارات ميتة يمثل حالة من الانحطاط، إلا أنه الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها إنقاذ شىء ما، كما ينبغى التساؤل عن الشروط والأحوال التى أدت إلى حفظه فى 'الذاكرة الجمعية'، وقد ذكرنا فى مناسبة أخرى أنه يمكن فى ذلك فقط رؤية الأعمال الواعية عند آخر ممثلى الصور التراثية التى على وشك الأفول، فمن المؤكد أن العقلية الجمعية أو ما يُدعى كذلك قد اختُزِلت إلى ذاكرة، وتعبر عنها الرمزية الفلكية بقول إن الطبيعة القمرية بتعبير آخر يمكنها أن تعمل كحافظة، وهو بالضبط ما يشاكل 'الفلكور'، لكنها تعجز عن الإفصاح الكامل عن أى شىء كان، ناهيك عن الأمور المتعالية كما هى فى تعاليم التراث.

وقد كانت تفاسير التحليل النفسى للرموز التراثية تبتغيا إنكار التعالى، لكن المسألة لم تعد إنكارًا ولا جهلًا بوجود عناصر غير إنسانية فى كل كائن إنسانى، كما هى الحال فى 'العقلانية' التى أقرَّت أخيرًا بوجود هذه العناصر، ولكن مع تحريف المعانى التى وردت فى خاتمة المقال.

"وربما عدنا إلى تلك التفاسير للتحليل النفسى لكنوزنا الروحية، والتى يبرهن

ثباتها على مر العصور وتوالى الحضارات على سماتها التراثية غير الإنسانية لو أخذنا الإنسانية بمعنى ʼفردىʻ منفصل".

وربما أوضحت هذه الفقرة النية الكامنة من ورائها على خير وجه، والتى نود الاعتقاد بأن من يكتب على هذا المنوال ليس واعيًا تمامًا بما يقول، ولابد من فهم أن المسألة ليست ʼفرديةʻ كما ادعى يونج ʼناظر المدرسةʻ، بل هى ʼإيحاءʻ سىء النية تنبثق عنه تلك التفاسير، ولا حاجة بنا إلى الاسترسال فى دراسة المذاهب التراثية لنعرف ماذا كانت مسألة العنصر ʼغير الإنسانىʻ أو ما يُفهم منها تتعلق بالضرورة بالأحوال التى تعلو على فردية الكائن، والتى لا علاقة لها ʼبالمعامل الجماعى *collective factor*ʻ رغم أنها نابعة من المجال الفردى للإنسان، ويصدق الأمر ذاته على ما سُمِّى ʼمنفصلًا *separative*ʻ بسماته ʼتحت الواعيةʻ، والتى لن تستطيع بأية وسيلة تأسيس اتصال مع أية حالات أخرى اللهم سوى فيما يسفل عن الإنسان، ويتضح على الفور أن عملية الإفساد مبنية على تحريف أفكار تراثية بإبدال ʼتحت الوعىʻ ʼبالوعى الأسمىʻ وإبدال ʼمادون الإنسانىʻ ʼبما يفوق الإنسانʻ، أليس ذلك أخطر من مجرد الرفض؟ وهل سيعتبر من قبيل المبالغة قول إنها تسهم فى تمهيد الطريق لحملة قاصفة على التراث لخدمة ʼالروحانية المقلوبةʻ إبان نهاية الدورة الكونية الحالية التى سينتصر فيها المسيخ الدجال انتصارًا زائلًا ؟

6 علم الحروف

قال فرانسيس وارين *Francis Warrain* فى مقدمته لكتابه 'دين القبالة *La Theodicee de la Kabbale*' "إن الفرضية القبالية هى أن العبرية هى اللغة التامة التى علمها الرب للإنسان الأول"، ثم يضطر إلى التعبير ببعض التحفظات عن "الادعاء الوهمى بامتلاك العناصر النقية فى اللغة الطبيعية فى حين أن الواقع أن المرء لا يملك منها إلا شظية شوهاء"، ويعترف "باحتمال أن اللغات القديمة قد شكلته كائنات ربانية مُلهَمة" وأنها لابد كانت "تعبيرًا عن علاقات عددية" و "أنه يمكن قول الأمر نفسه عن فنون العيافة[1] والتنجيم"، ونعتقد أن الأمر يستحق تقديم بعض الأفكار المنضبطة عن هذه المسألة، لكننا نبدأ بقول إن وارين ينطلق من منظور فلسفى، فى حين ننوى الالتزام بالمنظور التعميدى التراثى كما فعلنا دائمًا.

ونبدأ بلفت النظر إلى أن اللغة العبرية كانت على الأرجح اللغة التى تنزَّل بها الوحى الأول حتى إنه كان برانيًا تمامًا، ولا يبدو أنه جاء من المذهب القبالى، ولـكنه كان يخفى بعض المسائل العميقة، وبرهان ذلك أن هناك لغات أخرى تدعى' الأولانية *primordiality*'، ولو أخذنا بذلك حرفيًا فلن يمكن تبرير كل حالة على انفراد، وسوف تكون دعوانا متناقضة.

فاللغة العربية تدفع بالأمر ذاته، والرأى السائد فى نطاقها أنها كانت اللغة الأولى للإنسانية، ولـكن الملفت للنظر أن ما جعلنا نعتقد أن هذا الأمر هو ذاته ما ظهر فى العبرية ولا يقوم فى الحالين على أساس متين، وبالتالى يفتقد السلطة المرجعية بما يناقض التعاليم التراثية الأصيلة للإسلام، ويقول التراث إن اللغة

[1] العيافة هى التكهن وزجر الطير. المترجم.

الآدمية كانت ’سُريانية‘ والتى لا علاقة لها بالبلد الذى يسمى ’سوريا‘ حاليًا، ولا بأى لغة قديمة لازالت معروفة حتى الآن، ويقول تفسير اسمها إنها لغة ’نور الشمس المشرقة‘، والواقع أن الشمس تسمى *’سوريا‘* فى السنسكريتية، ويبدو أن جّذْر **س و ر** أحد الألفاظ التى تعنى النور، وينتمى إلى اللغة الأصلية، وهكذا تكون سوريا التى قال هوميروس عنها إنها جزيرة "فيما وراء *أوجيجيا*"[2]، وتتماهى مع ’تولا القطبية *Hyperborean Tula*‘ حيث تبدأ دورات الشمس، ويرى يوسيفوس أن عاصمة هذا البلد تسمى ’مدينة الشمس *Heliopolis*‘[3]، وهى مدينة فى مصر تسمى أيضًا ’أون‘، كما أن ’طيبة‘ كانت الاسم القديم لعاصمة أوجيجيا، ويشكل تبديل هذه الأسماء وكثيرغيرها مجالًا لدراسة قيام مراكز روحية ثانوية فى حقب مختلفة، وهو ما ارتبط عن قرب بتركيب اللغات التى قُدِّر لها أن تصبح وسيلة للصور التراثية التى تناظرها، وهى ما تسمى ’لغات مقدسة‘ بالمعنى المنضبط، وتبرر الطرق القبالية وما شاكلها فى أديان أخرى، والتى تقوم على التمييز بين هذه اللغات المقدسة وبين لغات العامة والألسنة الدنيوية.

ويمكننا قول إن كل المراكز الروحية الثانوية كانت صورة للمركز الأسمى كما ذكرنا فى كتابنا ملك العالم *The King of the World*[4]، وهكذا يمكن النظر إلى اللغة المقدسة *hieratic language* كصورة أو انعكاس للغة الأصلية التى تعتبر مقدسة بمعنى الكلمة، وهى ’الكلمة المفقودة‘ أو بالحرى ’الكلمة الخفية‘ عن إنسانية العصر الأسود، كما أن المركز الروحى الأسمى قد أصبح خفيًا لا مطال له، لكن هذه ليست مسألة ’تشظ ولا تشويه‘، بل تطويع منتظم تفرضه ظروف الزمن والمكان، أى إنها إجمالًا كما يقول محيى الدين بن عربى فى مستهل الجزء الثانى من الفتوحات المكية "إن كل نبى يخاطب شعبه باللغة التى يفهمونها، ولذا يطوع رسالته لعقليتهم بحسب الزمن"، وهو السبب المباشر فى تنوع الصور التراثية بموجب تنوع اللغات،

---

2 *See Odyssey, 15:453-4. Ed.*

3 *Cf. The Solar Citadel of the Rosicrucians, The City of the Sun of Campanella, etc. It is to this first Heliopolis that the cyclical symbolism of the Phoenix should in reality be related.*

4 ’ملك العالم‘، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

ووجب اعتبار كل اللغات المقدسة ’مُلهَمةً‘ بما يجعلها تناسب وظيفتها الجوهرية المُقدَّرة لها، أما اللغة الأولانية فلابد أن أصلها ’غير إنسانى‘ كالتراث ذاته، أما اللغات المقدسة فتشترك بمبانيها ومعانيها فى هذه الخصائص بوصفها انعكاسًا للغة الأولانية، كما يمكن تفسير هذا الانعكاس بطرق عدة تتباين فى أهميتها، فمسألة التطويع مثلًا تقوم على الشكل الرمزى للخط المكتوب[5]، وعلى الخصوص فى العبرية والعربية حيث تناظر الحروف أعدادا، كما تستخدم الحروف لعلاج الأمراض التى تقع فى مجال تناظرها العضوى.

وينبنى على ما تقدم أن علم الحروف لابد من تناوله من عدة جوانب وبعدة معانى، وهو ما يتماهى مع’ العوالم الثلاثة‘، وأسمى معانيه جواهر أزلية فيما وراء عالم التجلى، أما فيما يسمى‘ المعنى الوسيط‘ فهو هيئة الكون *cosmogony*، أى المعرفة بتشكيل العالم المتجلى، وأخيرًا بالمعنى الأدنى أى معرفة فضائل الأسماء وخصائص الأعداد التى تعبر عن طبيعة كل كائن، وتطبيق هذه المعرفة بالحروف والأعداد المناظرة، وتسمح بممارسة ’السحر‘على الكائنات ذاتها والتأثير فى الأحداث التى ترتبط بها، ونرجع إلى ابن خلدون فى حديثه عن الصيغ المكتوبة التى تتكون من عناصر بناء الكائن الكلية، ولذا كانت تعمل بها طِلّسمات للتأثير على الكائن، وقد كان ذلك سبب أن اسم الكائن تعبير عن طبيعته الخاصة، ويسمى هذا العلم عادة بلفظ ’السيمياء‘[6]، ومن المهم الإشارة إلى أن ذلك يمتد إلى أبعد من فنون ’التنجيم‘، فأول أمر إمكان التنبؤ بأحداث عن طريق حساب تناظر الأعداد

---

5 أضف إلى ذلك أن هذه الصورة قد تعدلت على نحو يناظر التعديلات التراثية التى وقعت على نحو ’السبى البابلى‘ للعبرانيين، وندفع بأنها مسألة إعادة تلاؤم، فمن غير المحتمل أن تنسى الخطوط القديمة فى غضون سبعين عاما فحسب، ومن المدهش أن هذا قد انقضى دون ملاحظة، ولا بد أن يكون التغير قد طاله، وهناك تغيرات مشابهة جرت على أنظمة إملائية أخرى منذ زمان سحيق، وخاصة الكتابة السنسكريتية والمقاطع الصينية الصورية إلى حد ما.

6 *This world sim'ta does not seem to be purely Arabic; it probably comes from the Greek semeia, 'signs', which makes it almost the equivalent of the gematria of the Kabbalah, also of Greek origin and derived not from geometria, as is most often claimed, but from grammateia (from grammata, 'letters').*

والحروف والأسماء[7]، لكن ذلك لا يتجاوز الحساب البسيط، أى بلا معادلات، ثم يمكن إجراء التحولات التى تناظر تعديلات الأحداث ذاتها.

وهنا فضلًا عن ذلك تمييز بين المراتب المتباعدة كما هو الحال فى المعرفة، والتى ليس ذلك منها إلا تطبيقًا واستعمالًا، وعندما يُمارس هذا العمل فى العالم المحسوس وهو أدنى المراتب يمكن الحديث عن 'السحر' بما هو، إلا أن من السهل النظر إليه من مقامٍ مختلفٍ عندما نتعامل مع أصدائه فى العوالم الأسمى، وفى هذه الحالة لابد أن ينتمى المرء إلى النطاق التعميدى بمعنى الكلمة، فهو فحسب الذى يمكنه التعامل مع كل العوالم، وهو الذى وصل إلى مقام 'الكبريت الأحمر' فى التعبير عن علم مراتب الحروف بالخيمياء، [8]، والواقع أن هذين العِلمين بمعناهما العميق علم واحد، فكلاهما يعبر عن عملية التعميد فى مظاهر متنوعة، والتى تكرر العمليات الكونية بمدى تحقق إمكانات كائن يمر بالمراحل ذاتها من الوجود الكلى[9].

---

7 ويمكن فى بعض الحالات إجراء حسابات للفصل فى القضايا الفقهية، وعادة ما يُطرَح بحلول مذهبية برمزية فائقة.

8 ويُكنى عن محيي الدين بن عربى بصفة 'الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر'.

9 وقد كان من المدهش أن الرمزية الماسونية ذاتها تقوم بدور مهم للسعى إلى 'الكلمة المفقودة'، وهو ما تعبر عنه المرتبة التعميدية التى تستقى من 'علم الحروف' فى الهجاء والكتّابة والمطالعة، وكان حمل 'لوح الكتّابة' من مظاهر 'الأستاذ' لو كان أستاذًا على الحقيقة، وقادرًا على تدوين 'كتّاب الحياة' والتعاون فى تحقيق "مخطط مهندس الكون الأعظم"، ويمكن المرء من الفصل بين المرتبة وبين تحققها الفعال!

7 لغة الطير

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3)

الصافات

غالبا ما تذكر الأديان لغة غامضة تسمى رمزا 'لغة الطير'، ولها أهمية فريدة مما لا يسمح بفهمها حرفيا بوصفها مقصورة على المراتب التعميدية العليا، وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم،

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ.

النمل (16)

وقد قرأنا فى مراجع أخرى عن أبطال وقتلة تنانين مثل سيجفريد فى الأسطورة الشمالية الذى فهم لغة الطير فى لحظة مما مكَّنه من تفسير اللغز المطروح، والواقع أن النتيجة الفورية للانتصار على التنين هى الانتصار على الفناء متمثلًا فى التنين الذى يحرس الطريق إلى البقاء، ويعنى هذا الانتصار التوحد مع مركز الحال الإنسانى، أى النقطة التى يمكن للكائن التواصل منها مع الأحوال الأسمى للوجود، وهو ما ترمز إليه لغة الطير، والواقع أن الطيور ترمز إلى الملائكة، أى مقامات الوجود الأعلى، وقد ذكرنا فى موضع آخر[1] أية من الإنجيل تشير إلى معنى 'طيور السماء' التى تجثم على فروع شجرة، وتمثل هذه الشجرة المركز الذى

1 راجع 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا'، الباب الثالث، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

يسرى فى مركز الكائن كى يصل أحوال الكائنات جميعًا ببعضها البعض[2].

وتسمى الآيات التى وردت فى صدر الباب من سورة الصافات التى تعنى الطيور حرفيا فى أسرابها، لكنها رمزيًا تعنى الملائكة، فتشير الأولى إلى تركيب بنية السماء أو المقامات الروحية[3]، وتشير الثانية إلى صراع الملائكة والشياطين، أى القوى السماوية ضد القوى الجهنمية، أى التناقض بين الأحوال الأسمى والأدنى[4]، ويصور التراث الهندوسى هذا الصراع بين *الديفات* و *الأسورات*، وكذلك الرمزية المشاكلة للمعركة بين *جارودا* و *ناجا* التى نجد فيها صورة بديلة فى مواضع مختلفة بطيور أخرى على شاكلة أبو منجل أو اللقلق أو أبى قردان، وكلها أعداء للثعابين[5]، وأخيرًا الآية الثالثة التى تصف الملائكة الذاكرين بالأسماء الحسنى و القرآن الكريم، وليس القرآن بلغة الناس بالطبع بل كما سجله 'اللوح المحفوظ' الذى يمتد من السماء إلى الأرض على شاكلة 'سلم داود'، ومن ثم يسرى فى كافة

---

2 نرى فى رسم الفردوس فى القرون الوسطى طيورا وأغصانا ويرقد التنين عند منبت الشجرة، راجع 'رمزية الصليب' الباب التاسع، ترجمات تراث واحد، قيد النشر، وقد نقل شاربينيون لاسّاى تمثالا لطائر برأس وجناحين فقط من دراسة عن رمزية 'طيور الفردوس' فى مجلة *Le Rayonnernent intellectuel, May-June 1930*، وكان هذا الرمز يشيع فى تمثيل الملائكة، راجع كذلك *Le Bestiaire du Christ, chap. 46, P425*.

3 وكلمة مرتبة*rank* أحد الكلمات المتعددة التى تشير إلى أصول كلمة صوفى وتصوف، وربما كان هذا الاشتقاق غير مقبول لغويا إلا أنه حقيقى شأنه شأن الاشتقاقات من النوع ذاته فى الصوفية، ويمثل الأفكار التى تنطوى عليها تلك الكلمات عن البنى الروحية التى تتماهى مع مراتب التعميد.

4 ويتبدى هذا التقابل فى مصطلحى ساتفا و راجاس بمعنى صاعد وهابط فى المذهب الهندوسى كما يوجد فى المزدكية متجسدا فى أورمزد و أهريمان على التوالى.

5 راجع هذا الموضوع فى أعمال لوى شاربونيو لاسّاى *Louis Charbonneau-Lassay*عن رمزية الحيوانات التى تعنى المسيح *The Bestiary of Christ*، ولاحظ أن التعارض بين الطيور والزواحف يصح فحسب حينما تتبدى الزواحف من جانبها الخبيث، ولكنها تبدو من جانبها الطيب مرتبطة بالطيور كما يبدو فى شكل كويتزال كوهاتيل عند سكان أمريكا الأصليين وغيرهم، كما نجد فى المكسيك رمزا يصور صراعا بين نسر وثعبان، ويمكن أن نرى التوافق بين الطيور والزواحف فى الكتاب المقدس "كونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمائم" متى*15:10* .

مراتب الوجود[6]، كما ذكر التراث الهندوسى أن الصراع بين *الأسورات* و *الديفات* الذين يحصنون أنفسهم بترنيم أذكار *الفيدا*، ولذا اكتسبت فى الهندوسية اسم *كهاندا*، وهى كلمة تعنى 'الإيقاع'، وينطوى 'الذكر' فى الجوانية الإسلامية على الفكرة ذاتها فى الصيغ التى تناظر أدعية *مانترا* الهندوسية، ويعمل تكرار الصيغ بتردد موقوت على تناسق عناصر الوجود فى مقامات الوجود الأسمى اللانهائية لتفتتح التواصل معها، وهذه هى الغاية الجوهرية من كل الشعائر.

وهكذا يعود بنا ذلك إلى ما ذكرنا سلفًا عن 'لغة الطير' التى يمكن أن تسمى كذلك 'لغة الملائكة'، والتى تشاكلها التلاوة الإيقاعية أو التجويد فى لغة الإنسان، فكل الوسائل الممكنة لتحقيق التواصل مع الأحوال الأسمى تقوم على 'علم الإيقاع' وتطبيقاته المتنوعة، ولذا يقول التراث الإسلامى إن آدم فى الفردوس الأرضى كان يتكلم بلغة مسجوعة، وهنا نعود إلى 'اللغة السريانية' التى نوهنا عنها فى الباب السابق، والتى لابد أن تُفهَم كتعبير عن 'الشمسية' والاستنارة 'الملائكية' كما وجدت فى مركز الحال الإنسانى، ولذا جاءت الكتب المقدسة بلغة إيقاعية تضفى عليها صورة تختلف عن 'الشعر' وكذلك عن اللغة بالمعنى الدنيوى، لكن انحياز 'النقاد' الغربيين اللاتراثى يتغيا جعلها كذلك، زد على ذلك أن أصول الشعر لم تكن 'الأدب' المغرور الذى أصبحت عليه الآن نتيجة انحطاط سفلى فى هذه الدورة الإنسانية، بل تتسم بصبغة مقدسة حقيقية[7]، وقد ظهرت منها آثار منذ العصر الكلاسيكى حين كان الشعر يسمى 'لغة الملائكة'، وهو تعبير يناظر ما طرحنا عن 'الأرباب' أى *الديفات*[8] التى تكافئ الملائكة فى أنها تعبير عن أحوال متعالية،

---

6 عن رمزية الكتاب الذى يرجع إليه الرمز مباشرة راجع 'رمزية الصليب'، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

7 ويجوز القول عموما إن الفنون والعلوم صارت إلى الدنيوية نتيجة ذلك الانحطاط، والذى انتزعها من صبغتها التراثية وحرمها بالتالى من كل معنى أسمى، وقد كتبنا عن ذلك فى الباب الثانى من *The Esoterism of Dante* 'جوانية دانتى' والباب الرابع من 'أزمة العالم الحديث' والباب الثامن من كتاب 'هيمنة الكم وعلامات الزمان'، والأخيران من ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

8 *The Sanskrit Deva and the Latin Deus are but one and the same word.*

وقد كان الشعر يسمى فى اللاتينية *carmina*، وهى تسمية تتعلق باستخدامها فى الشعائر، فكلمة *carmen* تتماهى مع *كارما* السنسكريتية، والتى تُفهم فى هذا السياق بمعنى ’العمل الشعائرى‘[9]، والشاعر ترجمان ’اللغة المقدسة‘ التى تجلت بها الكلمة الربانية، فهو ’*فاتيس* *vates*‘، أى موهوب بإلهام نبوى، وجعلها الانحطاط التالى لا تربو عن معنى ’العرَّاف *diviner*‘[10]، وصارت *carmen* التى كانت أصل الكلمة الفرنسية *charme* والانجليزية *charm* لاتربو عن معنى ’الطلسم *spell*‘، أى عملية سحرية سفلية، وهنا نجد مثالًا آخر عن أن السحر و العيافة هما ما تبقى من أهداب تراث دارس.

وتكفى هذه الملحوظات لكى نبين خطأ الذين يحتقرون الحديث عن ’لغة الطير‘، ويسهِّل وصف أى شيء بالخرافة طالما لم نفهمه، وقد كان الأقدمون يعلمون تمامًا ما يقولون عندما استخدموا لغة الرمزية، لكن ’الخرافة‘ الحقيقية بالمعنى التأصيلى هو "ما يخرج عن ذاته"، أى "الحرف الميت"، إلا أن هذا التحفظ لم يحظ بالاهتمام الواجب به، لكنه ليس أمرًا حقيرًا، فالروح تهب حيثما وحينما شاءت، وقد تعود لتضفى الحياة على الرموز والشعائر، وتستعيد المعانى المفقودة بكامل فضائلها الأصلية.

---

9 *The word 'poetry' also derives from the Greek poiein, which has the same meaning as the Sanskrit root kri, whence comes karma, found again in the Latin verb creare, understood in its primitive acceptation; originally, then, it was a question of something altogether different from a mere artistic or literary production in the profane sense that Aristotle seems to have had solely in view when he spoke of what he called 'poetic sciences'.*

10 *The word 'diviner' itself is no less deviant from its meaning, for etymologi- cally it is nothing other than divinus, meaning here 'interpreter of the Gods'. The 'auspices' (from aves spicere, 'to observe the birds'), omens drawn from the flight*

رموز المركز ورموز العالم

8. فكرة المركز فى الأديان القديمة

بعد أن واتتنا الفرصة لكى نطرق موضوع 'مركز العالم' والرموز المختلفة التى تمثله لابد أن نعود إلى فكرة 'المركز' التى كان لها أهمية كبرى فى الأديان القديمة، ولكى نشير إلى المعانى الرئيسية التى ارتبطت بها، ولم تعد هذه الفكرة تثير فى الإنسانية الحديثة ما كان الأقدمون يرون فيها، وقد نُسيت الآن أمور كثيرة عن الرمزية كما كان الحال فى كثير من أحوال العالم، وأصبحت طرق التفكير القديمة غريبة تمامًا عن معظم المعاصرين، ولذا كان إصرارنا على إعادة طرح هذه النقطة حيث إن عدم فهمها قد تفشى على نطاق أوسع مما مضى.

إن المركز هو أصل كل شىء ومنطلقه، وهو النقطة المبدئية بلا شكل ولا أبعاد ولا تقسيم، ولذا كان النقطة الوحيدة التى تعبر عن الوحدة الأولانية، فمنها يشع كل شىء ويتوالد مثل الواحد الذى تنبع منه كل الأعداد دون تعديل فى جوهره على أى نحو كان، وهو توازٍ تام بين صيغتين من التعبير هما الرمزية الهندسية و الرمزية العددية، ولا فارق بين استخدام أحدهما أو الآخر، ولا ينبغى نسيان أنها مسألة رمزية على الدوام، فالواحد الحسابى ليس الوحدة الميتافيزيقية، ولكنه صورة لها فحسب، وهى صورة بلا تعسف ولا اعتباط، فبين الاثنين علاقة تشاكل حقيقى، وهذه العلاقة تسمح لفكرة الوحدة أن تنتقل فيما ما وراء نطاق الكم إلى مقام التعالى، وهى ذاتها فكرة المركز الذى يقبل الانتقال حيث يشع بسماته المكانية كرمز له فحسب، فنقطة المركز هى المبدأ والوجود المحض، وهى المكان الذى تشع فيه بنورها فيتجلى الوجود، وبدونها لن يبق إلا الحِرمان واللاشيئية، والوجود هو العالم بأوسع معنى للكلمة، وهو مجمل كل الكائنات وكل صيغ الوجود التى تشكل التجلى الكونى.

وأبسط تمثيل للفكرة التى طرحناها توًا هى نقطة مركز الدائرة فى شكل *1*،

وهى رمز المبدأ، أما محيط الدائرة فهو العالم، ويستحيل التكهن بأى أصل زمنى لهذه الصورة التى نجدها فى الآثار البدائية، ولا شك أننا نرى فيها علامة ترتبط مباشرة بالتراث الأولانى القديم، وأحيانًا ما تحيط بالنقطة دوائر متراكزة تبدو تعبيرًا عن مراتب ومقامات لأحوال الوجود المتجلية، وقد اصطفَّت فى بذية بحسب قربها من المبدأ الأول، وأحيانًا ما اتُخذت النقطة فى مركز الدائرة رمزًا للشمس فى الماضى السحيق، ذلك أنها كانت بمثابة مركز النطاق الطبيعى و"قلب العالم"، وقد بقى هذا الشكل حتى زمننا رمزًا فلكيًا *astronomical* وتنجيميًا *astrological* للشمس، وربما كان ذلك هو السبب الذى جعل معظم الأثريين يعزون إليه معنى 'شمسيا' أينما وجدوه، فى حين أن له فى الواقع معنى آخر أوسع وأعمق، وينسون أن الشمس ذاتها ليست إلا رمزًا طبيعيًا 'لمركز العالم'، وهو المبدأ الربانى.

وتتضح العلاقة التى تقوم بين المركز والمحيط أو ما يَرمز إليهما فى أن المحيط لا يملك التواجد بلا مركز، فى حين أن وجود المركز مستقل تمامًا عن وجود المحيط، ويمكن تمثيل هذه العلاقة على نحو أفصح بخيوط الأشعة التى تنطلق من المركز وتنتهى إلى المحيط، وعددها لا يُحصى بالطبع كما هو حال النقاط التى تشكل المحيط، لكن جرى اختيار أعداد ذات قيمة رمزية بعينها للتعبير عنها فى هذا النوع من الأشكال، وأبسطها ما تكون من أربعة خيوط من الأشعة تقسم المحيط إلى أربعة أقسام متساوية، أى قطران متعامدان يشكلا صليبًا داخل دائرة كما فى شكل *2*، والذى له المعنى العام ذاته لشكل *1*، لكن به إضافة تسبغ عليه معنى ثانويًا مكملًا، ولو جاء تقاطعهما فى اتجاه بعينه لأصبح رمزًا لدورة تجليات على منوال الدورات الكونية التى أبدع منها الهندوس مذهبًا محكمًا، وتناظر الأقسام التى تُوَقِّعها الفروع على المحيط مراحل تقسيم الدورة، كما أن هذه المراحل قد تبدو بمقاييس رسم متنوعة، ولو اقتصرنا على نطاق الوجود الأرضى لوجدنا أقسام اليوم الأربعة ومنازل القمر الأربعة ودورة الفصول الأربعة، كما أن اتباع الفكرة ذاتها الذى جرى فى الهند وفى وسط أمريكا والعصر اليونانى الرومانى وعصور الإنسانية الأربعة، ونشير إلى هذه الاعتبارات إيجازًا حتى نوضح الفكرة العامة التى يعبر عنها الرمز موضوع الحديث، كما أنها تتصل بما يلى من الملاحظات.

ونذكر من الأشكال التى تحتوى على عدد أكبر من خيوط الأشعة أشكال العجلات أو ’الدورات‘ التى غالبًا ما تحتوى على ستة أو ثمانية أنصاف أقطار كما فى شكلى *3* و*4*، وقد وجدت الدائرة الكلتية على هذين الشكلين طوال العصور الوسطى، كما وجدت الثانية منهما عند شعوب كثيرة فى الأراضى الشرقية وخاصة الكلدانية والأشورية والتبتية والهندية حيث تسمى *شاكرا*، ومن ناحية أخرى نجد قرابة حميمة بين العجلة سداسية البرامق ورمز المسيح *chrism*[1]، والذى يختلف عنها فى المحيط الذى يحدُّ حوافها، والذى لا يُرسم عادة، وبدلًا من أن تكون العجلة رمزًا شمسيًا أصبحت رمزًا يسهل فهمه للعالم، ويجرى الحديث فى الهند عن ’عجلة الأشياء‘ و’عجلة الحياة‘ و’عجلة القانون‘ التى تناظر المعنى ذاته، وقد استعارت البوذية الأخير منها من المذاهب الأقدم التى عالجت نظرية الدورات الكونية، ونضيف إلى ذلك أن دائرة البروج *zodiac* عجلة باثنى عشر برمقا، وأن اسمها فى الهندوسية ’عجلة العلامات‘، ويمكننا ترجمتها إلى ’عجلة الأعداد‘ بالمعنى الابتدائى لكلمة *راشى* التى تطلق عليها[2].

كما أن هناك تناظرًا بين العجلة والرمزية الزهرية[3]، وقد يصل فى بعض الحالات إلى تساوٍ كامل[4]، ولو اعتبرنا فى رمزية مثل زهرة اللوتس أو السوسن أو الوردة[5] فإن ازدهارها يمثل ضمن أمور أخرى تفتح التجليات الكونية، كما أنها

---

1 *On the chrismon see Regnabit, November 1925, 'Le Chrisme et le Coeur dans les anciennes marques corporatives' (Studies in Freemasonry, chap. 13), a text not included in the present collection but treated again in two articles in Etudes Traditionnelles which here form chaps. 50 ('Symbols of Analogy') and 67 ('Sign of Four'). Ed.*

2 *We note too that in the symbolism of Western antiquity the 'wheel of Fortune' has close links with the 'wheel of the Law', and also, although it may not seem so evident at first glance, with the zodiacal wheel.*

3 راجع بابا *9* و *49* من هذا الكتاب.

4 ومن بين دلائل التساوى فيما تعلق بالعصور الوسطى فقد رأينا عجلة بثمانية برامق إلى جانب زهرة بثمانية بتلات على الحجر المنحوت على واجهة كنيسة القديس مكسيم الشينوى التى ترجع إلى الحقبة الكارولينجية التى حكمت فرنسا من عام *751* إلى *987*.

5 تحتوى الزنبقة على ست بتلات وتحتوى اللوتس على ثمانية، ويناظر الشكلين العجلات السداسية والثمانية البرامق، أما الوردة فلها عدة تنوعات من أعداد البتلات، والتى تغير معناها

تُشاكل إشعاعًا حول المركز، فهنا أيضًا مسألة مركزية الشكل التى تبرر ترجمته إلى عجلة[6]، وأحيانًا ما يرمز التراث الهندوسى إلى العالم بزهرة لوتس يتعالى من مركزها الجبل المقدس ميرو الذى يرمز إلى محور العالم.

ولنعد إلى معانى المركز التى لم نفسر منها إلا أولها، والذى يجعله صورة للمبدأ، وسوف نجد معنى آخر فى ’توسطه‘ فى النقطة التى يتساوى بُعدها عن كافة نقاط المحيط، كما يقسم عندها كل محور الدائرة إلى نصفين متساويين، أما فى المعنى السابق فتعتمد حقيقته على إشعاع المركز على المحيط، ونلاحظ أن المحيط الذى تحقق بفعل المبدأ قائم فى قلب الخلق، والنقطة الوسطى بين الطرفين هى التى تتعادل فيها الميول السلبية التى تقوم بين النقيضين وتوازن بعضها بعضًا، وترى بعض مدارس الجوانية الإسلامية التى تعزو إلى الصليب قيمة رمزية مركزية الأهمية فتشير إلى الصليب باعتباره ’مقامًا ربانيًا‘، وتسمى المركز بؤرة كل التناقضات التى تتوحد فيها، ومن ثم كانت الفكرة التى تعبر عنها هى ’التوازن‘، وهو ما يتماهى مع الاتساق، وليسا مختلفان بل هما جانبان من الفكرة ذاتها، وهناك جانب ثالث فى هذه الرمزية، ويتعلق أساسًا ب المنظور الأخلاقى وفكرة ’العدالة‘، وهذا ما يُمَكِّن من وصل الفضائل الأفلاطونية التى تتوسط كل نقيضين كما ذكرنا، أما من منظور أكثر كلية فنجد فى تراث الشرق الأقصى حديث عن "الوسط الذى لا يحول *Middle Invariable*"، وهو النقطة التى يتجلى فيها ’عمل السماء‘، ويرى المذهب الهندوسى أن كل مخلوق فى كل أحوال الوجود الكونى انعكاسًا للمبدأ الأسمى.

زد على ذلك أن الاتزان ذاته ليس إلا انعكاسًا فى مراتب التجلى لصمدية المبدأ المطلقة، ورؤية الأمور من منظور هذه العلاقة الجديدة تجعل المحيط كما لو

....

أو على الأقل تضفى عليها صبغات مختلفة، وعن رمزية الو

.March 1926

شكل 5

شكل 6

6 وقد كانت الوردة المركزية فى راية قسطنطين الأك

Merovingian age تحتوى على ستة بتلات فى اتجاهات الراية، اما الراية ذاتها فقد وضعت فى

دائرة توحى بتماهيهما مع العجلة سداسية البرامق، وقد نشرها لاسّاى فى *Regnabit, March .1926, P298*

كان يتحرك حول المركز، وهو النقطة الوحيدة التى لا تشارك فى الحركة، ويثير اسم العجلة روتا *rota* فى الذهن على الفور فكرة الدوران *rotation*، ويشكل هذا الدوران التغيرالمستمر الذى يخضع له كل ما فى عالم التجلى، وفى هدير هذه الحركة تبقى نقطة واحدة بلا تغير هى نقطة المركز، ويعيدنا هذا إلى الأفكار الدورية التى نوهنا عنها سلفًا، وتحدث كل دورة أيًا كانت بالتتابع سواءً أكانت صيغتها زمنية أو أية صيغة أخرى، فثبات المركز صورة للأبدية فى حضور كل شىء فى معيّةٍ واحدة، فلا يملك المحيط إلا الدوران حول مركز ثابت، وقل مثل ذلك عن التغير الذى لا يقوم بذاته فإنه يفترض مبدءًا لا يتغير، وهو "المحرك الذى لا يتحرك" عند أرسطو ويُرمَز إليه ’بالمركز‘، وحيث إن كلٍ ما وجد وتحرك وتغير قد امتاح حقيقته من مبدأ صمدى ويعتمد عليه تمامًا، وهذا المبدأ هو ما يمنح الحركة اندفاعها الأولى وما يحكمها ويوجهها ويضعها فى قانون، وحفظ منظومة العالم ليس إلا تمديدًا لفعل الخلق، ويرى الهندوس فى تعبير‘ الضابط الباطنى *Internal Controller* *آنتاريامى*‘ موجِّهًا لكل شىء من باطنه فى حين يكمن فى أعمق النقاط، أى فى المركز.

ويمكن أن نرى كذلك كرة تدور حول محور ثابت إلا أن المغزى الرمزى واحد فى الحالين، ولذا كان تمثيل "محور العالم" متعددًا ومهمًا للغاية فى التراث القديم، ومعانيه العامة جميعًا واحدة مثل ’مركز العالم‘ ربما باستثناء أن مبدئها الصمدى يعبر عن العالم المتجلى مباشرة أكثر مما يعبر عن العلاقات الأخرى بما فيها المركز، وحينما يُكمِل النطاق السماوى أو الأرضى دورته حول محوره تبقى على سطحه نقطتان ثابتتان على قطبيه، ولذا كانت فكرة القطب حالة تكافئ المركز، وأحيانًا ما اتخذت الرمزية التى تعبر عن القطب صورًا معقدة فى كل الأديان القديمة حتى إنها تميزت بأهمية خاصة[7]، ولو كان الدارسون المحدثون لاهون عن ذلك فهو برهان على أنهم لا يفقهون شيئًا عن هذا الرمز.

وقد كان الصليب المعقوف فى شكلى *5* و *6* أحد الرموز المدهشة التى

---

[7] عن رمزية القطب راجع ’ملك العالم‘ باب *2* و *7-10*، وكذلك باب *17* من الكتاب الحالى.

تلخص الفكرة السابقة عن رمز القطب[8]، ويبدو أن أوروبا الحديثة لم تنشر شيئًا عن هذا الرمز حتى الآن عدا بعض المحاولات العبثية التى حاولت تفسيره بنظريات وهمية، حتى إن أحدهم رأى فيه تخطيطًا لقدَّاحة بدائية لإشعال النار، ولو كان له علاقة بالنار أحيانًا فلأسباب مختلفة تمامًا، ويُفسَّر غالبًا بأنه رمز 'شمسى'، لكن ذلك يمكن أن يحدث بشكل عَرَضى غير مباشر، ونكرر هنا ما ذكرنا عن العجلة ونقطة المركز فى الدائرة، وكان الذين رأوا فى الصليب المعقوف رمزًا للحركة أقرب إلى الصواب، ولكن لازال التفسير ناقصًا، فليس الأمر مسألة حركة فحسب بل هى حركة دائرية حول مركز أو محور ثابت، والنقطة الثابتة هى العنصر الجوهرى الذى يرتبط به رمز الصليب المعقوف مباشرة، أما المعانى الأخرى لهذا الرمز فتشتق جميعًا من المركز الذى ينقل الحركة إلى كل شيء، وحيث إن الحركة رمز للحياة فإن الصليب المعقوف يصبح رمزًا للحياة، أو على نحو الدقة هو المبدأ الذى يفيض بالحياة فى منظومة الكون.

ولو ضاهينا بين الصليب المعقوف والصليب فى الدائرة شكل *2* لوجدنا بينهما تساويًا، لكن القوس على المحيط قد أبدل بمستقيم متعامد على نهاية كل ذراع من الصليب، وهى مماسات للمحيط تشير إلى اتجاه دوران نقاط تماسها، وحيث إن المحيط يرمز إلى العالم فإن واقع ما يعنيه شكل الصليب المعقوف ليس شكل العالم بل فعل المبدأ فى حركة العالم[9].

ولو ربطنا الصليب المعقوف بدورة السماء حول محورها فلابد من أن يكون مرسومًا على خط الاستواء، وتصبح النقطة المركزية انعكاسًا للمحور الذى يتعامد عليه، أما عن اتجاه الحركة فى شكلى *5* و *6* فإنها ثانوية، والواقع أننا لا نجد فى

---

8 عن الصليب المعقوف راجع 'ملك العالم' باب *2*، و'رمزية الصليب' باب *10*، وكلاهما من ترجمات تراث واحد قيد النشر.

9 وتنطبق الملحوظة ذاتها على رمز المسيح *chrismon* ومضاهاته بالعجلة.

الشكلين[10] ما يوحى بالتضاد بينهما على أى وجه[11]، ونعلم أن هناك بلادًا فى أزمنة بعينها قد شهدت تحزُّبات عمد فيها المنشقون إلى رسم الصليب المعقوف يدور فى الاتجاه النقيض تعبيرًا عن انفصالهم برمز ظاهر، لكن ذلك لا أثر له على المعنى الجوهرى للرمز فى كلتى الحالتين.

وقد قيل إن رمز الصليب المعقوف ليس مقصورًا على الشرق، لكنه فى الواقع رمز متواتر فى كل أين ما بين الشرق الأقصى والغرب الأقصى، فيتواجد عند سكان الشمال الأمريكى الأصليين، كما بدأ حاليًا فى الظهور فى الهند ووسط آسيا، وربما لازال معناه الحقيقى معروفًا بين سكان هذه المناطق، كما أنه لم يختف تمامًا فى أوروبا[12]، فلازال الفلاحون فى ليثوانيا و كورلاند يرسمون هذا الرمز على بيوتهم، ولا شك فى أنهم لا يعرفون معناه، ويستخدمونه كتميمة حافظة فحسب، لكن من الغريب أن يطلقوا عليه اسمه السنسكريتى *'سواستيكا'*[13]، ونجدها شائعة بين الكلتيين وقدماء اليونانيين[14]، ثم إنها عادت إلى الغرب كما قال لاسّاى[15]، فقد

---

10 وكلمة سواستيكا الهندوسية هى الوحيدة التى تستخدم فى كل الحالات لرمز الصليب المعقوف، والتى استخدمها البعض للتمييز بين الرمزين كصفة مشتقة من سواستيكا الأصلية بما يشير إلى انتمائها إلى المعنى الرمزى ذاته..

11 ويجوز قول الأمر ذاته عن رموز أخرى وخاصة شعار راية قسطنطين الأكبر، والتى ينعكس فيها اتجاه حرف *P* أحيانا، وكان يُعتقَد أنها رمز المسيخ الدجال، وقد يكون ذلك صحيحا فى بعض الأحوال، لكن هناك بعضًا منها لا يمكن أن يكون صحيحا كما فى حالة المقابر، وكذلك رمز الأربعة *4* كعلامة مهنية، والتى ليست إلا تعديلا لحرف *P* ذاته، والتى تظهر مقلوبة فى كلى الاتجاهين، ودون أن تفهم بمعنى التعارض بين الطوائف الحرفية المتنوعة، حيث يظهر هذا الانقلاب فى رموز الطائفة الواحدة..

12 ولا نشير هنا إلى المعنى المصطنع للصليب المعقوف بين جماعات ألمانية سياسية بعينها، والتى دفعت عسفا بأن هذا الشعار ينتمى إلى ما يسمى 'الجنس الآرى'، وكل ذلك هراء.

13 واللغة الليثوانية هى أقرب اللغات الأوروبية إلى السنسكريتية.

14 وهناك عدة تنويعات على رمز سواستيكا مثل الذى استخدم منحنيات حرفى *SS* متقاطعين، والتى رأيناها على العملة الغاليّة، ومن جهة أخرى كانت البردورة اليونانية تعديلا زخرفيا مشتقا من السواستيكا.

15 *Regnabit, March 1926, pp 302-303.*

كانت فى زمن أسبق شعارًا للمسيح حتى نهاية العصر الوسيط، شأنها شأن مركز الدائرة وشكل العجَلة، ولا شك أنها ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، ونجدها من ناحيتنا أحد بقايا التراث الأولانى[16].

ولكننا لم نكمل الحديث عن معنى المركز، فلو كان نقطة انطلاق فى أول الأمر فإنه نقطة الوصول فى آخره، فكل ما انبثق عنه لا بد أن يعود إليه، وحيث إن كل شيء وُجِد بالمبدأ ولا يملك أن يعيش بدونه فلا بد أن هناك صلة دائمة بينهما، وتُصوَّر على هيئة أشعة تنبثق من المركز إلى كافة نقاط المحيط، لكن هذه الأشعة تمتد إلى الجهتين العكسيتين، فتتحرك من المركز إلى المحيط ثم تعود إلى المركز، وهنا يكون لدينا مرحلتين متكاملتين، تمثل أولاهما الحركة المركزية الطاردة وتمثل الأخرى حركة الرمزية الزهرية، وتشاكلا الشهيق والزفير كما تصوِّرها المذاهب الهندوسية، كما نجد فيها تشاكلًا باهرًا مع الوظيفة العضوية للقلب، فالدماء تخرج من القلب لتغذى الجسد ثم تعود إلى القلب، وهكذا يكتمل عمله العضوى، ويناظر تمامًا معنى المركز كاملا.

وعلى كل الكائنات التى تعتمد على المبدأ فى كل ما تكون أن تطمح بوعى أو بدونه إلى العودة إليه، فهذا الشوق إلى المركز له ما يمثله فى كل الأديان، ونشير هنا إلى العبادة كتوجه لمركزها الروحى فى صورة 'مركز العالم'، واتجاه الكنائس المسيحية ليس إلا حالة خاصة وتتعلق جوهريًا بالفكرة ذاتها، فالإسلام له 'قِبلة' كما لو كانت تجسدًا للنية التى تتوجه نحو المبدأ الربانى[17]، وهناك كثير من الأمثلة كما يمكن قول الكثير عنها، ولا شك أننا سوف نستمر فى دراستها[18]، ولذا سوف نكتفى بهذا القدر إلا بمختصر للجانب الرمزى للمركز.

فالمركز بداية كل شيء ونهايته، وطبقًا لرمزية مشهورة هو ألفا وأوميجا أو الألف والياء، وأفضل من ذلك هو البداية والوسط والنهاية، وهذه الرموز الثلاثة

---

16 راجع أيضا الباب *17* من هذا الكتاب عن سواستيكا.

17 *The word 'intention' must be taken here in its strict etymological sense (tn- tendere, 'to tend toward').*

18 راجع 'ملك العالم' باب *5*. المحقق.

فى المقطع الهندوسى *AUM*، والذى ناظره لا ساى بشعار المسيح، ويبدو لنا معنى رمز الصليب المعقوف فى دير الكرمل فى لودون أمرًا جللًا، فالحق إن هذا الرمز أكثر كمالًا من تعبير 'ألفا و أوميجا'، فهو حامل لمعانٍ تكاد تتوالد إلى مالانهاية، و هو أعجب رمز ينطوى على توافقات لا مثيل لها، وتشارك فيها الهندوسية و الجوانية المسيحية فى العصر الوسيط، وفى كلا الحالتين رمز للكلمة التى تتوسط مركز العالم[19].

19 عن المقطع الهندوسى المقدس آوم *AUM* راجع 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا' باب *16*، و'ملك العالم' باب *4*، وفى الكتاب الحالى بابى *19* و *22*. المحقق. وكلاهما من ترجمات تراث واحد، قيد النشر. المترجم.

9 أزهار رمزية

لقد شاع استخدام الرمزية الزهرية فى معظم الحضارات التراثية، وهى رمزية شديدة التعقيد، ولا ننوى هنا إلا الإشارة إلى بعض معانيها العامة، فمن الواضح من صيغها الثانوية على الأقل أن معناها سيختلف باختلاف الزهرة التى اتُخِذت رمزًا، كما أن الحال فى الرمزية عموما أن كل زهرة تحمل رهطا من المعانى، والتى تتواصل مع بعضها بعضا بموجب تناظرات بعينها.

ويتعلق جانب رئيسى من الرمزية الزهرية بالجانب الأنثوى أو المبدأ القابل *passive principle* للتجلى الكلى، أى *براكريتى* فى الهندوسية، وهى الجوهر الكلى القابل، وقد انطوت فى الزهور معان رمزية متعددة، وأهمها رمز الكأس، والواقع أن كأس الزهرة يثير فكرة 'الوعاء' القابل لنفوذ الجوهر الكلى الفاعل *بوروشا*، كما نتكلم عن كأس الزهرة *calyx*، ومن ناحية أخرى كان تفتح الزهرة يمثل تطور التجليات الكونية كنواتج لعمل *براكريتى*، ويتبين هذا المعنى المزدوج فى زهرة اللوتس على الأخص، وهى الزهرة الرمزية فى الشرق بما تنطوى عليه من خصائص الازدهار على صفحة الماء، ودائما ما تمثل هذه الزهرة 'الشعاع السماوى' الذى يعبر عن نفوذ *بوروشا* على هذا النطاق من الوجود حتى تحقق

التجليات التى ينطوى عليها متوشحة بأردية *براكريتى*[1].

وتعيد الصلة التى أشرنا إليها بالكأس إلى ذهننا رمزية الكأس المقدسة *Grail* فى التراث الغربى، وحيث نتناول هذا الموضوع فيحسن ذكر ملحوظة بالغة الأهمية، فنحن نعلم أن من بين الأشياء التى تحوط الكأس رمحا للفارس الإمبراطورى لونجينوس، والتى طعن بها جانب المسيح فسالت عليها دماؤه التى تلقاها يوسف الأرمتى فى كأس العشاء الأخير، ولكن ذلك لا يحجب حقيقة أن هذا الرمح أو ما يكافئه كان رمزا للكأس فى التراث الذى سبق المسيحية[2]، ويرمز الرمح الرأسى إلى 'محور العالم' الذى يتماهى مع 'الشعاع السماوى' المذكور، والذى يتحول أحيانا إلى أسلحة كالرمح أو السهم، ولكن سيكون الإسهاب فى هذه المسألة خروجا عن موضوعنا، ومن منظور آخر تثير قطرات الدم التى تسقط على الرمح فى الكأس صورة النفوذ الذى يشع من *بوروشا* إلى جانب الرمز *الفيدى* عن تضحية *بوروشا* فى بدء الخلق[3]، وينتقل بنا ذلك إلى الرمزية الزهرية التى تركناها لذكر هذه الاعتبارات.

ونجد فى أسطورة أدونيس أن البطل أصيب بطعنة قاتلة من خنزير برى، والذى يقوم بدور الرمح، ومن ثم تسيل دماؤه على الأرض لتنبت زهرة، ولا شك أن هناك أمثلة عدة فى أديان أخرى، وقد وجدنا هذه الرمزية عند لاسّاى الذى لاحظ رسما على مكبس خبز القربان من القرن الثانى عشر تقطر فيه دماء المصلوب وتتحول إلى ورود، كما كان فى القرن الثالث عشر فى كاتدرائية آنجر

---

1 راجع 'رمزية الصليب' باب 24، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

2 راجع 'ملك العالم'، فهناك تشابهات عجيبة حتى فى التفاصيل مثل رمز الرمح، فعند اليونانيين كان رمح آخيليس يداوى الجروح التى سببها، وقد عزت أسطورة من العصر الوسيط الصفات ذاتها إلى رمح الآلام.

3 ويجوز عقد صلة بينها وبين رمز البجعة.

Angers دماءٌ ربانية تجرى فى جدول وتنبت منها ورود[4] وزنابق، وهى من أكثر الرموز شيوعا فى الغرب بمعنى يرادف اللوتس، ويبدو هنا أن الرمزية الزهرية تتعلق فحسب بخلق التجليات[5]، فى حين تتخذ براكريتى صورة التربة التى تُحيي فيها الدماء زهورا، لكن هناك حالات أخرى على منوال آخر، فنجد فى مقال لاسّاى الذى ذكرناه توًا تطريزا لمفرش المذبح فى كنيسة فونتيفرو *Fontevrault* يرجع إلى النصف الأول من القرن السادس عشر، ومحفوظ فى متحف نابلس، ويصور وردة إلى جانب قاعدة رمح مغروس رأسيا تسيل عليه قطرات دماء، وتبدو الوردة لصيقة بالرمح على منوال الكأس فى أديان أخرى، وتبدو كما لو كانت تتلقى الدماء ولا تنمو عليها ولا تتحول بقطراتها، ومن الواضح أن المعنيين لا يتناقضا بل يتكاملا، فالدماء التى تقطر فى الوردة تحييها وتزيدها نضارة، ويتجذر الدور الرمزى للدماء فى كل الحالات فى صلته بالمبدأ الحيوى، والذى يتخذ هنا صيغة منظومة الكون الحيوية، كما أن مطر الدماء يساوى' الندى السماوى' الذى يتساقط من 'شجرة الحياة' فى المذهب القبالى، وهى صورة أخرى من 'محور العالم'، وهنا يرتبط النفوذ مبدئيا بفكرة البعث والنشور التى تعلقت بالفكرة المسيحية عن الخلاص، ويقوم هذا الندى بدور باهر فى رمزية خيمياء الصليب الوردى[6].

ولو رأينا فى تفتح الزهرة تمثيلا لسيرورة التجليات فإن هناك ما يساويها من الرموز الأخرى بما فيها العَجَلة، والتى نجدها فى كل أين، ويختلف عدد برامقها بمعنى الصورة العام، لكنها تحتفظ فى كل الأحوال بقيمتها الرمزية، وأكثرها شيوعا سُداسيَّة وثُمانيَّة البرامق، فالعجلة الكلتية التى عاشت طوال العصور الوسطى فى الغرب قد ظهرت على هاتين الصورتين وخاصة الثانية منهما، كما وجدت فى

---

4 وفيما تعلق بالاتصال الرمزى نشير إلى أن تمثيل الجروح الخمسة فى جسد المسيح بخمس وردات تتوسط واحدة تحقيقا للكلمة الربانية،مركز الصليب ويتوزع أربعة على أذرع الصليب، وهو رمز رئيسى لمذهب الصليب الوردى.

5 وحتى لا يطرأ اعتراض لابد من فهم أن هناك صلة بين الخلق والنشور أو الخلاص، فهما أصوليا من عمل الكلمة الربانية.

6 راجع 'ملك العالم' باب 3 عن الجناس بين الندى *ros* وبين الوردة *rosa*، والتى لا بد أن يلحظها المهتمون بالرمزية الصوتية.

كثير من البلاد الشرقية مثل الكلدانية والأشورية والتبتية والهندية، وأهم معنى لرمزية العجلة هو العالم، كما شاع فى الهند تعبيرات على منوال ’عجلة الأشياء‘ و ’عجلة الحياة‘ التى تناظر هذا المعنى، كما شاع بالدرجة ذاتها التنويه إلى ’عجلة الكون‘ فى تراث الشرق الأقصى، ويكفى ذلك لبيان القرابة الحميمة بين هذه الأشكال للرمزية الزهرية، والتى تعبر الأشعة حول المركز عن تفتحها، فهى كذلك رموز ’مركزية‘، كما نعلم أن العالم يُرمَز إليه فى التراث الهندوسى بزهرة لوتس يرتفع من مركزها جبل ميرو القطبى المقدس، ويقوى التناظر الواضح التساوى بين عدد البتلات لبعض هذه الأزهار وعدد برامق العجلة، فللزنبقة ست بتلات وللوتس ثمانية، وهكذا تناظرا العجلات المذكورة بستة وثمانية برامق[7]، أما الوردة فيختلف عدد بتلاتها، وقد ذكرنا فى أحد دراساتنا مغزى عددى *5* و *6* وتناظرهما مع الكون الأصغر والكون الأكبر على الترتيب، كما أن الرمزية الخيميائية للزهرة الخماسية التى تتوسط صليبا يرمز إلى العناصر الأربعة ’الجوهرية‘ التى تقوم بدور مهم يشاكل وظيفة براكريتى[8] فيما تعلق بالتجسد، وأخيرا لنذكر مرة أخرى القرابة بين الزهرة سداسية البتلات و بين العجلة سداسية البرامق على منوال رمز المسيح *chrism*، والذى ننوى أن نعود إليه فى مناسبة أخرى[9], أما الآن فيكفى ذكر أهم مثلين عن الرمزية الزهرية التى ارتبط أولها مع الكأس حيث إن تلك الرموز تنتمى إلى *براكريتى*، وارتبط الثانى بالعجلة التى تشاكل التجلى الكونى، فالارتباط بين هذين المعنيين ارتباط بين المبدأ والتجلى، حيث إن *براكريتى* هى جذر كل التجليات.

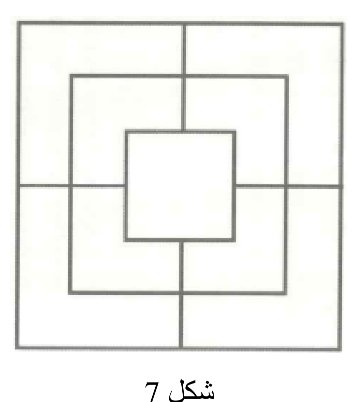
---

7 ومن بين دلائل التساوى فيما تعلق بالعصور الوسطى فقد رأينا عجلة ثمانية برامق إلى جانب زهرة بثمانية بتلات على الحجر المنحوت على واجهة كنيسة القديس مكسيم الشينوى التى ترجع إلى الحقبة الكارولينجية التى حكمت فرنسا من عام *751* إلى *987*، كما تحتوى عليه الكنائس الرومانسكية والنوافذ الزهرية القوطية بما يؤكد انتماءه إلى العجلة الثمانية الكلتية القديمة.

8 *See 'The Hindu Theory of the Five Elements, Studies in Hinduism, chap. 4.*

9 وقد أشار لاسّاى إلى العلاقة بين الوردة فى راية قسطنطين وشكل نقله من بناء زخرفى من الطوب من العصر الميروفينى، فالوردة المركزية بها ست بتلات على منوال الراية، كما أنها محاطة بدائرة تتماهى معها تماما.

10 الساحات الثلاث عند الدرويديين



شكل 7

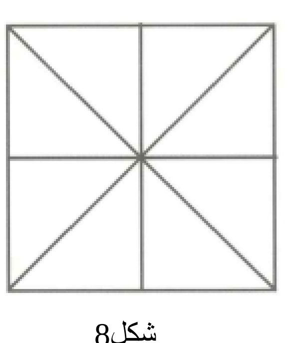
لفت بول ليكور *Paul le Cour* الأنظار فى مجلة أتلانتيس عدد يوليو/أغسطس *1928* إلى رمزٍ درويديٍ عجيب على حجر درويدى مكتَشف عام *1800* تقريبا فى سيفر *Suevres*، وقد فحصه قلورنس *E.C. Florance* رئيس جمعية التاريخ الطبيعى والأنثروبولوجيا، والذى اعتقد أن الموضع الذى اكتُشِف قيه كان ملتقى سنويا للدرويديين على حدود أرض كارنوتس *Carnutes* [1]، وقد انتبه إلى أن العلامة ذاتها ظهرت على بيت الغيبى رومان *Gallo Roman* عام *1870* فى فيلالا فرانس سير شير، وكان رأيه أن الرمز قد يمثل العوالم الثلاثة المقدسة *triple sacred precinct*، ويتكون هذا الرمز من ثلاثة مربعات متراكزة يصل بينها أربعة خطوط متعامدة، شكل *7*.

وفى اللحظة التى ظهر فيها المقال عَلِم فلورانس بأن الرمز ذاته منقوش على حجر أساس جسيم لكنيسة سان جيم *Saint Gemme*، ويعود إلى تاريخ أقدم من بناء

---

1 يقول سيزار فى كتابه *Finibus Carnutum* إن التفسير المذكور يثير الشك، فكلمة *fines* لا تعنى على الدوام 'حدودا'، لكنها غالبا ما تعنى بلادا، كما لم يوجد شيء فى سوفر *Suevres* يمثل الكأس *Omphalos* الذى وجد فى ميديولانون و ميديوميتون عند الغاليين، وكان يُرمَز إليه بمسلة عند الكلتيين.

الكنيسة، وربما يرجع إلى زمن الدرويديين، ومن المؤكد أنه على منوال الرموز الكلتية وخاصة رمز العجلة، والذى كان قيد الاستخدام حتى نهاية العصور الوسطى حيث إن لاسّاى قد وجده بين الرسومات على جدران سجن قلعة فى شينون[2]، وكان معه رمز آخر لايقل عنه قِدَما يتكون من ثمانى خطوط إشعاع من مركز إطار مربع، شكل 8، والذى وجد فى كيرماريا وفحصه لوت *J. Loth* [3]، كما نوهنا عنه فى موضع آخر.[4]


شكل8

ويلاحظ ليكور أن الشكل ذو المربعات الثلاثة موجود فى روما فى خلوة القديس سان باولو التى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر، وأنه ليس مقصورا على الكلتيين فقد شاع بين شعوب الزمن القديم، أما شكل 8 فقد وجد فى عدة أماكن بين الأكروبول اليونانى فى أثينا إلى أحجار البارثينون و الإيريكثيون.

---

2 *'Le Coeur rayonnant du donjon du Chinon'.*

3 *'L' "Omphalos" chez les Celts' in Revue des Etudes anciennes, July-September 1915. [Regarding the baetyl see chap. 27. Ed.]*

4 راجع 'ملك العالم' الباب 9، وهاهى الفقرة المقصودة "والمثل الباهر للكأس المقدس يظهر فى كنيسة بونت لابى *Pont-l'Abbe* فى كرماريا، وشكله العام مخروط غير منتظم فيما عدا قمته الكروية، وعلى الشطر الأسفل منه خط رشيق قد يرمز إلى الثعبان، وتحيط بقمته بردورة المفتاح اليونانية، وعلى أحد جوانبه سواستيكا التى اشتُق منها المفتاح اليونانى، وهو ما يكفى للبرهان على الأثر العجيب، ومن الناحية الأخرى نجد علامة 8 مرسومة فى مربع بدلا من دائرة ويشع منها ثمانية خطوط تضاهى العجلة الثمانية، وهو تصميم يماثل العلم البريطانى الذى يرجع إلى أصل كلتى، ومن الغريب أن هذا التصميم قد وجد فى كرماريا عدة مرات على الرسوم فى أقبية سجن شينون، والتى وجدت بينها علامة الخطوط الثمانية على درع بيضاوى يحمله شخص راكع، ويذكرنا بالعجلة الثمانية البراقى، وقد قامت هذه العلامة بدور معتبر فى رمزية فرسان المعبد، فقد وجدت على الأركان القديمة للمعبد، كما يُرى كعلامة فروسية على قاعدة جسيمة تحت تمثال جنائزى لفارس المعبد من القرن الثالث عشر فى مقبرة روش ان كلو *Roche-en-Cloue* فى فيينا، وكذلك على حجر منحوت فى مقبرة ماوليون بالقرب من شاتيون على نهر سيفر، كما يقول لاسّاى، وهذا الأخير عجلة بالمعنى الكامل، وهى مثل واحد بين رموز أخرى تقطع باستمرار التراث الكلتى فى العصور الوسطى، وبقى أن نشير إلى هذه الرمزية لعدد 8 بمعنى العدالة والاتزان، وهى أفكار ترتبط مباشرة بالمركز".

ويبدو لنا تفسير رمز الساحات الثلاث صحيحا تماما، ويجد ليكور تفسيرا موازيا فى حديث أفلاطون عن مدينة أطلانتيس وقصر بوزايدون المبنى فى مركز ثلاث مساحات متراكزة تناظر رمز الساحات الثلاث، وتتصل ببعضها بقنوات، وهو ما يناظرالرمز تماما، فيما عدا أنه دائرى وليس مربعا.

فما هو معنى الساحات الثلاثة؟

لقد خطر لنا لأول وهلة أنها ترمز إلى مراتب التعميد الثلاثة، ولو اتُّخِذَت بمجملها لكانت شعارا للبنية الدرويدية، ويعنى واقع أن هذا الرمز وجد فى مواقع مختلفة يعنى أن هناك صورا تراثية أخرى تعتمد على البنية ذاتها، وهو أمر طبيعى تماما، فالتقسيم الثلاثى أكثر الرموز شيوعا كما أنه أكثر أصولية، وتمثل كافة البنى الأخرى تطويعا مركبا له، وما أدى بنا إلى هذه الفكرة أننا على علم ببعض الوثائق لماسونية المراتب العليا تصف مراتبها بعدد من الدوائر المتراكزة حول نقطة مركزها [5] ، ومن المؤكد أن هذه الوثائق أقل قدما من الآثار المذكورة، إلا أننا نجد فيها أصدءًا لتراث قديم، وعلى كلٍ فقد أمدتنا فى هذه المناسبة بنقطة انطلاق لمقارنات مفيدة.

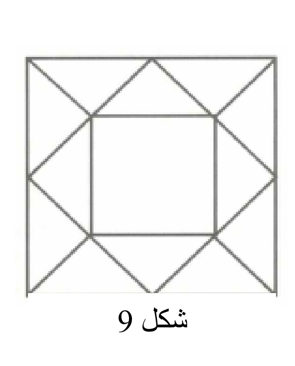
ولابد من مراعاة أن تفسيرنا الذى طرحناه توا لا يضاهى تفسير ليكور الذى يربط بين ساحات الوجود الثلاث فى التراث الدرويدى، فنجدها فى المسيحية على نحو مختلف، لكنها تطابق منظور 'العوالم الثلاثة' فى التراث الهندوسى، حيث ترمز ثلاث ساحات حول جبل ميرو إلى الدوائر السماوية، والذى يرمز إلى 'القطب' أو 'محور العالم'، وهو من أعظم التوافقات أثرا، ورغم أنهما قصريان فإنهما على اتفاق واتساق تام، حتى ليمكن القول بمعنى ما أنهما رديفان، ومن حيث التعميد الحقيقى فإن المراتب المختلفة تناظر أحوال الوجود، والتى تسمى فى كل الأديان 'عوالم' متنوعة، فالموضع ليس إلا رمزا محضًا، وقد ذكرنا فيما تعلق بدانتى أن السموات ليست إلا بنية روحية، أى مراتب من التعميد [6]، ولا حاجة بنا لقول

5وقد لاحظ ليكور *Le Cour* أن نقطة المركز واضحة فى معظم الأشكال المرسومة فى معبد الأكروبول فى أثينا.

6 *The Esoterism of Dante, chap. 2.*

إنها تتعلق أيضا بمقامات الوجود الكلى بموجب التشاكل بين الكون الأكبر والكون الأصغر[7]، وتضاهى عملية التعميد العمليات الكونية على نحو صارم، ويمكن إضافة أن من الخصائص الأصولية لأى تفسير تعميدى ألا يكون قصريًا، بل على العكس ينطوى فى ذاته على كافة التفسيرات المحتملة، وربما كان ذلك هو السبب الذى صارت الرمزية من جرائه طريقة التعبير الطبيعية لكافة التعاليم التعميدية.

ويتضح على الفور معنى الخطوط الأربعة على شكل صليب يصل بين الساحات الثلاث، فهى القنوات التى تجرى فيها التعاليم التراثية من أعلى إلى أسفل بدءًا من المقام الأسمى لكى يتفرق بين المراتب التى تشكل بنيته، ويناظر مركز هذا الشكل 'ينبوع التعاليم' الذى تحدث عنه دانتى وصرعى الغرام[8]، كما يرمز شكل الصليب إلى الجداول الأربعة للفردوس الأرضى.


شكل 9

ونلاحظ كذلك فى هذا الصدد الاتفاق بين مغزى الشكلين الدائرى والمربع لرمز الساحات الثلاث، فهى ترمز إلى الفردوس الأرضى و أورشليم السماوية، والتى فسرناها فى أحد أعمالنا[9]، والواقع إن هذا التشاكل والتناظر بين البداية والنهاية لأية دورة، لكن الدائرة تُستبدل بمربع يرمز إلى التحقق الهرمسى الذى يسمى 'تربيع الدائرة'[10]، وهو يشاكل التطورات التى تجرى فى توسع نقطة المركز الأولانية

---

7 *Ibid., chap. 6.*

8 *See our article in Le Voile d'Isis, February 1929, 'Le Langage secret de Dante et des "Fideles d'Amour'". [See Insights into Christian Esoterism, chaps. 4 and 5. Ed.]*

9 'ملك العالم' باب *11*، عن العلاقة بين الفردوس الأرضى وأورشليم السماوية، وكذلك *The Esoterism of Dante, chap. 8.*

10 وهذا التربيع يستحيل تحقيقه فى سياق دورة السيرورة، ذلك أنه يعبر عن تثبيت ينتج من 'عبور الحدود'، وحيث إن كل حركة دورية لامتناهية فإن الحد لا يمكن الوصول إليه بالتتابع والتحليل بعبور كل النقاط التى تناظر كل لحظة من التجلى.

فى دائرة, والتى تتحول باكتمالها إلى مكعب[11].

ولتطبيق هذه الاعتبارات على موضوعنا الحالى فلنقل إن الشكل الدائرى يمثل نقطة انطلاق من المنظور التراثى، وهو ما كان حال الأطلنطيين12، وأن المربع بأركانه يناظر بنية الصورة التراثية المشتقة، ففى الحالة الأولى تمثل نقطة المركز مصدر المذهب، وفى الحالة الثانية تمثل مخزونه، وهنا تمثل السلطة الروحية وظيفة الحفظ، لكن رمزية 'ينبوع التعاليم' فى الحالتين[13].

و من منظور الرمزية العددية نلاحظ أن المربعات الثلاث تشكل حدودا مختلفة فى شكل 9، ويضاف إليها أربعة خطوط متعامدة تشكل الصورة التى يرسمها المنجمون فى قلب علامة البروج[14]، كما أن الدرويديون يرون صورة أورشليم السماوية باثنى عشر بابا فى كل جهة ثلاثة، ونجد فى ذلك تواصلا مع المعنى الذى لاحظناه فى شكل 9، ولكننا نعتقد أن هذه الملاحظات على نقصها سوف تلُقى ضوءًا على الساحات الثلاث عند الدرويديين.

---

11 من السهل مقارنة الرمز الماسونى 'الحجر المكعب' الذى يتصل بفكرة الاكتمال والكمال، أى تحقيق بركة الإمكانات التى تنطوى عليه حالات بعينها، راجع باب 48 فيما يلى.

12 وليس تراث أطلانطا أولانيا بالنسبة إلى دورة الإنسانية الحالية *Manvantara*، والذى يُعتبر ثانويا بالقياس إلى التراث القطبى *Hyperborean tradition*، لكنه لا يعدو نقطة انطلاق إلى تناول حقبة بعينها ليسن إلا شطرا من مانفانتارا.

13 فيجرى دائما وضع الشكل الآخر المرسوم فى شكل 8 فى دائرة، ولذا كان أحد التنويعات على رمز العجلة الثمانيَّة، كما يساوى زهرة اللوتس الثمانيَّة فى الشرق الأقصى، كما تساوى العجلة سداسية البرامق زهرة الزنبق *lily*، راجع 'دراسات فى الماسونية وطوائف الحرف' باب 13 وكذلك البابين 8 و 50 من الكتاب الحالى. المحقق.

14 ثم توضع الخطوط الأربعة المتقاطعة مائلة عن المربعين الخارجيين، وقسمت المساحة بينهما فيما بعد إلى اثنى عشر مثلثا متساويا..

11 سدنة الأرض المقدسة

تشيع بين منظمات الفروسية وخاصة فرسان المعبد وهى أشهرها وإن لم تكن أوضحها فكرة 'سدنة الأرض المقدسة'، ولو اقتصرنا على أضيق حدود المعنى الظاهر لوجدنا تفسيرًا مباشرًا للصلة بينهم و بين الحملة الصليبية، فهذه الفكرة عند اليهود والمسيحيين لا تعدو أرض فلسطين، وتصبح المسألة أشد تعقيدًا حينما نلاحظ أن هناك جماعات تعميدية لا شك فى أصالتها مثل الحشاشين و الدروز قد اتخذوا هذا اللقب ذاته، ولن يقتصر الحال على مسألة فلسطين، وأن تلك المنظومات تشارك منظومات الفروسية الغربية فى كثير من سماتها، حتى إن التاريخ يسجل تواصلًا بينهما، فما الذى يمكن استنتاجه من اصطلاح 'الأرض المقدسة'، وما هو المدى الذى يصل إليه دور 'السدنة' الذين التحقوا بالضرورة بطرق تعميد فروسية مشابهة بإضفاء معنى أوسع من المعتاد حتى يبرر الصور المذكورة؟

وقد بينّا فى كتابنا 'ملك العالم' أن تعبير 'الأرض المقدسة' له عدة مترادفات منها 'أرض الصفاء' و 'أرض القديسين' و'الأرض المباركة' و'أرض الحياة' و 'أرض الخلود'، وتنتشر كل هذه الصفات فى شتى شعوب العالم فى ارتباطها بالمراكز الروحية التى تقوم بمناطق بعينها، والتى يمكن فهمها حرفيًا أو رمزيًا، وأحيانًا ما يتطابق المعنيين، فكل 'أرض مقدسة' يمكن أن تسمى 'مركز العالم' أو 'قلب العالم'، وهو ما يحتاج إلى تفسير باصطلاح محدد حينما تستخدم بمعان متعددة، وهو ما قد يؤدى إلى التخليط.

ولو أخذنا التراث العبرى على سبيل المثال لوجدنا فى سفر يتسيراه ذكر 'القصر المقدس' أو 'القصر الباطن'، وهو 'مركز العالم' الحقيقى من منظور هيئة الكون *cosmogonic sense*، ونرى أن 'القصر المقدس' له صورة فى عالم الإنسان

حيث إنه موئل ’الحضور الربانى الحقيقى شكيناه’[1]، وعند الإسرائيليين أن شكيناه هى قبة العهد ميشكان التى اعتبروها ’قلب العالم‘، فقد كانت على الحقيقة مركز تراثهم الروحى، ولم يكن لها مكان بعينه فى أول الأمر حيث كان المركز الروحى لقبائل الرعى لابد أن يتحرك معهم ويظل ذاته دائما، ويقول فوليو Paul Vulliaud " لم يكن لموئل شكيناه موضعا ثابتا قبل بناء المعبد، والذى زود فيه داود سليمان بالذهب والفضة وكل ما يلزم لإتمام العمل[2]، وكانت قبة العهد قُدس أقداس يهوى وموئل الحضور الربانى، وهو قلب معبد صهيون Zion أو أورشليم، وهو قلب أرض إسرائيل التى هى مركز العالم[3]، ونرى فى هذه المتوالية اتساعًا لفكرة المركز حتى إن تسمية ’مركز العالم‘ و ’قلب العالم‘ تمتد على أرض إسرائيل بأكملها باعتبارها ’أرضًا مقدسة‘، ونضيف هنا أن لها تسميات أخرى منها ’أرض المحيا‘ التى تتكون من سبع أراضى، ويلاحظ فاليو أن‘ أرض كنعان تسكنها سبع أمم‘[4]، وهو أمر صحيح حرفيًا رغم إمكان تفسيره الرمزى، ويرادف تعبير ’أرض الأحياء‘ تمامًا و’موئل الخلود‘، وتطبق الكاثوليكية هذه التسمية على ’الموئل السماوى‘ للمختارين، والتى ترمز إليه الأرض الموعودة، حيث إن دخولها نهاية الشتات، ومن منظور آخر أن أرض إسرائيل كمركز روحى صورة للسماء، فيقول التراث اليهودى "إن كل ما يستطيع الإسرائيليون إنجازه على الأرض يتفق مع ازدهار عالم السماء"[5].

وما قيل عن الإسرائيليين يصدق على كل الأديان التراثية الأرثوذكسية، والواقع أن الأمة الإسرائيلية ليست الوحيدة التى ربطت أرضها بقلب العالم، واعتبرت نفسها صورة السماء، وعلى كلٍ فالفكرتان فكرة واحدة على الحقيقة، فهذه الرمزية مشهودة فى شعوب أخرى كان لديها ’أرض مقدسة‘، أى مركز روحى يقوم بدور يضاهى معبد أورشليم عند العبرانيين، وهو مثل نُصُبٍ مقدس

---

1 *See our articles 'Le Coeur du Monde dans la Kabbale hebraique' and 'La Terre Sainte et le Coeur du Monde' in the journal Regnabit, July-August and September- October 1926. Cf. also chap. 4 of The Symbolism of the Cross.*

2 ومن المناسب أن التعبير هنا يثير انطباعا شائعا بين بناء المعبد بمعناه المثالى وبين ’العمل الأعظم‘ عند الهرامسة..

3 *La Kabbale juive, Paris, 1923, P509.*

4 *Ibid.,vol.2,pu6.*

5 *Ibid., vol.1, p;oi.*

Omphalos يصور 'مركز العالم' للشعب الذى يعيش فى موضعه[6].

وقد شاعت هذه الرمزية عند قدماء المصريين على الأخص، ويقول بلوتارك "إن مصر تتميز بأسود تربة فى العالم، ويسمونها باسم سواد العين 'كيميا *Chemia*'"[7]، ويضاهونها بالقلب، وكان السبب الغريب عند الكاتب أنها "دافئة رطبة وتجاور الشطر المأهول من العالم مثل القلب إلى يسار الإنسان[8]... ويعتقد المصريون أنهم الشطر الشرقى الذى يواجه العالم الشمالى إلى اليمين والعالم الجنوبى إلى اليسار"[9]، وهذه التناظرات سطحية، لكن السبب الحقيقى لا بد أن يكون مختلفًا حيث إن المضاهاة بالقلب قد جرت فى كل أرض عاش بها تراث روحى مركزى مقدس بغض النظر عن الموقع الجغرافى، كما أن بلوتارك رأى أن القلب رمز إلى مصر وإلى السماء فى الآن ذاته، "والسماوات خالدة لا زمن لها، وتشاكل القلب فيما تحتها"[10]، وهكذا كان القلب كأسا، وليس سوى 'الكأس المقدس *Holy Grail*' فى العصور الوسطى فى الغرب، وكانت وظيفته الرمز إلى مصر والسماء فى أن.

وبناءًا على هذه الاعتبارات فإن هناك عديد من 'الأراضى المقدسة' كما أن هناك صورًا تراثية منتظمة حيث إنها تناظر الصور التراثية المختلفة، ولو انطبقت الرمزية ذاتها على كل الأراضى المقدسة فذلك بفضل المراكز الروحية التى لها بنية مشاكلة للمركز، وتمتد لتشتمل على كل التفاصيل بمدى ما تشاكل المركز الروحى الأسمى، وهو 'مركز العالم' الحق، والذى يستقون منه الصفات التى تشارك بطبيعتها فى التواصل الذى يشكل الأرثوذكسية، ويمثل جانبه الظاهر عمليًا فى أزمنة

---

6 راجع الباب 25 من هذا الكتاب..

7 تعنى 'كيمى' فى اللغة المصرية القديمة 'الأرض السوداء'، وهى تسمية تساوى ما وجدد فى شعوب أخرى، وقد تشقق منها اسم علم الخيمياء الهرمسى، أى علم مصر المقدس.

8 *'Isis and Osiris', in Plutarch, Moralia, vol. v., tr. Frank Cole Babbitt (Cambridge: Harvard University Press, 1936), par. 33, p83.*

9 *Ibid., par. 32, p 79. In India on the contrary it is the south that is designated as the 'right side' (dakshina)\ but despite appearances this comes to the same thing, for this should be understood as the side to one's right when facing the east, while on the other hand it is easy to visualize the left side of the world as extending to the right of the person contemplating it, and conversely—as happens for two persons facing each other.*

10 *Ibid., par. 10, p27. This symbol, with the significance it is given here, seems comparable to that of the phoenix.*

وأماكن بعينها، أى إن هناك أرضًا مقدسة واحدة هى النموذج الأولانى لكافة المراكز الروحية التى تفرعت عنها، وهى محل التراث الأولانى الذى تمتاح منه كل الأديان التراثية المخصوصة التى اشتُقَّت منه وتعدلت عنه بخصوصيتها بصرف النظر عن أحوال الذين عاصروا تلك الحقب، وهذه 'الأرض المقدسة' هى 'الوطن الأسمى' بالمعنى السنسكريتى *باراديشا* التى اشتق منها الكلدانيون 'بارديس' والغربيون *Paradise*، وهى على الحقيقة 'الفردوس الأرضى'، وهى منطلق كل تراث كان، ومركزها ينبوع يتدفق فى الجهات الأربع[11]، كما أنها 'موئل الخالدين' فى سفر التكوين[12].

ولا نملك هنا العودة إلى كل ما كتبنا فى مسألة المركز الروحى الأسمى الذى عالجناه بدرجة من التدقيق فى مواضع أخرى، وقد جرى حفظها بدرجات مختلفة من السرِّية من أول دورة الإنسان إلى آخرها، أى من 'الفردوس الأرضى' إلى 'أورشليم السماوية' اللتان تمثلا نقيضين، وكانت الأسماء المختلفة التى سميت بها 'تولا' و'لووز' و'ساليم' و'أجارثا'، وكانت الرموز التى ارتبط بها الجبل والمغارة والجزيرة وغيرها، وتقوم فى معظم الأحوال على رمزية 'القطب' و'محور العالم'، ونضيف إليها 'المدينة' و'القلعة' و'المعبد' و'القصر' من المنظور إليه، وأحيانًا ما ترد مناسبة يُذكر فيها معبد سليمان، والذى يتعلق مباشرة بموضوعنا الحالى، لكنه كذلك مساحة ثلاثية تمثل درجات التعميد ومراتبه لمراكز تراثية بعينها[13]، وكذلك المتاهة الغامضة فى صورة أشد تعقيدا، لكنها تحفظ فكرة رحلة الحجيج إلى مركز

---

11 وهذا الينبوع يضاهى 'نبع التعاليم' الذى ذكرناه فى أعمال عدة، وسيأتى ذكره لاحقا.

12 ولذلك كان 'نبع التعاليم' كذلك 'نبع الشباب المتجدد *fons juventutis*'، فمن يشرب منه يتحرر من أحواله الزمنية، كما أنه النبع الذى يسقى 'شجرة الحياة'، راجع *'The Secret Language of Dante and the Fedeli d'Amore', in Insights into Christian Esoterism, chaps. 4 and 5*، ويتماهى ماؤه مع 'أكسير الحياه' عند الهرامسة، أو 'شراب الخلود' الذى عُرف بأسماء شتى.

13 راجع باب *12* 'ساحات الدرويديين الثلاثة' حيث عالجنا العلاقة بين الشكلين الدائرى والمربع فى إطار رمزية 'الفردوس الأرضى وأورشليم السملوية'.

خفى[14].

ونضيف الآن رمزية 'الأرض المقدسة' بمعناها المزدوج، فسواءً تعلقت بالمركز الأسمى أم بالمراكز التابعة فإنها تشاكل الارتباط الطبيعى بين التراث الذى انبثق فيها أو كانت محفوظة فى طياته، ففى الحالة الأولى يكون التراث أولانيا، وفى الحالة الثانية يكون صورة تراثية[15]، وتظهر ازدواجية المعنى فى رمزية 'الكأس المقدس' بمعنى 'إناء grasale' و'كتاب gradate or graduate'، ويعنى الأخير التراث ويعنى الأول الحال الذى يناظر فاعلية التراث، أى 'الحال الفردوسى' لو كنا نتناول التراث الأولانى فكل من بلغ هذا الحال يمكنٍ أن يقول إنه يسكن فى 'مركز العالم' أى الفردوس[16]، ولم يكن جمع الرمزين معًا بلا جدوى حيث إن تشابههما يبين أن الحديث عن 'فرسان الكأس المقدس' و'سدنة الأرض المقدسة' أمر واحد، ويبقى تفسير وظيفتهما المنوطة بفرسان المعبد بقدر الإمكان[17].

وحتى نفهم ما نتناول هنا لا بد أن نميز بين 'سدنة التراث' الذين يحفظونه

---

14 وقد كانت المتاهة الكريتية قصر مينوس الذى يتماهى اسمه مع مانو الهندوسى الذى يعنى 'المشرِّع الأولانى' ويتضح من هذا المنظور لماذا كان الذين لا يستطيعون الحج إلى الأرض المقدسة يسيرون على المتاهة المرسومة على أرضية بعض الكنائس فى العصور الوسطى، ولنتذكر أن الحج إلى الأرض المقدسة كان أحد شروط التعميد بالمعنى الجوانى، ويشاكل مفهوم 'البحث عن الكلمة المفقودة' أو 'السعى إلى الكأس المقدس *Holy Grail*'.

15 ويشاكل 'مركز العالم' من منظور هيئة الكون *cosmogonic viewpoint* النقطة الأصلية التى صدرت منها الكلمة الخالقة، كما أنها تمثل الكلمة ذاتها.

16 ومن المهم أن نتذكر أن معظم الأديان ترى فى الأماكن رمزا للأحوال، ونشير إلى أن هناك صلة بين رمزية الكأس وبين النبع المذكور عاليه، وقد رأينا سلفا أن الكأس المقدس المصرى القديم كان رمزا للقلب والمركز الحيوى للكائن، وأخيرا نتذكر ما أوردناه سلفا عن أن الخمر بديل لرحيق سوما الفيدى ورمز للمذهب الخفى، وفى كل ذلك كانت الغاية 'رحيق الخلود' واستعادة 'الحال الأولانى'.

17 ويشير سانت إيف دالفايدر *Saint-Yves d'Alveydre* إلى 'سدنة' المركز الأسمى باسم فرسان المعبد *Templars* أو أجارثا *Agartha*، وتؤكد ملحوظتنا على سلامة هذا التعبير رغم أنه لم يدرك معناه الكامل.

ويذشرونه و بين ا لذين يستقبلونه بدرجة أو أخرى، ويجوز القول إنهم يشاركون فيه، ويبقى السدنة والوعاظ الأصليين فى المركز ذاته، ومن ثم ينتشر المذهب على نحو بذيوى فى مراتب التعميد بحسب التيارات التى يرمز إليها الأنهار الأربعة للفردوس أو تذكرنا بها الصور التى طرحناها فى موضع آخر بتدقيق أكثر[18], وتجرى الأنهار من الداخل إلى الخارج لربط كل المواقع االمغلقة بعضها ببعض بحيث تذشاكل، فليس كل من يشارك فى تراث يصل إلى المرتبة ذاتها ولا يؤدى الوظيفة ذاتها، ولابد من التمييز بين هذين الأمرين رغم تناظرهما، وليسا متصلان بلا انفصام، فقد يكون هناك من يصل إلى أعلى مراتب الفكر ولكنه لا يقدر على أداء وظائف المنظمة التعميدية، لكن الوظائف هى مناط الاعتبار، ومن هذا المنظور يقف السدنة على حدود المركز الروحى بمعناه الأوسع أو حول الأماكن المغلقة، ليفصلوا بين المركز و بين العالم ا لذى يحيط به، وهكذا يقوم السدنة بوظيفتين، فهم يدافعون عن المركز من ناحية، فهم حُمَاة الأرض المقدسة من الذين لا يحملون ما يؤهلهم لدخولها ويشكلون ’الغطاء الخارجى‘ لها ليخفيها عن العيون الدنيوية، ومن ناحية أخرى يحافظون على العلاقات المنتظمة مع خارجها كما سنرى.

وفى لغة التراث الهندوسى ينتمى حارسِ التراث إلى طبقة الكشطريا، وهى فروسية تعميدية على منوال المحاربين التى يُشتَقّ منها رمزية مخصوصة، وخاصة فيما تعلق بتدخل عناصر فعالة تسمى ’المحبة *love*‘، وهو أمر عرضنا له من قبل[19]، لكن فرسان المعبد كان لديهم أكثر من ذلك، رغم أن تعميدهم كان فى ’الفروسية‘ بالضرورة كما يجب بطبيعة وظيفتهم، فكان لهم سمة مزدوجة بين العسكرية والدينية، وهو ما حدا بنا إلى الاعتقاد بأنهم من ’السدنة‘ الذن يحرسون المركز الأسمى، حيث يتوحد فيها النفوذ الروحى والسلطة الزمنية حول مبدأهما المشترك، ومن ثم يضفون هذه الوحدة على كل شيء، أما فى العالم الغربى حيث تكتسب الوظيفة صبغة دينية سطحية فإن ’السدنة‘ الحقيقيين للأرض المقدسة

18 راجع باب *12* ’ساحات الدرويديين الثلاثة‘.

19 *See 'The Secret Language of Dante and the Fedeli d'Amore' in Insights into Christian Esoterism, chaps. 4 and 5.*

طالما اكتسبوا وجودًا 'رسميا' لا بد أن يكونوا فرسانًا ورهبانًا فى الآن ذاته، وهذه هى حقيقة فرسان المعبد.

ويضعنا ذلك مباشرة حيال دور 'سدنة' المركز الأسمى فى توكيد علاقات ظاهرية بعينها للحفاظ على الصلة الأولانية بينه وبين المراكز الثانوية المشتقة منه، ولا بد لكل صورة تراثية أن تحتكم على مؤسسات تنتمى للصورة ذاتها، ولكنها تتكون من رجال يعلمون ما وراء كافة الصور، أى إن المذهب أو الجوهر فى كل شيء ليس إلا التراث الأولانى، أى أن المنظمات فى التراث اليهودى المسيحى قد اتخذت معبد سليمان رمزًا بعد أن زال من الوجود الفعلى، ولم يكن له إلا معنىً 'مثاليًا' كانعكاس للمركز الأسمى، ويبين تأصيل كلمة 'أورشليم' الغامضة فكرة ملكى صادق عن 'ساليم'، ولو كانت هذه هى طبيعة فرسان المعبد والواجب المنوط بهم فى أديان بعينها فى الغرب فقد ظلوا ظاهريًا مرتبطون بهذه الصورة من التراث، لكن وعيهم الباطن بالوحدة المذهبية بين كل الأديان قد مكنهم من التواصل مع ممثلى الأديان الأخرى[20]، وهو ما يفسر العلاقة بين بعض المنظمات الشرقية على نحو طبيعى مع الذين يقومون بالدور نفسه فى أديانهم.

وتوضح هذه الاعتبارات أن تحطيم طائفة فرسان المعبد[21] كان علامة على فتق الصلة بين الغرب وبين 'مركز العالم' وما تلاه من انحراف تفاقم تدريجيًا حتى زمننا، ولابد أنه بدأ فى القرن الرابع عشر، ولا يعنى ذلك أن كل العلاقات قد تقطعت من أسفلها، لكن العلاقة قد استمرت على منوال خفى بالمركز الأسمى فى منظومات على شاكلة *Fede Santa*[22] أو صرعى الغرام[23] أو ماسونية سانت جرال *Massenie du Saint-Graal*، ولاشك فى وجود منظومات أخرى تميزت بروح فرسان المعبد، والتى ترابطت على شكل 'إخوّات *filiations*'، والذين حافظوا على

20 *This relates to what has been called symbolically the 'gift of tongues'; on this subject we would refer readers to the study of the same name [chap. 37] in Perspectives on Initiation.*

21 ودائمًا ما كان جينو يستخدم التسمية الكاملة لفرسان المعبد. المحقق.

22 وهى طائفة ثالثة من فرسان المعبد. المحقق.

23 *The 'Faithful of Love'. The Italian spelling for this association has been used throughout in preference to the French Fedeles d'Amour. Ed.*

استمرارها دون أن يكتسبوا أى نوع من 'الرسمية'، ولكنهم تميزوا بالاسم الرمزى 'أخوَّة الصليب الوردى'، ولكن جاء الزمن الذى اضطروا فيه إلى مغادرة الغرب بعد أن استحال العمل، وهكذا قيل أنهم انسحبوا إلى آسيا حيث امتصهم المركز الأسمى الذين كانوا تجلياً له، ولم يعد فى الغرب 'أرض مقدسة' تحتاج إلى حماية، حيث إن الطريق الذى يؤدى إليها قد امَّحى تماما، فإلى متى يمكن استمرار هذا الموقف؟ وهل يمكن أن نأمل فى تحقيق تواصل آجلاً أم عاجلاً؟ وليس من شأننا الإجابة على هذا السؤال، ولا نرغب فى المخاطرة بأية توقعات، فالحل يعتمد تماماً على الغرب ذاته، فالعودة إلى النظام الطبيعى واستعادة الروح من تراثها ذاته سوف يستطيع فتح الطريق إلى 'مركز العالم' مرة أخرى.

12 بلاد الشمس

إن من الصعب اكتشاف التماهى بين المواضع التى تقوم بدور فى أسطورة 'الكأس المقدس *the legend of the Holy Grail*'، ويعلق البعض أهمية كبرى على جلا ستونبرى حيث يقال إن يوسف الأرماتى استقر هناك بعد وصوله إلى بريطانيا، والتى كانت مسرحًا لأمور شتى كما سنرى لاحقا، ولاشك فى أن كثيرًا من المفاهيم التى ارتبطت بها كانت أقرب إلى التخليط، ولكن يستحيل ألا نجد فى خضم هذا الخلط فكرة أو اثنين من منظور' الجغرافيا المقدسة، عن مواقع مراكز تراثية، فهذا ما كشفته الحفريات الأثرية الأخيرة فى متنٍ بلا كاتب معلوم[1]، وربما احتاج بعضه إلى تحفظات، لكن الجزء الجوهرى بخرائطه لم يكن إلا خيالٌ محض، فقد نشأ فى عصر ما قبل التاريخ فى جلاستونبرى وما جاورها من منطقة سمرسيت 'معبدًا فلكيًا' هائلًا يتكون من كتل حجرية جسيمة مرتبة فى دائرة كما لو كانت قبة سماوية تصور السماء على سطح الأرض.

ويذكرنا البناء المركب بأعمال بنّاؤ الجبانات فى أمريكا الشمالية القديمة، كما أن طبيعة الأنهار والتلال توحى بأن اختيار هذا الموقع لم يكن اعتباطيًا بل كان مقدرًا سلفًا، ويقول الكاتب المجهول "إن عملًا فنيًا لبناءٍ على أساس مبادئ الهندسة كان أمرًا ضروريًا[2] لكمال التصميم"، ولو بقيت هذه الآثار على شكل

---

[1] *A Guide to Glastonbury's Temple of the Stars, its giant effigies described from air views, maps, and from 'The High History of the Holy GraaL [First published in 1929; the most recent edition of this work (London: lames Clarke & Co., 1964) gives the author as K.E. Maltwood· Ed.]*

[2] *This expression is obviously intended to inform us that the tradition from which this art derived has been continued in what later became the Masonic tradition.*

يسمح بالتعرف عليها الآن فيجوز افتراض أن رهبان جلاستونبرى لابد قد حافظوا عليها حتى عصر الإصلاح، ولابد أنهم ورثوا معارف تراثية من أسلافهم القدماء، ولا شك أنهم من الدرويدين ومن سبقهم بالضرورة، فالنتائج التى تحصلت من أوضاع الأجرام السماوية صحيحة، ويرجع أصلها إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد[3].

وتشكل الدائرة الشاسعة 'دائرة بروج *zodiac*' هائلة، ويدعى الكاتب إنها النموذج الأولى 'المائدة المستديرة'، والواقع أن هذه المائدة التى يجلس حولها اثنى عشر حكيمًا مرتبطة بدورة البروج، إلا أن ذلك لا يعنى أنهم لا يمثلون سوى أبراج الفلك التى ليست سوى رموز بدورها، وسيكون التمثيل الرمزى 'طبيعيا' فحسب، ولابد من تذكر أن هذا التركيب كان يقوم فى كل المراكز الروحية فى جميع الصور التراثية[4]، وتبدو لنا 'مائدة الفرسان المستديرة' و'السعى إلى الكأس المقدس' أمرًا يثير الشك لو كانت مجرد تمثيل 'درامى' للكتل الحجرية فى جلاستونبرى وهيئتها الجغرافية، بل كانت نظائرًا لها بموجب قانون التناظر الرمزى، وليس مما يثير الدهشة أن هذا التناظر حقيقى حتى فى حدود التفاصيل الثانوية للأسطورة التى لن نتطرق إليها هنا.

وبعد هذا القول من المهم ملاحظة أن بعض الخصائص التى تسم دائرة بروج جلاستونبرى دليل على أصالتها، ومنها على سبيل المثال غياب برج الميزان *Libra*[5]، فلم تكن الموازين السماوية على الدوام 'بُرجية' بل 'قطبية' فى أول أمرها، وكانت ترمز إلى مجموعتى الدب الأكبر والدب الأصغر معا، وهناك أسباب تدعو إلى الاعتقاد بأن المحور القطبي الذى ترمز له رأس الثعبان التى تعنى 'التنين

---

[3] ويبدو أن فرسان المعبد قد أسهموا بنصيب من الحوار، وهو ما يتسق مع صلاتهم المفترضة مع 'فرسان المائدة المستديرة' ودورهم كسدنة للكأس المقدس *Grail*، ونلاحظ أن تأسيس طائفة فرسان المعبد غالبا ما تقوم بجوار صروح أثرية أو خرائب من قبل التاريخ، وهو ما يجب اعتباره أكثر من مجرد صدفة.

[4] راجع 'ملك العالم' باب *5*، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

[5] المرجع السابق باب *10*.

السماوى’[6] تُعزى إلى حقبة سبقت نقل الميزان إلى علامات البروج، ومن ناحية أخرى هناك اعتبار مهم يتعلق برمز الميزان القطبي مرتبطًا بمفهوم ’تولا‘ التى كانت اسمًا للمركز القطبي فى التراث الأولانى، وكان مركزه ’المعبد الفلكى *stellar temple*’ أحد هذه الصور، والذى كان على طول الزمن موضعًا يرمز إلى القوى الروحية التى تشع مباشرة من التراث ذاته[7].

وقد طرحنا فيما سلف استخدام كلمة ’سُريانى‘ لوصف اللغة الآدمية[8]، كما ذكرنا ’سُوريا‘ بمعنى ’بلاد الشمس‘، وقد ذكر هوميروس جزيرة ’فيما وراء أوجيجيا *Ogygia*‘، والتى لا يمكن أن يضاهيها إلا ’تولا‘ أو ’ثولا‘ القطبية، فيقول "إن هناك دورات للشمس"، وهو تعبير مُلغِز يمكن أن يشير فحسب إلى الطبيعة الدورية المركزية لهذه الدورات، ولكنه يمكن أن يشير إلى رسم دائرة البروج ذاتها، وهو ما يفسر السبب الذى دعا إلى نسخها فى منطقة قُدِّر لها أن تكون صورة للمركز، وهنا نعالج تفسير الاضطرابات التى أشرنا إليها فى أول هذا الباب، فقد تكون قد نشأت على نحو طبيعى فى سياق تطور الأمور فى فهم صورة المركز الأصلى ذاته وصعوبة تماهى جلاستونبرى مع جزيرة أفالون[9]، فلا يتسق هذا التماهى مع واقع استحالة الوصول إلى الجزيرة، كما أنه يناقض الرأى المعقول الذى يقول بأن ’مملكة لوجريس *Kingdom of Logres*’ تقع فى منطقة سمرسيت، ويقال إنها تقع فى

---

6 راجع ’سفر يتسيراه‘ "ويتوسط التنين السماء كملك على عرشه"، و"حكمة الثعبان" التى يشير إليها الكاتب يمكن أن تماهى فى سياقات بعينها مع الحكماء القطبيين *Rishis*، كما أن من العجيب أن التنين عند الكلتيين رمز للرئيس، وأن آرثر *Arthur* عندهم هو ابن أوثر بندراجون *Uther Pendragon*.

7 ويسمح لنا ذلك بفهم صلات بعينها ذكرها الكاتب ضمن حديثه عن الرمزية القطبية، وهى ‘الفردوس الأرضى’ خاصة فيما تعلق بالشجرة والثعبان، والتى كانت عادة ما تدور حول رمزية المركز الأولانى، كما تشير إليها نقاط المثلث.

8 راجع الباب السادس ‘علم الحروف’ عاليه.

9 وغالبا ما اعتُبِرت جلاستوبيرى ‘جزيرة البلور’ عند البعض، وقد ورد ذكرها فى سياق أسطورة الكأس المقدس، وربما حدث هنا بعض الخلط بينها وبين مركز خفى متناءٍ فى المكان والزمان رغم أن اسمه لا ينطبق على المركز الأولانى ذاته.

بريطانيا العظمى، وهو ما قد يكون المملكة المذكورة وأنها منطقة مقدسة، وقد اشتقت اسمها من كلمة *Lug* الكلتية، والتى تعنى 'الكلمة' و'النور'، كما يضاهى اسم 'أفالون *Belen or Ablun*'، أى الاسم الكلتى 'لأبوللو القطبى *Hyperborean Apollo*'[10]، أى إن اسم 'أفالون' اسم آخر 'لبلاد الشمس' التى حملت الرمز من الشمال إلى الغرب بتناظر جرى فى أحد التغيرات الرئيسية للصور التراثية المتنوعة فى سياق دورة الإنسانية الحالية *مانفانتارا*[11].

وقد حملتنا تلك الأفكار إلى ملاحظة أغرب قد يستحيل تفسيرها من أول وهلة، ألا وهى ربط دائرة بروج جلاستونبرى بالفينيقيين، والواقع أن هؤلاء القوم قد اشتهروا بالفرضيات، إلا أن ارتباطهم بهذه الحقبة التاريخية لازال موضع شك، لكن لابد من مراعاة أن الفينيقيين قد عاشوا فى منطقة سوريا التاريخية، فهل جرى على اسمهم تغيرات بانتقالهم من هذه الأرض؟ وقد خطرت لنا تلك الفرضية لصلتها برمزية 'العنقاء *Phoenix*'، ويقول يوسيفوس إن عاصمة سوريا الأولانية كانت تسمى 'مدينة الشمس *Heliopolis*'، والتى انتقل اسمها إلى مدينة 'أون' فى مصر، وأن فكرة العنقاء وتوالدها الدورى لابد تنتمى إلى مدينة الشمس الأولى وليس إلى المدينة المصرية بالاسم ذاته، وقال ديودوروس الصقلى إن آكتيس اسم أحد أبناء الشمس هليوس هو مؤسس مدينة هليوبوليس، وقد اتفق أن آكتيس اسم مكان من ضواحى جلاستونبرى، وترتبط عن قرب بالعنقاء *Phoenix*، والتى حملت صلات رمزية أخرى، فقد تحول 'أمير هليوبوليس' ذاته،

---

[10] ونعلم أن جبل سانت مايكل كان يسمى *Tombelaine*، أو جبل بيلين، وليس 'قبر هيلين' كما ورد فى بعض التفاسير الحديثة، لكن استبدال اسم رئيس الملائكة باسم بيلين لم يغير شيئا من معناه الرمزى، ومن العجيب أن 'تلّ سانت مايكل *St Michael's Hill*' فى هذه المنطقة يناظر 'مملكة لوجريس *Kingdom of Logres*' القديمة.

[11] وقد كان هذا التحول يماثل تغير سابتا ريكشا *sapta-riksha* فى الدب الأكبر إلى بليادس *Pleiades* ويناظر التغير الذى جرى على بداية العام من اعتدال *solstitial* إلى انقلاب *equinoctial*، ولابد أن معنى رمز التفاحة قد ارتبط باسم أفالون *Avalon* كان أمرا ثانويا فى اللغة الكلتية، إلا أن ذلك لا يناقض ما ذكرنا توًا، فهناك مسألة التفاحات الذهبية فى 'فردوس الهسبيريدس *Hesperides*'، أى أول الثمار الشمسية فى 'شجرة العالم'.

و بالطبع كان الكاتب مشوشًا بتعدد الاسم وتحولاته، فاعتقد أنها مسألة تتعلق بهليوبوليس المصرية، كما أنه اعتقد بإمكان التحدث حرفيًا عن 'فينيقيين تاريخيين *Phoenicians*'، وهو ما يُغفر له حيث إن كل قدماء 'الأزمنة الكلاسيكية' واقعون فى الخطأ ذاته، ولا تصلح إلا معرفة الأصل القطبي للتراث الذى ذُهِل عنه الكاتب لكى نعيد التسميات الحقيقية إلى نصابها.

وقد رُمز إلى برج الدلو *Aquarius* فى دائرة بروج جلادستونبرى بصورة غير متوقعة لطائر أصاب الكاتب بتسميته الرَّخ *Phoenix*، ويحمل كأسًا ليس إلا كأس الخلود *the Grail*، كما أن مضاهاته بالنسر الهندوسى *جارودا* صحيحة تماما[12]، وعند العرب أن 'الرُّخ' لا يظهر مطلقًا إلا فى جبل قاف القطبي، ويأتى رحيق سوما فى التراث الهندوسى والفارسى من الجبل ذاته، وهو رحيق الخلود الذى يتماهى مع *آمريتا* و أمبروزيا[13].

كما أن هناك طائر آخر أشد عوصًا فى الترجمة المنضبطة، فقد يتخذ صورة رمز برج الميزان الفلكى، لكن موطنه أقرب إلى القطب منه إلى دائرة البروج، وحيث إن جناحية يرمزا إلى مجموعة الدب الأكبر التى تؤيد ما ذهبنا إليه سلفًا، أما عن طبيعة هذا الطائر فهناك فرضيتين، فإما كان حمامة وهو ما يتفق مع مذهب الكأس المقدس، وأما كان أوزة أو بجعة ترقد على 'بيضة العالم'، وتساوى رمز *هامسا* الهندوسى، ونفضل الفرضية الثانية حيث إن رمز البجعة متصل مع أبوللو القطبي، وخاصة فى سياقنا الحالى، حيث إن كيكنوس اليونانى كان ابن أبوللو و هيريا، أى ابن الشمس و'بلاد الشمس'، ولا تعنى *هيريا* إلا صورة أخرى من سوريا، وهكذا كانت المسألة هى 'الجزيرة المقدسة'، وسيكون من الغريب ألا تمثُل

---

[12] راجع باب '7 لغة الطير'، وعلامة برج الدلو *Aquarius* عادة ما تمثل جانيميد *Ganymede* الذى نعرف صلته برحيق الأرباب *ambrosia* وعلاقته بنسر زيوس، والذى يتماهى مع النسر جارودا الهندوسى.

[13] راجع 'ملك العالم' البابين 5 و 6. ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

فيها البجعة[14]، ولا شك أن كثيرًا من النقاط تستحق الانتباه مثل التشابه بين اسم *Somerset* و'بلاد الشمس' عند الكيمّريون *Cimmerians* وعدة شعوب أخرى، والأرجح أنها لا تشير إلى قرابة عرقية بقدر ما تعنى إجماعًا تراثيًا، لكن هذا الأمر سيخرج بنا عن موضوعنا، وقد قلنا ما يكفى للإشارة إلى مجالات البحث التى لم تحظ بدراسة، كما نحكى طرفًا عن الأديان المتنوعة وقرابتها للتراث الأولانى.

[14] كما أن المضاهاة بين هامسا و جارودا طبيعية تماما، وأحيانا ما اجتمعا فى طائر واحد، واذى انبثق عنه النسر المحارب ذا الرأسين، ويبدو كما لو كان ازدواجا لجارودا، أما هامساجارودا فلها رأسى بجعة ونسر.

13 دائرة البروج والاتجاهات الأصلية

لفت هوكارت *A.M. Hocart* النظر بكتابه عن الطبقات *castes* إلى واقع "أن نظام المدينة يبدأ بتقسيمها على أربع مجموعات كل منها تواجه اتجاهًا أصليًا فى إطار مربع أو دائرى"، كما قال إن هذا التقسيم لا يقتصر على الهند حيث توجد عدة أمثلة منه فى بلاد أخرى، وعادة ما ارتبطت أحد العناصر باتجاه أصلى وتميزت بلون شعار الطبقة التى تقطن اتجاهًا بعينه[15]، وفى الهند يحتل البراهميون الشمال ويقطن الكشطريا الشرق ويسكن الفايشا الجنوب ويلجأ الشودرا إلى الغرب، وهكذا كان التقسيم على 'أرباعٍ' نظامًا صارمًا فى المدينة، لكن استخدام الأراضى الحديث تجاهل ذلك تمامًا، ولا حاجة لقول إن هذا التقسيم يتعلق بالمعنى العام للاتجاهات الأصلية، والتى نعلم أنها قامت بدور مهم فى كل الحضارات التراثية الغابرة والعناية بالمدينة ومرافقها.

لكن هوكارت كان فى حيرة فى تفسيره للموضع الصحيح لكل من الطبقات الأربع[16]، وكان سببها خطأه فى اعتبار الطبقة الملكية من الكشاطريا أول الطبقات، ولذا بدأ بوضعهم فى الشرق، ولم ير أى منطق فى التتابع، وخاصة فى وضع البراهمة فى الشمال، وهو أمر يصعب فهمه، ومن ناحية أخرى لم يكن هناك صعوبة فى اتباع النظام الطبيعى، أى البدء بالبراهمة وهم الطبقة الأولى من الشمال ثم الدوران فى اتجاه *براداكشتنا* أى عقرب الساعة، فنجد أن الطبقات الأربع قد انتظمت على الوجه المألوف، ولا يبقى أمامنا سوى فهم الأسباب الرمزية لهذ التقسيم على الجهات الأصلية.

---

15 *Les Castes, [tr. from English by E.J. Levy and J. Auboyer (Paris: Paul Geuth- ner, 1938)], pp46 and 49. [English translation, Caste. A Comparative Study (New York: Russell & Russell, 1968), Ed.]*

16 *Ibid., p55-*

وتتلخص هذه الأسباب فى واقع أن تخطيط المدينة التراثية لا بد أن يكون على صورة دائرة البروج، وهنا نتعرف على نتائج التناظر بين الاتجاهات الأصلية و بين الفصول، فيناظر الانقلاب الشتوى الشمال، ويناظر الاعتدال الربيعى الشرق، ويناظر الانقلاب الصيفى الجنوب، ويناظر الاعتدال الخريفى الغرب، ويؤدى تقسيم المناطق الأربع إلى أن يساوى كل قسم ثلاثة بروج من الاثنى عشر برجًا، وأحد الانقلابين أو الاعتدالين الذى يمكن أن يسمى 'أصليًا' والعلامتين المجاورتين له على الجانبين، وهكذا يشتمل كل 'ربعٍ' من المدينة على ثلاث علامات على منطقة كالقوس لو كان التخطيط دائريًا، وعلى جانب من المربع لو كان التخطيط رباعيا، ويعبر ذلك عن فكرة الاستقرار لمؤسسة ثابتة دائمة، كما أن المسألة ليست علامات بروج بل مجرد صورة منعكسة لها، ولنتذكر فى هذا السياق أن المنجمون القدامى يلقون بطاباتهم فى ضرب الرمل على إطار مربع، وتحتل ثلاثة بروج كل ضلعٍ منه، وهو أمر سنعود إليه لاحقا.

ويتضح مما تقدم أن توزيع الطبقات فى المدينة يتَّبع سيرورة الدورة السنوية تمامًا، والتى عادة ما تبدأ فى الانقلاب الشتوى، والواقع أن هناك أديان يبدأ العام فيها بفصلٍ مختلف، لكن ذلك مرتبط بعلاقة خاصة بمعنى الفترات الدورية الثانوية، ولا يطرأ هذا السؤال فى التراث الهندوسى الذى يمثل أوثق صلة بالتراث الأولانى، والذى يصر على تقسيم الدورة السنوية إلى قسمين يمثلا صعودها وهبوطها، كما تفتح 'أبواب' انقلابا الصيف والشتاء، والواقع أن ذلك هو المنظور الأصولى فى هذا الشأن، كما أن الشمال يُعَدُّ أعلى نقطة من *أوتارا*[17]، ومن هنا تبدأ نقطة انطلاق التراث، ومما يناسب البراهمة أن يكون الكشطريا مجاورون لهم من اتجاه الشرق مطلع الشمس فى التناظر الدورى، ويمكن الاستنتاج بشكل مشروع من مقارنة هذين الموضعين أن فقهاء البراهمة 'قطبيون' وأن الطائفة الملكية 'شمسيون'، والتى تؤيدها كثير من الاعتبارات الرمزية الأخرى، وربما كانت الطبيعة الشمسية لها علاقة بأن معظم الأفاتارات التاريخيين قد نشأوا من

---

17 و أوتارا مامسا أحد الدارشانات الستة التى أشار إليها التراث الفيدى باسم فيدانتا، أى مذهب اللااثنينية... وتتعلق بتحصيل المعرفة التى يسبقها تطهُّر. موسوعة الفلسفات والأديان الشرقية، ترجمات تراث واحد، قيد النشر. المترجم.

طبقة *الكشطريا*، أما الفايشا فهي الطبقة الثالثة التي تقطن اتجاه الجنوب من المدينة، وهي نهاية التتابع للطبقتين اللتين 'يولد أعضائهما مرتين'، وأما الشودرا فيبقى لهم الغرب الذي يعتبر اتجاه 'الظُلُمات' عموما.

وكل ذلك منطقي تمامًا شريطة صحة فهم نقطة الانطلاق، وحتى نبرر ما ذكرنا حول الطبيعة البرجية *zodiacal character* لتخطيط المدن، وسوف نطرح الآن عدة وقائع تبين أن هناك حالات تقسيم ثنائي رغم أن تخطيط المدينة مبدئيًا يناظر التقسيم الرباعي للمدورة، ومثال ذلك بناء المدن التي أخذها الرومان عن الإتروسك، والتي لها طريقين متعامدين أحدهما كاردو *cardo* من الجنوب إلى الشمال والأخر ديكومانوس *decumanus* من الغرب إلى الشرق، وتقع بوابات المدينة على نهايات الطريقين على الجهات الأصلية، وهكذا انقسمت المدينة إلى أربعة أقسام، لكنها لم تناظر الاتجاهات الأربعة بالدقة التي ظهرت في مواقع المدن الهندية، ولكن في نطاق التفسيم الداخلي فحسب، ولا حاجة للحديث عن ضرورة اعتبار اختلاف الصور التراثية الذي يتطلب تلاؤمات متنوعة، وعلى الأخص مبادئ التقسيم، زد على ذلك أن هذه النقطة هي التي ينبغي الحديث عنها في سياقنا الحالي، والتي تنطبع على التقسيم الرباعي على 'قبائل' تتبع تقسيمًا ثلاثيًا يؤكده تأصيل معنى الكلمة، ويتكون كل منها من أربعة 'فروع *curias*' تنقسم على أربعة أرباع، وينتج عنها تقسيم إثنى عشري.

والمثل الآخر هو العبرانيين الذين اعتبرهم هوكارت مواقع وليس سلالات مما يبرهن على انعدام معرفته بمعنى التقسيم الاثنى عشري، ويكتب قائلاً[18] "إن العبرانيين كانوا على وعي بالتقسيم الاجتماعي إلى أربعة أرباع، وتنقسم مواقعهم الاثنى عشر إلى أربعة أرباع يجمع كل منها ثلاث قبائل يرأس أحدها الاثنين الآخرين، وقد اتخذت قبائل يهوذا الشطر الشرقي وقبائل روبين الشطر الجنوبي وقبائل إفرام الشطر الغربي وقبائل دان الشطر الشمالي، واتخذت قبيلة لاوى الوسط حول الهيكل، كما أنهم انقسموا إلى أربعة جماعات على الاتجاهات الأصلية"[19].

---

[18] *Les Castes, p 127.*

[19] *Num. 2 and 3.*

والواقع أن الأمر لا يتعلق هنا بتنظيم مدينة بل بمخيم أو مضارب عشائر رعوية ترتب عليها توزيع مناطق البلاد بأكملها، إلا أن ذلك لا يختلف عن منظورنا الحالى، وتكمن الصعوبة فى المقارنة المنضبطة بينه وبين ما وُجِد فى مناطق أخرى من واقع انعدام الوظائف الاجتماعية التى تُكلَّف بها القبائل، ومن ثم لا يمكن التفرقة بينها كطبقات، لكن هناك نقطة واحدة على الأقل تحقق فيها التشابه مع الترتيب الهندى، فالجماعة الملكية ليهوذا قد اتخذت الاتجاه الشرقى، كما أن قبيلة اللاويين الكهنوتية التى لم تُعَدّ ضمن العشائر الاثنى عشر لم يكن لها موقع على المحيط الرباعى، وبالتالى لم تُخَصص لها أية منطقة من البلاد، ويُفَسَّر موقعهم من المخيم من واقع أن مهمتهم كانت خدمة معبد واحد، وكان الهيكل فى موضعه الطبيعى فى المركز، وأيًا كان ذلك فإن المهم فى السياق الحالى ملاحظة أن العشائر الاثنى عشر قد توزعت على ثلاثة من أضلاع المربع التى تقع على الاتجاهات الأصلية، ومن المعلوم أن هناك تناظر رمزى بين العشائر الاثنى عشر لإسرائيل وبين علامات دائرة البروج، مما لا يترك مجالًا للشك فى طبيعة التوزيع المذكور، ونضيف فحسب أن القبيلة الرئيسية على كل جانبٍ من المربع تناظر اتجاهًا أصليًا، فى حين تجاور القبيلتين الأخرتين العلامات المجاورة.

ولو أشرنا الآن إلى الوصف الأخروى عن 'أورشليم السماوية' فسوف نرى أن هذا التخطيط صورة للمخيم العبرى كما وصفناه، كما أنه يتماهى مع 'مربع أو 'تخت' ضرب الرمل *square horoscope*' الذى ذكرناه سلفًا، والمدينة التى بنِيت على مربع لها اثنى عشر بابًا كتبت عليها أسماء عشائر بنى إسرائيل، وقد توزعت بالطريقة ذاتها على الأضلاع الأربعة فى الاتجاهات الأصلية الأربعة، "ثلاثة أبواب إلى الشرق، وثلاثة أبواب إلى الشمال، وثلاثة أبواب إلى الجنوب، وثلاثة أبواب إلى الغرب"، ومن الواضح أن هذه الأبواب الاثنى عشر ترمز إلى الأبراج الاثنى عشرة لدائرة البروج، أما الأبواب الأربعة التى تتوسط كل جهة فتناظر الانقلابين والاعتدالين الفصليين، وترتبط كل من الاثنى عشر موقعًا للشمس

ببرج فلكى، أى الاثنى عشر أديتيا Adityas [20] فى التراث الهندوسى، والذين يظهرون كثمار 'شجرة الحياة' فى مركز المدينة، والتى "تطرح ثمارها كل شهر" بالاتساق مع دورة الشمس السنوية على مدار البروج، وختامًا فإن أحد معانى 'المدينة' على الأقل إنها قد "تنزلت من السماء" كصورة للمثال السماوى الأولانى عندما تحقق فى المدينة الأرضية، ونعتقد أننا قد فسرنا ما يكفى عن أن هذا المثال يرمز جوهريًا إلى دائرة البروج.

[20] الشمس فى التراث الفيدى، وتترادف أحيانا مع سافترى أو سوريا فى المتون الفيدية، فهو مصدر النور والدفء والنماء، ورب الشمس مُقدس فى كل أرجاء الكون، فهو رمز لنور اليقظة عند من يتمتعون ببصيرة ربانية، وتصفه أوبانيشاد بأنه 'من يفوق نوره آلاف الشموس'، والأديتيات أو أرباب الشمس هم أبناء الوعى اللانهائى، ويطلق عليهم أديتيات نسبة لأمهم أديتى. موسوعة الفلسفات والأديان الشرقية، المترجم.

14 النظامان العشرى والرباعى

لقد نوهنا فى دراساتنا عن النظام العشرى الفيثاغورى *Pythagorean Tetraktys* ومعادلته العددية *1+2+3+4= 10*، والتى ربطت بين النظامين العشرى والرباعى على نحو مباشر، كما نعلم الأهمية التى يضفيها الفيثاغوريون عليها حتى إنهم يُقسمون بالتتراكيس المقدس، وربما لم تكن شائعة حيث إنهم لجأوا إلى صيغة أخرى للقَسَم 'بمربع الأربعة'، وليس هناك ما ينمّ عن علاقة بين الصيغتين، إلا أن عدد الأربعة قاعدة لكليهما، ويمكن استنتاج أن المذهب الفيثاغورى كان حريصًا على التناول 'الكونى' أكثر من التناول 'الميتافيزيقى'، والذى لا يُستثنى منه التراث الغربى، فقد كان لنا وقفة فى تفسير الهرمسية، ورغم أنها قد تبدو غريبة لمن يتعود على استخدام الرمزية العددية، ونقصد هنا أن الرباعى كان على الدوام وفى كل أين هو العدد الصحيح للتجلى الكونى، فقد كان نقطة انطلاق علم الكون '*cosmology*'، فى حين كانت الأنظمة السابقة عليه وهى الأحدية والثنوية والثلاثية تنتمى إلى علم الوجود 'أنطولوجيًا *ontology*'، ويناظر النحو إلى توكيد الرباعى 'المنظور الكونى' ذاته.

وقد كانت افتتاحيات رسائل إخوان الصفا تبدأ بالكلمات الأربعة للرباعى الأصولى كما يلى، *1.* المبدأ باسم 'الخالق البارى'، *2.* 'الروح الكونية'، *3.* 'النفس الكونية'، *4.*' الهيولى الأولانية'، ولن نسترسل هنا فى تعداد وجهات النظر المتنوعة حول هذه المصطلحات، فما يهمنا الآن هو الرباعى كفرضية لبداية التجلى، وبمعنى حضور جميع عناصره كضرورة لاكتمال التجليات الكامنة فيه، مثل العناصر

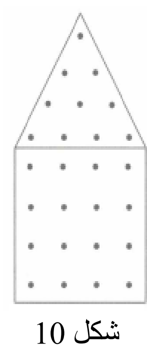
الأربعة، والتى لم يُحتسب الأثير معها نظرًا لأنه ينتمى إلى ’تمايز‘ العناصر، وكذلك الاتجاهات الأصلية الأربعة والمراحل الأربع التى تُقسِّم الدورات ومراحل عمر الإنسان وفصول العام ودورة القمر الشهرية وغيرها، ويمكن إضافة أمثلة لا تحصى لتطبيقات الرباعى، فكلها مترابطة بتناظر متشاكل لمخطط التجلى العام.

وتشكل الدائرة المنقسمة بمحورين متعامدين إلى أربعة أرباع متساوية أحد رموز ’المخطط‘ المذكور، والذى انتشر بين كل أديان العالم، ونرى على الفور أن هذا المخطط الهندسى يعبر تمامًا عن العلاقة بين النظامين العدديين العشرى والرباعى، وعلى منوال المعادلة التى ذكرناها توًا فى صورة حسابية، وهنا نجد الرباعى هندسياً فى صيغته ’السكونية *static*‘ فى المربع، لكن صورته ’الحركية *dynamic*‘ تتجلى فى الصليب الذى لو استدار حول مركزه لرَسَمَ المحيط، والذى يمثل مع مركزه النظام العشرى ذاته، والذى شاكل بالتعبير الهندسى المعادلة الحسابية *1+2+3+4= 10*، وليس تربيع الدائرة الهرمسى إلا تعبيرًا عن تقسيم الدائرة إلى أربعة أقسام بمحورين متعامدين، ولكنها تُكتَب مقلوبة *10=1+2+3+4*، لكى تعبر عن التجلى الكلى الذى عاد إلى الرباعى الأصولى الأول.

وهنا نعود إلى العلاقة بين التتراكيس وبين مربع الأربعة، فيحتل عددا *10* و *16* المرتبة ذاتها فى مصفوفتين مكافئتين من الأعداد الثلاثية والرباعية، ومن المعلوم أن الأعداد الثلاثية هى التى تتحصل بإضافة أعداد صحيحة من المصفوفة المتتابعة من الواحد، وهو أول عدد ثلاثى كما أنه أول عدد رباعى، وهو الأصل والمبدأ الذى تنبثق منه كل الأعداد، والعدد الثلاثى الثانى هو *1+2=3*، وهو ما يبين كيف أنتج الواحد الاثنين باستقطابه ليشكل العدد الثلاثى الحسابى والمثلث الهندسى، حيث يمثل *1* قمة المثلث، و *2* قطبا القاعدة، والمثلث ككل هو العدد الحسابى *3*، والعدد الثلاثى الثالث *1+2+3= 6*، والعدد السداسى ضعف العدد الثلاثى السابق، ويمكن القول إنه عدد ثلاثى جديد نتج عن انعكاس الثلاثى السابق، وهو ما يبدو هندسياً على شكل خاتم سليمان، وهو ما يؤدى كذلك إلى اعتبارات أخرى تخرج عن موضوعنا الحالى، ونستمر فى المصفوفة بإضافة العدد التالى *1+2+3+4 = 10*، وهو التتراكيس، ويترتب على تلك المعادلة التى يشكل التتراكيس أحد حدودها ظهور الرباعى كحاصل جمع مصفوفة الأعداد الأسبق،

ومن هنا جاءت معادلة الطريق والفضيلة *Tao Te Ching*[1]، "الطاو أنتج واحدًا، والواحد أنتج اثنين، والاثنان انتجا ثلاثة، والثلاثة بدورهم ولدوا كل ما فى الوجود من أعداد"، وهو ما يربو إلى قول إن التجليات جميعًا قد انبثقت عن الرباعى، أو على العكس إن الرباعى هو أساس التكامل.

وقد كان التتراكيس ككلٍ عددًا ثلاثيًا يُمَثَّل له برمز ثلاثى، ولكل من أضلاعه أربعة عناصر، ويتكون من عشرة عناصر أحدها المركز، والتسعة هى محيط المثلث، ونلاحظ أنه بالرغم من اختلاف الشكل الهندسى نرى أن تركيبه يساوى تمثيل المنظومة العشرية بدائرة يناظر فيها العدد *1* المركز والعدد *9* المحيط، ولنلاحظ كذلك أن *9* وليس *10* هى عدد المحيط، وأن تقسيمه مضاعفات لعدد *9* مثل *90* درجة للزاوية القائمة و *360* درجة للمحيط بأكمله، والتى أدت مباشرة إلى مسألة 'الأعداد الدورية *cyclic numbers*'.


شكل 10

ويشتمل كلٌ من أضلاع المربع هندسيًا على أربعة عناصر مثل أضلاع المثلث، ولو اعتبرنا كل منها بعدد عناصر أضلاعه لأمكن توحيد الشكلين وتوضع قاعدة المثلث على الضلع العلوى للمربع كما فى شكل *10*، ومن ثم نصل إلى عدد من الملحوظات المهمة.

وأولها أن الشكل الهندسى بما هو تمثيل للسباعى بموجب جمع أضلاع المثلث والمربع، *3+4 = 7*، كما يمكن قول إن السباعى قد تشكل باجتماع المثلث والمربع، وهو ما يسمح بتطبيقات متنوعة، ويكفى القول بأن التناظر بين أعداد المثلث والمربع يجعل المثلث ينتمى إلى مقام يعلو على المربع، كما يمكن استنتاج أن الرمزية الفيثاغورية للتتراكيس سابقة عن رمزية مربع الأربعة *the square of four*، كما يشير كل ما عُرِف عنه إلى ذلك.

وهناك مسألة أكثر غرابة عما تقدم لا يمكن أن تكون مجرد مصادفة، وهى أن مجموع العددين *10* و *16* هو *26*، وهو مجموع القيم العددية التى تشكل تتراجراماتون العبرى *yod-he-vau-he*، كما أن العدد *10* هو أولها *yod*، ومجموع

[1] 'أناشيد الطرق والفضيلة' *42*، ترجمات تراث واحد، قيد الطبع، المترجم.

الثلاثة الأخر *he-vau-he* يساوى *16*، وتقسيم التتراجراماتون طبيعى تمامًا كما أن تناظر شطريه له مغزى عميق، وهكذا يتماهى التتراكيس مع حرف *yod* فى المثلث بينما يُكتب باقى الحروف فى المربع السفلى.

زد على ذلك أن أضلاع المثلث والمربع يحتوى كل منها على أربع نقاط، وحيث إننا نود لفت النظر إلى التوافق بين العلوم التراثية بشكل ثانوى فإن الصفوف الأربعة التى تشكل تحت ضرب الرمل بتوليفات من عددى *1* و *2* تبلغ *42=16*، ويرتبط ضرب الرمل بالأرض على نحو خاص، ويرمز إليها تراث الشرق الأقصى بالمربع[2].

وأخيرا، لو طرقنا مسألة الهندسة الفراغية على ثلاثة أبعاد وتناظراتها مع الهندسة المستوية فإن المكعب فى الأولى يناظر المربع فى الثانية، ويناظر الهرم الرباعى الأوجه فى الأولى المثلث فى الثانية، وتسمى الرمزية الماسونية الشكل الفراغى بأكمله 'الحجر مدبب القمة'، وهو ما يسمى فى الهرمسية 'حجر الفلاسفة'، كما أن هناك ملحوظات أخرى لا تتعلق بالتتراكيس، ويحسُن تناولها منفصلة.

---

2 راجع 'الثلاثى الأعظم'، باب *3* ، ترجمات تراث واحد، قيد النشر، ومن البابين *39-40* من هذا الكتاب عن رمزية البناء. المحقق..

15 الحرف المقدس للقطب

ولنعد الآن إلى بعض الاعتبارات التى تتعلق بشكل الحجر المدبب الذى أشرنا إليه عاليه، ولنبدأ بقول إن المتون القديمة تقول إن هذا الشكل قد تعدل بإضافة بلطة غير متوقعة يبدو أنها وضعت لتوازن القمة الهرمية، وقد كانت هذه السمة مصدرا لحيرة الأخصَّايين فى الرمزية الماسونية، والذين عجز معظمهم عن طرح تفسير مُرضى للبلطة، ورأى البعض إنها قد لا تكون سوى الحرف العبرى المقدس 'قاف'، والواقع أن الحل الصحيح كامن فى هذا التفسير، لكن المقارنة التى يمكن إجرائها حيال هذا الأمر سيكون لها مغزى أوسع لو تأملنا الحرف العربى 'قاف'، وقد بدت لنا مثيرة للانتباه رغم غرابتها للقارئ الغربى الذى لم يتعود على اعتبارات من هذا القبيل.

وأكثر معانى حرف القاف فى العبرية والعربية عمومية هو 'القوة'، والتى قد تكون فيزيائية أو روحية بحسب الحال[3]، والواقع أن الرمز بهذا المعنى على صورة بلطة يناظر تماما المعنى العام للحجر المدبب، ومن الواضح أن الحال الماثل هنا هو القوة الروحية، والتى ترتبط بها البلطة على نحو مباشر ليس للحجر المكعب بل للهرم، ويحيلنا ذلك إلى ما فسرناه فى سياق آخر[4]، والتساوى الرمزى بين البلطة والصاعقة *فاجرا* ينوِّه عن القوة الروحية، زد على ذلك أن البلطة قد وضعت فى ذلك الموضع فى قمة الهرم وليس فى موضع آخر، والقمة عادة ما تعبر عن التراتب الروحى أو التعميدى، ويبدو أن هذا الموضع يعنى أعلى سلطة روحية فى العالم،

---

3 وقد كان التمييز بين المعنيين فى اللغة العربية بتغير فى الهجاء، فالأولى 'قوة' والثانية 'قوى'.

4 راجع بابا *25* و *26* من هذا الكتاب. المحقق.

أى إن كل الأديان تسميه ’القطب *Pole*‘، ولنتذكر السمة المحورية لأذرع الصليب وذراع البلطة على الخصوص، والتى تتفق تماما مع هذا التفسير.

وما يلفت الانتباه أن فى التراث العربى المقدس حرف قاف وجبل يحمل الاسم ذاته[5] والهرم الذى يشاكله، كما أن ما يبرر تسميته بالحرف أو البلطة التى تشبهه كما لو كانت لا تترك مجالا للشك فى المعنى الذى أضفاه التراث عليه، كما أن رمز الجبل أو الهرم مرتبط ’بمحور العالم *World Axis*‘ حيث وضع الحرف، فيتماهى مع القطب ذاته، وقيمة حرف قاف العددية تساوى ’مقام‘[6]، وهو ما يجعل هذا الموضع مقاما بما هو، أى نقطة فريدة ثابتة لا تحول فى كل دورات العالم.

ونضيف إلى ذلك أن حرف ’قاف‘ العربى هو اسم ’القطب‘، وعلى ذلك كان قاف أول حرف فى اسم القطب، ولذا كان اختصارا له[7]، ولكن بقى أمامنا تناظر باهر، فإن كلمة ’مركز‘ العربية تعنى القطب الأسمى ويسمى ’القطب الغوث‘ لتمييزه عن الأقطاب الثانوية السبعة[8]، وعادة ما يوصف بأنه بين السماء والأرض فى موضع يعلو الكعبة، والتى اتخذت شكل مكعَّب كما أنها تمثل مركز الدنيا، ويمكن أن نتصور هرما خفيا فوق الكعبه بموجب طبيعته الروحية وانتماؤه إلى

---

5 ويسعى البعض إلى ربط جبل قاف ببلاد قافقازيا أو القوقاز، ولو كان ذلك صحيحا حرفيا بالمعنى الجغرافى فلا بد أن يكون خطئًا، فلن يتفق على أى وجه مع ما قيل عن الجبل المقدس، والذى لا طريق إليه برا ولا بحرا، لكننا نلاحظ أن اسم القوقاز كان يطلق على جبال فى بلاد مختلفة إبان العصور الغابرة، وهو ما يعنى أن بينها واحدا مقدسا والباقى مراكز ثانوية ’محلية‘ له.

6 قاف=*100+1+80*= *181* ومقام=*40+100+40*=، *181*، ويصدق التساوى العددى ذاته فى العبرية بين *quph* و *maqam*، وتختلف هذه الكلمات عن نظائرها العربية ، بتبديل *vau* بالألف، وهو ما يرد فى أمثلة أخرى مثل نار و نور و علام بعولام، ..إلى آخرها، حيث يصل المجموع الأخير إلى *186*.

7 وقد كان حرف الميم رمزا للمهدى و محيى الدين بن عربى الذى يستخدمها بدلا من اسمه فى حالات بعينها.

8 والأقطاب السبعة يناظرون الأراضى السبع، كما يوجد الأمر نفسه فى حضارات أخرى، وهم أعمدة الأرض السبعة كانعكاس للأقطاب السماوية السبعة التى تترأس السموات الكوكبية السبعة.

العالم الأولانى بعدد رباعى، وفى الآن ذاته يرمز المكعب أو البنية التى تحمل الهرم إلى الثبات المطلق، وقمته هى موئل القطب الغوث.

ويقوم على خدمة القطب إمامان على يمينه ويساره، ويمثل ثلاثتهم هرما ثلاثيا بموجب جوانبه المثلثة، كما أن اندماج الوحدة *unity* والثنائية *binary* لتكوين الثلاثى يناظر حرفا ’ألِف‘ و ’باء‘، وحرف الألف على شكل المحور العمودى، وتشكل قمته مع بداية الباء ونهايتها الزوايا الثلاثة للمثلث التعميدى بحسب مخطط وجدت له عدة متساويات فى أديان أخرى، ولابد من اعتباره رمزا للقطب.

أما عن هذه النقطة الأخيرة فنضيف أن حرف ألِف هو حرف ’القطبانية‘ حيث تتساوى القيمة العددية له ألِف *1+30+80=111*، وكلمة قطب *100+9+2=111*، ويرمز هذا العدد إلى الوحدانية فى العوالم الثلاثة، وهى وظيفة المحور ذاتها.

ولاشك أن هذه الملحوظة يمكن تمديدها لكننا نكتفى بمثل منها للذين لم يعرفوا الطبيعة التراثية على حقيقتها فى علم الحروف والأعداد حتى لا يملكوا قول إن هذه مجرد كومة من ’المصادفات‘.

16 الرؤوس السوداء

يعنى اسم الأثيوبين حرفيا 'ذوى الوجوه المحترقة *Aithi-ops*'[1]، وبالتالى 'الوجوه السوداء'، وقد فُسِّرت عادة بمعنى الجنس الأسود أو على الأقل على ذوى البشرة السوداء[2]، إلا أن ذلك كله تفسير تبسيطى لا يُرضِى حينما نتذكر أن الأقدمين كانوا يطلقون الاسم ذاته *Ethiopia* على بلاد متنوعة بما فيها بلاد لا تناسبها على أى وجه، وقيل حتى إنها أطلقت على أتلانتيس ذاتها، ومن جهة أخرى لم يستخدم ذلك الاسم فى تسمية بلاد تنتمى إلى الجنس الأسود، ولابد أن هناك عاملا آخر جدير بالاعتبار حيث وجدت كلمات مشابهة فى مواقع أخرى، حتى إننا اتجهنا بالطبع للبحث فيما تحمله من معانٍ رمزية.

لقد أطلق الصينيون على أنفسهم 'الشعب الأسود *li-min*' فى زمن سحيق، وقد وجد هذا التعبير فى حكم أسرة *تشو تشينج* والإمبراطور *تشو إن 2317-2208* ق.م، وبعد ذلك بزمن طويل فى القرن الثالث قبل الميلاد أطلق الامبراطور عليها اسما مشاكلا[3]، وهو 'ذوو الرؤوس السوداء *chien-shou*'، والأغرب من ذلك أن الاسم وجد فى الكلدانية منذ ألف عام، كما أننا لو عدنا إلى الكلمتين الصينيتين *chien* و *hei* بمعنى 'أسود' فإنهما كانا رمزا للنار، وقاربا بالتالى تعبير 'الرؤوس السوداء' عند الأثيوبيين، أما المستشرقون الذين يتعمدون تجاهل الرمزية فقد فسروا 'الرؤوس السوداء' و'الشعوب السوداء' بمعنى 'ذوو الشعر الأسود'، ولسوء

---

1 *It is from the same root, aith, that the word ait her derives, and the ether can be considered as a kind of higher fire, that of the 'Empyrean Heaven'.*

2 ورغم أن سكان هذه المنطقة ذووا بشرة سوداء إلا أنهم لا ينتمون إلى الجنس الأسود.

3 *In China, the attribution to individuals and to things of their 'correct designations' was traditionally one of the functions of the sovereign.*

طالعهم كان هذا الوصف مناسبا تماما للشعب الصينى، ولكنه لا يميزهم عمن جاورهم من شعوب، وهكذا كانت تسمية بلا معنى.

ومن ناحية أخرى ظن البعض أن ’الشعب الأسود‘ هم بصحيح القول أصحاب البشرة السوداء كما يسمى الشودرا فى الهند، والتى تعنى فى الآن ذاته التفاهة والخمول، لكن الواقع أن الشعب الصينى بأكمله سُمِّى كذلك بلا تفرقة طبقية بين الخاصة والجماهير، ولو كان الأمر كذلك لما صح الاصطلاح، ولو سلَّمنا بواقع أن التعبيرات من هذا النوع كانت واسعة الانتشار فى المكان والزمان، لكن المصريون القدماء قد سمّوا بلادهم ’الأرض السوداء *kemi*‘، ويبدو من غير المحتمل أن تسمى كثيرا من الشعوب بلادها باسم تبخيسى، وفى هذه الحالة علينا أن نبحث عن المعانى الأفضل للون الأسود، وحيث إن له رمزية مزدوجة مثل حالة الخمول أتى أشرنا إليها توا [4].

ومن المعلوم أن المعنى الأسمى للون الأسود يرمز جوهريا إلى الحال المبدئى لعدم التجلى، وهذا هو المعنى الذى ارتبط باسم *كريشنا* وهو عكس مقابل لاسم *آرجونا* بمعنى الأبيض، ويناظر الاسمان على التوالى الخفاء والظهور، والخلود والفناء، والروح والنفس، و *براهمآتما* و *جيفآتما* [5]، لكن ما يثير العجب كيف يمكن أن يُطلق اسم اللامتجلى على شعب أو بلد؟ والواقع أن العلاقة لا تبين من أول وهلة، إلا أنها قائمة فى الحالات المطروحة، كما أن كثيرا من الحالات تتعلق ’بالوجوه‘ أو ’الرؤوس‘ مما لابد أن ينطوى على معنى رمزى عالجناه سلفا فى موضع آخر فى سياق الحديث عن فكرتى ’القمة *summit*‘ و’المبدأ *principle*‘ [6].

ولكى نفهم لُبَّ هذا الأمر لابد من تذكر أن الشعوب المذكورة هى من بين التى تعتبر نفسها فى وضع ’مركزى‘، ونعلم يقينا أن الصين كانت تسمى ’مملكة الوسط *Chung-kuo*‘ وأن مصر كانت عند المصريين ’قلب العالم‘، ويبرر المنظور الرمزى هذه المركزية، فكلٌ من البلدين اللائى عُزى إليهما هذه المركزية كان مقراً

---

4 عن المعنى المزدوج راجع ’هيمنة الكم وعلامات الزمان‘ الباب 4..

5 راجع على الخصوص باب 47 ’الأسود والأبيض.‘

6 راجع باب 43 ’حجر الزاوية‘

لتراث روحانية مركزية طوال قرون، وأن ممثليها قد اعتبروها فيضا وصورة لتراث المركز الروحى الأسمى، كما كانت عندهم حقا 'مركزا للعالم'[7]، وعليه فإن هذا المركز يمكن أن يسمى 'موضع اللاتجلى' بما هو، ويبدو اللون الأسود من هذا المنظور الأسمى مناسبا لها، ومن جهة أخرى يمكن القول أن اللون الأبيض كذلك يناسب هذا المركز، ومن حيث إنه كان مصدر انبعاث النور[8]، كما يمكن القول إنه أبيض من ظاهره حيال عالم التجلى الذى تحقق بها فى حين بقى اللون الأسود فى باطنها وبما هى، ويضع هذا المنظور الأخير الشعوب التى وجدت على نحو رمزى فى المركز ذاته.

---

7 راجع 'الثلاثى الأعظم' باب *16*.

8 راجع ''ألوان قوس قزح السبعة' باب *59* .

17 حرف 'G' والصليب المعقوف

لقد ذكرنا فى كتابنا 'الثلاثى الأعظم' أطروحة عن رمزية المقطع الصينى 'إى' الذى يعنى 'الواحدية' حيث كان النجم القطبي يسمى 'تاى إى' بمعنى 'الواحدية الأسمى'، وقد واتتنا الفرصة حينئذٍ للكتابة عن رمزية حرف 'G' الماسونية التى تنتمى كذلك إلى 'القطبية'، وتوازى حرف 'T' الذى يرمز إلى 'الاسم الأول للرب' عند صرعى الغرام [1] *Fedeli d'Amore*، وقد برر واقع أن حرف 'G' الذى لا يعنى شيئا بذاته فى اللغات الحديثة التى ليس لها مقدسات أنه أول حرف من اسم 'الرب' *God*[2] فى شعائر المحفل الماسونى الانجليزى، وقد كان فى بعض الأحوال بديلا عن الحرف العبرى 'يود' بناءًا على التشابه الصوتى بين *God* و *yod*، وهو رمز 'الواحدية'[3]، وقد اتخذنا هذه الملحوظات القليلة منطلقا لبحث أدى إلى نتائج فائقة الأهمية[4]، ولذا وجدنا أن الأمر يستحق العودة إليه حتى نكمل ما ذكرنا عاليه.

---

1 'الثلاثى الأعظم' باب 25.

2 *This italicized English expression, and the others to follow in this chapter, were printed in English in the French text. Ed.*

3 وقد رأى كاتب كتاب عن الرمزية الماسونية ضرورة مخاطبتنا على نحو تجاوز اللياقة فى نقده لهذه النقطة كما لو كنا مسئولون عن خلط أصوات الكلمات، لكن ذلك ليس مسئوليتنا بأكثر مما كنا مسئولون عن الماسونيين الانجليز الذين ماهوا بين الحروف الثلاثة لكلمة *God* و بين الحروف الأولى من الجمال والقدرة والحكمة وهى فى اللغة العبرية *Gamel* و *Oz* و *Dakar*، وقد يظن المرء ما يهوى عن معنى التوازى بين هذه الكلمات وغيرها، لكنه ملزم بالانتباه إليها تاريخيا على الأقل.

4 *Marius Lepage, 'La Lettre G' in Le Symbolisme, November 1948; article in the Speculative Mason, July 1949, written in connection with the previous article and from which the greater part of the information used here is drawn.*

وأول أمر يجدر الانتباه إليه طقسًا قديمًا لتعميد مرتبة ’الرفيق *Companion*‘[5]، ويُسئل فيه "ما هو معنى حرف ’*G*‘؟"، وكانت الإجابة الحاضرة عادة هى أنه ’الهندسة *Geometry*‘، أو الفن الخامس، أى الفن الذى يحتل المرتبة الخامسة من الفنون الحرة فى التقسيم التراثى ’للفنون السبعة‘، وقد عالجنا الإسقاط الجوانى له فى سياق التعميد فى العصور الوسطى[6]، ولا يناقض تفسيرها أيًا من الثوابت لهذا الحرف الذى يرمز إلى الرب، والذى كان يُسمى فى هذه المرتبة ’مهندس الكون الأعظم *Great Geometer of the Universe*‘، وما يضفى عليها أهميتها أن أقدم المخطوطات المعروفة للماسونية العاملة كانت الماسونية تماهى الهندسة ذاتها، وهذا أمر لا يمكن تجاهله، كما أن حرف ’*G*‘ كأول حروف كلمة *Geometry* قد احتلت موضع حرف ’Γ‘ جامًّا نظيرها اليونانى الذى تبرره كلمة *Geometry*، وهذا الحرف له قيمة بذاته للماسونية من حيث شكله كزاوية قائمة[7]، وهو ما لا يصح بالطبع فى حرف ’*G*‘ اللاتينى[8]، وقبل أن نستطرد نبدى عجبنا عما إذا كان ذلك يناقض ما قيل عن حرف ’*G*‘ كبديل لحرف ’يود‘ العبرى، أو على الأقل حيث إن هذا الموقف قد طرأ فهل يمكن الظن بأنه قد جرى فى زمن متأخر ومن ثم سقط من التداول حيث إن ذلك يبدو منتميا إلى مرتبة الأستاذ؟ ولابد أن ذلك منظور أتباع الرأى السائد عن أصل المسألة على خلاف أمثالنا الذين رفضوا هذا الرأى لأسباب عدة، ومن ثم اعتبار هذه المرتبة من منتجات الماسونية التأملية‘ فى القرن الثامن عشر، والذين رأوا فيها ’تركيزا‘ لمحتوى مراتب بعينها من الماسونية العاملة، مما أدى إلى قصور نتج عن جهل مؤسسو المحفل الانجليزى الأعظم فى انجلترا بهذه المراتب، وهنا تبدو القضية فى ضوء مختلف، وتصبح مسألة انطباع معنيان ليسا قطعيان على أحدهما الآخر، وليس ذلك أمرا جديدا على الرمزية، ولم يلاحظ

---

5 *Prichard, Masonry Dissected, 1730.*

6 *See The Esoterism of Dante, chap. 2. Ed.*

7 ولنتذكر أن المسطرة حرف *T* بجناحيها اللامتساويين تمثل مستقيمات بأطوال 3،4،5 وهى أضلاع المثلث قائم الزاوية، والذى كان له أهمية عظمى عند الماسونية العاملة، راجع ’كلمة مفقودة و كلمة بديلة‘ فى كتابنا ’دراسات فى الماسونية وطوائف الحِرَف‘.

8 وكل الملاحظات التى قامت على حرف *G* مصطنعة وحتى وهمية، وليس لها أوهى صلة بمعنى هذا الحرف، وعلى كل فلم تُبنَ على معطيات أصيلة.

أحد حتى الآن أن المنظورين اليونانى والعبرى متفقان تمامًا نظرًا لطبيعة المراتب المناظرة، والثانى هو المنظور الفيثاغورى والثالث هو السليمانى *Solomonian*، وهو قبل أى شيء آخر ما يسمح لنا بفهم ما يجرى على الحقيقة.

ولنعد الآن إلى التفسير الهندسى لمرتبة الرفيق، والتى لا يبلغ ما قلنا عنها حتى الآن أكثرها أهمية عن رمزية الماسونية العاملة، فقد ورد فى الطقس الذى اقتبسنا منه سلفا هذا اللغز " *By letters four and science five, this G aright doth stand in a due art and proportion*"، ويمكن ترجمتها تقريبا *'إن حرف G يقف شامخا بتناسب وفن ببركة الحروف الأربعة والفن خمسة'*"[9]، ومن الواضح أن الفن خمسة هو العلم الخامس أى الهندسة، أما عن مفهوم الحروف الأربعة من الوهلة الأولى بالتماثل فيغرينا بافتراض أن هناك خطئا إملائيا فى كلمة *letters* وأنه لابد يُقصَد بها صيغة المفرد *letter*، وسيكون المعنى إذن الحرف الرابع من الأبجدية اليونانية Δ *delta*، وهو أمر مهم رمزيا بصورته المثلثة، لكن هذا الرأى سيكون به عيبًا كبيرًا لانعدام وجود صلة مفهومة له بحرف *G*، ومن الأرجح أن يكون هناك "أربعة حروف"، وأن التعبير غير المعتاد عن العلم الخامس 'بالفن خمسة' قد وضعت خصيصا لزيادة اللغز إلغازا، ويبدو أن أشد الأمور غموضا هو لماذا لم تُنطق الحروف الأربعة؟ أو لو كانت الحروف الأربعة الأولى من كلمة *Geometry* هى المقصودة فلماذا ربَّعه كى *يقف شامخا بتناسب*؟ والإجابة تتعلق بالمركز القطبي للحرف *G*، والتى يمكن أن تكتسب معنى فى رمزية الماسونية العاملة، زد على ذلك أننا نجد ضرورة هنا لاستخدام الحرف اليونانى جامًّا Γ كما أشرنا سلفًا، والواقع أن أربعة جامَّات تشكل رمز الصليب المعقوف، كما يرمز حرف *G* إلى النجم القطبي فى رمزية الماسونية العاملة، وهو المحل الفعلى للشمس الخفية للكون[10] *Yah*، وهو ما

---

9 ولا ينبغى أن نهمل فى سياقنا أن الإجابة على سؤال "من هو الذى يشير إليه حرف *G*؟" وليس ماذا كما كان الحال فى الرمزية الهندسية، كما يشتمل على أغلوطة فى العبارة "إن مهندس الكون الأعظم" يتماهى معها.

10 *In the article of the Speculative Mason from which this citation is taken, the swastika is mistakenly called gammadion, a name which, as we have noted on several occasions, was really applied in former times to different figures altogether (see 'Al-Arkan chap. 45, where we have reproduced the figure); but it is true nevertheless that the swastika, although never having borne that name, may also be regarded as formed by the union*

يعيد إلى الذهن *تاى إى* فى تراث الشرق الأقصى[11] الذى نوهنا عنه فى مطلع هذا الباب، وقد لفتنا الانتباه إلى وجود علاقة حميمة بين حرف *G* والصليب المعقوف فى الماسونية العاملة، إلا أننا لم نكن نعلم شيئا عن الحرف جامَّا Γ اليونانى، مما جعل هذه العلاقة أشد مباشرة وأكمل تفسيراً[12]، ويحسُن ملاحظة أن الشطر المثنى من أذرع الصليب المعقوف يمثل مدار مجموعة الدب الأكبر فى أربعة مواقع مختلفة حول النجم القطبي، حيث يلتقى حروف جامَّا الأربعة، وأن هذه الأوضاع الأربعة تمثل الاتجاهات الأصلية الأربعة والفصول الأربعة، كما يحسن معرفة أهمية مجموعة الدب الأكبر فى كل الأديان التى تقوم فيها الرمزية القطبية بدور مركزى[13]، ولو اعتبرنا أن هذه الرمزية 'توحيدية *ecumenical*' بمعنى الكلمة، وأنها تشير إلى الصلة المباشرة بين كل الأديان الأولانية فسوف يسهل فهم السبب الذى جعل 'النظرية القطبية' دائما من أعظم أسرار الأساتذة الماسونيين[14].

…………………………………..

of four gammas, so that this rectification of terminology alters nothing in what we have said here.

11 *We will add that the divine name Yah, which was just mentioned, is linked more especially with the first of the three Grand Masters of the seventh degree of operative Masonry.*

12 *It might be objected that the documentation presented by the Speculative Mason concerning the swastika comes from Clement Stretton, and that the latter was said to be the chief author of a 'restoration' of the operative rituals in which certain elements, lost under circumstances never fully explained, were probably replaced by borrowings from speculative rituals, borrowings which cannot be guaranteed to conform to the old ones; but this objection is invalid in the present case since we find no trace of anything like this in speculative Masonry.*

13 *See also The Great Triad chap. 25, concerning the 'City of Willows' and its symbolic representation by a bushel measure filled with rice.*

14 *It may be interesting to point out further that in the Kabbalah, the yod is considered to be formed by the union of three points representing the three supreme middoth and arranged as a set-square; the latter, moreover, is turned in the direction opposite that of the Greek letter T,' which could correspond to the two opposite directions of rotation of the swastika.*

رموز التجلى الدورى

18 جوانب من رمزية يانوس

لقد تعودنا غالبا على ذكر رمزية يانوس فى أعمالنا السابقة، ويحتاج هذا الموضوع إلى مجلد كامل حتى يستوفى كل معانيه المركبة والإشارة إلى كافة العلاقات المشاكلة لغيرها من الأديان الأخرى، إلا أننا رأينا أن نطرح هنا قليلا من الوقائع التى تتعلق بهذه الرمزية وعرضها على نحو أدق مما سبق لنا فى اعتبار التوازيات التى تعلقت بالتشابه بين المسيح و يانوس على نحو قد يبدو غريبا للوهلة الأولى، إلا أن لها مبرراتها الكافية.



شكل 11

وقد صادفنا وثيقة عجيبة للمسيح بملامح يانوس منذ بضع سنوات فى مقالٍ للكاتب لاسّاى *Charbonneau-Lassay*، فى مجلة *Regnabit*[1]، وقد علقنا عليها فى العدد ذاته[2]، وهى خرطوشة مرسومة على صفحة منفصلة من مخطوط كنسى يرجع إلى القرن الخامس عشر، وقد وجد فى لوشون كتكملة لتقويم شهر يناير فى ديباجة المخطوط، وقد خُطَّ فى أعلى الميدالية الداخلية حروف *IHS* يعلوها قلب كما فى شكل *11*، وقد صُوِّر على الميدالية يانوس ذو الوجهين *Janus Bifrons* بوجه ذكر ووجه أنثى كما هى العادة، ويعتمر تاجا ويمسك صولجانا بيدٍ ومفتاحا باليد الأخرى.

وقد كتب لاسّاى،

> **يبدو يانوس فى الآثار الرومانية كما فى خرطوشة لوشون بتاج على رأسه وبيده اليمنى صولجان الملك، وفى يده اليسرى مفتاح يفتح ويغلق كل الأبواب، ولذا استأمنه الناس على أبواب بيوتهم وبوابات مدنهم.**

1 *'Un ancien embl£me du mois de janvier', Regnabit, May 1925.*

2 *'A propos de quelques symboles hermetico-religieux', Regnabit, Dec. 1925.*

وقد كان المسيح كذلك له صولجان مثل يانوس له هبة من والده السماوى وأسلافه فى الأرض، وكانت يد يانوس اليسرى تمسك بمفتاح باب الحياة الإنسانية، وفى الأنشودة الرابعة من الترنيمة العظمى فى عيد الميلاد ينشد الكهنة "لقد طال انتظارنا لك ياسيدنا المسيح حامل صولجان بيت إسرائيل ومفتاح داود الذى تفتح به مالا يملك إنسان أن يغلقة وتغلق به مالا يستطيع أحد أن يفتحه"[3].

وقد كانت أوسع التفاسير انتشارا لوجه يانوس المزدوج أنه يمثل الماضى والمستقبل، ورغم أنه تفسير ناقص إلا أنه صحيح من منظور آخر، فالعدد الوافر لصوره تنم عن وجه رجل عجوز ووجه شاب، لكن ذلك ليس المعنى المقصود فى خرطوشة لوشون، لكن الفحص الدقيق لم يترك شكا فى أنهما الزوجين يانوس و يانا[4]، ولسنا بحاجة إلى قول إن هذه الصورة تنطوى على رمزية هرمسية على منوال الرمزية الشمسية القمرية[5].

ولو تأملنا فى رمزية يانوس من منظور الزمن فيحسن الانتباه إلى الفارق بين الماضى الذى ذهب وبين المستقبل الذى لم يحِن بعد، فالوجه الذى ينظر إلى الحاضر غائب عن الوجهين، والواقع إنه وجه خفى نظرا لأن الحاضر لحظة لا تُدرَك[6]، ولكن حينما نتعالى عن التجليات العَرَضية الزائلة فإن الحاضر يشتمل على كل الوقائع، ويناظر وجه يانوس الثالث عين *شيفا* الثالثة فى التراث الهندوسى، وهى كذلك عين خفية ترمز إلى الأبدية والخلود، ويقال إن نظرة واحدة من تلك العين تختزل كل شيء إلى رماد، أى إنها تدمر التجليات جميعا، لكن التتابع المتزامن يُحول كل شيء إلى 'حاضرٌ أبدىٌّ'، فلا يبدو من الدمار الفعلى إلا 'تحولات' بالمعنى المنضبط للكلمة.

ويسهل بعد هذه الخواطر القليلة فهم أن يانوس لا يمثل 'الواحد سيد الزمن

---

3 *Roman Breviary, office of December 20. [This antiphon is taken from the Breviary as it existed before Vatican II. Ed.]*

4 *The name of Diana, the lunar goddess, is but another form of Jana, the feminine aspect of Janus.*

5 *The only difference is that these symbols are generally Sol-Luna in various forms, while it seems that Janus-Jana may be rather Lunus-Luna, the head often being surmounted by the crescent.*

6 *This is also why certain languages, such as Hebrew and Arabic, have no verbal form corresponding to the present.*

الثلاثى' فحسب[7] بل كذلك ’سيد الأبدية‘على الحقيقة، وكما كتب لاسّاى فى هذه المسألة،

> **إن المسيح يسيطر على الماضى والمستقبل مع أبيه السماوى، وهو خالد مثل أبيه ’شبعان أياما‘، ويقول القديس يوحنا "فى البدء كان الكلمة"، كما ’أنه سيد الأيام القادمة** *Jesu pater futuri saeculi* **كما تقول الكنيسة الرومانية يوميا**[8]**، كما أنه أعلن أنه الأول والآخر** *the Alpha and the Omega* **وأنه ’سيد الأبدية‘.**

ومن الواضح أن سيد الأزمنة جميعا لا يخضع للزمن، فالزمن يستقى منه الوجود مبدئيا، مثلما قال أرسطو "إن المحرك لكل شيء لا يتحرك"، ولا شك أن الكلمة الأزلية هى ما يعنى بها التعبير التوراتى "شبعان أيامًا"، وهو أبو الأزمان أو الوجود الدورى، كما يسميه التراث الهندوسى ’رسالة الخالق *بورانا بوروشا*‘ الذى يتساوى معه دلاليا.

ولنعد إلى الصورة التى بدأنا بها هذا الباب لطرح هذه الخواطر، فقد قلنا إن الصولجان والمفتاح فى يدى يانوس شأنهما شأن التاج رمز القوة والرفعة على المستوى الروحى والزمنى، ونتبين فى هذا الشكل معنى مزدوجا فى الصولجان رمز السلطان والقوة الكهنوتية، ويُلاحظ أن الصولجان فى اليد اليسرى تجاه الوجه الذكرى، والمفتاح فى اليد اليمنى تجاه الوجه الأنثوى، ويناظر اليمين واليسار فى القبالة العبرية على التوالى صفتين ربانيتين هما الرحمة والعدل أو هيسيد و ديرت بالعبرية[9]، ويصدقا بالضرورة على المسيح، وخاصة لدى النظر إليهما كقاضٍ للأحياء والأموات، ويميز المسلمون على نحو مشاكل للأسماء الحسنى فى تقسيمها بين أسماء الكمال والجلال والجمال، ويتجلى الاسمان الأخيران على نحو باهر بالرمز

---

7 *The trident (trishula), attribute of Shiva, is the symbol of the triple time (trikala). [Cf. The Great Triad, chap. 22. Ed.]*

8 *This also has been omitted in the wake of Vatican II. Ed.*

9 *In the symbolism of the Sephirothic tree, which represents the totality of the divine attributes, the two lateral 'columns' are respectively those of Mercy and of lustice; at the summit of the 'middle column' and dominating the two lateral 'columns' is the 'Crown' (Kether)-, its position, analogous to the crown of Janus (see figure n) in relation to the key and the sceptre, would seem to invite a comparison justifying what we have just said about its meaning: this would be the principial power, unique and total, from which proceed the two aspects designated by the two other emblems.*

الأنثوى والذكورى على التوالى[10]، وإجمالا فإن الصولجان والمفتاح بديل للمفتاحين الأوسع انتشارا فى رمزيات يانوس، وتفيد فى توضيح معنى هذه الصورة وقوتها المزدوجة التى تنبثق من مبدأ واحد، وهما الكهنوتية والملكية، واللتان تجسدا فى التراث اليهودى المسيحى فى شخص ملكى صادق، والذى قال عنه القديس بولس 'مُشَبَّهٌ بابن الله'[11].

وقد قلنا إن يانوس كان يحمل مفتاحين فى معظم الأحوال، وهما مفتاحا الانقلابين الشتوى *Janua Coeli* والصيفى *Janua Inferni*، أى نقطتا الطرفين من الدورة الشمسية، وحيث إن يانوس كان 'سيد الأزمنة جميعا' فقد كان يفتح أبواب الدورة الشمسية ويغلقها، كما كان رب التعميد*initiation* فى الأسرار، ويقول شيشيرو إن اسم يانوس مشتق من فعل 'ذهب' *ire* وجذر *i* فى السنسكريتية له نفس المعنى فى اللاتينية، ومن مشتقاته فى السنسكريتية كلمة *يانا* بمعنى الطريق، وحيث إن المسيح قال "أنا هو الطريق"[12] التى تقارب اسم يانوس ذاته فهل يمكن استنتاج التوازى بينهما؟ وسوف يبررها ما سوف نتناوله لاحقا، وسوف يكون من الخطأ من الناحية الرمزية أن نتجاهل تشابهات لغوية بعينها حتى لو أفلتت من علماء اللغة المحدثين مثل كل ما تعلق باسم 'العلم المقدس'.

وأيا كان الأمر فإن ما يتعلق بكون يانوس ربًا للتعميد فقد كان مفتاحاه من الفضة والذهب رمزًا إلى 'الأسرار الصغرى' و'الأسرار الكبرى'، أو 'الفردوس الأرضى' و'الفردوس السماوى' على التوالى، وقد كان هذان المفتاحان من أسماء الفقيه الأسمى بمعنى وظيفة القداسة، وقد بقيت هذه الرموز مثل رمز السفينة مرتبطة بيانوس[13]، كما ظلت من الشعارات الأساسية للبابوية، وكذلك

---

10 *In The King of the World we have explained more completely the symbolism of the right and the left, of the 'hand of justice' and the 'hand of blessing', which is also pointed out by several Fathers of the Church, and especially by St Augustine.*

11 *Heb. 7:3.*

12 تعنى كلمة 'طاو' فى تراث الشرق الأقصى حرفيا 'الطريق'، كما أنها تعنى المبدأ الأسمى، والمقطع الإيديوجرافى يمثله من علامة الرأس والقدمين، وهكذا يساوى رمز ألفا وأوميجا، أى الأول والآخر..

13 *This barque of Janus could move in both directions, forward and backward, which corresponds to the two faces of Janus himself.*

كلمات الكتاب المقدس عن ’قوة المفاتيح‘، والتى تمتاح جميعا من التراث الأولانى، زد على ذلك العلاقة المباشرة بين معنى مفتاح الذهب كنفوذ روحى ومفتاح الفضة كسلطة زمنية[14]، والواقع أن دانتى قد أسند إلى الامبراطور والبابا مهمة قيادة الإنسانية إلى ’الفردوس الأرضى‘ و’الفردوس السماوى‘ على الترتيب[15].

وقد شاعت بين الحضارات القديمة رمزيات فلكية بعينها، كما كان لها أثر مباشر على رمزية مفتاحى يانوس للانقلابين الشتوى والصيفى والأسرار الصغرى والكبرى[16]، والرمزية التى نشير إليها هى دائرة البروج بنصفيها التصاعدى والتنازلى بين الانقلابين الشتوى والصيفى، والتى ارتسمت على مداخل كنائس عديدة من العصر الوسيط[17]، وهنا يظهر معنًى آخر لوجهى يانوس، فهو ’سيد الطريقين‘ اللذين ينفتح عليهما بابا الانقلابين إلى اليمين واليسار، واللذان يرمزُ إليهما الفيثاغوريون بحرف ’*Y*‘[18]، كما عبرت عنهما البرانية بأسطورة هرقل *Hercules* بين الفضيلة والرذيلة، وهما الطريقان ذاتهما فى التراث الهندوسى باسمٍ ’طريق الأرباب *ديفايانا*‘ و’طريق الأسلاف *بيتريانا* و *جانيشا*‘ ونتفق رمزيتهما تمامًا فى عدة نقاط مع رمزية يانوس، والذى كان بدوره ’سيد الطريقين‘ بموجب كونه ’سيد المعرفة‘، وهو ما يعود بنا إلى فكرة التعميد بالأسرار، وأخيرًا فإنهما كالبابان اللذان يؤديا إلى

---

14 *The sceptre and the key are moreover both related symbolically to the 'World Axis'.*

15 *De Monarchia, in,i6. — We give the explanation of this passage from Dante in our Spiritual Authority and Temporal Power.*

16 *We should mention in passing—although we have pointed it out on several occasions—that Janus had yet another function: he was the god of the corporations of artisans, or Collegia fabrorum, which celebrated the solstitial festivals of winter and summer in his honor. This custom was continued among the corporations of builders, but within the world of Christendom the solstitial festivals came to be associated with the two Saint Johns (whence the expression 'Lodge of Saint John', which has come down to modern Masonry). This is an instance of the adaptation of pre-Christian symbols, something all too often misunderstood or misinterpreted by moderns.*

17 *This obviously relates to what was said in the preceding note concerning traditions preserved by the corporations of builders.*

18 وقد ظل هذا الرمز القديم ساريا حتى وقت قريب، فقد وجدناه فى العلامة التجارية للطابع نيكولاس دى شيمان *Nicholas du Chemin*، والذى صممه جين كوسان *Jean Cousin* فى *Le Champ fleuri of Geoffrey Tory*، باريس *1529*، حيث أسماها ’الحرف الفيثاغورى‘، وكذلك على قطع أثاث متنوعة من عصر النهضة فى متحف اللوفر.

الفردوس والجحيم[19]، وسوف يتبين لنا أن الجانبين اللذين يناظراهما هما اليمين واليسار على الترتيب، أى طريق المختارين وطريق الملعونين، حيث يفترقا فى يوم الساعة، وقد رُسِما باتفاق عميق على مداخل الكنائس الرئيسية، ولكنهما لا يظهرا فى أى موضعٍ آخر من مبانيها[20]، ونعتقد أن معانى دائرة البروج تعبر عن أمر أصولى تمامًا عند بناة الكاتدرائيات، والذين انكبوا على إضفاء صبغة 'خماسية' على عملهم بمعنى الكلمة، أى جعل كل مافيها ملخصًا للكون الكلى[21].

---

19 وقد طلق على الطريقين فى رمزية عصر النهضة 'الطريق المستقيم' و'الطريق الواسع'.

20 ويبدو أحيانا أن ما تعلق باليمين فى حالات قد تعلق باليسار فى أخرى والعكس، كما يحدث أن يكون التعارض ظاهراً فحسب، فلا بد من توكيد الصلة بين اليمين واليسار، فحينما تُفَسَّر بمفهوم مركب مثل 'الدورى *cyclical*'، والذى أثَّر على التناظر بين الاعتبارات المطروحة، ونشير إلى ذلك فحسب حتى نتجنب تغطية صعوبة لابد من التحسب لها فى تفسير عدد وافر من الرموز.

21 *One should write 'pantacle' (pantaculum, literally 'little all'), and not 'pen- tacle', as is too often done; this orthographic error has led some to think that the word is related to the number 5 in some way and that it should be taken as a synonym of'pentagram'.*

19 المعنى المقدس لعلامة برج السرطان

لقد أشرنا كثيرًا فى سياق دراساتنا إلى رمزية الدورة السنوية بشطريها الصاعد والهابط، وعلى الخصوص بابا الانقلابين اللذين يفتحا النصفين ويغلقاهما، ويتعلقا برمزية يانوس عند اللاتينيين و *جانيشا* عند الهندوس[1]، وحتى نوضح أهمية هذه الرمزية بكفاءة لابد أن نتذكرالتشاكل بين كل جزء من الكون الأكبر ككل وبين أية منظومة أيًا كانت على منوال الدورة السنوية مثلًا، ونتخذها كصورة مختَزَلة للدورة الكونية وموجزًا للتجلى الكونى ذاته، كما أن ذلك يضفى على 'التنجيم *astrology*' معناه الحقيقى 'كعلم كونى'.

ولو كان الأمر كذلك فإن 'نقطتا الوقف' فى الدورة السنوية لابد أن تناظرا الحدين الأقصى للتجلى، وسواءً أكانت بمجملها أم فى كل دورة من الدورات التى تشكِّلها، وهى بالطبع تجلٍّ عن الحصر، وليس ما نصِف إلا بضع حالات من الوجود الكونى، فلو أردنا تطبيق التشاكل على دورة تجلٍ فردية مثل الحال الإنسانى فسوف يسهل فهم السبب الذى دعا التراث إلى تسمية بابا الانقلابين 'باب الإنسان' و'باب الأرباب'، ويناظر الأول الانقلاب الصيفى و برج السرطان، وهى مدخل التجلى الفردى، أما الباب الثانى فيناظر الانقلاب الشتوى و برج الجدى، وهو باب الخروج من دورة التجلى ذاتها وبدء السعى إلى حالات أسمى للوجود، حيث إن الأرباب أو الملائكة فى مصطلح آخر يمثلون حالات

---

[1] راجع الباب *3* من 'ملك العالم'، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

علوية للكائن[2] ميتافيزيقيًا.

ولو اعتبرنا أن توزيع علامات البروج يوائم المثلثات الأربع لرأينا أن علامة برج السرطان تناظر 'أعماق المياه' من حيث هيئة الكون *cosmogony*، والجنين الذى وُضع فى بذرة تناظر منظومة الكون الأكبر و *براهماندا* أو 'بيضة العالم'، وتناظر فى الكون الأصغر *بيندا* وهو المثال الشكلى سابق الوجود فى صيغة لطيفة من أصل التجلى الفردى لتشكل أحد احتمالات الوجود التى عليها أن تنمو فى سياق التجلى[3]، كما أن ذلك يتعلق بواقع أن علامة برج السرطان هى كذلك منزل القمر الذى نعرف علاقته بالمياه، ويمثل مبدأ التجلى الصورى، فجُرم القمر هو 'عالم التشكُّلات' فى حالتها اللطيفة، وبداية وجود صيغة الحال الفردى[4].

ويمثل رمز برج السرطان بذرة ببادرة لم تنضج بعد ♋ وهى الحال اللطيف الذى يسبق التجلى، والحق إنها ليست حالة جنينية مادية بل ما ذكرنا عاليه كمبدأ للتجلى فى النطاق النفسى أو 'العالم الوسيط'، كما أن حرف *u* السنسكريتى فى *آكشارا* أو المقطع المقدس *AUM* يشكل الحد الوسيط بين نقطة *M* التى تمثل المبدأ اللامتجلى وبين الخط المستقيم *A* الذى يمثل التجلى الكثيف فى الحال الجسدانى.


شكل يين يانج

كما أن البذرة مزدوجة فى وضعين متقابلين بعكس أحدهما الآخر، ولذا كانا حدين متكاملين، وهما *يين* و *يانج* فى تراث شرق آسيا، والذى يتصل بأشكال رمزية أخرى فى غاية الأهمية من بينها *سواستيكا* أو الصليب المعقوف، وكذلك اللولب المزدوج الذى

---

[2] وقد طُرحت هذه النقطة باستفاضة فى 'أحوال الإنسان المعددة' ترجمات تراث واحد قيد النشر.

[3] راجع البابين 13 و 19 من 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا' ترجمات تراث واحد قيد النشر. وينمّ التشاكل بين الكون الأكبر والكون الأصغر من هذا الجانب فى تعبير الهندوس ياثا بيندا تاثا بيندا براهماندا عن الجنبن اللطيف أى "بيضة العالم"!

[4] راجع الباب 21 من 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا'، وقد أسلفنا القول عن تماهى "عالم الصور world of formation" أو 'ياتسيراه' فى القبالة اليهودية وعالم التجليات اللطيفة.

يرتبط برمزية نصفا الكرة أحدهما منير والآخر مظلم، وهما نصفا 'بيضة العالم'، كما يرمزا أيضًا للسماء والأرض[5]، وكذلك الأمر لكل كائن بموجب التشاكل بين الكون الأصغر والكون الأكبر، وهما نصفى الزيجوت الأولانى الذى يوصف عادة بأنه شكل كروى، وهو الشكل الافتراضى للبذرة الأصلية التى ستنشأ بكامل فاعلياتها إبان الدورة الفردية للكائن.

كما أنها تصور مخططًا للوعاء *شانخا* الذى يتعلق بالماء مباشرة، ويُمثَّل له أحيانًا بوعاء يحتوى على بذور المستقبل أثناء فترات التحلل الظاهرى للعالم *برالايا*، وينطوى على الصوت الأولانى *أكشارا* الذى لا يفنى، وهو المقطع المقدس *آوم* جوهر *الفيدا* الثلاثية، وهكذا كانت *الفيدا* خالدة أبدًا حيث إنها خارج نطاق العالم فى خفاء أثناء الجائحة التى تفصل بين كل دورة وما تلاها حتى تتجلى مرة أخرى فى بداية كل دورة[6]، ويكتمل المخطط المذكور فى الصوت الخالد *آكشارا* بخط مستقيم '*a*' يُغلق الوعاء ويغطيه '*u*'، والذى يحتوى على النقطة '*m*' وهى المبدأ السماوى لكل الكائنات[7]، ويمثل وضعها الأفقى المستقيم فى الآن ذاته 'سطح الماء'، أى الوسط القابل الذى تتم فيه تطورات نمو البذور أثناء مرحلة الغموض *ساندهيا* بين دورتين حتى تنتهى، وهكذا يبقى لدينا شكلًا كصورة سلبية للوعاء فتفلت منه البذور فى خط مستقيم يتجه إلى أسفل، وهو تنامى التجليات من مبدئها اللامتجلى[8].

وينتج عن هذين الوضعين للوعاء اللذين تصورهما علامة برج السرطان

---

5 *Among the Greeks these two hemispheres were represented by the round coifs of the Dioscuris [Castor and Pollux], who are the two halves of the egg of Leda, that is, the swan's egg, which, like the serpent's egg, represents the 'World Egg' (cf. the Hamsa of the Hindu tradition).*

6 ولابد من وصل مفهوم خلود الفيدا مباشرة بالنظرية الكوزمولوجية الأولانية عن الصوت شابدا من بين الصفات الحسية، وقد انبثقت هذه النظرية عن مبدأ الخلق بالكلمة الربانية "التى صنعت كل شيء كان".

7 وهذا المخطط هو ذاته تركيب الأذن عضو السمع، والتى لا بد أن يكون تكوينها مبنيا على طبيعة الصوت.

8 الذى يناظر علامة برج السرطان.وهذا الشكل الجديد قد ورد فى حرف *helh*

بنصفيها، ويناظر نصفها الأول سفينة نوح *ساتيافراتا* فى التراث الهندوسى، أو النصف الأسفل من محيط الدائرة يغلقه المحور الأفقى الفاصل، وتحتوى على كل بذور النضج الكامل حيث يجرى تركيبها[9]، ويرمز قوس قُزَح إلى النصف الآخر الذى يتجلى بين السحب فى منطقة ’المياه الأعلى‘ ليعلن عن استعادة النظام وتجديد الخلق، فى حين تطفو السفينة أثناء الجائحة على محيط ’المياه الأدنى‘، أما الوضع الثانى فهو النصف الأعلى من الدائرة ذاتها واتحاد الشكلان المقابلان لأحدهما الآخر لتكوين شكل دائرى أو دورى واحد، وهو الشكل الكروى الأولانى، وهذا المحيط الرأسى هو شطر الكرة الذى حدده القطع الأفقى، ويرمز إلى منطقة ’الفردوس الأرضى‘[10]، ونرى فى شكل *يين يانج* فى الشرق الأقصى النصفين ذاتهما، إلا أن الدائرة تنقسم بما يوحى بحركة استقطاب لكل جانب من جوانب التجلى *سات* أو الوجود المحض، أو هو *بوروشا* و *براكريتى* على نطاق الكون الكلى[11].

ولا تدّعى هذه الخواطر الكمال، ولا شك أنها تناظر بعض جوانب رمز برج السرطان فحسب، لكنها على الأقل تطرح مثلاً لعلم التنجيم التراثى *astrology* الذى يختلف عن ’ فنون العيافة[12]‘ و’ علوم السحر‘ كما يسميها المحدثون، والواقع أنها تشتمل على معظم ما يمكن التعبير عنه فى علوم أخرى من الطبقة ذاتها، وكما ذكرنا فى باب ’علم الحروف‘، فكل ما يضفى عليها مفهوم التعميد من قيمة تضعها كشطر متكامل من ’العلم المقدس‘.

---

9 وينبغى اعتبار نصف الدائرة نظيرا للعنصر الحلزونى الذى ذكرناه عاليه فى التطور من البذرة الأولى.

10 راجع باب *11* من ’ملك العالم‘ ترجمات تراث واحد قيد النشر، عن أسرار حرف ’نون‘ فى الأبجدية العربية، وكذلك باب *23* فيما يلى.

11 وهذا أول تمايز أو تفاضل بدون فصل المتكاملات، ويناظر تركيب الزيجوت *Androgyne* هذه المرحلة، ولكن قبل ذلك لا يمكن الحديث إلا عن الوجود المحض، راجع الباب *30* من ’رمزية الصليب‘ ترجمات تراث واحد قيد النشر.

12 باب *6* حاشية *1*.

20 "ست"

كان الإنسان حية فى القدم

استرعى انتباهنا نقطة واحدة فى كتاب عجيب بالانجليزية عن ’المسيح الدجال، شخصيته ومستقبله‘ للكاتب موجريدج *E.H. Moggridge* ونود أن نسهم ببعض الإيضاحات حول تفسير أسماء النمرود و سيت، فقد كانت التشابهات التى عقدها الكاتب بين الاثنين تتطلب بعض التحفظات رغم وجود تشابه واقعى بينهما، لكن المقارنات التى تعلقت برمزية الحيوان تبدو لنا جيدة التأسيس.

ولنبدأ بكلمة ’نمار‘ العبرية التى تكافئ الكلمة العربية ’نَمِرْ‘ وهو الحيوان المرقط الذى قد يكون فهدًا أو قطًا برّيًا، ويمكن القول بدون الاقتصار على معناها الظاهر إنه مثال للحيوان ’الصياد‘ الذى كان النمرود على شاكلته كما تقول التوراة، وهو كذلك مثل الدب فى التراث الشمالى رمز *للكشطريا*، ويبدو تأسيس النمرود للإمبراطورية الأشورية كما لو كان تمردًا *للكشطريا* على سلطة الكلدانيين وطبقتهم المقدسة، وقد نشأت عنها أسطورة التحالف بين النمرود و العماليق التى تمثل طبقات *الكشطريا* فى العالم القديم، ولذا كانت صفة ’نمرودى‘ تنطبق على السلطة الزمنية التى تستقل عن السلطة الروحية.

ولكن ما هى علاقة كل ذلك بمسألة ست المصرى أخو أوزيريس وقاتله؟ فقد كان النمر وغيره من الوحوش المفترسة شعارات له لقدرتها على ’التخريب‘، وقد أطلق اليونانيون عليه اسم الإعصار ’تايفون‘، ويمكن قول إن الروح ’النمرودية‘ تنبثق عن المبدأ المظلم الذى يسمى ’ست‘ ودون ادعاء تماهى النمرود و ست حتى بقدر هين، لكن النقطة التى بدت أشد عوصًا هى المعنى الشرير الذى لصق باسم ست، والذى كان اسمًا خيِّرا لولد آدم المعروف فى العربية باسم ’شيث‘ الذى كان

يتولى إقرار النظام، ولو أردنا التسليم بالمضاهاة التوراتية فى اكتشاف علاقة بين قابيل و هابيل فى هذا الصدد فإن علاقة ذلك بالنمرود تقوم على قرابته من قابيل الذى ظن أنه قد أفلت من جائحة الطوفان، ولكن حيث إن سيت فى سفر التكوين بعيد الشبه عن قابيل فإنه على عكسه، فكيف تأتى لاسمه أن يكون هنا؟

والواقع أن اسم ’سيت *Seth*‘ فى العبرية لها معنيين متناقضين هما ’أساس‘ و’فوضى أو خراب‘[1]، ويحمل تعبير’بنى سيت *Beni Seth*‘ كذلك هذين المعنيين، والواقع أن بعض اللغويون يزعمون أنهما كلمتين من مصدرين مختلفين، فتُشتق الأولى من جذر ’شيث‘ والثانية من جذر ’شاث‘، ويبدو التمييز فى الكلمتين أمرًا ثانويًا، وعلى كلٍ فإن العناصر الساكنة فى الكلمتين متطابقة تمامًا، والواقع أننا لا نرى غير اختلافً التطبيق فى المعنى المزدوج للرموز، وقد نوهنا عن ذلك فى عدة مناسبات، وعلى الأخص فى رمزية الثعبان.

والواقع أن النمر أو الفهد كانا شعارًا للمصرى سيت وكان الثعبان شعارًا آخر له[2]، وذلك أمر مفهوم من جانبه الشرير، ولكن الأمر الذى يُنسى دائمًا هو جانبه الخيِّر، وهو من رموز مصر القديمة على شكل أفعى الكوبرا الملكية *'uraeus' or 'basilisk*[3] وحتى الأيقونية المسيحية ترمز بالثعبان إلى المسيح[4]، ثم إن هناك سيت التوراتى ودوره فى أسطورة الكأس المقدس[5]، والتى عالجناها فى موضع أخر، والتى تعتبر أحيانًا ’صورة مسبقة‘ للمسيح[6]، ويمكن قول إن الاثنين باسم

---

1 وتماهى هذه الكلمة فى الحالين، لكنه مذكرة فى الأ ول ومؤنثة فى الثانى.

2 ومن المدهش أن يصبح الاسم اليونانى *Typhon* شعارا لـ بايثون.

3 وعن هذه المسألة راجع الباب 3 من ’ملك العالم‘ ترجمات تراث واحد قيد النشر. أما عن الحية ذات الرأسين *amphisbaena* فيمثل أحدهما المسيح والآخر الشيطان.

4 ولنتذكر أيضا الحية التى تمثل *Kneph* التى تبيض ’بيضة العالم‘ من فمها، والتى عرفها الدرويديون بالكلمة مثل ’بيضة الحية‘ التى يرمز لها صدفة بحرية *sea-urchin*.

5 المرجع السابق باب 5.

6 ومن المرجح أن الغنوصيين المعروفين باسم ’أتباع ست‘ لم يختلفوا على الحقيقة عن أتباع الحية *ophis* التى كانت رمزا للكلمة والحكمة *Sophia*.

سيت ليسا إلا الثعبانين على صولجان هرمس[7] *caduceus*، ولو أحببت فهما الحياة والموت اللذين ينبعا من مصدر واحد ويزدوجا فى التجلى فحسب[8].

ولنتأمل هنيهة فى هذا التفسير للحياة والموت وقبل أى أمر آخر فى رمزية الثعبان التى ارتبطت بالحياة فى اللغة العربية[9]، فأنثى الثعبان هى ’الحيَّة‘، كما تعنى فى العبرية كلًا من ’الحياة‘ و’الحيوان‘، وكلاهما مشتق فى اللغتين من جذر واحد هو ’ح ي‘ [10]، وقد ارتبطت رمزية الحية بشجرة الحياة[11] كما ارتبطت على نحو فريد ’بحوَّاء‘، وهنا نذكر تصويرًا من العصر الوسيط بعنوان الإغراء ’*temptation*‘ تلتف فيه الحية على شجرة واحتل موضع رأسها جذع امرأة ورأسها[12]، وليست واقعة الرمزية الصينية عن الامبراطور ’*فو هسى*‘ وشقيقته ’*نيو كون*‘[13]، ويُقال إنهما حكما الصين معًا كما اعتاد بعض الملوك الفراعنة حتى العصر البطلمى، وقد رُمِز إليهما بثعبانين يلتفا على أحدهما الآخر على منوال صولجان هرمس *caduceus*، ولا شك أنه ينوه كذلك عن تكامل *يين* و *يانج*، ويمكن أن نرى فى كل ذلك برهانًا على أن رمز الثعبان كان له أهمية غامرة فى العصور السحيقة، لكن ذلك لم يبق منه شيء فى أيامنا، ولو قُدِّر لنا دراسة الرمزية خصوصًا فى مصر والهند فقد تؤدى إلى نتائج غير متوقعة.

---

[7] ومن الغريب أن اختزال اسم ست *Seth* إلى الحروف اللاتينية *ST* توحى بشكل الحية، ونشير إلى واقع أنها تعنى فى العبرية ثعبانًا نحاش، كما تعنى معدن البرونز أو النحاس، ونجد لها فى العربية صدى فى مفهوم النحس ومعدن النحاس.

[8] وعن هذه النقطة راجع باب *25* ’الصاعقة‘.

[9] ويصح هذا المعنى على الحيتين الملتفتين على صولجان أسكليبيوس.

[10] ا’لحى‘ من الأسماء الحسنى ولا يصح ترجمته إلى *'the Living'* كما يجرى عادة ولكن إلى *The Vivifying*. بمعنى ’المُقيت‘.

[11] راجع باب *25* من ’رمزية الصليب‘ ترجمات تراث واحد قيد النشر.

[12] وقد رُسِمت على الباب الأيسر لكنيسة نوتردام .

[13] وقيل إن نو كوا قد أذابت صخورا من خمسة ألوان هى الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأزرق لكى تعالج فتقا فى السماء، كما أنها قطعت أرجل سلحفاة لكى تضعها على أركان الأرض الأربعة.

أما الرموز ذات المعنى المزدوج بما فيها رمز العدد *666* فليست مقصورة على الجانب السلبي لها، فهذا العدد يرمز إلى المسيخ الدجال، لكنه كان كذلك عدداً شمسياً لملاك العرش هاكاثريل كما ذكرنا فى عمل آخر[14]، كما يسرى هذا العدد على اسم سوراث الذى يعتقد القباليون أنه شيطان شمسى مناوئٌ للملاك ميكائيل، وقد ارتبط هذا الرمز بوجهى ميتاترون[15]، كما أن سوراث قد ارتبط بالجناس اللفظى لاسم سثور بمعنى ’الشيء الخفى‘، فهل هو الاسم الذى ورد ذكره فى سياق الآخرة؟ ولكن إذا كانت كلمة ’سَتَرَ‘ فى العربية تعنى فكرة الحماية بما فيها الحماية الربانية[16]، وها هنا مرة أخرى ليست الأمور بالسهولة التى يتوهمها من ينظر إليها من جهة واحدة.

ولكن لنعد إلى الرمزية الحيوانية عن ست المصرى، فمن رموزه التمساح الذى يفسر ذاته بطبيعته وفرس البحر الذى يُعزى إليه اسم بهيموث فى سفر أيوب، وربما لم يكن ذلك بلا سبب، فكلمة ’بهائم‘ جمع ’بهيمة‘ فى العربية اسم جمعى لكل ذوات الأربع[17] جسيمة الجثم، وهناك أيضًا حيوان مهم آخر هو ’الجحش الأحمر‘[18] وهو أكثر حيوان يثير الشكوك، ويقال إن الموتى يلتقون به فى رحلتهم خارج القبر أو ما يكافئ ذلك فى الجوانية حيث يلتقى به المريد فى مجاهداته، أليس ذلك أقرب من فرس البحر ليكون ’الوحش القرمزى‘ ليوم الساعة؟[19]، وعلى كلٍ فإن أشد الجوانب سواداً فى أسرار ’الأعاصير *typhonian*‘

---

14 ’ملك العالم‘ باب *5*.

15 المرجع السابق باب *2*.

16 ألا يجوز ربط هذه الفكرة بالكلمة اليونانية *soter* بمعنى مُخَلِّص؟ وهل نحن بحاجة إلى ذكر الجناس الناقص بين اسما ’المسيح‘ و’المسيخ‘؟

17 ويعنى جذر *bahatn* أو *abham* الصمم أو الخفاء، ولو كان المعنى العام للفظة *Behemoth* يرتبط بأول هاتين الفكرتين فإن الثانى قد يوحى بالحيوان ’المختبئ وراء البوص‘، وهنا يصبح المعنى الثانى أقرب إلى *sathar* التى ذكرناها توا.

18 وهناك صلة فى اللغة العربية بين ’حمار‘ و’أحمر‘، وهى فى العبرية *hemor*، وهو نوع من الإطناب فى الرمزية الصوتية.

19 والحمار فى الهند هو الجبل الرمزى موسيبقى والجانب ’الجهنمى‘ لشاكتى.

كان ربًا برأس حمار، والذى اتُهِم المسيحيون الأوائل كذبًا بالانتماء إليه[20]، ولدينا أسباب تحدو بنا إلى الاعتقاد بأن هذه العقيدة لازالت تعيش حتى اليوم بصورة أو أخرى، ويؤكد البعض إنه سيبقى حتى يوم الساعة فى نهاية دورة الإنسانية الحالية.

ونود أن نشير فى هذه النقطة الأخيرة إلى استنتاج واحد على الأقل عن تدهور الحضارات، وأحطُّ ما فيها هو ما عاش حتى اليوم، وعلى الأخص الجانب 'السحرى' نظراً للانحرافات التى تتفاقم، وتسهم بالتالى فى دمارها التام، ويُقال إن ذلك ما حدث فى أتلانتيس، ولم يبق من هذه الحضارة إلا نفايات تكاد أن تختفى بدورها، والبرهان عليه قائم فى حالة حضارة مصر الفرعونية و الكلدانية، وقل مثل ذلك عن الدرويدية، ولاشك فى أن 'الفتيشية' عند الجنس الأسود من أصل مُشاكل، ويجوز قول إن السحر لا يعدو أهدابًا من حضارات ميتة، ولذا لم تحتفظ الحية إلا بصفاتها السلبية، وكان التنين فى الشرق الأقصى رمزًا للكلمة الربانية، لكنه استيقظ هذا الزمن على شكل أفكار شيطانية فى رؤوس الغربيين.

---

20 وقد كان دور الحمار فى التراث الإنجيلى عند مولد المسيح وفى ارتحاله إلى مصر ودخوله إلى أورشليم يبدو مناقضا لصفاته الشريرة التى شاعت فى كل أين، كما يبدو أن 'مهرجان الحمار' الذى كان يُقام فى العصور الوسطى لم يجر تفسيره كاملا، ولكنن سوف نتجنب الخوض فى تفسير هذا المهرجان الغامض، راجع الباب التالى.

21 عن معنى الاحتفالات

وفيما تعلق 'بنظرية الكرنفالات' لأحد علماء الاجتماع أشرنا سلفا[1] إلى أن من نقائصها الشتى محاولة رؤية كل أنواع الاحتفالات التى سمَّاها 'كرنفالات' كنمط واحد، وهو تعبير يبدو مفهوما للكافة، فالواقع أن 'الكرنفال' ليس إلا ما بقى من 'الاحتفال' فى الغرب، وقد ألمحنا حينها إلى أن هذا النمط من الاحتفال يستلزم فحصا أدقّ لظواهره التى تثير عدة مسائل، والواقع أن الانطباع الأولى عنها هى سمة الفوضى بأكمل معانى الكلمة، فكيف تأتى وجودها فى واقعنا وزمننا، كما تطورت فى الحضارات التراثية بدورها على منوال لا يبدو مقابسا لتراثها من أول وهلة؟ ولو كانت مرتبطة بزمننا فلابد من رؤيتها كتجليات عامة لفقدان التوازن العام.

ويحسن بنا أن نقدم بعض الأمثلة المحددة، فنذكر أولا ما انتابها من غرابة مثل 'احتفال الجحش' فى العصور الوسطى، حينما كان ذلك الحيوان إبليسيا فى كل الأديان[2]، كما كان يحتل مقاما عاليا فى جوقة الكنيسة، وتُهدى له أجمل

[1] *See Etudes Traditionnelles, April 1940, p. 169.*

[2] وسيكون الدفع بهذا التناقض فى التراث الإنجيلى من قبيل الخطأ، حيث إن دورا الحمار والثور قد تناقض من الناحيتين لطوالة العلف عند مولد المسيح التى رمزت إلى القوى الخيِّرة والشريرة معا، كما نجد فى مشهد الصلب تناقضا بين اللص الطيب واللص الخبيث، ومن ناحية أخرى كان دخول المسيح أورشليم على حمار رمزا لانتصار قوى الخير على قوى الشر، وهو انتصار جرى تحققه 'بالخلاص'.

الهدايا ويلاقى أعظم التبجيل، كما كان هناك ’عيد المغفلين‘ الذى كان صغار القسس يستسلمون فيه لنزواتهم فى السخرية من كبار الكهنة ومن الكهانة ذاتها[3]، فكيف يتسنى تفسير السخرية وحتى الزندقة[4] التى كانت مقبولة وتتمتع بحماية رسمية؟

ونذكر كذلك طرفا عن كوميديا زُحَل الرومانية *Saturnalia Romana* التى يبدو أنها كانت الأصل المباشر للكرنفالات الحديثة، وقد كان السادة فيها يقومون بخدمة العبيد ويطيعون أوامرهم[5]، ورغم أن من المعلوم أن هذه الاحتفالات كانت ذكرى ’العصر الذهبى‘، وهو تفسير خاطئ حيث لم تطرأ مسألة ’المساواة الديمقراطية‘ على أى نحو كان، وبمدى حضورها كوظيفة اجتماعية فى الأحوال الراهنة[6]، فقد كانت قلبا للتراتب البنيوى، وهو أمر مختلف تماما، وهو ما يمثل أوضح خصائص الشيطانية، ولابد من اعتباره أمرا يتعلق بالجانب الشرير لكوكب زحل، وهو جانب مخالف لوظيفته كرب ’للعصر الذهبى‘ وبمدى ما يُعرف عنه حاليا كملاك ساقط من حقبة غابرة[7].

---

[3] وكان هؤلاء المغفلين يرتدون أقنعة بآذان طويلة توحى برأس الحمار، وليس هذا الأمر أهونها من منظورنا.

[4] وقد كان واضع النظرية التى أشرنا إليها عن هذا التناقض يعلم يقينا بوجوده وفسوقه، لكن ربطهما بالمفهوم ’للمهرجان‘ جعله يحاول دمجهما بالعناصر ’المقدسة‘ ذاتها، وهو أمر ليس لمجرد التناقض الفاضح ولنقل أنه تناقض بسيط.

[5] وقد كانت الاحتفالات من هذا النوع تقوم فى بلاد متنوعة المشارب، ولكن القصد من إضفاء شرف مؤقت على مجرم أو عبد بوضع شعار الملكية عليهما مؤقتا أثناء الاحتفال كان يعنى موتهما فى ختامه.

[6] ونقصد بذلك العصر الأسود كالى يوجا أو ’العصر الحديدى‘ إبان الامبراطورية الرومانية وعصرنا ذاته شطرا منه.

[7] وقد أصبحت الأرباب القديمة واقعيا شياطينا على نحو ما بلا شك، وقد كان موقف المسيحيين من هذه الأرباب قد دمغهم ’بالوثنية *paganism*‘ مجرد حالة خاصة، ولكن لم يجر تفسيره كما يجب، ولا نملك الإصرار على هذه المسألة هنا حيث إنه خارج نطاق دراستنا، ولكنه لن يُفهم إلا بدراسة الأحوال الدورية، مما لن يغير أو يعدل من المعنى الجوهرى

ونرى من هذه الأمثلة أن فى هذه الكرنفالات الحديثة دائمًا عنصر شيطانى، وملاحظة أن هذا العنصر ذاته هو ما يرضى الميل إلى الهرج عند الغوغاء، والواقع أن فى ذلك إرضاء لميول الإنسان الساقط بمدى ما تدفعه إلى تحقيق أحط السلوكيات فى طبيعته علنًا، وهكذا كانت المسألة الحقيقية فى هذه الكرنفالات هى 'تعبئة' هذه الميول بكيفية ما بحيث يجرى احتمالها بأقل إزعاج ممكن فى إطار حال معلوم لا يصح تجاوزه[8]، وإلا نتج عن كبتها انفجار فى حال الإنسانية[9]، ومن ثم خطر انتشارها فى كل أين على المستوى الفردى والجماعى، وقد يتمخض عنها مخاطر أشد من ممارستها لأيام قلائل مخصصة لها علنًا، وعليه لا يكون لها أثر يُخشى منه حال 'تنظيمها' فى إطار يخرج عن الطبيعة السائدة للأمور حتى لا تؤثر عليها بقدر الإمكان، كما أن واقع أنه لا وجود لما لا يمكن توقعه فى هذا الهرج يعمل على 'تطبيعه' على نحو يتكامل مع النظام العام.

وبغض النظر عن هذا التفسير العام الذى لن يستحيل فهمه لمن كان مستعدا للتفكير فيه فيحسن ذكر مسألة خاصة تتعلق بحفلات الأقنعة *masquerades* التى تقوم بدور مهم فى الكرنفالات وما يشاكلها، وسوف يتطابق على ما نقوله وما ذكرناه سلفا، والواقع أن أقنعة الكرنفالات تتخذ صورا حيوانية أو شيطانية كما لو كانت تجسيدا لميول جهنمية تطفو على السطح فى هذه المناسبات، وأن كل امرئ سوف يختار منها ما يناسب طبيعته دون وعى كامل بدلالتها، أى إنها ستمثل ما يتسق مع ميوله الدنيوية، حتى ليمكن قول إن ما يُفتَرض أن يحجب

....

للأرباب ذاتهم بمدى إحكام رمزيتهم فيما وراء الزمن وما يعلو على مبدأ الإنسان، وجنبا إلى جنب مع جوانبها الخبيثة، فالجانب الطيب دائما ما وُجِد رغم كل شىء حتى لو لم يلحظه من 'بالخارج'، وتفسير دور زُحل *Saturn* بالنحس عند قراء الطالع مثل واضح حيث كان رب الزرع عند الرومان..

8 ويرتبط ذلك 'بالتأطير *enframing*' الذى سنتناوله فيما يلى.

9 وبعد أن انتهت الاحتفالات القبيحة فى العصور الوسطى نتج عن ذلك رواج لأعمال السحر فى القرون التالية كما كان قبل قيامها، وليست الواقعتين منفصلتين على أى وجه كان، رغم أن اتصالهما لم يخطر على بال العموم، وهو ما يثير دهشة أشد رغم التشابه البيِّن بينها وبين 'أجازة السحَرَة *witch's sabbath*'، حيث كان كل شىء يتم 'مقلوبا'.

القناع من الشخصية يكشف عنها على حقيقتها فى عيون الجميع، فى حين أنه مضطر لإخفائها بحكم العادة.

ويحسن ملاحظة أن ذلك يلقى ضوءًا على طبيعة الأقنعة، والتى عالجناها فى سياق آخر بمعنى 'انقلاب'[10] يحدث إلى حد ما فى التطور التعميدى، ولكنها نقائص شيطانية لا تُظهِر روحانية المرء بل أسفل إمكاناته[11].

ونختم هذا العرض الموجز بإضافة أن الاحتفالات من هذا النوع تقل تدريجيا، ولو أنها كفَّت عن إثارة اهتمام الغوغاء فذلك لأنها فقدت غاية وجودها فى زمن كزماننا[12]، فكيف يتأتى 'حصر' الفوضى واحتوائها فى حدود مرسومة بعد أن تفشت فى كل أين لتطغى على أعمال الإنسان كافة؟ وباعتبار المظهر الخارجى من منظور 'الجماليات' يجوز أن نرحب بها رغم قبحها بدلا من اختفاء ظاهرة الكرنفالات المحتومة، ونرى هذا الاختفاء عرَضًا يُنذر بتفشى الفوضى على كافة أنحاء الوجود حتى أمكن قول إننا نعيش فى 'كرنفال خبيث' طوال الوقت.

[10] *See 'L'Esprit est-il dans le corps ou le corps dans l'esprit?' [in Initiation et realisation spirituelle. ch. 30].*

[11] وقد كان فى الحضارات التراثية كذلك فترات بعينها يُسمَح فيها 'للرغبات الهائمة' بالظهور علانية مع اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة، وقد كانت تلك الرغبات تناظر النفسية السفلى للإنسان، وبالتالى بين ظهورها و بين ظهور النفوذ الروحى الذى كان 'مقلوبا' لها، أو لو كانت مثل الظهورين اللذين تحدثنا عنهما عاليه، زد على ذلك أن هذه الأحوال لا يستعصى فهمها حيث كان احتفال الأقنعة ذاته يمثل ذلك الانحراف إلى الأشباح الشريرة.

[12] وذلك بمثابه قول إنه لم يعد هناك إلا الخرافات بمعناها اللغوى المحض.

22 جوانب من رمزية السمكة

لقد كانت رمزية السمكة فى كثير من الحضارات التراثية بما فيها المسيحية بالغة التعقيد متعددة الجوانب، وتستلزم تمييزا بين تراث وآخر، أما عن أصولها فترجع إلى الشمال الأوروبى أو حتى إلى المنطقة القطبية.

وقد كان حضورها مسجلا فى شمال ألمانيا و اسكندينافيا[1]، ويبدو أن هذه المناطق قريبة من نقطة بدايتها، ثم ظهرت فى آسيا الوسطى مع التيار العظيم الذى نبع من التراث الأولانى مباشرة، ثم انتقلت إلى الهند وبلاد فارس، والملاحظ عموما أن هناك حيوانات مائية ظهرت على نطاق أعرض من غيرها من الرموز بين شعوب الشمال، ولكى نضرب مثلا واحدا نجد أن الأخطبوط أكثر انتشارا عند الكلتيين و الاسكندنافيين، كما أنه ظهر فى اليونان القديمة فى الزخارف المايسينية[2].

وهناك حقيقة أخرى تؤيد هذا الرأى، وهى أنها تجلت فى الهند على صورة الولى السمكة *Matsya-avatara* يُقال إنها أول تجلٍ لفيشنو *3*، وهو ما يتزامن مع بداية الدورة الحالية، ولذا كانت على علاقة مباشرة بالتراث الأولانى، ويحسن أن نتذكر أن فيشنو يمثل المبدأ الربانى الذى تجلى كحافظ للعالم، وهذا الدور قريب الشبه بمفهوم 'المخلِّص'، أو بالحرى كان حالة خاصة منه، فقد كان فيشنو مخلِّصا

---

1 1. Cf., L Charbonneau-Lassay, 'Le Poisson' in Regnabit. December 1926.

2 وعادة ما كانت أذرع الأخطبوط فى الرسوم الاسكندنافية مستقيمة، ولكنها جاءت فى الزخارف المايسينية حلزونية، كما ظهرت أشكال تبلور عنها رمز سواستيكا الذى ظهر مرارا، وينتمى رمز الأخطبوط إلى علامة برج السرطان التى تناظر الانقلاب الصيفى وأعماق المياه، ومن السهل فهم أن ذلك قد يحمل معنى خبيثا حيث إن الانقلاب الصيفى هو *Janua Infemi*.

3 ولا بد من التنويه إلى واقع أننا لا نقول 'تجسدًا' كما شاع فى الغرب حاليا، فهذه الكلمة لا وجود لها، وتعنى كلمة أفاتارا 'المُنَزَّل' والمبدأ الربانى للعالم المتجلى.

حقا حتى إنه كان يتجلى فى حِقَبٍ حرجة من تاريخ العالم[4]، وقد ارتبطت فكرة المخلّص فى الرمزية المسيحية بالسمكة، فآخر حرف فى الأبجدية اليونانية *Ichthus* يفسَّر على أنه الحرف الأول للمخلِّص *Soter*[5]، وليس فى ذلك ما يدهش فيما تعلق بالمسيح، لكن هناك رموز تنوه عن صفاته الأخرى ولا تعبر عن فكرة الخلاص.

وقد ظهر *فيشنو* فى نهايات الدورة التى سبقت دورتنا الحالية فى شكل سمكة *لساتيافراتا*[6] الذى أصبح مشرع هذه الدورة باسم *فايفاسفاتا*[7]، وقال له فيشنو إن العالم سيتحطم فى فيضان جائح وأمره ببناء سفينة تحمل كل بذور العالم القادم، وقام بنفسه على هيئته تلك بإرشاد السفينة على مياه الفيضان إبان الجائحة، وهذه الصورة للسفينة التى تقودها سمكة ربانية قد وجَدت ما يساويها فى الرمزية المسيحية[8].

وقد اتصف الولى السمكة *Matsya-avatara* بجانب آخر استرعى انتباهنا، وهو

---

[4] ولنلاحظ الصلة بينه وبين تجلى كالكى أفاتارا الأخير "الذى سيأتى فى نهاية هذه الدورة يمتطى حصانا أبيض"، والذى تصفه البورانات متماهيا مع يوم الساعة *Apocalypse*، ومن ثم تحملها إلى المجئ الثانى للمسيح.

[5] وعندما تُتَخذ السمكة رمزا للمسيح فإن الكلمة اليونانية للسمكة *Ichthus* تتكون من الحروف الأولى من عبارة *Iesous Christos Theou Uios Soter* بمعنى ’عيسى المسيح المخلِّص ابن الرب’.

[6] وتعنى هذه الأسماء حرفيا ’منذور للحقيقة’، وفكرة الحقيقة هذه كامنة فى اسم ساتيا يووجا، وهى المرحلة الأولى من مراحل مانفانتارا الأربع، ويمكن ملاحظة التشابه بين *Satya* و *Saturn*الذى اتخذه الغرب القديم ربا للعصر الذهبى، كما أن التراث الهندوسى سمى كوكب زحل ساتيا لوكا.

[7] وقد انبثق عن فيفاسفات اثنى عشر أديتا كصور للشمس فى علامات البروج، وقيل عنهم أنهم سيظهرون معا فى نهاية الدورة. راجع بابى *4* و *11* من ’ملك العالم’، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

[8] ويقول لاسّاى *Charbonneau-Lassay* "إن الزخارف الكهنوتية المطرزة على غطاء تابوت الأسقف لومبارد من القرن الثامن أو التاسع تصور سمكة تحمل سفينة، وتناظر المسيح يحمل الكنيسة"، وعادة ما فُسِّرت السفينة كصورة للكنيسة حتى ليمكن قول إن الفكرة ذاتها منطوية فى كلى الرمزية الهندسية والمسيحية.

أنه جاء بالفيدا التى تعنى ’المعرفة‘ فى بداية الدورة الحالية للإنسانية *Manvantara*، والتى ستكون العلم بما هو والمعرفة المقدسة بكمالها، ونجد فى ذلك أنصع مرجع للوحى الأولانى أو الأصل فوق الإنسانى للتراث، ويقال إن الفيدا خالدة إلى الأبد حيث إنها من خارج كل العوالم، وكما لو كانت كامنة فى الجائحة الكونية التى تفصل بين دورة وأخرى من زمن الإنسان *مانفانتارا* كى تتجلى مرة أخرى، ويتعلق توكيد خلود الفيدا مباشرة بالنظرية الكونية عن خلود الصوت[9]، وليست هذه النظرية سوى ما عرفته الأديان الأخرى باسم ’الكلمة‘، وهى الصوت الأولانى الذى خُلِق منه كل شيء كان بتعبير سفر التكوين العبرى[10]، ولذا قيل إن *الريشى* و حكماء العصور الأولى قد ’سمعوا‘ الوحى *الفيدى* بموجب أنه مِن خلق الكلمة ويضاهى الخلق ذاته كصوت مسموع، ويسمى *شروتى* بمعنى ’المسموع‘[11].

وفى أثناء الجائحة التى فصلت بين هذه الدورة من *مانفانتارا* عن سابقتها كانت *الفيدا* محفوظة فى قوقعة conch *شانكها*، وهى أحد الصفات الرئيسية لفشنو، ذلك لأنها تحتوى على صوت المقطع المقدس *Aum* وهو الاسم الأولانى الخالد *أكشارا* أى اسم الكلمة المقدسة فى العوالم الثلاثة، وتناظر حروفها الثلاثة *matras* جوهر الفيدا الثلاثى[12]، كما أن اختزال العناصر الثلاثة إلى صورها الهندسية[13] وترتيبها يشكل القوقعة وكذلك أذن الإنسان عضو السمع، والذى لابد قد نشأت على منوال يدرك طبيعة الصوت، ويتماس كل ذلك مع أعمق أسرار علم الكون، لكنه حتى فى الحال العقلى الذى يشكل العصر الحديث لازال قادرا على

---

9 *Cf. our study 'The Hindu Theory of the Five Elements', in Studies in Hinduism, chap. 4.*

10 راجع مفتتح إنجيل يوحنا.

11 عن التمايز بين شروتى و سميريتى راجع الباب الأول من ’الإنسان ومصيره فى الفيدانتا‘ ترجمات تراث واحد قيد النشر. ولابد من فهم أن استخدامنا لكلمة الوحى هنا وليس الإلهام راجع إلى ضرورة توكيد معانى الرمزية التراثية، وكذلك المصطلحات اللاهوتية التى قد تنطبع على ما وراء المعنى الدينى القصرى فى الغرب.

12 عن وجود المقطع المقدس *AUM* فى الرمزية المسيحية راجع الباب الرابع من ’ملك العالم‘ ترجمات تراث واحد قيد النشر.

13 راجع باب *16* من ’الإنسان ومصيره فى الفيدانتا‘ ترجمات تراث واحد قيد النشر.

فهم الحقائق المشتقة من العلوم التراثية[14]

وقد كان الكلدانيون عندهم أوانيس برأس سمكة مثل فيشنو فى الهند، وقد اعتقد البعض أنه المسيح[15]، وكان يُعلِّم المذهب الأولانى للناس، وهو مثال باهر للوحدانية التى سرت فى معظم الأديان التراثية، ولن تفسَّر إلا لو سلمنا بتواصلهم جميعا مع مصدر واحد، كما يبدو أن رمزية أوانيس أو داجون ليست مجرد سمكة بل كانت الدرفيل الذى ارتبط عند اليونانيين بثقافة أبوللو[16]، وأضفت اسمها على دلفى، ومما له مغزى عميق أن هذه الثقافة قد أتت على يد القطبيين *Hyperboreans*، وما يبرر طرح هذه المتوازيات هو التواصل الوثيق بين رمزية الدرفيل وبين 'امرأة البحر' *Aphrodite Anadyomene* عند اليونانيين [17]، والتى ظهرت بأسماء متنوعة مثل عشتار *Ishtar* و أتيرجاتيس *Atergatis* و ديركيتو *Derceto* زوجة أوانيس أو ما يساويه، أى الجانب المكمل للمبدأ ذاته، وما تسميه الهندوسية شاكتى [18] أى سيدة اللوتس، وتعنى عشتار فى العبرية أستير بمعنى اللوتس أو الزنبقة، ويجوز أن تحل أحدهما محل الأخرى فى الرمزية[19]، ومثل كوان يين فى الشرق الأقصى التى كانت 'ربة أعماق البحر'.

وحتى نكمل هذه المشاهدات يحسُن ذكر صورة إيا البابلى 'سيد المتاهة' على

14 راجع نهاية باب 19 من الكتاب الحالى 'المعنى المقدس لعلامة برج السرطان' المحقق.

15 *In this respect it is interesting to note that the head of the fish, which gave its form to the head-dress of the priests of Oannes, is also the form of the mitre of Christian bishops.*

16 *This explains the link between the dolphin symbol and the idea of light (cf. L. Charbonneau-Lassay, 'Le Dauphin et le crustace', in Regnabit, January 1927, and Le Bestiaire du Christ, [chaps. 98 and 99 [a partial translation is found in The Bestiary of Christ (New York: Parabola Books, 1991, pp306-308)]). — Also to be noted is the role attributed by the ancients to the dolphin as rescuer of the shipwrecked, of which the legend of Arion offers one of the best known examples.*

17 *This 'Woman of the sea' must not be confused with the mermaid, although she is sometimes represented under a similar form.*

18 *The Dea Syra is properly speaking the 'solar Goddess', just as primeval Syria is the 'Land of the Sun', as we have already explained, its name being identical with Surya, the Sanskrit name for the sun.*

19 *In Hebrew, the two names Esther and Sushana have the same meaning, and in addition are numerically equivalent: both add up to 661. By placing the letter he—sign of the definite article, with a value of 5—in front of each, the number is brought up to 666, from which some have not failed to draw more or less fanciful deductions; for our part, we mention this as a mere curiosity.*

هيئة نصف جدى ونصف سمكة[20]، ويضاهى علامة برج الجدى، وربما كانت النموذج الأول له، ويهمنا الآن ذكر أن رمز الجدى مرتبط بالانقلاب الشتوى من الدورة السنوية، أو هى *ماكارا* فى دائرة البروج الهندوسية التى تحل محل الجدى، وليس بعيد الشبه بالدرفيل، ولابد أن يتعلق التعارض بين علامتى الجدى والسرطان أو بين يوانا كويلى *Janua Coeli* و يوانا إنفرنى *Janua Inferni*، وهما حيوانان مترافقان فى حالات بعينها مثل قاعدة ثلاثية الأرجل فى معبد دلفى، وتحت حوافر الخيل التى تجر مركبة الشمس، وتمثلا الحد الأقصى من كل اتجاه تبلغه الشمس فى رحلتها السنوية، ولا ينبغى هنا الخلط بين العلامتين المذكورتين بعلامتين أخرتين من علامات البروج، أى الحوت *Pisces* الذى يخصه رمزية أخرى تعنى الأسماك عموما، وخاصة فى صلتها بفكرة 'مبدأ الحياة' و'الإثمار' بالمعنى الروحى، وهذه جوانب أخرى يجوز أن ترتبط بالكلمة، ولكنها تختلف بحدة عن الجوانب التى تُجليها بصفتين هما 'الكاشف *Revealer*' و'المخلص *Saviour*'.

20 *Moreover, Ea holds before him, like the Egyptian scarab, a sphere which represents the 'World Egg'.*

23 أسرار حرف النون

إن حرف النون هو الحرف الرابع عشر من الأبجدية العبرية، وقيمته العددية *50*، إلا أن الأبجدية العربية تضعه فى ترتيب متميز فى نهاية منتصفها حيث إنها تحتكم على *28* حرفًا مقابل *22* حرفًا فى الأبجدية العبرية، أما تناظراتها الرمزية فى التراث الإسلامى فإنها أساسًا تمثل الحوت، كما أنها تتسق مع كلمة 'نون' ذاتها التى اتُخذت اسمًا له، وقد سُمِّى النبى يونس ذى النون، كما يعنى السمك عمومًا وخاصة كما أشرنا إليه فى الباب السابق، وكما سنرى لاحقًا 'المُخلِّص السمكة' سواءً أكان *ماتسيا أفاتارا* عند الهندوس أم *Ichthus* عند المسيحيين الأوائل، كما يقوم الحوت بالدور ذاته مثل الدرفيل الذى يناظر علامة السرطان فى دائرة البروج، وباب الانقلاب الفصلى الذى يؤدى إلى 'الطريق الصاعد'، وربما كانت هذه الخصيصة أشد إدهاشًا فى حالة *ماتسيا أفاتارا* كما يتبين من انعكاس حرف النون عندما تتعلق بالقصة التوراتية للنبى نوح.

ويتوقف فهم المسألة بكاملها على ملاحظة أن *فيشنو* فى إهاب السمكة قد أمر *ساتيافراتا مانو* المستقبل باسم *فايفاسفاتا* ببناء سفينة تحمل بذور المستقبل، ثم يرشد السفينة فى صورته ذاتها على مياه الفيضان فى التحول من *مانفانتارا* إلى التى يليها، ويناظر دور *ساتيا فراتا* دور النبى نوح فى بناء سفينة تحمل العناصر اللازمة لاستعادة العالم بعد انحسار الفيضان، ولا أهمية لاختلاف التطبيق بمعناه المباشر فى التوراه، والتى تبدو كما لو كانت بداية دورة أقصر أمدًا من دورة الإنسان على الأرض *مانفانتارا*، لكنهما حدثان متشاكلان تحطم فيهما الحال السابق لتمهيد الأرض لحال جديد[1]، ولو كنا نضاهى ذلك بقصة النبى نوح فإننا نرى أن الحوت لا يقوم بإرشاد السفينة فحسب بل يتماهى مع السفينة ذاتها مثل *ساتيافراتا* ونوح

[1] راجع الباب *11* من 'ملك العالم' ترجمات تراث واحد قيد النشر.

على السفينة، أما النبي يونس فقد ظل محتبسًا فى بطن الحوت برهة كانت بالنسبة له بمثابة مرحلة ضلال فى غموض يكتنف كل شيء فى التحول من حال معتاد إلى حال نقيض، أو هما صيغتان نقيضتان للوجود، والاختلاف هنا كذلك أمر ثانوى، فالصور الرمزية دائمًا ما تكون قابلة للتطبيق المزدوج فى علاقة الكون الأصغر بالكون الأكبر، كما أن خروج يونس من بطن الحوت كان على الدوام رمزًا للبعث، ومن ثم العبور إلى حال جديد لابد من مضاهاته، ومن جانب آخر معنى 'الميلاد' الذى تفسره القبالة العبرية بارتباطه بحرف النون بمفهومه الروحى 'ميلاد جديد' ، أى تجدد الكائن أو الوجود الكونى.

وهذا هو ما أفصح عنه حرف نون العربى، والذى ينطوى على النصف الأسفل لدائرة يتوسطها مركز، وقد كان ذلك النصف الأسفل دائمًا رمزًا لسفينة تطفو على الماء، والنقطة فى وسطها تمثل بذرة تحولاتها، ويبين هذا الموضع المركزى واقعيًا مسألة 'بذرة الخلود'، أو هو 'الجوهر' الصمد الذى يفلت من كل صور التحلل الظاهر، ويمكن أيضًا ملاحظة أن النصف الأسفل متقعر، وهو ما يساوى الكأس، ولذا كان يحمل معنى 'الرحِم *matrix*' الذى لم ينضج بعد، وتكمن فيه بذرة كما سنرى لاحقًا تماهى مع الشطر الأرضى من 'بيضة العالم' [2]، ومن هذا الجانب 'السلبي' فى التحول الروحى فإن الحوت على نحو ما يشاكل كل الفرديات بمدى ما تحمل فى مركزها من 'بذور الخلود'، والتى يرمز لها أحيانًا 'بالقلب'، وبهذا يمكن تذكر العلاقة الوثيقة بين رمزية القلب و رمزية الكأس و'بيضة العالم'، وقد كان نمو البذرة الروحية يعنى ترك المرء حاله وحال الكون من حوله وهو مضمارها الصحيح حين يخرج من بدن الحوت الذى 'أحيا' النبي يونس، وفى ضوء ما تناولناه فى هذا الموضوع [3] سيسهُل فهم أن هذا الخروج يساوى الخروج من كهف التعميد الذى يرمز له نصف الدائرة الأسفل لحرف النون، ويفترض 'الميلاد من جديد' الموت عن الحال الأسبق، وسواء أكان فرديًا أم عالميا، فالموت

---

[2] وهناك توازٍ عجيب بين معنى الرحم يونى فى السنسكريتية ومعنى ديلفوس اليونانية التى لها معنى الدرفيل.

[3] راجع باب 34 فيما يلى.

ثم الميلاد أو البعث على اتصال وثيق، والواقع أنهما وجهان لاختلاف الأحوال، ويتبع حرف النون فى الأبجدية حرف الميم، والذى يبدو رسمه مغلقا على ذاته فيُختزِل إلى مجرد احتمال، والذى يناظر وضع السجود فى الشعائر، لكن التركيز على الاحتمالات الجوهرية للكائن هو النقطة الصمدية الخالدة، وقد تبدو هذه الفرضية فَناءً عابرًا يصبح من فوره بذرة لنضوجه ورشده فى مقامات أسمى.

ويحسُن إضافة أن رمزية الحوت ليست طيبة فحسب *benefic* بل لها جانب خبيث *malefic*، وبغض النظر عن الاعتبارات العامة التى تعلقت بتبرير ازدواج معانى رموز الموت والبعث فإن كل حالة تبدو بحسب الجانب المنظور منه، أى العلاقة بين الحال السابقة والحال اللاحقة، فالكهف موضع للموت ورحم للميلاد الجديد فى آن، ويقوم الحوت فى قصة نوح بهذين الدورين، فهل يجوز قول إن *ماتسيا أفاتارا* قد ظهر على نحو يثير التشاؤم كنذير للجائحة قبل أن يتحول إلى 'مخلِّصٍ' من الجائحة ذاتها؟ أم من ناحية أخرى فإن الجوانب المشؤومة فى الحوت تظهر فى اللوباثان العبرى *Leviathan*[4]، ولكنها تمثل فى التراث العربى فى 'بنات الحوت' اللائى تشكِّلن المنظور المساوى للروح أو كيتو فى التراث الهندوسى، وخاصة فيما تعلق بالخسوف، ويقال إنهن "سيشربن البحر فى آخر يوم من دورة *مانفاتارا* حينما تشرق النجوم من الغرب وتغرب فى الشرق"، ولا نملك الإسهاب فى هذه المسألة دون خروج كامل عن موضوعنا، لكن لابد لنا من لفت النظر إلى واقع أن المرء يشعر بوجود صلة مباشرة بين نهاية الدورة وبين الحالات التى تتمخض عنها، فلذلك دلالة تؤيد ما ذهبنا إليه.

ولنرجع الآن إلى صورة حرف النون، والذى يثير تناظرًا ملحوظًا من منظور العلاقة بين أبجديات لغات تراثية متنوعة، فيناظره فى السنسكريتية حرف *نا* كأداةٍ ملكية بمعنى '*of*' فى الانجليزية، ولو اختُزِل إلى عناصره الهندسية لاتخذ شكل نصفٍ أسفلَ لدائرة يتوسطه نقطة، إلا أن تقعُّره يتحول إلى تحدُّب بانقلابه الرأسيِّ، فيكون النصف الأعلى لدائرة كما يجرى أحيانًا للنون فى الخط العربى، وهى

[4] كما أن ماكارا فى الهندوسية من وحوش البحر، وله معنى 'طيب' فى الرسوم التى ظهر فيها، ويرتبط بعلامة برج السرطان، إلا أنه يذكرنا برمزية الزوبعة التى يرمز إليها التمساح.

إذن الشكل ذاته مقلوبا، أو إن الشكلين متكاملين تماما، والواقع أن اتصالهما ينتج دائرة يتوسطها مركز، وهى رمز الدورة الكاملة، ويرمزا معًا للشمس فى علم التنجيم وإلى الذهب فى الخيمياء[5]، كما أن النصف الأسفل يرمز إلى السفينة، ويرمز النصف الأعلى إلى قوس قزح الذى يشاكل قبول الكلمة، فكافة الرموز الحقيقية تنقلب بالتشاكل، وهذان النصفان يمثلا 'بيضة العالم' بنصفها الأرضى فى المياه السفلية الأدنى ونصفها الأعلى السماوى فى المياه العلوية، ولابد أن يحقق الشكل الدائرى توحده فى بداية كل دورة وفى نهايتها[6]، ويجوز القول إذن إن توحد الشكلين المقصودين يمثل بداية ونهاية الدورة، كما أنه يتصل بالرمزية الشمسية التى ستزيده و ضوحًا بمدى ما يناظر حرف *نا* الهندوسى الشمس البازغة ويناظر حرف نون العربى الشمس الغاربة، وعادة ما كان يُرمَز إلى الشكل الدائرى الكامل بعدد *10* وإلى المركز بعدد *1* إلى المحيط بعدد *9*، لكنها هنا حاصل اتحاد نونين $2\times50=100=10^2$، وهو ما يقطع بالاتصال بين العوالم الوسيطة فى العالم الدنيوى، والذى صار عالمًا للانقسام والتفاصل، ولكنه يقوم دائمًا فى العالم الأسمى من حيث المبدأ والدوام وصيغة الحاضر الخالد أبدًا.

ونضيف إلى هذه المشاهدات المطولة كلمة عن التواصل بينها وبين ما نُشِر مؤخرًا فى هذه المجلة[7]، وما طرحناه دائمًا يسمح بفكرة اكتمال الدورة كما رأينا، ولابد من أن ترتبط على نحو ما بالمنظومة التاريخية فى مواجهة بين صورتين تراثيتين تتناظرا مع البداية والنهاية، والتى تتخذ الهندوسية والعربية كلغات مقدسة، تمثل التراث الأولانى مباشرة فى الهندوسية، وفى اللغة العربية بمدى ما كان الإسلام خاتم الرسالات، وتمثل بالتالى لوحدة التراث الأرثوذكسى فى الدورة الحالية للإنسانية.

---

[5] ويمثل ذلك رمزية 'الشمس الروحية'، و'الجنين الذهبى' المسمى فى الهند هيرانياجاربها، كما أن هناك تناظر بين نون والشمس.

[6] راجع الباب *11* من 'ملك العالم' ترجمات تراث واحد قيد النشر.

[7] *Frithjof Schuon, 'Le Sacrifice', in Etudes Traditionnelles, April 1938, pi37, n2.*

24 الخنزير البرى و الدب

كان الخنزير البرى و الدب عند الكلتيين رمزان لممثلي النفوذ الروحى والسلطة الزمنية على الترتيب، أى طبقتى الدرويديين والفرسان، وهما تساويا طبقتا *البراهمة* و *الكشطريا* فى الهند من حيث خصائهما الأصيلة وسماتهما الجوهرية على الأقل، وكما أسلفنا فى دراسة أخرى[1] فإن هذه الرمزية لها أصل قطبي واضح، وهى أحد علامات الصلة بين التراث الكلتى وبين التراث الأولانى فى *مانفانتارا* الحالية، وربما أضيف إلى هذا التيار عناصر من أديان أسبق إلا أنها كانت مشتقات ثانوية، ونعنى بذلك أن التراث الكلتى ’نقطة وصل‘ بين التراثين الأطلنطى والقطبي *Hyperborean* بعد فترة ثانوية مثلت فيها الحضارة الأطلنطية النمط السائد و‘البديل‘ للمركز الأصلى الذى كان نائيا وخفيا عن الإنسانية المعتادة[2]، وعن هذا الأمر لم تكن الرمزية المذكورة بلا فائدة.

ولنعكف أولا على تساوى الأهمية التى أضفيت على الخنزير البرى فى التراث الهندوسى التى نبعت من التراث الأولانى *للفيدا،* والتى تؤيد أصلها القطبي، ونعلم أن الخنزير البرى *فارادا* فى التراث الهندوسى كان *الأفاتارا* الثالث من العشرة الذين أسند إليهم *فيشنو* أمور *المانفانتارا* الحالية[3]، لكن دورة تجليات العالم التى

---

1 *Spiritual Authority and Temporal Power, chap. l.*

2 *Cf. The King of the World, chap. 10, especially as concerns the relationships between the Hyperborean Tula and the Atlantean Tula (Tula being one of the primary designations of the spiritual centers). See also 'Atlantis and Hyperborea' in Traditional Forms and Cosmic Cycles, pt. 2, chap l.*

3 تقول الفيدات إن كالبا يوم وليلة فى حياة براهما، وهى فترة زمنية تنقسم إلى أربعة عصور يووجات، وتستمر طوال أربعة ملايين وثلاثمئة وعشرين عاما من اعوام الإنسان. ’موسوعة الأديان والفلسفات الشرقية’ تراث واحد قيد النشر، المترجم.

نعيش فيها تسمى *كالبا* فى هذا التراث، أى ’ دورة الخنزير البرى *Shveta- varaha Kalpa*‘ وحيث إن الأمر كذلك فإن التشاكل القائم جوهريا بين الدورة العظمى والدورات التابعة لها لابد أن يظهر فى بداية *المانفانتارا*، ولذا كانت الأرض القطبية المقدسة حاضرة وروحية وأولانية لهذه *المانفانتارا*، والتى تسمى *فاراهى* أى ’أرض الخنزير البرى[4]‘ وحيث إن السلطة الروحية تقيم هناك وأن كافة المراكز الأخرى للمنظومة ذاتها ليست إلا تجليات ثانوية للمركز الأول، فلم يكن غريبا لممثلى هذا التراث أن يتخذوا رمز الخنزير البرى علامة مميزة، وأن يحافظوا عليها طوال الزمن، ولذا سمَّى الدرويديون أنفسهم ’الخنازير البرية‘، وحيث إن الرمزية دائما ما تحمل جوانب عدة فقد خطرت لنا أفكار إضافية تنويها عن العزلة التى احتموا بها من العالم الخارجى، وقد كان الخنزير البرى بطبيعته ’وحيدا‘، كما دعت تلك العزلة الهندوس والكلتيين إلى اتخاذ موائلا فى الجبال والغابات، وليس ذلك بلا صلة مع سمات ’الأولانية‘، والتى تستحق بعض التأمل فى كل سلطة روحية جديرة بحمل مهمتها.

ولنعد إلى *فاراهى* التى أثارت عند البعض ملحوظات مهمة، فهى جانب من *شاكتى فيشنو* التى تبين على الفور طبيعته الشمسية وتماهيه مع ’ *سوريا* أرض الشمس‘ التى عالجناها فى موضع آخر[5]، والتى لازالت أحد أسماء *تولا* القطبية، أى المركز الروحى الأسمى، كما أن الجذر **ف ا ر** هو ذاته اسم الخنزير البرى فى لغة الشمال الأوروبى باسم بور[6]، والذى يساوى تماما *فاراهى* القطبية، والواقع أن الاسم المعتاد ’قطبى *Hyperborean*‘ كان يُستخدم فى اليونان فحسب بعد أن فقدت المعنى الأصلى لهذا الاسم القديم، ورغم أن هذه التسمية قد شاعت منذ ذلك الحين فقد يحسُن أن نسميها *Borean* فحسب بدلا من *Hyperborean*، ومن ثم نؤكد

---

4 راجع الصلة بين أتلانتيس و هيبوريا فى كتابنا ’صور تراثية ودورات كونية‘ باب *2*، حيث أشرنا إلى العكس مما قاله دالفادير *Yves d'Alveydre*، والذى توهم أن اسم *VARAHI* لا ينطبق على أوروبا من وجه كان، والواقع أن الأخير لم يكن شيئا إلا بلاد الثور، والتى ترجع إلى أصل بعيد عن الأصل الحق..

5 راجع باب *6* ’علم الحروف‘ والباب *12* ’بلاد الشمس‘.

6 *Whence the English boar, and also the German Eber.*

على عدم تساوى علاقتها باسم *Borea*، أى 'أرض الخنزير البرى'.

كما أن هناك نقطة أخرى عن الجذر السنسكريتى **ف ر ى** ويعنى 'التغطية والحماية والإخفاء' وحيث إن فارونا اليونانية تساوى أورانوس *Uranos* فقد استخدمت بمعنى السماء، وليس لأنها تغطى الأرض فحسب بل كذلك لأنها تمثل العوالم العلوية الخفية عن الحواس[7]، وينطبق ذلك تماما على المراكز الروحية سواءً أكان لخفائها عن العيون الدنيوية أم لحمايتها من العالم بوجود لا يُرى أم لأنها صور للعالم السماوى ذاته، ولنضف إلى ذلك أن الجذر **ف ر ى** لازال له معنى آخر هو 'الانتقاء والاختيار *فارا*'، والتى لا تقل كفاءة عن تسميات مثل 'أرض المختارين' و'أرض القديسين' و'أرض المباركين'[8].

ويمكن الآن أن نرى الوحدة بين الرمزيتين 'الشمسية' و'القطبية' فيما تعلق بالخنزير البرى الذى رمز إلى الدب الأكبر *Ursa Major*[9]، أى تمرد السلطة الزمنية على النفوذ الروحى والانشقاقات التى تبعته فى مساق حقب التاريخ، ويرجع أول ظهور للتمرد إلى حقبة أقدم كثيرا من التاريخ المعروف، وقد تكون بداية *كالى يووجا* الذى نعيش فيه، والتى بلغت فيه ذروتها فى الهيمنة والتوسع، ويفسر ذلك الكيفية التى تحول بها اسم *bor* إلى *bear*[10]، وكيف أصبحت 'أرض الخنزير البرى *Borea*' 'أرض الدب' فى برهة بعينها من سيطرة *الكشطريا*، والتى أنهى وجودها *باراشا راما*[11].

والاسم الشائع فى التراث الهندوسى للدب الأكبر هو *سابتا ريكشا*، والذى

---

7 *See The King of the World, chap. 7, where we indicated also that the Latin word coelum itself originally had the same meaning.*

8 *Let us also point out as a possible connection that the Germanic root ur, which has the sense of'primordiality', may also be related to the Sanskrit var.*

9 ولا بد من مراعاة أن هذه المجموعة من الكواكب كان لها عدة أسماء مثل الميزان *Scales*، ولكن معالجتها تخرج بنا عن نطاق هذا الباب.

10 *Here it is appropriate to add that the two symbols of the boar and the bear do not necessarily always appear in opposition or conflict, but 10 In English, bear; in German, Bar.*

11 *In this connection, we have already had occasion to point out that Fabre d' Olivet and those who followed him, like Saint-Yves d'Alveydre, seem to have rather strangely confused Parashu-Rama with Rama-Cliandra, that is, the sixth and seventh avataras of Vishnu.*

يتماهى لغويا مع الأسماء المعروفة فى اللغات الأخرى مثل *arth* الكلتية و *arktos* اليونانية و *ursus* اللاتينية، لكن ما يثير العجب ما إذا كان المعنى الأول لمصطلح *ساپتا* ريكشا هو المقصود أم أنه جرى فى الاستبدال المذكور، فلم يجر الاستبدال لغويا بل بجمع تطبيقات صوتية للرمزية، والواقع أن ريكشا تعنى 'النور' عموما وتعنى *ساپتا* ريكشا موئل حكماء الفيدا السبعة *Rishis*، وهم 'أنوار' الحكمة التى حملتها من الدورات الأسبق إلى الدورة الحالية[12]، وهكذا تأسست الصلة بين الدب والنور التى لا تشكل حالة فريدة فى الرمزية الحيوانية، حيث نجد حالة مشابهة فى 'الذئب' عند الكلتيين واليونانيين الذى ارتبط برمز النور[13]، ومن ثم انتماؤه للرب الشمسى أبوللو أو بيلين.

وقد كف اصطلاح *ساپتا* ريكشا بمعنى الدب الأكبر عن التداول فى حقبة بعينها، لكنه أطلق على مجموعة الثريا *Pleiades* التى تتكون من سبع نجوم، ويضاهى التحول من فلكية قطبية إلى دائرة البروج التحول من رمزية الانقلاب إلى الاعتدال الفصلى، والذى يترتب عليه تغير بدء دورة العام وإعادة ترتيب الاتجاهات الأصلية التى تناظر مراحل دورة الفصول[14]، ومن ثم يجرى التحول من الشمال إلى الغرب بما يشير إلى الحقبة الأطلنطية، ويبرهن على ذلك أن اليونانيين قد سمّوا مجموعة الثريا *Pleiades* بنات أطلس، ومن ثم قيل عنهن الأطلنطيات *Atlantides*، وقد تسببت تحولات من هذا النوع فى كثير من الخلط فى عدة أزمنة، ويصدق ذلك على الأفلاك السماوية والمناطق الأرضية على السواء، ولم يكن من السهل دائما اكتشاف المقصود فى كل حالة كما لم يمكن ذلك فى بعضها، اللهم إلا بربط 'الأماكن' المتنوعة بنظائرها فى الحضارات الأخرى كما فعلنا فى حالة *ساپتا* ريكشى.

وقد كان يُرمز إلى تمرد الكشطريا فى *اليونان* بصيد خنزير كاليدونيا البرى،

---

12 *These 'seven Lights' persist in Masonic symbolism: the presence of the same number of persons representing them is necessary for the constitution of a 'right and perfect' lodge, as well as for the validity of initiatic transmission. — Let us note, too, that the seven stars spoken of at the beginning of Revelation (1:16 and 20) would be, according to certain interpretations, those of the Great Bear.*

13 *In Greek, the wolf is LUKOS and the light is LUKE\ hence the epithet LYCIUS (Lycian), with its two meanings, which is applied to Apollo.*

14 *Deipnosophistarum, 9:13.*

وهو ما يمثل القصة التى أعلنوا فيها انتصارهم الماحق، حيث إنهم قتلوا الخنزير البرى، وقد كتب بعض قدماء الكتاب الأثينيون أن الخنزير كان أبيض اللون، وهو ما يماهى بينه وبين *شفيتا فاراها* فى التراث الهندوسى، وقد كان الأطلنطيات هن اللائى رضعن من الدب واللائى ضربن الضربة الأولى، لكن ذلك من منظورنا قليل الشأن، وقد كان اسم أطلانطا يرمز إلى أن بداية التمرد قد حدثت فى أطلانطا ذاتها أو فى منطقة تابعة لها من ورثة تراثها[15]، كما وجدنا اسم كاليدون فى كاليدونيا، وهى الاسم القديم لاسكتلندا، وبغض النظر عن أية 'مواضع' بعينها، فهذه حرفيا بلاد *'Kaldes* أو الكلت[16]، ولم تختلف غابة كاليدون واقعياً عن بروكلياند، فهو الاسم ذاته وإن تعدل على نحو تحول *bro*أو *bor* مما طرحناه عاليه، أى اسم الخنزير البرى.

ولم تكن تسمية الذئبة الرمزية بصيغة الأنثى كما رأينا فى حالة أطلانطا وكذلك فى تسمية مجموعتى الدب الأكبر والدب الأصغر بلا مقصد لعدة أسباب تتعلق بتسمية الطبقات المحاربة، وهم سدنة السلطة الزمنية، فأولا كانت هذه الطبقة 'قابلة' وهو دور أنثوى يناقض الطبقة الكهنونية، حيث كانت 'تتلقى' تعاليم المذهب التراثى وتسويغ سلطتهم الزمنية و'حقهم الربانى'، وعندما انقلبت الطبقة المحاربة من الخضوع إلى التمرد ادعت السيادة، وقد كان العنصر النسائى يرافق ازدهارهم دائما فى الرموز المعدلة التى اتخذوها حتى فى إقامة صورة من الكهنوت النسائى على منوال الدرويديين فى الكلتية، وقد كان تماسنا مع هذه النقطة كافيا لبيان أن أنثى الدب هى التى قتلت الخنزير البرى، حيث إن الإسهاب فيها سيحملنا بعيدا عن موضوعنا، وخاصة فى البحث عن تناظرات مشاكلة فى أديان أخرى.

ويحسُن هنا إضافة رمزين للخنزير والدب، فلم يكونا دائما فى صراع أو تناقض، لكن هناك حالات بعينها تمثل النفوذ الروحى والسلطة الزمنية، أو طبقتى الدروديين والفرسان فى علاقة طبيعية متسقة، وهو ما يتبين من أسطورة ميرلين و آرثر، والواقع أن ميرلين الدرويدى هو خنزير غابة بروكيلياند، كما كان الملك آرثر

يحمل اسما مشتقا من الدب *arth*، ويتماهى هذا الاسم مع علامة برج القوس *Arcturus* باعتبار الاختلاف الطفيف بين الاشتقاقين الدرويدى واليونانى، وينتمى هذا النجم إلى مجموعة 'قائد العربة *Wagoner*'، ويمكن أن نرى فى هذا الرمز علامات تواصل الحقب المختلفة، فسدنة الدب قد أصبحوا قادة العربات، أو بعد أن تحول *سابتا ريكشا* إلى 'الثيران السبعة *septum triones*' ولكن لا مبرر للانشغال بهذه التحولات النسبية المتأخرة فيما عكفنا على طرحه[17].

ويبدو من كل ما طرحناه استنتاجا عن الأدوار المتناظرة التى قامت بين التيارين وأسهمت فى تشكيل التراث الكلتى، فلم يكن النفوذ الروحى والسلطة الزمنية منفصلان كوظيفتين مختلفتين، لكنهما توحدا فى مبدأ واحد، وقد بقيت منه آثار فى اسم الدرويديين *dru-vid* الذى تعنى 'القوة والحكمة'[18]، كما أنه على الأخص يعنى النفوذ الروحى الذى أسنِد إليه الشطر الأسمى من المذهب التراثى، وكانوا الورثة الشرعيين للتراث الأولانى، والرمز القطبي *borean* للخنزير البرى الذى انتمى إليهم، أما الفرسان الذين كان رمزهم أنثى الدب فيبدو أن ذلك الدور كان مقدرا عليهم بكل ما كان قبلهم من التراث الأطلنطى، وربما استطاع هذا التمايز الإسهام فى حل كثير من ملغزات تاريخ الحضارة الغربية.

---

17 *There are yet other curious parallels in this regard, notably between the golden apples of the legend of Atalanta and those of the garden of the Hesperides or 'daughters of the West', who also were daughters of Atlas, as were the Pleiades.*

18 *Moreover, it is probable that the name of the Celts, like that of the Chaldeans, which is identical with it, was not originally that of a particular people, but of a sacerdotal caste, exercising spiritual authority among different peoples..*

بعض الأسلحة الرمزية

25 الصواعق

كتب أوريجيه *Auriger* فى مقال له نُشِر فى *Le Voile d'Isis* عن أوراق الطاروط والقانون *arcanum* السادس عشر كما يلى،

> إن هناك علاقة بين ركام الحجر الذى ينهالٍ من برج ضربته صاعقة وكلمة *Bethel* التى تعنى المقام الربانى التى اشتق منها ’بيت إيل *baetyl*‘ عند الساميين وبين نيازك الرعد *thunder stones* أو *meteorites*.

وقد أوحى تعبير ’بيت الرب‘ الذى أضفاه القانون المذكور بالعلاقة حرفيا فى العبرية بينه وبين ’بيت إيل‘، ولكن يبدو لنا فى ذلك خلطٌ بين أمور مختلفة، ولزم الإيضاح التالى للفائدة.

فأولا من المؤكد أن الدور الرمزى لأحجار النيازك التى تسقط من السماء له أهمية كبرى، فهى ’الأحجار السوداء‘ التى ظهرت فى حضارات متنوعة، ومنها الحجر الذى كان يرمز إلى ’الربة العظمى سيبيل *Cybele*‘، و’الحجر الأسود‘ فى الكعبة بمكة الذى كان له دور فى قصة إبراهيم، كما ظهر فى روما كذلك باسم ’الحجر الأسود *lapis niger*‘، والذى يُقال إنه منحوت من نيزك سقط فى عصر *نوما*[1]، وقد وجبت صفة الخيانة على هذه الأحجار السوداء نظراً لأنها تركت وظيفتها كأحجار فى بيت الرب أو كدعامات ’نفوذ روحى‘، ولكن هل هناك أصل واحد لكل هذه الإحجار؟ ونحن لا نعتقد ذلك، فلم نر أمرا يسمح لنا بافتراض الحال المذكور على الحجر الذى توسده يعقوب فى سفر التكوين، والذى أضفى اسمه ’بيت إيل‘ على البناء الذى سيقوم عليه كما رأى فى منامه.

---

[1] حكى أوسِّندوفسكى *Ossendowski* رواية ’الحجر الأسود‘ الذى أرسله ملك العالم إلى دالاى لاما فى أورجا المنغولية، والتى اختفت من حوالى قرن مضى، وحاول تفسير ظواهر بعينها دون أن يعلم ما يتحدث عنه، مثل مظهر الشخصيات المرسومة على سطح الحجر بافتراض أنه كان لوح كتابة فحسب.

والواقع أن 'بيت إيل' يعنى الكأس المقدس *Omphalos* رمز 'مركز العالم'، والذى يتماهى على نحو طبيعى مع 'الموئل الربانى'[2]، فقد يتخذ هذا الحجر صورا متنوعة وخاصة صورة العمود، فيقول يعقوب "وهذا الحجر الذى أقمته عمودا يكون بيت الرب ..." التكوين *28 :22*، وعند بعض الشعوب الكلتية وليس كلها كان لاسم منهير *menhirs* بمعنى العمود، كما أن الكأس المقدس يمكن أن يُرمز له بحجر مخروطى يشاكل حجر سيبيل الأسود، ويذكرنا المخروط بالجبل المقدس رمز 'محور العالم'، ويرتبط الشكل المخروطى مباشرة برمز مهم آخر هو 'بيضة العالم'، وقد كان 'بيت إيل' هو 'حجر النبوَّة' الذى 'يتكلم'، أى تُستلهم منه النبوءات بفضل 'النفوذ' الروحى، الذى كان دعامة له، ويُعتبر كأس دلفى نمطا فى هذا الشأن.

وجميع بيوت إيل مقدسة جوهريا، رغم أن بعضها ليس من أصل سماوى، وربما صحَّت رمزيًا على الأقل فكرة 'الحجر الساقط من السماء'، والتى تنطبق عليها جميعا على نحو بعينه، وما يجعلنا نعتقد بذلك هى العلاقة الأسرارية 'لوز' فى التراث العبرانى، فقد وجدت هذه الصلة فى حالة الأحجار السوداء التى كان أصلها نيازكًا، لكن لابد أنها لم تكن محدودة بحالة واحدة، فقد قيل فى سفر التكوين أن اسم بيت إيل عند يعقوب كان 'لوز'، ويمكن أن نتذكر هنا أسطورة الجريل التى قالت إنه صِيغ من حجر سقط من السماء، وقد ارتبطت كل هذه الحالات برباط وثيق، ولكن لن نسترسل فى هذا الأمر حتى لا نخرج عن موضوعنا[3].

والواقع أن مسألة 'بيوت إيل' عموما أو حتى مسألة 'الأحجار السوداء' خصوصا ليس فيها ما يتفق مع 'أحجار الرعد'، ولذلك كان الاقتباس الذى افتتحنا به هذا الباب يعيث بضلالات خطيرة، إلا أنها قابلة للتفسير، ونميل إلى الاعتقاد بأن 'أحجار البرق' أو 'أحجار الرعد' لابد أنها كانت نيازك *meteorites* سقطت من السماء، لكن ذلك لم يكن صحيحا، ولم يكن من الممكن تخمين ماهيتها دون أن

---

[2] وقد كانت تسمية 'موئل الرب' فى العبرية ميشكان، والتى أضفيت لاحقا على تابوت العهد 'موئل شيكيناه'.

[3] وقد جاء فى كتاب 'ملك العالم' ترجمات تراث واحد قيد النشر، دراسة عن لوز والكأس المقدس *Omphalos*.

نعلم حقيقتها من الفلاحين الذين وعت حافظتهم التراث الشفاهى، وقد كان الفلاحون مخطئون بدورهم فى تفسيرها إذ اعتقدوا أن الأحجار قد وقعت أثناء البرق أو كانت مضيئة بذاتها، وهو ما يثبت أن المعنى الحقيقى فى التراث قد أفلت منهم، فقالوا فى الواقع أن البرق أما أن يكون نارا وإما حجرا، فيحترق فى الحالة الأولى ويتكسَّر فى الثانية، ولكنهم يعرفون 'أحجار الرعد' تماما، وأخطأوا فحسب نظراً لأنهم عزوه إلى مصدر سماوى، وهو مالم يعلموا عنه شيئا.

وواقع الأمر أن 'أحجار الرعد' ذاتها كانت ترمز عندهم إلى البرق، وليست إلا فؤوس صلدة مثل 'بيض الثعبان'، وهو رمز الدرويدين عن 'بيضة العالم'، وليست فى تكوينها إلا حفريات من القواقع البحرية، وحجر الفأس هو ما يشُق ويحطِّم، ولذا كان يمثل عندهم صاعقة البرق، كما أن هذه الرمزية راجعة إلى حقبة سحيقة، ويفسر وجود كثير من الفؤوس الأثرية يسميها الأثريون *'votive axes'*، وهى أداة شعائرية ليس لها استخدام عملى فى أى غرض كان.

ويحملنا ذلك إلى تذكر مسألة تناولناها عن بلطة *باروشو راما*، وحجر مطرقة *ثور*، وهما الأداة ذاتها، والتى ترمز إلى البرق[4]، وهكذا نرى أن رمزية 'أحجار الرعد' لها أصل قطبي، وهو بمثابة قول إنها مرتبطة بأقدم تراث للإنسانية الراهنة، وما كان على الحقيقة التراث الأولانى لعصر الإنسانية *مانفانتارا*[5].

وهناك أسباب تدعو إلى التفكير فى الدور المهم الذى قام به البرق فى الرمز التبتى فاجرا، وهو أحد الشعارات الرئيسية لوجهاء اللامية[6]، وترمز إلى المبدأ الذكورى للتجليات الكلية، وارتبط البرق عندهم بفكرة 'الأبوية الربانية'، وهو

---

4 *See the article of P. Genty on 'Thor and Parashu-Rama', in Le Voile d'Isis, December 1928.*

5 ونلاحظ فى هذا الصدد خلطا غريبا فى هذه الأيام، مثلما تحدث البعض عن 'أطلانتيس القطبية *Atlantis Hyperborean*'، لكن أطلانتيس والقطب أمران مختلفان على منوال اختلاف الشمال عن الغرب، فالقطبية من خارج الأطلنطية، وأعتقد أن لفت الانتباه إلى هذا الأمر له ما يبرره من واقع الخلط فى المسألة إلى درجة عزوها إلينا، فى حين لا حاجة لقول إننا لم نعالج هذا الموضوع، ونحن نعلم أننا لم نكتب تفسيرا لهذا الأمر.

6 وتعنى 'فاجرا' فى السنسكريتية البرق، والمصطلح التبتى هو 'دورجا DORJE'.

ارتباط يشاكل التراث الغربى القديم فيما تعلق بالبرق، حيث كان المبدأ الرئيسى زيوس باتر أو جوبيتر أبو الأرباب والناس، والذى ضرب الجبابرة والعماليق بصواعق البرق، وكما حطَّم *ثور* و *باراشو راما* نظائرهم بأسلحة حجرية[7].

كما نجد فى الغرب الحديث ذاته توازٍ آخر فى مقولة لايبنيتز فى كتابه ' علم المونادات *Monadology*' يقول فيها "إن المونادات قد خُلقت أو ولدت بتشكُّل ربانى مستمر من لحظة إلى أخرى"، وبالاتساق مع المعطيات التراثية التى طرحناها توًا يربط بين صاعقة البرق وبين فكرة خلق المخلوقات، ومن المحتمل أن الذين فسروا أعماله فى الجامعة لم ينتبهوا إليها لسبب معقول، وهو أن نظريات الفيلسوف ذاته عن 'الحيوان الخالد' تختزل بعد موته إلى مفهوم عبرى عن 'لوز' كقلب للخلود[8].

ولابد أن نطرح نقطة أخيرة تتعلق بالرمزية الماسونية لعلاقة الدقماق *mallet* بالمطرقة، وكلاهما شكل من أشكال الأداة ذاتها، لكن المؤرخ الماسونى جولد *R.F. Gould* يعتقد أن دقماق الأستاذ يرجع إلى مطرقة ثور، كما أن الغاليين يعبدون 'رب الدقماق'، وهو مرسوم على منبر فى مدينة مينز *Mainz*، ويبدو أنه ديس باتر *Dis Pater* باسم قريب من زيوس باتر *Zeus Pater* الذى قال سيزار إن الدرويديين

---

7 ومن المدهش أن تكون صاعقة جوبيتر مسبوكة عند فولكان، وهو ما يقيم علاقة بعينها بين 'النار السماوية' و'النار الباطنة فى الأرض'، ولا تُذكر هذه العلاقة فى سياق الحديث عن أسلحة حجرية، و'النار الباطنة فى الأرض' لها علاقة بالرمزية المعدنية وخاصة فى الأسرار الكابيريكية *Kabiric mysteries*، كما أن فولكان يقوم بصنع أسلحة الأبطال، ولابد من إضافة أن هناك نسخة أخرى تدَّعى أن مطرقة ثور معدنية من صنع الأقزام *dwarfs*، والذين ينتمون رمزيا إلى الكابيرى، أى العمالقة ذوى العين الواحدة *Cyclops*، وإلى الياكشات *Yakshas*، ..إلى آخرة، ولنلاحظ أيضا أن مركبة ثور يجرها وعلان، وأن الوعل فى الرمزية الهندية يتعلق بنار مركبة آجنى.

8 وتعنى فاجرا فى الهندوسية 'صاعقة البرق' و'الماس'، وهو ما يؤدى إلى مسائل أخرى لن نخوض فيها الآن، راجع أبواب *25* و *27* و *52*.

يزعمون أنه أبو الجنس الغالى[9]، وهكذا ظهر الدقماق الذى يرمز إلى فاجرا التبتية، وكذلك كان الاتفاق لا يُحَمَد على أى طريق كان، ويبدو أن بعض أساتذة الماسونية كان لديهم مرتبة تناظر عظماء اللامات فى التبت، ولكن مَن مِن الماسونيين اليوم يمكنه الزعم بامتلاك قوى أسرارية رغم ازدواجها الواضح وآثارها المعاكسة التى يدل عليها هذا الشعار؟ ولا نعتقد أن من الجرأة قول إن ما بقى من منظمات التعميد الغربى لم يعد يفقه منها أحد أية فكرة ولو من بعيد عن الرموز الباقية، ولكن حينما تنسحب 'الروح' لا يبقى بعدها سوى إطار صورة فارغ، فهل وجب علينا مدُّ الأمل رغم كل شىء فى أن يوما سيأتى تعود الحياة فيه إلى الإطار الفارغ حينما تناظر غاية وجودها الحقة؟ وهى فحسب التى تضفى الصبغة التعميدية.

9 ويظهر رسم على عملة غاليِّة لشخص ملغز يمسك عصا تبدو كما لو كانت على هيئة غول *augural rod* بيد، وفى اليد الأخرى مطرقة يدق بها على سندال، وقد أسبغت هذه الصفات عليه اسم 'الحداد الفقيه *blacksmith Pontiff*'.

26 أسلحة رمزية

عندما تحدثنا عن رمزية الزهور أشرنا إلى رمزية الرمح فى أسطورة الجريل التى قامت مكمّلًا لرمز الكأس المقدس، وقد كان أحد الرموز الكثيرة 'لمحور العالم *World Axis*'[1]، وذكرنا فى الآن ذاته أن هذا الرمز 'شعاع ربانى' وأفكار ترتبت عليه فى حضارات أخرى[2]، والتى مثّلت 'محور العالم'، ومن الواضح أن هذين المعنيان متطابقان، لكن ذلك يفسر أيضًا أن الرمح والسيف والسهم تساويها تقريبا، وأحيانًا ما تَمُثُل على هيئة شعاع شمسى، ويتضح كذلك أن هذان الرمزان لا ينبغى أن يختلطا بين الانتمائين القطبى والشمسى، وأننا كررنا الإشارة إلى أن الأولى لها سمة 'أولانية *primordial*' حقة، ولا يجُبُّ ذلك ما أُطلق عليه 'الانتقالات *transfers*' بين نطاق وآخر كما يجرى حاليًا لأسباب عالجنا تفسيرها باستفاضة فى عمل آخر[3].

وسوف نقتصر مؤقتًا على ذكر صفات سهام أبوللو التى قتلت الثعبان بايثون كما قتل إندرا فى الفيدا نظيرها *آهى* أو *فريتا* بصاعقة البرق، ولا تترك هذه المقارنات مجالًا للشك فى تساوى الرموز الأصلية بين السلاحين المذكورين، كما نذكر أيضًا أن 'السهم الذهبى' عند أهاريس الزالموكسى *Aharis or of Zalmoxis* الذى ظهر فى قصة فيثاغورث، ويمكن أن نشهد هنا أن هذه الرمزية تنتمى لأبوللو القطبى، وهو

[1] و تضاهى رمزية الكأس والرمح رمزية الجبل والكهف، وسوف نعود إليها لاحقا.

[2] راجع 'رمزية الصليب'.

[3] راجع الباب *30* فيما يلى. المحقق.

ما يؤسس الصلة بين الجوانب القطبية والشمسية[4].

ولنعد إلى الأسلحة المتنوعة التى ترمز إلى 'محور العالم'، ويحسن قول إنها أما كانت ذات حدين وإما كان لها طرفين مدببين، والحالة الأخيرة مثل *فاجرا* التى سنعود إلى معالجتها فيما بعد، كما نشير إلى ازدواجية محور العالم بين طرفية، وكل التناظرات التى ترتبت عليها، والتى عالجناها فى أعمال أخرى[5]، أما الأسلحة ذات الحدين فإن ازدواجها ملحوظ على طول المحور، ولا مناص من أن نرى فيها تنويهًا مباشرًا عن التيارين اللذان تمثلا فى صورة ثعبانين يلتفان على عصا أو صولجان كاديسيوس، لكن التياران المتعاكسان ذاتهما مرتبطان بالمحورين ونصفى العالم، فيتبين على الفور أن هناك تقابل بين الرمزيتين، فالمسألة على الدوام هى القوة المزدوجة التى تنتمى إلى جوهر واحد، ولكنه يتجلى فى اختلافهما، وينتج عن 'الاستقطاب' الذى يُكيِّف الطرف الآخر، كما يكيف كل الأحوال والمراتب فى التجلى الكونى[6].

ويمكن اعتبار السيف من الأسلحة ذات الحدين[7]، ولكن المثل المدهش هو البلطة المزدوجة، والتى تنتمى إلى الرمزية الإيجية و الكريتية فى الحقبة التى سبقت

---

4 وقد لاحظنا فى هذا الصدد أن 'الفخذ الذهبى *golden thigh*' عند الفيثاغوريين قد جعله يبدو كتجلٍ لأبوللو القطبى، ويرتبط برمزية الجبل القطبى والدب الأكبر، كما أن الثعبان بايثون له علاقة بمعبد دلفى، وكان موئل أبوللو يسمى فى زمن سحيق 'بايثو'، ومنها جاء اسم بايثونيس أو بيثيا، وكذلك اسم فيثاغورس *Pythagoras* ذاته، وهو على الحقيقة اسم آخر لأبوللو الذى كان مرشدًا له بمعناه الحرفى 'الذى يرشد البايثونيين'، أى يلهمهم بالكرامات.

5 راجع 'الثالوث الأعظم' باب 5.

6 ويضاهى ذلك قول إن المزدوجات الكونية ليست إلا 'مواصفات' متنوعة للازدواجية الأولى بيرو شا و برا كريتى، وبتعبير آخر الا ستقطاب بين ا لجوهر الفا عل *essence* وا لجوهر القا بل *substance*.

7 وقد كانت الكلمة أحد معانى رمز السيف بقواه المزدوجة فى الخلق والتدمير، ومن الواضح أنها تشاكل ما ذكرنا توًا، وأن حربة شيفا الثلاثية *trishula* سمة ترمز إليه، وغالبًا ما نتعلق 'بالأزمنة الثلاثة تريكايا' أى الصيغ الثلاث للزمن الماضى والحاضر والمستقبل، كما يمكن إجراء مقارنات شتى بين هذا الجانب وبين أديان أخرى مثل رمزية يانوس.

الرمزية الهللينية، وبلطة القتال التى جاء ذكرها فى الباب السابق رمز مؤكد لصاعقة البرق، وعلى ذلك تصبح مساوية لرمز فاجرا، وتبين المقارنة بين الرمزين التماهى الأصولى بينهما فيما ذكرنا عن الأسلحة الحادة الطرفين[8].

وظهرت فاجرا بصور متنوعة، وقد بين كوماراسوامى *Coomaraswamy*[9] أن الصورة المعتادة لها تقارب الحربة الثلاثية لكل طرف منها، وهى سلاح رمزى فائق الأهمية إلا أن دراسته ستنبو بنا عن موضوعنا[10]، وسنقول فحسب إن نقطة الوسط تقع فى نهاية المحور ذاته، أما النقطتين الخارجيتين فيتعلقا باليمين واليسار والتيارات المذكورة عاليه، ولهذا السبب وُجِدَت ثلاثيات مشابهة لها فى الرمزية 'المحورية *axial*'، مثل عدة أشكال 'لشجرة الحياة'، كما بين كوماراسوامى أن فاجرا قد تحولت فى التراث إلى رموز معروفة 'لمحور العالم' مثل محور المركبة، والتى تقوم فيها العجلتان بدور السماء والأرض، وهو ما يفسر بعض تشاكلات لهما، وحينما توضعا على زهرة لوتس ترمزا إلى أنهما تطبيقان لمبدأ واحد، أما عن موضوع السيف فلابد أن نراعى أن المؤرخين القدامى قد ذكروا أن الاسكيثيين *Scythians* قد رمزوا للربوبية بسيف مغروس على قمة كوم، وحيث إن الكوم رمز مختزل للجبل فقد توحَّد رمزان 'لمحور العالم'، أما فاجرا الرباعية فتصل بين الصورتين المعتادتين لها على شكل صليب، ولو كانت موضوعة على مستوى أفقى كما شهدنا فى *كارما فاجرا*، فهى قريبة من رمز *سواستيكا* ورمز *شاكرا*[11]، ولن نزيد عن ذلك إلا لفت الانتباه إلى النقاط التى قد نعود إليها فى دراسات أخرى، فالموضوع

---

8 وقد كان دقماق ثور رمزًا آخر لصاعقة البرق كما أسلفنا بصورتها التى تشاكل حرف *T*، والتى تتطابق مع البلطة المزدوجة، كما نشير أيضًا إلى أن الدقاق والسيف قد شاعت بين رمزيات الماسونية الحديثة بدرجة أقل.

9 *The Elements of Buddhist Iconography [New Delhi: Munshiram Manoharlal, 1979 (first edition 1935)].*

10 تذكرنا هذه الثلاثية المزدوجة فى هذه الحالة بفروعها وجذورها طرفا فاجرا، فمن المعلوم أن الحربة الثلاثية من كايات شيفا وتتعلق دومًا بثلاثية الزمن تريكالا، أى الماضى والحاضر والمستقبل، ويجوز هنا إجراء مقارنات بين جوانب تراث مثل رمزية يانوس.

11 ولم يعد هناك مسألة محور رأسى كما كان الأمر من قبل بل محورين أفقيين متعامدين فسرنا رمزيتهما الهندسية فى 'رمزية الصليب'.

لا قرار له.

وهناك دلالات أخرى لرمز فاجرا غير صاعقة البرق مثل الماس، والذى يتصف بعدم الانقسام وعدم التغير والخلود، والواقع أن الخلود هو السمة الجوهرية لمحور العالم الذى يدور حوله كل شىء ويبقى ساكنًا لا يتحرك، وبناءًا على هذه الاعتبارات فهناك توازٍ مدهش فى وصف أفلاطون لمحور العالم كقضيب من الماس يحيط به كرات تتراكز حوله بمختلف الأبعاد والألوان، وتناظر الكواكب التى تدور حوله[12]، ثم هناك الرمزية البوذية على صورة ’عرش الماس‘ الذى يقوم تحت ’شجرة الحكمة‘ وفى مركز ’عجلة العالم‘، أى النقطة الفريدة التى تبقى أبدًا فى سكون.

ولنعد إلى ’ صاعقة البرق‘ التى أشرنا إليها[13]، ويقال إنها تمثل قوة البناء والهدم، أى ’ قوة الحياة والموت‘ حتى بمعناهما الحرفى، وستكون تطبيقًا آخر للقوة المذكورة[14]، والواقع أن القدرة التى تنتج كل ’تركيز‘ و’ذوبان‘ والتى يربطها تراث الشرق الأقصى بتحولات يين و يانج، تناظر مرحلتا ’الشهيق‘ و’الزفير‘[15]، ويناظرا الفعل المزدوج للقوى المتناقضة الذى تمثله رمزيًا طرفا فاجرا المتعاكسين باعتبارها ’سلاحًا كالبرق‘، فى حين يمثل الماس جوهرها الصمدى.

ولابد أن نشير هنا إلى تطبيق عجيب من مرتبة سفلى لكنه قريب من مسألة السلاح الرمزى، وهو ’قوة النقطة‘ المعروفة فى السحر وحتى فى علم الطبيعة المعتاد، والذى يرتبط عادة ب’ الذوبان *solution*‘ وهو الجانب الثانى للقوة

12 ’الجمهورية‘ *10*، ’أسطورة إير الأرمنى‘، وتشكل هذه الجُبُب معًا ’مغزل الضرورة‘ الذى تديره كلوثو بيدها اليمنى،، أى من اليمين إلى اليسار، وليس هذا الاتجاه منفصلًا عن الأفكار التى طرحناها سلفًا فى سياق رمزية ’المغزل المزدوج‘ فى كتابنا ’الثلاثى الأعظم‘ باب *6*.

13 راجع الباب السابق.

14 وصلته بما تقدم عن تناظر أسلحة أبوللو و إندرا لا بد من مراعاة أن ’صاعقة البرق‘ وشعاع الشمس قادران على إحياء الموتى بحسب الحال، كما نذكر أن الرمح فى أسطورة الكأس المقدس لها القدرة المزدوجة ذاتها فى الجرح والدواء.

15 وهو كذلك ماسماه الفلاسفة اليونانيين ’التوليد والفساد *generation and corruption*‘.

المزدوجة الذى نوهنا عنها، والجانب الأول منها هو ’التبلور *coagulation*‘ الذى يستخدم فى ’العقد‘ السحرية، كما نتذكر هنا رمزية ’العقدة المحكمة *Gordian knot*‘ التى قطعها الاسكندر بسيفه، وهو أمر له مغزى حيث يثير مسألة أخرى عن ’ العقدة الحيوية *vital knot*‘، والتى تماست مع التشاكل السابق، ولكنها تذهب بعيدًا فيما وراء السحر البسيط[16].

وأخيرًا لابد من ذكر رمز ’محورى‘ آخر ليس سلاحًا لكنه يُضاهَى بسلاح نظرًا لطرفه المدبب، ألا وهو ’ الظفر *clavus*‘، فى حين يسمى المفتاح *clavis* حيث تقرب اللغة أحدهما إلى الآخر على منوال فريد، وكلاهما مرتبط برمزية يانوس[17]، وحتى المفتاح ذاته كرمز محورى يؤدى إلى اعتبارات أخرى لا نملك معالجتها فى هذا السياق، فقوة المفاتيح المزدوجة فى الغلق والفتح [18] لا تختلف عن القوة التى تحدثنا عنها توًا، فهى أساسًا تنتمى إلى الرمزية الهرمسية عن الذوبان والتبلور.

---

16 وقد نوهنا عن مسألة ’النقطة الحساسة‘ فى الكاتدرائيات فى باب ’كولونيا أم شترا سبورج‘ فى ’دراسات فى الماسونية وطوائف الحِرف‘.

17 وحتى نُكمل هذه الملحوظة نتذكر مرة أخرى القوة السحرية التى عُزيت إلى تلك الأشياء، والتى بدت كما لو كانت تحريفًا برانيًا لمعناها التراثى بغض النظر عن ’الظواهرية‘.

18 ويجب ملاحظة أن هذه الكلمات لها صلة واضحة برمزية العُقَد، فكل هذه الأمورر متصلة فيما بينها، ودائمًا ما كان لها معنى بين بعضها بعضًا.

27 سيف الإسلام

من المعتاد فى العالم الغربى اعتبار الإسلام دينًا محاربًا، وعندما يُذكر ’السيف‘ فإنه يؤخذ بأقصى معنى حرفى ممكن، ولا يخطر لهم أن المسألة قد تتعلق بأمر آخر، و الإسلام يتميز بجانب محارب، لكن هذا الجانب لا يشكل خصيصة عامة فى الإسلام، كما أنها موجودة فى معظم الأديان الأخرى بما فيها المسيحية، وحتى دون أن نذكر مقولة المسيح ذاته "ما جئت لألقى سلامًا بل سيفًا"[1]، وهو ما يمكن فهمه بالاستعارة عموما، ويمثل تاريخ المسيحية فى العصور الوسطى برهانًا كافيًا فى الزمن الذى تحققت به فى مؤسسات اجتماعية، وحتى التراث الهندوسى الذى لا يمكن اعتباره محاربًا حتى إنه يُلام على اختزال دور الفعل، إلا أنه يحتوى على هذا الجانب كما تبرهن على ذلك قراءة *بهاجافاد جيتا*، ولا أقل من العمى بأحقاد بعينها ليمنع من فهم أن الأمور لابد أن تكون هكذا، فالحرب فى النطاقً الاجتماعى وظيفة مشروعة طالما كانت تقوم على الذين يخلقون الفوضى كى تهديهم إلى الحق، وهى جانب واحد من ’العدالة‘ بمعناها الأكمل، إلا أن ذلك أكثر المسائل سطحية ولذا كان أقلها جوهرية، فمن منظور التراث أن ما يضفى على الحرب مشروعيتها أنها رمز للكفاح الذى تعين على الإنسان أن يتجشمه مع الأعداء اللذين يحملهم فى داخله، أى العناصر الباطنة التى تناقض النظام والتوحُّد، وسواءً أكان الأمر خارجيًا فى المجتمع أم روحيًا فى باطن المرء فإن الحرب لابد أن تتغيا تحقيق الاتزان والاتساق، ومن ثم تعمل على توحيد العناصر المتعارضة بين

---

[1] متى *10: 34*.

بعضها بعضًا، ويعنى ذلك قول إن ناتجها الطبيعى هو السلام الذى يتحقق بالتسليم للمشيئة الربانية، حيث يتخذ كل عنصر محله الطبيعى بحيث تتضافر كل العناصر لتحقيق الوعى بالمخطط ذاته، ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى قرابة مصطلحا الإسلام والسلام فى اللسان العربى[2].

وينطوى التراث الإسلامى على معنيين للجهاد والعلاقة بينهما كما عبر عنهما حديث الرسول عليه الصلاة والسلام بعد الانتصار فى فتح مكة "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"، ولو كانت الحرب جهادًا أصغر[3] فالجهاد الأكبر هو 'جهاد النفس'، وليس للحرب إلا أهمية ثانوية قياسًا إليه، فليست إلا الصورة المحسوسة للجهاد الأكبر، ومن نافلة القول إن ما يصلُح للجهاد الظاهر ليس إلا رمزًا للجهاد الباطن[4]، وهذا هو الأمر فى مسألة السيف.


فاجرا إندرا التبتية

والذين يتجاهلون هذا المعنى حتى لو لم يعرفوا الحديث المذكور يستطيعون على الأقل ملاحظة خطبة الجمعة حيث يقف الخطيب خُلوًا من مظاهر الحرب بالمعنى المعتاد ولكنه يمسك بسيف يرمز إلى جهاد النفس بغض النظر عن أنه من الخشب لا يصلح لمعركة مما يؤكد على طبيعته الرمزية.

ويرجع السيف الخشبي إلى رمزية تراثية قديمة، فهو فى الهند احد العناصر التى تسمى *سفيا*، والتى صورها تراث التضحية *الفيدى*[5]، فتعنى كلمة *سفيا* عمود التضحية وعربة القتال والسهم، والتى قيل أنها ولدت من *فاجرا* صاعقة البرق التى صنعها إندرا،

---

2 *We have treated these questions more fully in The Symbolism of the Cross, chap. 8.*

3 *It must be understood, of course, that this is so only when it is dictated by motives of a traditional order; all other warfare is harb and not jihad.*

4 *Naturally, this is no longer true for the weaponry of modern wars, if only because of its 'mechanical' character, which is incompatible with any true symbolism; it is for a similar reason that the exercise of mechanical trades cannot serve as basis for a development of the spiritual order.*

5 *See A.K. Coomaraswamy, 'Le Symbolisme de I'epee', in Etudes Traditionnelles, January 1938; the citation which follows is taken from that article.*

عندما ألقى إندرا بصاعقة البرق على فريتا أصبحت أربعة أسلحة، ويستخدم البراهمة اثنين منها فى شعائر التضحية، ويستخدم الكشطريا الاثنين الآخرين فى القتال[6]، وعندما يلوِّح المُضَحى بالسيف الخشبي فإنه يرمز إلى صاعقة الرعد التى يضرب بها أعداؤه.[7]

وسوف تتبين العلاقة بين هذا السيف و *فاجرا* فيما يلى، ونضيف أولًا أن هذا السيف يُضاهَى بالبرق أو يستقى منه[8]، ويعبر الاصطلاح المعروف " السيف المشتعل *flaming sword*" عن صورة حسِّية بغض النظر عن المعانى الأخرى التى ارتبطت به، فكل رمزية حقيقية تنطوى دائمًا على طائفة من المعانى لا تتناقض فيما بينها بل تكمل بعضها بعضًا.

ولنعد إلى 'سيف الخطيب'، فيمكن قول إنه يرمز إلى ما أشرنا إليه عاليه وأولها قوة الكلمة وخاصة المعانى التى تُعزى إلى السيف، وليس غريبًا عنا رؤيا يوحنا اللاهوتى التى تقول **"وَمَعَهُ فِي يَدِهِ الْيُمْنَى سَبْعَةُ كَوَاكِبَ، وَسَيْفٌ مَاضٍ ذُو حَدَّيْنِ يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ، وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ وَهِيَ تُضِيءُ فِي قُوَّتِهَا"**[9] *1: 16*. **"ويخرج من فمه**[10] **سيف حاد يضرب به الأمم**[11]**.**

والسيف الذى يخرج من فمه لا معنى له غير أن الشخص الموصوف ليس إلا الكلمة ذاتها أو أحد تجلياتها، أما حدَّا السيف فيمثلا القوة المزدوجة للخلق والدمار، وهو ما يعود بنا إلى *فاجرا*، والواقع أنها ترمز إلى قوة واحدة لها جانبان متناقضان فى التجلى رغم تكاملهما على الحقيقة، ويرمز إليهما حَدَّا السيف أو ما

6 *Here the function of the Brahmins and of the Kshatriyas may be said to correspond respectively to inner and outer warfare, or, according to Islamic terminology, to the 'greater holy war' and to the 'lesser holy war'.*

7 *Satapathe Brahman.*

8 *In Japan, notably, according to the Shinto tradition, 'the sword is derived from a lightning-flash archetype, of which it is the descendant or hypostasis' (A.K. Coomaraswamy, ibid.).*

9 *Rev. 1:16. We see here the union of polar symbolism (the seven stars of the Great Bear, or the sapta-riksha of Hindu tradition) and solar symbolism, as we are going to find in the traditional meaning of the sword itself.*

10 *The one in question is 'he who was mounted on the white horse', the Kalki- avatara of the Hindu tradition.*

11 *Ibid., 19: 15.*

يشاكلهما[12]، وتمثلهما النقطتان العكسيتان فى *فاجرا*، وهذه الرمزية صالحة للتعبير عن كل القوى الكونية، حتى إن تطبيقها على الحديث ليس إلا حالة خاصة، ولكنه تمثيل لمفهوم الكلمة التراثى وكل ما تعلق به، ويجوز أن تتخذ رمزًا لكل التطبيقات المحتملة[13].

ولا تقتصر رمزية السيف على البرق لكنها تنطوى كذلك على السهم وشعاع الشمس، وهو ما رُمز إليه فى أول الأحداث الأخروية المذكورة عاليه، أى الذى يخرج من فمه سيف ’كالشمس فى قوتها‘، وهذه العلاقة تؤسس للمقارنة بين أبوللو وهو يقتل الثعبان بايثون بسهامه وبين *إندرا* وهو يقتل التنين *فريترا* بصعقة البرق *فاجرا*، ويوازى ذلك بدوره تساوى الجانبان فى رمزية الأسلحة، فهما صيغتان مختلفتان لشيء واحد، ومن ناحية أخرى من المهم أن ملاحظة أن معظم الأسلحة الرمزية والسيف والرمح على الخصوص قد شاعت بمعنى ’محور العالم‘، وهو ما يدل على رمزية قطبية وليست شمسية، ورغم أنهما لا يختلطا إلا أن هناك قرابة بينهما تسمح ’بالانتقال‘ من إحداهما إلى الأخرى، فالمحور ذاته قد يرمز إلى ’شعاع الشمس‘[14]، وفى وجود المعنى المحورى فإن نقاط فاجرا تعبر عن الازدواجية بين قطبيها، فى حين أن الازدواجية فى الأسلحة ذات الحدين متوازية مع المحور، وتعبر عن تيارين للقوى الكونية فى اتجاه واحد يعبر عنهما رموز على شاكلة ثعبانين على صولجان هرمس، وحيث إن التيارين يمثلا القطبين أو نصفا الكرة الأرضية [15] فيجوز القول باتفاقهما من حيث معناهما الجوهرى[16].

وتعود بنا الرمزية المحورية إلى فكرة الاتساق بين غايات الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر فى معناهما البرانى والجوانى، فالمحور هو موضع التصالح بينهما، أو

12 *Mention must be made here of the Aegean and Cretan symbol of the double axe; we have already explained that the axe is especially a symbol of lightning and therefore a strict equivalent of the vajra [cf. chap. 25 above].*

13 *On the double power of the vajra and other equivalent symbols (in particular the 'power of the keys') see our treatment in The Great Triad, chap. 6.*

14 *Without being able to dwell upon this question here, we ought to at least recall by way of example the relationship of the two points of view in the Greek symbolism of Hyperborean Apollo.*

15 *On this point too, please refer to The Great Triad, chap.* [5].

16 راجع ’أسلحة رمزية‘ باب *26*.

بتعبير آخر هو موضع الاتزان التام الذى يسميه تراث الشرق الأقصى 'الوسط الثابت'[17] *Invariable Middle*.

ويمثل السيف فى هذا الإطار الوسيلة والغاية معًا باعتبارهما معناه المباشر، فهما جُمَّاعٌ لمعناه الكلى، وعلى كلٍ فلم نقم هنا إلا بجمع ملحوظات متفرقة عن هذه المسألة، والتى قد تشير إلى أفكار أخرى، لكننا نعتقد أنها قد بيَّنت ما يكفى من حقيقة الصفات التى تُعزى إلى السيف بمعنى 'مادى' سواءً أكان فى الإسلام أم فى غيره من الصور التراثية.

17 ويُمثَّل له كذلك بالسيف القائم من محور ميزان يرمز إلى العدل.

28 رمزية القرون

لقد لفت بازيليد *T.Basilide* النظر بدراسته عن الكلتية[1]، وعن أهمية أبوللو كارنييوس *Apollo Karneios* بصفته ربًا للقطبيين، ويطابق الاسم الكلتى *Belen* اسم *Ablun* الذى أصبح *Apollon* عند اليونانيين، وننوى أن نعود يومًا ما إلى طرح هذا الموضوع على وجه أكمل لكننا سنكتفى هنا ببعض الخواطر عن اسمى ’كارنييوس و كرونوس‘ فى تقاربهما، حيث إن كلاهما مشتق من جذر *KRN* الذى يعبر عن ’القوة‘ و’التسامى‘.

ويناسب معنى التسامى اسم كرونوس لكوكب زحل أعلى الكواكب فى السماء السابعة، أو هى *ساتيا لوكا* فى التراث الهندوسى[2]، كما لا ينبغى إضفاء أية قوى خبيثة على زحل كما يجرى حاليًا فى اعتباره نذيرًا بالنحس، فقد كان قبل كل شيء خليفة ’العصر الذهبي *ساتيا يووجا*‘ أول عصور *مانفانتارا* الذى يوافق الحقبة القطبية، ويبين أن كرونوس قد تماهى مع رب القطبيين[3]، كما أن من

---

[1] *Trois etude Celtic, published in Etude Traditionelles, August-September 1936. Ed.*

[2] وقد كان الفيثاغوريون يرمزون إلى السماء والأرض باسمى كرونوس و ريبا *Rhea*، وتوجد فكرة ’التسامى‘ فى هذا التناظر، ولكن اليونانيون فى زمن متأخر نسبيًا قد وحدوا بين *Satorn* و *Chronos* فى معنى الزمن بناءً على خصائص صوتية للغة اليونانية، ورغم أن جذرا الكلمتين مختلفين إلا أن رمز المنجل قد انتقل من أحدهما إلى الآخر، ولكن ذلك يخرج عن نطاق اهمامنا الحالى.

[3] *The sea that surrounded the isle of Ogygia, consecrated to Karneios or to Kronos, was called the Kronian sea (Plutarch, De facie in orbe Luna:). Ogygia, which Homer called the 'navel of the world' (represented later by the Omphalos of Delphi) was moreover only a secondary center, having replaced Thule or primeval Syria at a time much nearer our own than the Hyperborean period.*

المحتمل أن الجانب الخبيث الذى نتج عن اختفاء العالم القطبى قد ظهر بموجب تشاكل مقلوب، حتى إن 'أرض الأرباب' موقع المركز الروحى قد استُبدِلت 'بأرض الموتى' أو 'أرض الفانين' بعد اختفاء هذا المركز، ويجوز أن مفارقة أسماء Kronos و Karneios h اللذين كانا واحدًا فى الأصل قد ركَّزت على إضفاء ذلك الجانب الخبيث فى اسم كرونوس، فى حين بقى الجانب الطيب فى اسم 'كارنييوس'، ومن الصحيح كذلك أن رمزية الشمس تقوم على التعارض ذاته بين النقيضين من وهب الحياة والموت أو الإثمار والدمار، وكما نوهنا عن الصلة بين الأسلحة التى تناظر ' شعاع الشمس'[4].

و'كارنييوس' هو رب كارين بمعنى 'الموقع العالى' رمز الجبل القطبى المقدس، والذى يتخذ الكلتيون ظهر القبر والأكمة تمثيلًا له، كما أن الحجر الذى ينتمى مباشرة لحضارة أبوللو قد ظهر على صورة كأس دلفى *Omphalos of Delphi*، والحجر المكعب الذى استُخدِم منبرًا فى معبد ديلوس، والذى نصحت العرَّافة بمضاعفة حجمه، وقد كان للحجر علاقة خاصة مع كرونوس، لكن هذا تناظر يشار إليه فحسب ويحتاج إلى معالجة مستقلة[5].

وفى الآن ذاته كان' كارنييوس كذلك 'الرب القوى' كما يعنى اسمه [6]، ولو كان الجبل أحد جوانبه الرمزية يعنى القوة والارتفاع بموجب فكرة الثبات التى تُعزى إليه، والقرون رمزٌ آخر من هذا المنظور، وقد كان فى معبد ديلوس المذكور حجر منبر آخر مبنى بالكامل من قرون الحيوانات كالثيران والماعز، ومن الواضح أن ذلك ينتمى إلى كارنييوس مباشرة، فقد ترك ارتباطه بالحيوانات ذات القرن آثارا

4 *. Rev. 9:11).*

5 وعموما ما يَضفى على بيوت إيل التى تضاهى الكأس *Omphalos* معنى شمسيا، لكن لابد أنها انطبعت على المعنى القطبى فى حقبة بعينها، شأن كثير من الرمزيات فى حالة أبوللو ذاته، ولنلاحظ أن أبوللو كان حاميا لمينابيع الماء كما فى حالة بورفو الكلتى، كما ترتبط الينابيع بالجبل أو الحجر، وهو ما يتماهى مع الجبل فى الرمزية القطبية..

6 ويناظر هذا الاسم الاسم العبرى الربانى شادَّاى، والذى كان رب إبراهيم على الخصوص، وهناك أوجه للتناظر بين إبراهيم و كرونوس ربما عكفنا على دراستها فيما بعد.

حتى اليوم[7].

فكلمة ’قرن‘ *horn* مشتقة من جذر *krn*، وينطبق الأمر ذاته على *crown* بمعنى تاج، وهو تعبير عن الفكرة نفسها، فهاتان الكلمتان قريبتان من إحداهما الأخرى[8]، ولسنا بحاجة إلى ذكر أن التاج شعار للقوة وعلو المقام، والعلاقة بينهما هى أن الاثنين على الرأس مما يضفى عليهما معنى ’القمة‘، كما أن هناك أمر من زمن بدائى كان التاج فيه حلقة مزخرفة يشع منها أسلاك كالأشعة[9]، وهو ما يعيدنا إلى الأسلحة الرمزية، زد على ذلك أنها تشبه الأسلحة حتى بالمعنى الحرفى، والتى كانت سببًا فى اكتساب معنى القوة والسلطة دائمًا وفى كل أين[10]، وقد كانت الأشعة البراقة صفة متوافقة مع القوة سواء أكانت كهنوتية أم ملكية، أى نفوذ روحى وسلطة زمنية بحسب الحال، فهى تشاكل فيضًا من مصدر النور ذاته، وهو صحيح حينما تكون شرعية.

ومن السهل طرح أمثلة شتى من مصادر متنوعة للقرون التى ترمز للقوة، وبعضها يأتى من التوراة مباشرة وخاصة فى رؤية يوحنا اللاهوتى[11]، كما أن هناك

---

7 ويُعتبر القديس كورنيل أو كومبلى الذى اتخذ مقام أبوللون كيراوتيوس فى بريتانى حاميا للحيوانات ذات القرون، وسوف تمكن ملحوظاتنا القارئ من فهم أن الواقع يوحى بأمر وراء ’اللعب بالكلام‘ الذى انتهجه بعض الناس الذين يأملون فى رؤيته هنا.

8 وتعنى الكلمة اليونانية كيراوتيوس ’صاعقة‘، كما يبدو أنها مشتقة من الجذر ذاته، ولنلاحظ أن الصاعقة عادة ما تضرب قمم الجبال والأماكن أو الأشياء المرتفعة، كما يلزم التحسب لتشاكلات النور، وسوف نعود إلى الشعاع المضئ فى التراث العبرى عن مصطلح *Kether* أو تاج يتوِّج قمة شجرة السفيروت، وهى نقطة علينا أن نعود إليها.

9 والمثل الباهر لذلك صورة موسى يحمل على جبهته قرنين ولكنهما كانا ضوءا لامعا فحسب .

10 *The same assimilation is naturally valid for other animal weapons, such as the tusks of the elephant or of the boar, the pointed form of which, moreover, is similar to that of horns. — Let us add, however, that the duality of horns (and also of tusks) precludes 'axial' symbolism from being applied to them; in this respect they are rather comparable to the two lateral points of the trishula; and this is also why we speak here of luminous rays in general and not of the 'Celestial Ray' which, both from the macrocosmic and microcosmic points of view, is an equivalent of the 'World Axis'.*

11 *It must be noted that here the idea is not confined to that of a legitimate • power, but is extended to every power whatsoever, whether malefic or benefic: there are the horns of the Lamb, but also the horns of the Beast.*

رمز عربى فى تسمية الإسكندر ʼذو القرنين‘[12]، والتى عادة ما فُسِّرت بمعنى السلطة المزدوجة على الغرب والشرق [13]، ولهذا التفسير مبرر جسيم رغم أنه لا يجُبُّ حقيقة أخرى، هى إعلانه بأنه ابن الرب آمون كما قالت عرَّافة معبده، وقد اتخذ قرون تيس كان من بين شعارات آمون الرئيسية[14]، وقد كان ذلك ما أهَّله لاعتلاء عرش مصر القديمة الذى عُزى إلى الأصل ذاته، كما قيل أنه سك ذلك على عملته التى رآها اليونانيون أقرب إلى ديونيسوس، والذى عملت انتصاراته على إحيائها وخاصة فى الهند، وقد كان ديونيسوس ابن زيوس الذى شبهه الإغريق بآمون، ويجوز أن الإسكندر لم يعلم بذلك إلا أن ديونبسوس كان يصور بقرنى ثور لا تيس، وكان ذلك اختلافاً مهما من منظور الرمزية[15].

وما يدعو إلى ملاحظة الاستخدام الرمزى للنوعين أن قرون الجدى شمسية وقرون الثور قمرية، حتى إنها تشبه الهلال[16]، ويحسن هنا ذكر علامتى البروج للجدى والثور، ولكن التساؤلات التى ثارت حول هذه المسألة برهنت على أن أحدهما كان يفوق الآخر فى أديان متنوعة، وهو ما يثير اعتبارات ʼدورية‘ لا مجال لذكرها حاليا.

---

12 والكلمة العربية ʼقرن‘ تحول بسهولة إلى الكلمة الانجليزية *HRN*، ولكن لها فى العربية معانٍ أخرى مثل ʼحقبة‘ أو ʼدورة‘ أو ʼقرن من الزمن‘، وعادة ما يكون ازدواج المعانى إلى سوء فهم عجيب على منوال ʼذو القرنين‘ كناية عن الاسكندر الأكبر التى تعنى أنه عاش قرنين من الزمن.

13 ويساوى القرنين فى هذا الصدد رأسا الطائر البطولى.

14 وقد كان آمون يسمى ʼسيد القرنين‘، كتاب الموتى *165*.

15 ويُحتمل أن الاسكندر كان يرتدى خوذة على صورة قرنين، ومن المعلوم أن الخوذات المزينة بقرون كانت شائعة بين أقوام شتى من العالم القديم، كما اتخذ الأشوريون والبابليون خوذة *tiara* التى أصبحت شعارا لكل الأرباب.

وتعنى كلمة ʼقرن‘ فى لغة بدو الصحراء الغربية ضفيرة الشعر. المترجم.

16 ويناظر هذا التمايز صورتان يضفيهما الخيميائيون على رمز الزئبق، وهما صورة القمر وصورة الشمس فى سياق الحديث عن الزئبق العادى لتمييزه عن زئبق الحكماء.

وحتى نختم هذا المسح نلفت النظر إلى تناظر آخر بين أسلحة القرون فى هذين الحيوانين بحيث يمكن أن تسمى رموزًا نباتية أى أشواك[17]، فمن الملاحظ أن القرون شأنها شأن الأشياء المدببة التى تثير فكرة القمة والعلو، وأحيانًا يمكن اعتبارها أشعة لامعة[18]، وهكذا نرى أن الرمزية دائمًا ما كانت مفهومة تمامًا كما ينبغى رغم انتشار مواضعات زائفة، فهى قائمة جوهريًا على طبيعة الأمور.

17 ومن أمثلتها الوردة والشوكة والأكاسيا والأكانثوس إلخ..

18 وترتبط رمزية تاج الشوك المسيحية على نحو ما بتاج النور الذى تحدثنا عنه سلفا، كما ينبغى مراعاة أن الشوك فى مناطق عدة يسمى 'قرونا' فى بريتاتى وغيرها، حيث يُسمُّون بها '*Belle-Epine*' أى الشوكة الجميلة، و'سيدتنا صاحبة الشوكة' وغيرها، فرمزية الشوك على غرار رمزية المسلة والعمود مرتبطة 'بالشعاع القطبي' وكذلك 'بمحور العالم'.

29 الكهف والمتاهة

طرح جاكسون نايت *W.F. Jackson Knight* فى كتاب جديد[1] بحثًا مثيرًا افتتحه بالكتاب السادس من التاسوع *Aeneid* حيث وُصِفت أبواب كهف العرَّافة الكومبانية *Cumaean Sibyl*، فلماذا سُجِّلت المتاهة الكريتية وتاريخها على تلك الأبواب؟ وقد رفض الكاتب محقًا مفاهيم 'الأدب' الحديثة، بل اعتبر أن هذا المسار لابد أن يحمل أهمية رمزية حقيقية حيث إنه مبنىٌ بعلاقة حميمة بين الكهف والمتاهة، ويتصل كلاهما بالفكرة ذاتها عن الرحلة تحت الأرض، وقد فسَّرها بربط الوقائع فى أزمنة ومواقع مختلفة بفكرة تتعلق بالطقوس الجنائزية بتشاكل بعينه، والذى انتقل إلى شعائر التعميد فيما بعد، وسوف نعود إلى هذه النقطة لاحقًا، ولكننا سنذكر بعض التحفظات عن مفهومه للتعميد، والواقع أنه يرى التعميد ناتجًا عن 'الفكر الإنسانى' الموهوب بحيوية ضمنت استمراره كحال كامنٍ *latent state*، ولا حاجة بنا بعد كل ما كتبنا عن هذا الموضوع أن نقول مجددًا إنه لم يضع فى حسبانه وجود 'عنصر فوق إنسانى' جوهرى فى التعميد، وسوف نتمسك فحسب بأن فكرة ' الحال الكامن' المستعارة من نظرية 'اللاوعى الجمعى' تحمل معنى الحافظة فى النظريات النفسية الحديثة، وأيًا كان تقديرنا لها، فإنها تؤدى إلى تطبيق يعنى الفشل فى التعرف على جوهرية 'سلسلة التداول'

[1] *W. F. Jackson Knight, Cumaean Gates; a reference of the sixth Aeneid to the initiation Pattern [Oxford: B. Blackwell, 1936].*

المستمر الفعال بلا انقطاع فى التعميد، والواقع أن هناك مسألة أخرى يجب ألا تختلط بها، فقد حدث أن تناول بعض الأفراد غير المؤهلين أمورًا تتعلق بالتعميد ولا يعلمون المعنى الحق لما يقولون، وقد تناولنا هذا الموضوع فى دراسة أسطورة الجريل[2]، ولكن ذلك لن يمس حقيقة التعميد على أى نحو كان، ولكننا لا نستطيع افتراض أن ذلك كان حال فيرجيل أو دانتى، كما أن هناك دلائل تبرهن على أنه ذاهلٌ عن أى صلة تعميدية فعالة، وليس لقولنا هذا علاقة بما يسمى 'الإلهام الشاعرى' بمفهومه اليوم، والأرجح أن جاكسون نايت يشارك فى الآراء 'الأدبية' السائدة، ولكن الواقع أن أطروحته تعارضها عمليًا، ونحن نعترف بجدارته كأكاديمى وجد فى نفسه الشجاعة لتناول هذا الموضوع أو حتى مسألة التعميد.

ولنعد الآن إلى الصلة بين الكهوف التعميدية و الكهوف الجنائزية، فرغم قيام صلة بينهما إلا أن محاولة تماهيهما فى رمزية مشتركة لا تحمل إلا نصف الحقيقة، فلابد من مراعاة أن منظور الجنائزية وحدها وفكرة اشتقاق الرمزية من هذا الطقس بدلًا من رؤية الطقس ذاته كرمز فعال، وهو الأمر الحقيقى بذاته، تضع الكاتب فى مأزق حينما يواجه الرحلة تحت الأرضية التى لابد وأن تتبعها أخرى تسميها الأديان المختلفة رحلة إلى الهواء الطلق، وقد لا يكون ذلك مفهومًا لو كان الأمر لا يعدو وصفًا حيويًا لطقس الجناز، لكنه يُفهم فحسب حين نعلم أن هناك مراحلًا لابد من قطعها فى الهجرة إلى 'ما وراء' القبر، ولا علاقة لها بالجسد الذى تركته بعد الانقطاع عن الحياة الأرضية، كما أن هناك تشاكل بين الموت بمعناه العام وبين الموت التعميدى عن الدنيوية كما طرحناه فى مواضع عدة، وقد يمكن تطبيق الوصف الرمزى ذاته فى الحالين فيما تعلق بالكهف والرحلة تحت الأرضية، لكن نقطة التشاكل تنتهى عندما نعالج مقدمات التعميد وليس التعميد ذاته.

وعلى وجه الدقة فإن الموت عن الدنيا ليس إلا استعدادًا للتعميد، ويتبعه 'هبوط إلى الجحيم'، وهو بالطبع مثل الرحلة فى عالم ما تحت الأرض التى يتيحها

---

2 راجع أبواب 3 و 4. المحقق.

الكهف، أما التعميد ذاته فلا سبيل إلى تشبيهه بالموت، فهو أقرب إلى ’ميلاد ثانى‘ كما أنه بمثابة خروج من الظلام إلى النور، ولازال الكهف موضع الميلاد رمزيًا للذين يتعمدون فى الكهف على الأقل، فمن نافلة القول إن المبالغة فى التعميم لا تصح فى هذا الموقف، وكما هى الحال فى المتاهة التى سنتناولها لاحقًا، فليست أمرًا مفروضًا بلا استثناء، وعلى منوال رمزية ’ميلاد المسيح‘ برانيًا، وهو أمرٌ واضح فى الأديان الأخرى، ومن الثابت أن الكهف كموضع للميلاد لا يمكن أن يكون فيه موت ولا جناز، ومن الملاحظ أن تصالح هذه الجوانب المتعارضة بموجب أن الميلاد والموت وجهان نقيضان لعملية تغير واحدة، وأن المرور من أحدهما إلى الآخر يُعتبر دائمًا خروجًا من نور إلى ظلام[3]، ويصبح الكهف بهذا المعنى برزخًا لهذا التحول، ولكن ذلك ليس إلا جانبٌ واحدٌ من رمزيته المعقدة.

ولو فشل الكاتب فى إدراك هذه الرمزية فربما كان ذلك بتأثير بعض نظريات ’مؤرخى الأديان‘، والواقع أنه يقر باتباعه اهم فى أن الكهف يرتبط دائمًا ’بالثقافات الشيطانية *chthonian cults*‘، ولا شك أن السبب ’التبسيطى‘ هو فى أن الكهف فى باطن الأرض، لكن ذلك بعيد عن الحقيقة[4]، ولم يملك إلا إدراك أن كهف التعميد ليس إلا صورة للعالم[5]، لكن فرضياته *منعته* من استنباط النتائج اللازمة، أى أن الكهف لا بد أن يكون كلًا واحدًا يحتوى على ما يمثل السماء والأرض، وحينما يجد ذكرًا للسماء فى متن أو يرى تمثيلًا رمزيًا لها على أثر يناظر

3 ونتذكر فى هذا الصدد رمزية حبة القمح فى أسرار *Eleusinian* فى العقائد اليونانية القديمة.

4 وقد أدى به التفسير الأحادى إلى عدم فهم غريب، فيقتبس من بين ما اتخذ من أمثلة مثل أسطورة الشينتو عن الرقصة التى تؤدى أمام كهف المدفن حتى تُجبر ’ربة الأسلاف‘ على الخروج منه، واسوء الحظ أن هذا الموضوع عن ’الأرض الأم‘ ليس كما يعتقد بل ’ربة الشمس‘، وهى أمر مختلف تماما.

5 وينطبق الأمر ذاته فى الماسونية على المحفل، والاسم الذى أطلق عليها يضاهى لوكا السنسكريتية، وهو الأمر الصحيح رمزيا إن لم يكن تأصيليا، ولكن نضيف إلى ذلك أن المحفل لا يُقارَن بالكهف، وأن تساوى الأول بالثانى فى هذا السياق يجوز أن يجرى فى أول التعميد ومجاهداته، حتى إن المعنى لا بد أن يرتبط بما تحت الأرض فى علاقة مباشرة بفكرة الموت والدفن.

سقف كهف فإن تفسيراته تضطرب ولا يُفهَم منها شيء، والواقع أن ما يراه فى كهف التعميد ليس الظلام، فهو مضيء حتى يكون خارجه ظلامًا مخيّمًا، ويضاهِى العالم الطبيعى 'بالظلام الخارجى'، ويصبح الميلاد الثانى بمثابة 'استنارة'[6]، ولو طرأ سؤال لماذا كان الكهف على هذا المنوال فى المنظور التعميدى فسوف نُجيب بأن الكهف يتكامل مع الجبل، وأن الصلة الوثيقة بينهما تربط الكهف بقلب الجبل، كما أن الصلة حميمة بين رمزيتا الكهف والقلب، وننوى أن نعالج كلا منهما على انفراد، وليس من الصعب فهم الأمور كما طرحناها فى مواضع أخرى، وأن ما نطرح هنا يرتبط مباشرة بالطريقة الى تتشكل بها المراكز الروحية.

وسوف نتجاوز المسائل الأخرى رغم أهميتها وتظهر هنا على نحوى ثانوى على منوال 'الغصن الذهبى'، فمن المشكوك فيه ما إذا كان ذلك الغصن يتماهى مع العصا بأشكالها المتنوعة التى ظهرت فى الرمزية التراثية[7]، وسوف نتجه الآن إلى المتاهة التى يبدو معناها أشد إلغازًا أو على الأقل أشد خفاءًا من لغز الكهف، وسوف نفحص العلاقة بينهما.

وقد لاحظ جاكسون نايت أن للمتاهة سببين لوجودها، فهى تسمح بدخول مكان لا يرتاده كل من هب ودب، فالمؤهلون فحسب يستطيعون المرور فيها من أولها إلى آخرها، أما الآخرون فلا يُسمح لهم بالدخول حتى لا يضلوا الطريق، ويُلاحظ من ذلك أن المسألة مرتبطة بالسماح بالتعميد، ومجالدات المتاهة تضاهى محاولات التعميد، ومن السهل إدراك أنها طريق لأضرحة بعينها حتى إن عملية التعميد تتم بمجرد اجتيازها، كما أن فكرة 'الرحلة' بمعنى محاولة التعميد كما تجرى فى بعض أشكال الماسونية ترتبط كذلك برمزية 'الحج'، ونتذكر فى هذا السياق المتاهة التى كانت تُرسم على أرضية بعض الكنائس، والتى يُعدُّ اقتفائها 'بديلا' عن الحج إلى الأرض المقدسة، كما أن الموضع الذى تنتهى عنده المتاهة محجوز للمختارين

6 وقد كان إجباريا فى الرمزية الماسونية أن النور لابد أن يكون فى قلب المحفل، وأن كلمة لوكا تتعلق مباشرة بالمعنى الأولانى الذى يعنى 'النور'.

7 *It would certainly be much more accurate to compare this 'golden bough' to the Druidic mistletoe and the Masonic acacia, not to speak of the 'boughs' of the Christian feast that bears this name precisely [i.e., IA; Dimanche des Rameaux, or Palm Sunday] as a symbol and pledge of resurrection and immortality.*

elect، وهو يعتبر 'أرضًا مقدسة' بالمعنى التعميدى، أى إنها صورة للمركز الروحى شأن كل أماكن التعميد[8].

كما يُقال إن من فوائد المتاهة أنها وسيلة للدفاع أو الحماية التى تنطبق على ما يخرج عن نطاق التعميد، ويذكر الكاتب على نحو خاص استخداماتها 'التكتيكية' كمدخل لبعض المدن القديمة والمواضع الحصينة، لكن هذه أمور دنيوية جرت من قبل ومن ثم استخدمت رمزًا شعائريًا، ومن الواضح أن ذلك قلب للعلاقات الطبيعية بما يناسب المفاهيم الحديثة التى تتغيا هذا الترتيب، فليس من المشروع عزو هذه الأفكار إلى حضارات قديمة، والواقع أن كل حضارة تراثية حقة يبدأ فيها أى شيء كان من 'المبدأ'، ومن ثم إلى تطبيقات أكثر عَرَضية، وحتى تلك الأمور العَرَضية لم تكن تعتبر من النواحى الدنيوية، وقد ذكرنا مكررًا أن ذلك قد نتج عن انحطاطٍ تسبب فى فقدان الوعى بارتباط كل شيء بالمبدأ، ويمكن أن تُرى من المنظورِ الحالى كمسألة أبعد من 'التكتيك' الحديث بملحوظة بسيطة عن صيغة 'المتاهة' كدفاع ضد أعداء من البشر، بل كذلك ضد مؤثرات نفسية بما يشير إلى أنها تنطوى على قيمة شعائرية[9]، لكن هناك أيضًا مسألة تخطيط المدن ومواقعها وخطط تنفيذها، والتى كانت تخضع لقواعد مُشتقة من ' العلم المقدس'، والتى كانت أبعد من مجرد الأغراض ' النفعية' وحدها كما نعزو إليها فى زمننا، فهذه الأمور قد أصبحت نائية عن عقلية معاصرينا، إلا أننا لابد أن نحسب لها، فالذين يدرسون بقايا الحضارات القديمة لن يفهموا المعنى ولا الغاية لما يكتشفونه حتى فيما ناظر ما يسمى اليوم 'نطاق الحياة المعتاد'، ولكنها كانت على طول الزمان أمورًا شعائرية ذات صبغة تراثية.

وقد كان أصل كلمة ' متاهة *labyrinth*' غارقًا فى الغموض رغم قيام كثير

---

8 *Jackson Knight mentions these labyrinths, but attributes to them no more than a religious meaning. He seems to be unaware that their design was in no way derived from exoteric doctrine, but belonged exclusively to the symbolism of the initiatic organizations of builders.*

9 *In order not to digress, we will not dwell on the 'labyrinthine' walk of certain processions and 'ritual dances', which as the author says present above all the character of 'apotropaic' or protection rites, thereby belonging to the same order of considerations. It is a question essentially of stopping and turning aside malefic influences by a 'technique' based on the knowledge of certain laws according to which these influences exert their action.*

من المناظرات حوله، ويبدو أن منطوقها لا يتعلق مباشرة بالبلطة المزدوجة *labrys* على عكس ما ظن البعض، لكنها مشتقة من كلمة قديمة بمعنى الحجر، وترجع إلى جذر *lapis* فى اللاتينية وجذر*laos* فى اليونانية، ولا يعدو معنى تأصيلها سوى بناء من الحجر على النمط المعمارى المسمى *Cyclopean*، وهذا هو المعنى الظاهرى الصرف، ولكن المعنى الأعمق يرتبط بالرمزية برمتها بالحجر الذى عالجناه سلفًا فى سياق *baetyls* و *thunderbolts* والذى تماهى مع البلطة المزدوجة *labrys* التى تطرح جوانب شتى، و جاكسون نايت لديه على الأقل فكرة شاحبة عن هذا الأمر، فهو يشير إلى الرجال 'المولودين من الحجر *born from stone*'، والذين جاء ذكرهم فى أسطورة ديوكاليون *Deucalion*، والتى تنوه عن حقبة بعينها باسم 'العصر الحجرى *stone-age*' فى حين أن معناه يروغ من دارسى الفلسفة، كما أن ذلك يُعيدنا إلى الكهف المجوَّف فى الحجر على منوال طبيعى أو مصنوع يحمل المعنى الرمزى ذاته[10]، ولا نجد مبررًا لافتراض أن المتاهة ذاتها منحوتة فى الحجر رغم أن ذلك محتمل فى بعضها، وليس ذلك إلا عنصرًا عَرَضيًا لا يجوز اعتباره تعريفًا صحيحًا، فأيًا كانت الصلة بين الكهف والمتاهة فمن المهم ألا يختلطا، وخصوصًا فى سياقنا الحالى الذى نلتزم فيه بالكهف التعميدى.

والواقع أن الكهف كان محلاً للتعميد وأن المتاهة كانت طريقًا إليه، وكان الغرض منها الاختبارات الأولية، وفى الآن ذاته عقبة أمام الدنيويين 'غير المؤهلين'، ولنتذكر أن خريطة لمتاهة كوماى كانت مرسومة على البوابة، حيث كانت 'بديلا' عن المتاهة ذاتها[11]، ويجوز قول إن آينياس عندما وقف لتأملها فقد اجتازها عقليًا لا جسديًا، كما لا يبدو أن هذه الصيغة كانت مقصورة على المعابد التى أقيمت فى كهوف وتماهت رمزيًا معها، وحيث إنها ليست شائعة فى أديان وحضارات تراثية أخرى، فقد كانت الغاية من المتاهة كما عرَّفناها عاليه يجعلها مناسبة لأن تكون مدخلاً لأى محلٍ تعميدى، ولأى معبد مخصوص بالأسرار

10 *Prehistoric caves were probably not habitations, as is commonly believed, but sanctuaries of the 'men of stone', understood in the sense we have just indicated. It is then, in the traditional forms of the period in question, that the cave would have taken on, in relation to a certain 'occupation' of knowledge, the character of a svmbol of spiritual crenters and the place of initiation.*

11 *A similar case in this connection is that of the 'labyrinthine' figures traced on walls in ancient Greece in order to prevent malefic influences from gaining access to houses.*

وليس للشعائر العامة، وفضلًا عن ذلك لازال هناك ما يدعو إلى التفكير فى أن المتاهة لابد أن تتصل بكهف التعميد، فكلاهما ينتمى إلى عصر الرجال ’المولودين من الحجر‘ الذين نوهنا عنهم من برهة، ولابد أنهما على اتصال وثيق حتى وإن لم تكن الصلة قد بقيت على حالها دائما.

ولو تفكرنا فى الحالات التى اتصلت فيها المتاهة بالكهف الذى تحيط به حتى نهايته لكى يحتل أكثر نقاط الوسط مركزية فى منشأ المبنى، والذى يناظر فكرة المركز الروحى ويتفق معه تمامًا بما فيه الرموز المكافئة للقلب، والتى سنعالجها لاحقًا، كما يلزم مراعاة أن الكهف فى الآن ذاته محلًا للتعميد والموت والميلاد الجديد، ولابد من اعتباره مُدخلًا إلى ’نطاق الجحيم‘ وكذلك إلى ’نطاق الفردوس‘ العلوى، ويناظر ذلك فكرة نقطة المركز، وهى التى تؤسس الاتصال فى الكون الأصغر والكون الأكبر على السواء مع الأحوال الأعلى والأدنى من الوجود، وعلى هذا المنوال فحسب يمكن للكهف أن يكون صورة كاملة للعالم حيث إن كل الأحوال تنعكس فيه، وإلا أصبح تماهى سقفه مع السماء أمرًا ينبو عن الفهم، ومن جانب آخر لو كان الكهف قائمًا بين الموت التعميدى والميلاد الثانى فإن ’الهبوط إلى الجحيم‘ يحدث إبان هذه الفترة، والواقع أنه ينبغى اعتبار هذا الهبوط متمثلًا فى المرور فى طرقات المتاهة، ويبقى أن نتسائل عما يناظر هذا المرور، فهو ’الظلام الخارجى‘ الذى أشرنا إليه، والتى تناسبه كلمة ’تهويم *errancy*‘، ويمكن الإسهاب فى معنى ’الظلام الخارجى‘ بتفصيل واسع، ولكن ذلك سيحملنا بعيدًا عن مقصدنا الحالى، كما نعتقد أننا قلنا ما يكفى عما قام به جاكسون وايت من بحث ومدى نفعه، وكذلك عن الحاجة إلى تركيز نتائجه إلى حدود أهميتها فى نطاق ’المعرفة التقنية‘ لموضوع البحث، ولن نستطيع بدونها أن نحقق أكثر من فرضيات سطحية وبنية ناقصة، وحتى إن لم تكن مزيفة بأفكار مسبقة فسوف تكون مواتًا مثل الآثار التى تتحدث عنها ونقاط انطلاقها.

30 القلب والكهف

لقد أشرنا من قبل إلى العلاقة بين رمزيتا الكهف والقلب، والتى تفسر دور الكهف كتمثيل للمركز الروحى من منظور التعميد، والواقع أن القلب رمز للمركز سواءً أكان مركزًا لكائنٍ أم مركزًا للعالم على نحوٍ استعارى، والتى تحدد ما إذا كان المقصود كونًا أصغر أم كونًا أكبر، ومن الطبيعى إذن أن يرتبط المعنى ذاته بالكهف، لكن الصلة الرمزية تستلزم تفسيرًا.

وتعبير ' كهف القلب *cave of the heart*' تعبير تراثى معروف، وتسميه الهندوسية جوها التى تعنى الكهف عموما، ولكنها تنطبق كذلك على تجويف القلب، وبالتالى على القلب ذاته، وهذا الكهف هو المركز الحيوى الذى لا يسكنه *جيفآتما* فحسب بل *آتما* اللامشروط ذاته، وهو الحقيقة التى تتماهى مع *براهما*، وقد طرحنا هذا الموضوع فى مواضع أخرى[1]، وقد اشتُقت كلمة *جوها* من جذر ج وه بمعنى يغُطى أو يخُفى[2]، وهو معنى لجذر آخر هو ج و ب ومنه جوبتا التى تعنى كل ما يتعلق بالأسرار، وكل ما ليس له علاقة بالتجليات الظاهرة، وهى مساوية للكلمة اليونانية كروبتوس *kruptos* التى أنتجت *crypt* المرادفة للكهف، وتشير هذه الخواطر إلى أقصى عمق وبالتالى إلى النقطة الخفية، وفى الآن ذاته تشير إلى الأسرار التعميدية سواءً بذاتها أم برمزها بدلالة ترتيب مكان التعميد، وهو موضع خفى أو مُغطى لا يطأه الدنيويون، إذ يمتنع الوصول إليه بمتاهة أو بأى طريق آخر، ودائمًا ما يعتبر صورة للمركز.

ومن المهم مراعاة أن السمة السرية للمراكز الروحية أو صورها تعنى أن

[1] *Man and His Becoming according to the Vedanta*, CHAP. 3 (SEE *Chandogya Upanishad*, M.14.3 AND VIN.1.1.)

[2] *Cf. The Masonic expression 'to be under cover'.*

التراث لم يعد فى متناول الجميع على السواء، وهو ما يعنى أن العصر المقصود زمن غموض وإبهام بشكل نسبى على الأقل، ويسمح لنا ذلك بتحديد مرحلة الرمز من دورة الإنسان على الأرض *مانتفانتارا*، لكن هذه مسألة سوف نتناولها فى سياق باب 'الجبل والكهف' من حيث إن كلاهما رمزٌ للمركز، أما الآن فنكتفى بالإشارة إلى رمز القلب كمثلث يشير رأسه إلى أسفل، وهو يرمز كذلك إلى الكهف، أما الجبل والهرم فتشير رأسهما إلى أعلى، ونرى فى ذلك علاقة مقلوبة ومتكاملة فى آن، ونضيف إلى ذلك أن رمزية المثلث المقلوب للقلب والكهف لا علاقة لها 'بالسحر الأسود' كما يدَّعى من لا يفقهون الرمزية.

ولنعد الآن إلى الخفاء الذى يصفه الهندوس 'بكهف القلب'، أى مبدأ الكائن ذاته فى حال 'سكون'، أما عن تجليه فهو أشبه بشىء متناهى الصغر لكنه الأعظم مطلقا، وشأنه شأن النقطة التى تحتل مكانًا متناهى الدقة وقد لا تظهر أصلًا حتى لو كانت مبدأ كل شىء فى المكان، أو بتعبير عددى فإن الواحد يبدو أقل الأعداد شأنًا لكنه ينطوى مبدئيًا عليها جميعا، وينتج بذاته مصفوفات لا نهاية لها، ونجد هنا تعبيرًا عن أن العلاقة المقلوبة هى المبدأ ذاته من منظورين نقيضين، فمن منظور منتهى الصغر فهى 'مختبئة' أو 'لامنظورة'، ولا تزيد عند الكائن عن مجرد 'احتمال'، لكنها بداية تطوره الروحى، ويرتبط ذلك مباشرة بتأصيل هذه الكلمة لغويًا كى يمكن قول إن الكهف محل 'الميلاد الثانى'، ونجد فى هذا الشأن متونًا مثل "إعلم أن *آجنى* *Agni* هو أساس المبدأ الخفى الخالد يكمن خبيئًا فى كهف القلب"[3]، وهو منظومة الكون الأصغر، ومن ثم فهو 'الميلاد الثانى'، ويعنى الانقلاب إلى منظومة الكون الأكبر مولد الولى أو النبى *Avatara*.

وقد قلنا إن ما وقر فى القلب هو فى الآن ذاته *جيفآتما* *jivatma*، أى الذى استنار فى حياته من جانب التجلى الفردى وهو كذلك آتما أو *بارامآتما* اللامشروط من منظور المبدأ، والاثنان الأخيران لا يمكن التمييز بينهما إلا بصيغة تخيلية، أى منسوبة إلى التجلى، لكنهما أمرٌ واحدٌ مطلقًا، وهما "ما يدخل فى الكهف" فى حين أن موئلهما فى الأعالى، وهكذا نجد أن رمزيتا الكهف والجبل

---

3 *Katha Upanishad 1.14.*

أمر واحد[4]، ويضيف المتن "أن الذين يعرفون *براهما* يسمونهما الظل والنور"، وهو ما يشير على الخصوص إلى رمزية *نارا نارايانا* Nara-narayana، والتى ذكرناها فى سياق دراسة عن *آتما جيتا* Atma-Gita،[5] من حيث اقتبسنا المتن ذاته، و *نارا* إنسان فان تحرر فأصبح *جيفآتما*، ويتماهى مع *آرجونا* Arjuna، و *نارايانا* هو الربانى الخالد أى *باراماآتما* الذى يتماهى مع *كريشنا* Krishna، والمعنى الحرفى لا سمه هو السُمرة، فى حين أن اسم *آرجونا* يدل على النور، أى الليل والنهار على الترتيب باعتبارهما اللامتجلى والمتجلى[6]، وقد وجدت رمزية تطابقهما تمامًا فى الثنائى ديو سكورى Dioscuri كاستور و بولوكس فيما تعلق بنصفى الكرة الأرضية أحدهما مظلم والآخر مضئ كما نوهنا فى سياق الحديث عن ' اللولب المزدوج'[7]، ومن جهة أخرى فإن *جيفآتما* و *باراماآتما* طائران كما تقول المتون "يسكنا الشجرة ذاتها" كما يمتطى *كريشنا* و*آرجونا* العربة ذاتها، ويقال إنهما قد "توحدا بلا انفصام"، ذلك أنهما على الحقيقة واحدًا، وليس التمايز بينهما إلا تخيلاً[8]، كما نشير إلى أن رمزية الشجرة مثل رمزية الجبل، فهى أيضًا محورية، وأن الكهف باعتباره تحت الجبل أو فيه فهو كذلك على المحور، وكل حالة من تلك الرموز من أية وجهة نظر لابد أن تكون قائمة على مركز يصبح موضعًا لاتحاد الفردى بالكلى.

وقبل أن نترك هذا الموضوع نود أن نلفت النظر إلى مسألة لغوية ربما كانت قليلة الأهمية رغم غرابتها، فالكلمة المصرية 'حور' هى ذاتها 'حورس' ويبدو أن معناها 'القلب'، أى أن 'حورس هو قلب العالم'، وذلك بناءًا على تسمية مشاكلة قامت فى معظم الأديان، وتتسق تمامًا مع الرمزية ككل بمدى ما يجوز تحديده، وقد يُغرَى المرء من أول وهلة بربطها مع الكلمة اللاتينية cor التى تعنى الأمر ذاته، وخاصة أن اللغات المختلفة بها جذور تعنى القلب سواء أكان أول حروفها لهائيًا مهموسًا أم حلقيًا منطوقًا، ففى السنسكريتية *هريد* أو *هريدايا* وفى الانجليزية

[4] Katha Upanishad 111.1; cf. Brahma Sutras 1.2.11-12.

[5] See Studies in Hinduism, chap. 1. Ed.

[6] Cf. A.K. Coomaraswamy, 'The Darker Side of Dawn' and 'Angel and Titan, an Essay in Vedic Ontology', In the Jurnal nf the American Oriental Society (l935), 55, PP373-419.

[7] The Great Triad, chap. 5.

[8] Mundaka Upatiishad in .1.1; Svetasvatam Upanishad iv. 6.

heart و فى اليونانية ker أو kardion، و فى اللاتينية cor أو cordis، لكن الجذر المشترك بين كل هذه التسميات هو فى الوقع HED أو KRD، ويبدو كما لو كانت هذه ليست حال كلمة 'حور'، فلسنا بصدد الجذر نفسه لكن المسألة لا تعدو انقلابًا فونيميًا إلا أنه مدهش تماما، لكن ربما ما كان أشد إدهاشًا فيما تعلق بموضوعنا أن الكلمة العبرية hur أو hor بحرف heth تعنى الكهف، ولا نقول إن لها صلة لغوية بالكلمة المصرية رغم أن أصلهما المشترك يرجع إلى ماض سحيق، لكن ذلك قليل الأهمية، فحين نعلم أنه ليس هناك صدفة محض فإن التشابه يبدو مثيرًا، وليس هذا كل شيء، فالكلمة hor أو har مكتوبة بحرف he تعنى 'الجبل'، وحيث إن heth من الحروف اللهائية المنطوقة مبالغة لحرف he فيذشأ نوع من التضاغط، وحيث إن heth تعبر بذاتها وبرسمها فى الخط عن فكرة الحدود أو الفراغ المحدود فإن العلاقة بين الكلمتين هى دلالة الكهف كفراغ فى الجبل، وهو أمر شديد الانضباط حرفيًا ورمزيًا، وهكذا نعود إلى علاقة الكهف بالجبل، وهو ما يحتاج إلى دراسة تفصيلية.

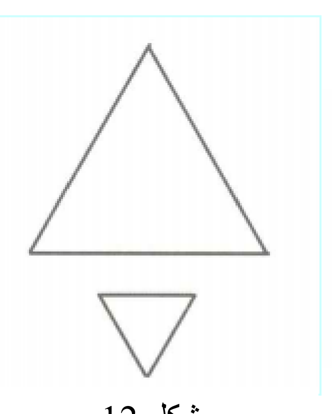
31 الجبل والكهف

إن العلاقة الوثيقة بين الجبل والكهف هى أن كليهما قد اتُخذ رمزًا لمركز روحى، وأنهما ’محوريان *axial*‘ أو ’قطبيان *polar*‘، والجبل هو العنصر الرئيسى، ولنتذكر أن الكهف لا بد أن يقع تحت الجبل أو بداخله حتى يكون محوريًا مثله وهو ما يزيد علاقتهما قوة وتكاملا، كما نلاحظ أن الجبل أقرب إلى الأولانية من الكهف من واقع أنه منظور من كل جهاته، فى حين أن الكهف خفى ومغلق بالضرورة، ومن السهل استنتاج أن تمثيل المركز الروحى بالجبل يناظر الحقبة الأولى من حياة الإنسانية على الأرض حينما كانت الحقيقة متاحة للجميع، ومن ثم كان اسم أول عصورها *ساتيا يووجا*، وكانت قمة الجبل تسمى *ساتيا لوكا*، أى ’محل الحق‘، لكن عندما أصبح الحق مقصورًا على الصفوة فى مساق الدورة الهابط فقد اختفى عن الغالبية، وتزامن ذلك مع بداية التعميد بالمعنى السائد، وأصبح الكهف رمزًا مناسبًا و’محلًا للمركز الروحى‘ مخفيًا عن الغالبية، وصار ملاذًا للمركز الروحى وصورة للتعميد، ويجوز القول إن المركز لم يهجر الجبل بل انسحب إلى داخله، كما أن التغير ذاته صورة لانقلاب ’العالم السماوى‘ ليصبح ’العالم السفلى‘، وقد ظهر هذا الانقلاب فى مخططات الجبل والكهف، والتى عبرت فى الآن ذاته عن تكاملهما.

وكما قلنا سلفًا إن مخطط الجبل والهرم والكوم لهم شكل تخطيطى واحد هو المثلث المرتفع القمة، أما الكهف فقمته على العكس مقلوبة إلى أسفل، وهو شكل القلب[9] والكأس كما تجلت فى الرمزية، وكما أسلفنا فى سياق معالجة أسطورة

9 *This representation can be related to the fact that the Arabic word for heart (qalb) literally signifies that it is in an 'inverted' position (maqlub). Cf. Titus Burck- hardt, 'Concerning the Barzakh' [in Mirror of the Intellect (Albany, NY: State University of New York Press, Albany, 1987), chap. 19].*

الكأس المقدس *the Holy Grail*[10]، ولو أضفنا إلى ذلك أن هذا الرمز الأخير وما يشاكله يشير إلى مبدأ الأنوثة السلبي فى التجلى الكلى أو بعض جوانبه[11]، فى حين أن المثلث عالى الرأس يشير إلى مبدأ الذكورة الإيجابى الفعال، فيصبح لدينا تكامل حقيقى، و لو و ضعنا المثاثين فوق أ حدهما ا لآخر فسوف يناظر ذلك الكهف تحت الجبل، ويمكن اعتبار أن المثلث الأسفل انعكاسًا فى مرآة أفقية للمثلث الأعلى فى شكل *12*، وتعبر فكرة الانعكاس عن العلاقة بين الرمز المنعكس والرمز الأولانى، أى بين الكهف والجبل كتعبير عن المركز الروحى فى عصور مختلفة من التطور الدورى.



شكل 12

وقد يثير الدهشة أن المثلث المقلوب أصغر من المعتدل، حيث إن الانعكاس لابد أن يكون بالمساحة ذاتها، لكن هذا التناسب المغاير ليس استثناءً فى الرمزية، فالقبالة العبرية ترى أن ' مشهد الكون الأكبر *Macroprosope*' ينعكس فى 'مشهد أصغر *Microprosope* '، كما أن الحالة الراهنة تراعى العلاقة بين الكهف والقلب، وقد ذكَّرنا ذلك بمتن *الأوبانيشاد* الذى يقول إن المبدأ الذى يسكن مركز الإنسان أصغر من حبة أرز ومن حبة شعير ومن حبة خردل، ولكنه فى الآن ذاته "أكبر من الكرة الأرضية وأكبر من الغلاف الجوى وأكبر من السماء والأرض معًا[12]، والعلاقة المقلوبة بين الرمزين يناظر فيها الجبل معنى 'العَظَمَة' ويناظر فيها الكهف أو القلب معنى 'الصِغَر'، وينم معنى 'العَظَمَة' عن الحقيقة المطلقة، وينم معنى 'الصِغَر' عن المظاهر النسبية للتجلى، وهكذا يصبح من الطبيعى أن يمثل الأول الحال الأولانى[13] ويمثل الثانى زمن الغموض والتحوصل الروحى.

---

[10] 2 *In ancient Egypt, the vase was the hieroglyph of the heart. The 'cup' of the Tarot also corresponds to the 'heart' of ordinary playing cards.*

[11] 3 *In India, the inverted triangle is one of the chief symbols of the Shakti; it is also that of the primordial Waters.*

[4] *Chiindogya Upanishad hi.14.3.*

[5] *It is known that Dante places the Terrestrial Paradise at the summit of a mountain; this location is, then, indeed that of the spiritual center in the 'primordial state' of humanity.*

ولو أردنا أن يكون الكهف فى باطن الجبل أو قلبه فلا حاجة بنا إلا لوضع المثلث المقلوب فى داخل المثلث المعتدل بحيث تتطابق مركزاهما كما فى شكل 13، ولابد أن يكون المثلث المقلوب أصغر من المثلت المعتدل حتى يحتويه بالكامل، وبغض النظر عن اختلاف مساحتهما فإنهما نظيران لرمز 'خاتم سليمان'، حيث يمثلا مبدأين متكاملين، وبما ينطوى ذلك عليه من تطبيقات، ولو كانت أضلاع المثلث المقلوب تساوى نصف طول أضلاع المثلث المعتدل فقد جعلناها أقل حتى ينفصلا تمامًا، ولكن مدخل الكهف واقعيًا لابد أن يكون على سفح الجبل، ولذا لزم أن تكون أركان المثلث الصغير متماسة مع أضلاع المثلث الكبير[14]، وسوف يُقَسِّم الصغير الكبير إلى أربعة مثلثات متساوية، وأحدها المثلث المقلوب الذى يرمز إلى القلب، إضافة إلى اعتبارات عددية تتصل به، والتى لا تهمنا حاليًا لكننا بلا شك سنعود إليها فى دراسات أخرى.

---

[14] *One could say, according to the same schema, that if the mountain is replaced by the pyramid, the inner chamber thereof is the exact equivalent of the cave.*

32 القلب وبيضة العالم

وقد بقى بعد الملحوظات التى طرحناها عن رمزية الكهف أمر مهم آخر هو العلاقة بينه وبين 'بيضة العالم'، وحتى نطمئن إلى أنها مفهومة كما ينبغى لا بد من الحديث عن القلب وبيضة العالم، وقد يثير ذلك بعض الدهشة من الوهلة الأولى، وسوف نميز بعض التشابهات الشكلية بين القلب والبيضة، لكن هذا التشابه لن يكون له معنى إلا بالوعى بالصلات الأعمق له، وواقع أن الكأس المقدس *omphalos* فى معبد دلفى وبيت إيل *baetyl* ترمزا إلى المركز[1] وعادة ما تكونا على هيئة بيضاوية مما ينم عن أنهما كذلك، وهو ما سنتناول الآن تفسيره.

فمما ورد سلفا فى شأن 'بيضة العالم' ذكر هيئتها فحسب وليس 'الكون' فى حالها من مراحل التجلى الكامل، ولكن ما يشكل كيفية تطور الكون الذى ستتمخض عنه فى التجلى، ولو كانت تلك الكيفية توسعا فى كل الاتجاهات من نقطة البداية فمن الثابت أن هذه النقطة ستنطبق على مركز البيضة ذاته، والشكل التوراتى للفردوس الأرضى[2] وكذلك 'مركز العالم' دائرة قد تُفَسر على أنها قطاع أفقى فى شكل كروى أو بيضى، ولنضف إلى ذلك أن الفارق بين الشكلين هو أن

---

1 وقد فحصنا هذه الرموز بتفصيل فى كتابنا 'ملك العالم'، كما أشرنا إلى أن الحالتين تتخذا شكلا مخروطيا، ويرتبط مباشرة برمز الجبل، حتى إننا نجد تمثيلات متكاملة تحدثنا عنها فى الباب السابق.

2 وهنا يتخذ رمز الثمرة معنى البيضة، وسوف نعود إلى هذه النقطة لاحقا، لكننا الآن نلاحظ أن هذا الرمز له معنى الحديقة، أى الفردوس الأرضى.

الشكل الكروى يتمدد إلى أبعاد متساوية من المركز فى كل الاتجاهات، وهو الشكل الأولانى حقا بلا تمايز، لكن البيضة تناظر حال بداية التمايز، وتمتاح من الحال السابق نوعا من 'الاستقطاب' أو انشطار المركز[3]، كما أن هذا الاستقطاب يجرى بمجرد أن تدور الكرة دورة كاملة حول محورها المعلوم حينما لا تقوم الاتجاهات بدورها فى الانتقال من مرحلة إلى أخرى من العملية الكونية، والتى يُرمَز إليها بالكرة أو البيضة[4].

وقد بقى بعد هذا المقال بيان أن ما تحويه 'بيضة العالم' يتماهى رمزيا مع ما يحتوى عليه القلب وكذلك الكهف بمدى تساويه مع القلب، ونتحدث الآن عن 'البذرة' الروحية فى الكون الأكبر، والتى يسميها التراث الهندوسى *هيرانياجاربها* أى الجنين الذهبى[5]، وهذه البذرة هى الولى أو النبى الأولانى *أفاتارا*[6]، وقد رأينا أن مسقط رأس *أفاتارا* وكذلك من يناظرونه، هى نقطة الكون الأكبر ممثلة فى القلب أو الكهف، وربما اعترض البعض بأن المتن المذكور[7] وغيره قد سمى *أفاتارا* باسم *آجنى* فى حين يُقال إن *براهما* هو الذى تنطوى عليه 'بيضة العالم'، والتى أطلق عليها اسم *براهماناندا*، وحتى يولد جنينا ذهبيا *Hiranyagarbha*، ولكن رغم تغير الأسماء فإنها ترمز إلى صفات ربانية متنوعة، والتى تتصل بالضرورة ببعضها بعضًا وليست كيانات مستقلة، ولا بد من مراعاة أن الذهب 'نور معدنى' وأنه 'شمس

---

3 والدائرة فى الهندسة المستوية لها مركز واحد، ولكنها حال انقسامها تحدد بؤرتين للقطع الناقص، وهذا الانفسام ذاته مرسوم فى الشرق الأقصى فى رمز يين يانج، وهو كذلك على صلة ببيضة العالم.

4 ولنشر هنا فيما تعلق بالشكل الكروى فى التراث الإسلامى أنه يُتَّخذ بمعنى النور الأولانى للروح المحمدية، وهى كذلك 'قلب العالم'، ويحيا الكون بنبض هذه الكرة، وهى على الحقيقة البرزخ بلا جدال، راجع تيتوس بوركهاردت *Titus Burckhardt 'Mirror of the Intellect* مرآة البصيرة' باب *19*.

5 راجع 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا'، باب *13*.

6 ويرتبط ذلك أيضا بتسمية المسيح 'بذرة' فى متون متنوعة، وربما عدنا إلى هذه المسألة لاحقا، راجع 'نظرات فى التعميد *Perspectives on Initiation*' باب *48*، والباب *73* من الكتاب الحالى.

7 *Katha Upanishad 1.14.*

المعادن' فإن اسم *هيرانياجاربها* يعبر عنه بمعنى الطبيعة المتوهجة، ويتسق ذلك مع الوضع المركزى الذى يشكلها رمزيًا بالشمس، وهى كذلك فى كل الأديان على السواء تمثل ' قلب العالم'.

ولننتقل الآن إلى تطبيق ذلك على الكون الأصغر، فيكفى تذكر الفارق بين *بيندا* الجنين اللطيف لكائن الإنسان وبين *براهماندا* أو بيضة العالم[8] و *بيندا* هذه بذرة خالدة لا تفنى وتتماهى مع ' قلب الخلود *kernel of immortality*'، والذى يسمى ' لوز' فى التراث العبرى[9]، والواقع أن هذا التراث لا يتحدث عن لوز باعتبارها فى القلب، أو أن القلب موضع بين مواضع أخرى تكمن فيها بالتناظر مع المنظومة الفردية للجسد، وليست هذه أكثر الحالات شيوعا، إلا أنها توجد عند الآخرين، وفى ضوء علاقتها المباشرة بالميلاد الثانى فإنها تشاكل مذهب *الشاكرات* الهندوسى من حيث إن أحوال الإنسان المتعددة أو مراحل الإثمار الروحى تبدأ من أسفل العمود الفقارى حيث توجد ' *لوز*' فى حال 'بيات أو نوم' أما حال ' تخصيبها *germination*'، عند الإنسان العادى فإنها تشاكل العين الثالثة[10] فى الجبهة، و هى حال الكمال الأوفى بين أحوال الإنسان، أى استعادة توحد 'الحال الأولانى'، ومن ثم إلى قمة الرأس التى تعنى الانتقال إلى الأحوال فوق الإنسانية، وسوف نعود إلى التناظرات المنضبطة فى المراحل المختلفة عندما نعود إلى رمزية كهف التعميد[11].

8 *Yatha pinda tatha Brahmanda (see Man and His Becoming according to the Vedanta, chaps. 13 and 19).*

9 *For a further development of this point see The King of the World; and it may be noted also that the assimilation of the 'second birth' to a 'germination' of the luz clearly recalls the Taoist description of the initiatic process as 'endogeny of the immortal'.*

10 *The serpent coiled around the 'World Egg', and sometimes represented around the Omphalos and the baetyl is, in this respect, Kundalini entwined around the 'kernel of immortality', which is also connected with the symbolism of the 'black stone'. It is to this 'inferior' position of the luz that direct allusion is made in the Hermetic formula: Visita inferiora term, rectificando invenies uccultum lapidem; the 'rectification' here is the 'setting upright' which, after the 'descent', marks the beginning of ascensional movement, corresponding to the awakening of the Kundalini; and the continuation of this same formula designates the 'hidden stone' as veram medicinam, which identifies it also with amrita, nourishment or beverage of immortality.*

11 *Let us note further that the designation 'golden embryo' suggests a certain link with alchemical symbolism, thus confirming parallels such as those indicated in the preceding note; and we shall also see that the initiatic cave corresponds in a remarkable way to the Hermetic athanor. There is no reason to be surprised at these*

………………………………..
similarities, for the process of the 'Great Work', understood in its true sense, is fundamentally nothing but the very process of initiation.

33 الكهف وبيضة العالم

وكهف التعميد كما ذكرنا سلفا صورة للعالم، ولكنه من ناحية أخرى تمثيل رمزى للقلب، وخاصة لأعمق نقاط مركزه، ويبدو الأمر من خارجه كما لو كان تناقضا بين منظورين، لكنهما لا يتناقضا على أى نحو كان، فيكفى ما قيل عن بيضة العالم كى يتصالحا أو حتى كى يتماهيا بمعنى بعينه، والواقع أن بيضة العالم لها علاقة مركزية بالكون *'cosmos'*، فهى تنطوى على بذرة كل ما سيوجد فى حال تجلى الكون الكامل، لكنها 'مُغَلَّفَة' مثل الكهف وخبيئة على منواله، وقد انقسمت إلى نصفين يمثلا السماء والأرض رمزيًا، وكذلك الكهف تناظر أرضه الأرض ويناظر سقفه السماء، وليس فى ذلك أمر بلا معنى.

وبقى أمامنا أن نعتبر فى مسألة مهمة من المنظور التعميدى، فقد تحدثنا عن الكهف كمحلٍّ 'للميلاد الثانى'، لكن هناك تمييز جوهرى بين الميلاد الثانى و' الميلاد الثالث'، واللذان يناظرا انتقال التعميد من 'الأسرار الصغرى' إلى 'الأسرار الكبرى'، وحيث إن 'الميلاد الثالث' يجرى فى كهف فكيف يتلاءم مع هذه الرمزية؟ فالميلاد الثانى يسمى ' التجدد النفسى *psychic regeneration*'، ويجرى فى نطاق الإمكانات اللطيفة لشخصية الإنسان، أما 'الميلاد الثالث' فهو تحقق مباشر فى النطاق الروحى، وهو طريق الإمكانات 'فوق الفردية *supra-individual possibilities*'، وهو 'الميلاد فى الكون' الذى يولد فيه *أفاتارا* يناظر منظومة الكون الأكبر، فيصبح من المنطقى أن يجرى هذا الميلاد فى كهف، إلا أنه ميلاد خارج الكون، وحتى تكتمل الرمزية لابد أن يتناظر 'الخروج من الكون' بالتعبير الهرمسى[1] مع خروج

1 *Cf. A.K. Coomaraswamy, 'The Virgin Suckling St Bernard', Studies in Comparative Religion, Summer 1970.*

نهائى من الكهف، فالكهف لا يحتوى إلا على الإمكانات الكونية، والتى لابد أن يمر بها السالكون قبل 'الميلاد الثالث' الذى كان 'الميلاد الثانى' أول مراحله.

ولابد هنا من تعديل فى طبيعة الكهف حتى يعود مرة أخرى إلى 'قبر'، لكن ذلك لا يرجع إلى طبيعته تحت الأرضية بل لأن الكون بأكمله صار قبرا لابد أن يخرج منه الإنسان، فالميلاد الثالث يستلزم موتا ثانيا لا عن العالم الدنيوى فحسب بل كذلك موتا عن الكون ذاته، ولذا كان المولد فوق الكونى بمثابة البعث[2] والخروج من الكهف، أى إزاحة الغطاء الحجرى عن 'القبر'، وسوف نرى لاحقا كيف يُترجَم ذلك إلى رمزية تعميدية فى أحوال بعينها.

ومن ناحية أخرى حينما يمثل ما هو خارج الكهف العالم الدنيوى أو الظلام 'الخارجى' فإن الكهف يبدو الموضع المضىء الوحيد حيث ينبثق النور من داخله، فلا يمكن للنور أن يأتى من خارجه، وحيث لابد من التحسب للإمكانات 'فوق الكونية' فإن الكهف رغم نوره يصبح ظلاما بالقياس إلى ما يخرج عنه، ولا نقول ما يخرج عن سقفه أيا كان بلا تمييز بل فقط ما ينتمى إلى نطاق ما يفوق الكون، ومن هذا المنظور الجديد يمكن اعتبار النور الباطن انعكاسا للنور الذى يتخلل 'سقف العالم' من 'الباب الشمسى'، وهو 'عين' سماء الكون، أو الطاقة العليا للكهف، والتى تناظر *براهما راندهرا*، أى نقطة الوصل بين الكائن مع 'الشعاع السابع' لشمس الروح[3]، والتى تناظر قمة الرأس بالرمزية الجسدية[4]، كما يرمز إليها بالتسامى الهرمسى *athanor*[5]، ويمكن أن نذكر فى هذا السياق 'البيضة الفلسفية'، والتى تقوم بدور فى 'بيضة العالم' التى تكمن فى التسامى، كما يجوز التعبير عنها

2 ويشاكل ذلك رمزية تحول اليرقة إلى فراشة.

3 *Cf. A. K. Coomaraswamy, loc cit.*

4 راجع 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا'، باب *21*، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

5 وتعتبر العين الثالثة فى المصطلح الهرمسى 'تساميا'.

بمصطلح 'الكون' فى تطبيقها على الكونين الأكبر والأصغر، كما يتماهى الكهف فى الآن ذاته مع 'البيضة الفلسفية' والتسامى بمدى تقدم عملية التعميد، ودونما أى تغير أصولى على دلالتها.

كما يمكن ملاحظة أن الاستنارة بالانعكاس إعادة اكتشاف لكهف أفلاطون الذى لا ترًى فيه إلا ظلال بفضل النور الذى يتسرب من خارجه[6]، وهذا النور من خارج الكون حيث يصدر من 'الشمس المفهومة *intelligible Sun*'، ويناظر تحرر المساجين وخروجهم من الكهف 'الخروج إلى نور النهار'، حيث يتأملون مباشرة فى الواقع الذى أدركوه لتوِّهم كانعكاس فحسب، والذى يشتمل على 'المثالات' الخالدة والإمكانات الكامنة فى 'الحضور الدائم' للجوهر الصمد.

وأخيرا لابد من مراعاة أن 'المولِدَين' المذكورين هما مرحلتا التعميد الكامل على طريق واحد، وأن هذا الطريق محور رأسى كما أنه 'شعاع شمسى'، ويحدد 'الاتجاه' الصاعد *سوشومنا*[7] للكون الأصغر للوصول إلى المركز الحق[8]، ومن ثم يمتد إلى ما فوق الفردية بفضل شعاع الشمس الذى يتجه الإنسان إلى مصدره، ونجد *تشاكرا* فى نهاية *سوشومنا*[9] حيث مراكز الفردية اللطيفة التى تشاكل بعضا منها، والمواقع المختلفة لمركز 'لوز'، أى 'لُبّ الخلود' الذى عالجناه

---

6 *This obscure sight is the vision quasi per speculum in xnigmate [as in a mirror darkly] of which St Paul speaks (l Cor. 13:12); what appears as manifested in the 'cosmos' is really only a shadow or a 'vestige' of the transcendent reality, but in any case this is what gives it its value as symbol of that reality.*

7 سوشومنا، أهم مسارات الطاقة فى الجسد، ويمتد من أسفل العمود الفقرى إلى المخ، وإذا ما تنبهت كونداليني فإنها ترتفع فى سوشومنا الذى يُمثل المحور المركزى بين إيدا وبينجالا تشاكرا. موسوعة الأديان والفلسفات الشرقية، ترجمات تراث واحد قيد النشر، المترجم.

8 و'الصراط المستقيم' هو طريق التسامى فى التراث الإسلامى.

9 ساهاسرارا تشاكرا، تقع أعلى قمة الرأس، أى فوق الفتحة العلوية لقناة الطاقة سوشومنا وبالتالى فهى خارج جسد الإنسان المادى، وهذه اللوتس كما يشير اسم التشاكرا ينبثق منها ألف بتلة أوقناة طاقة نادا، وتتشاكل تشاكرا فى الجسد مع العقل. موسوعة الأديان والفلسفات الشرقية، ترجمات تراث واحد قيد النشر، المترجم

فيما سلف، وحتى تناظر لحظات ’الصحوة‘ ما يقابلها من شاكرات، والتى تشكل مراحل التقدم على ’محور العالم‘ الرأسى، والذى يعبر تماما عن فكرة تسامى الكون الأصغر، والذى لابد أن يكون فى سمت سقف الكهف، لكن هذه المسألة تنطوى على بعض التعقيد نظرا لازدواج الصيغة الرمزية بين ’القطبية‘ و’الشمسية‘، ولذا تعين علينا طرح تفاصيل تتعلق بالخروج من الكهف، والتى ستتناول أمثلة من العلاقات المحتملة بين الصيغتين، كما ستطرح هيمنة العناصر بتأثير المراحل الدورية، والتى جرى فهمها وارتباطها بطرق متنوعة.

34 الخروج من الكهف

وبناءًا على ما تقدم فإن الخروج النهائى من كهف التعميد باعتباره ’خروجا من الكون‘ لابد أن يجرى من فتحة فى مركز قمته، والذى يسميها التراث ’ المحور الشمسى *the solar hub*‘ أو ’ عين الكون *cosmic eye*‘، والتى تناظر فى الإنسان يافوخ الرأس *براهماراندهرا*، ورغم مراجع الرمزية الشمسية فى هذه الحالة فإن الوضع ’المحورى‘ أو ’السمتى *zenithal*‘ يتعلق بالرمزية القطبية على نحو أولانى مباشر من واقع إجراءات تعميدية بعينها، فالموضع المذكور هو النقطة التى يتدلى منها خيط شاغول المهندس الأعظم لتحديد ’محور العالم‘، ولذا تماهت مع النجم القطبى ذاته[1]، كما يجب مراعاة أن المخرج لابد أن يتحدد بإلغاء حجر ’مفتاح العقد‘ الذى يحتل القمة، وله وظيفة فريدة فى الهيكل المعمارى، وهى مسألة لها أهميتها رغم أن هذا الموضع ليس محلا للبحث بأبعد من ذلك[2].

---

1 ويجب أن نتذكر أن النجم القطبى فى تراث الشرق الأقصى يمثل موئل ’الوحدة الأسمى طاى إى‘ وفى الآن ذاته محورا للوضع القائم كما ذكرنا فى تناظره مع القمة العظمى تاى كى أو سقف العالم.

2 ويتعلق ذلك خصوصا برمزية ماسونية العقد الملكى، كما يمكن الرجوع إلى الملحوظة التى طرحناها فى ختام دراستنا ’مقبرة هرميس‘ فى كتاب ’صور تراثية ودورات كونية‘ باب 3.، ترجمات تراث واحد قيد النشر، .

والواقع أن ما ذكرنا توا قد ورد حرفيا فى الشعائر التعميدية رغم ندرتها[3]، ولكن يمكن تفسيره بالمصاعب العملية فى تحقيقه، كما تدفع إليه الحاجة لاجتناب المخاطر فى هذه الحالة[4]، فلو لم يكن للكهف غير ذلك المخرج فلابد أن يعمل كذلك مدخلا، وهو ما يناقض معناه الرمزى، فالمدخل منطقيا لابد أن يكون بعكس اتجاه المخرج على الطرف الآخر من المخرج، أى فى مركز أرضية الكهف التى تصل إليه عن طريق تحت الأرض، لكن هذه الوسائل فى الدخول لا تصلح 'للأسرار الكبرى' حيث إنها تناظر المرحلة الابتدائية التى لابد قد سبقت منذ زمن، فسوف يجرى افتراض أن المُعمَّد الذى دخل الكهف من تحت الأرض لتعميده فى الأسرار الصغرى قد ظل قابعا فيه حتى 'الميلاد الثالث' الذى يخرج فيه من المخرج العلوى، وهو أمر نظرى لا يصلح للتطبيق العملى.[5]

وهناك حلٌ آخر باعتبار هيمنة الرمزية الشمسية فى وجود بقايا من الرمزية القطبية، فنحن نواجه هنا ما يمكن أن يكون انصهارا لصيغتين كما أشرنا فى خاتمة الباب السابق، والأمر المهم هو أن المحور الرأسى الذى يصل بين القطبين يتجه من الشمال إلى الجنوب، وفى الانتقال من الرمزية المحورية

---

3 *In the high grades of Scottish Masonry, such is the case at the 13th degree, called 'Royal Arch', but which, in spite of certain similarities, must not be confused with what in English Masonry constitutes Arch Masonry as distinct from Square Masonry. The 'operative' origins of the Scottish grade in question are in any case much less clear; the 14th degree, or 'Great Scotsman of Sacred Vault', is also conferred 'in an underground and vaulted place'. It is worth noting in this connection that in the upper grades there are many particulars of diverse provenance which have not always been integrally preserved, nor without confusion, to the extent that, in their present state, it is often quite difficult to determine exactly their real nature.*

4 والواقع أن هذا الاضطراب قائم فى المحفل الاسكتلندى المذكور، والقبو تحت الأرض لا أبواب له ولا نوافذ عدا فتحة وحيدة فى السقف للدخول والخروج.

5 ويجوز القول بمعنى ما أن 'الأسرار الصغرى' تناظر الأرض والحال الإنسانى و'الأسرار الكبرى' تناظر السماء والأحوال التى تفوق الفردية، كما أن التناظر الذى استقر بالأشكال الهندسية للمربع والدائرة ومشتقاتهما التى يربطها تراث الشرق الأقصى بالأرض والسماء، كما وجد هذا التمايز فى الغرب فى الاختلاف بين الماسونية المستقيمة *Square Masonry* وماسونية العقد *Arch Masonry*، والتى ذكرناها، وراجع أيضا 'الثلاثى الأعظم' باب 15

إلى الرمزية الشمسية لابد أن ينعكس هذا المحور على دائرة البروج بكيفية ما حتى يحقق تناظرا أو تساويا مع المحور القطبي الأولانى[6]، والانقلابان السنويان للشتاء والصيف يناظرا الشمال والجنوب فى الرمزية المكانية، كما يناظر الاعتدالين السنويين للربيع والخريف الشرق والغرب فى الرمزية ذاتها، أم المحور الذى يحقق الحال المطلوب فهو الذى يصل بين الانقلابين، ويجوز القول إنه يقوم بدور المحور العمودى على نحو نسبي حيال محور الاعتدالين[7]، لكن الانقلابين هما قطبا العام بموجب تناظرهما بلا تعسف، وهذان القطبان للعالم الزمنى يتخذا هنا موقع قطبي العالم المكانيين، كما أن لهما علاقة مباشرة بتقدم الشمس، وفى حين يستقل المحوران عن أحدهما الآخر إلا أن صيغتهما الرمزية تتصلا على واضح.

وهكذا كان ’ الكهف الكونى‘ له بابين ’برجيين *zodiacal*‘ أحدهما فوق الآخر على المحور الرأسى، ويناظرا على التوالى نقطتا الانقلابين، أحدهما مدخل والآخر مخرج، ونجد فكرة ’بابى الانقلابين‘ فى معظم الأديان التراثية، ولهما عموما أهمية رمزية غامرة، ويسمى الباب السفلى ’باب الإنسان‘ الذى يؤمه المعمدون فى الأسرار الصغرى والدنيويون الذين لم يتجاوزا الحال الإنسانى، ويسمى الباب العلوى ’باب الملائكة‘، أى الذى يؤمه الذين بلغوا الحالات فوق الفردية، وكل ما بقى أمامنا تحديد تناظرات كل من الانقلابين مع البابين، لكن ذلك يتطلب دراسة مستقلة.

---

6 *The 'transfer' of certain constellations from the polar to the zodiacal region relates to this same passage from one symbolism to another, a 'transfer' we have discussed elsewhere (see The King of the World, chap. 10).*

7 ولا حاجة لنا هنا فى واقع أن الصور التراثية المختلفة نفرض على دورة الفصول بداية انقلاب، وسوف نقول فحسب أن هناك سبب لأسبقية أحدهما على الآخر، والتى يبررها اختلاف الفصول الدورية التى تناولها تراث الأقدمون

35 بابا الانقلابين

لقد ذكرنا أن البابين البرجيين *zodiacal doors* للدخول والخروج من 'الكهف الكونى' اللذين تطلق عليهما بعض الأديان 'باب الإنسان' و'باب الملائكة' لابد أن يتناظرا مع الانقلابين، ويناظر الأول برج السرطان الصيفى ويناظر الثانى برج الجدى الشتوى، وحتى نفهم السبب فلابد من الإشارة إلى انقسام الدورة السنوية إلى نصفين، أحدهما صاعد والآخر هابط، وأولهما فترة حركة الشمس نحو الشمال *أوتاريانا* من الشتاء إلى الصيف، ويمثلها الثانى فى حركتها من الصيف إلى الشتاء *داكشينيانا*[1]، وتناظر المرحلة 'الصاعدة' *ديفا يانا* وتمثل 'الهابطة' *بترى يانا*[2]، ويناظرا تماما 'باب الملائكة' و'باب الإنسان'، ولذا تعين أن تكون مواضعهما فى بداية المرحلة المناظرة لكل منهما، أى انقلابا الصيف والشتاء على الترتيب، ولكن المسألة تتعلق هنا بمخرجين مختلفين لا بالدخول والخروج بحسب اختلاف المنظور الذى يتعلق بكهف التعميد، وحتى لو ظل مقابسا تماما للموضع السابق، والواقع أن 'الكهف الكونى' هنا بمثابة موقع لتجليات الكائن، فبعد أن يتجلى فى حال الإنسان على سبيل المثال فسوف يخرج من الباب الذى يكافئ المرتبة الروحية التى وصل إليها، فأحدهما طريق الملائكة الذى يؤدى إلى حالة أخرى من التجلى، والتى يُرمز إليها بالدخول مرة أخرى فى الكهف الكونى، أما الحالة

---

[1] *It should be noted that the zodiac frequendy represented on the portals of medieval churches is arranged in such a way as to indicate clearly this division of the annual cycle.*

[2] *See for example Bhagavad-Gita, 8,23-26; and cf. Man and His Becoming according the Vedanta, chap. 31. — An analogous correspondence is found in the monthly cycle, the period of the waxing moon being similarly related to the deva-yana, and that of the waning moon to the pitri-yana. The four lunar phases can be said to correspond in a more restricted cycle to the four solar phases which are the four seasons of the year.*

الأخرى فى طريق الإنسان فإنها تعود إلى العالم المتجلى، وعلى ذلك يكون أحد البابان مدخلا ومخرجا فى حين يكون الآخر مخرجا نهائيا، وهذا الخروج هو الغاية القصوى للتعميد، وعلى ذلك يكون على من دخل من باب الإنسان أن يسعى للخروج من ’ باب الملائكة‘[3].

وقد تحدثنا سلفا عن محور الانقلاب البرجى ووضعه الرأسى بالنسبة إلى محور الاعتدالين، ولابد من اعتباره انعكاسا لمحور الشمال والجنوب القطبي، والذى يبدو متناظرا فى الرمزيتين الزمنية فى الانقلاب الشتوى والمكانية فى الاتجاهات الأصلية، فالانقلاب الشتوى هو القطب الشمالى للعام، والانقلاب الصيفى هو قطبه الجنوبى، كما أن الاعتدالان الربيعى والخريفى يناظرا الشرق والغرب على الترتيب[4]، وتضع الرمزية *الفيدية* باب الملائكة *ديفا لوكا* فى اتجاه الشمال الشرقى، وتضع باب الإنسان *بترى لوكا* فى اتجاه الجنوب الغربى، لكن ذلك ليس إلا تصريحا أدق لمسار الدورة السنوية، والواقع أن هذا التناظر متسق مع فترة ’الصعود‘ وتقدمها من الشمال إلى الشرق، ثم فترة ’الهبوط‘ وتقدمها من الجنوب إلى الغرب[5]، وبالحرى نقول

---

3 *The 'door of the gods' cannot be an entrance except in the case of voluntary descent into the manifested world, whether of a being already 'delivered', or of a being representing the direct expression of a 'supra-cosmic' principle. But it is obvious that these exceptional cases do not enter into the 'normal' processes that we are here considering. We will only observe that it is easy to understand thereby the reason why the birth of the Avatara is considered to take place at the time of the winter solstice, the time of Christmas in the Christian tradition.*

4 *In the day, the ascending half is from midnight to midday, and the descending half from midday to midnight; midnight corresponds to winter and to the north, midday to summer and the south; morning corresponds to springtime and to the east (the direction of sunrise), and evening to autumn and the west (the direction of sunset). Thus, the phases of the day, like those of the month, but on a yet more reduced scale, reproduce analogically those of the year; and it is the same, more generally, for any cycle which, whatever may be its extent, is always divided naturally according to the same quaternary law. According to Christian symbolism, the birth of the Avatara takes place not only at the winter solstice, but also at midnight; it is doubly in correspondence, therefore, with the 'door of the gods'. On the other hand, according to Masonic symbolism, the initiatic process is accomplished 'from midday to midnight', which is no less exact if one considers this process as a movement from the 'door of men' to the 'door of the gods'; the objection one might be tempted to make by reason of the 'descending' character of this period is resolved by an application of the 'inverse sense' of the analogy, as we shall see below.*

5 *This relates directly to the question of the direction of ritual 'circumambula- tions' in different traditional forms. According to the 'solar' modality of symbolism, this direction is that which is here indicated, the 'circumambulation' being thus accomplished with the center about which one turns constantly on one's right. In the 'polar' modality, it is accomplished in the opposite direction from the former, therefore with the center to one's left. The first case is that of the pradak- shina, such as is used in the Hindu and Tibetan traditions; the second case is found especially in the Islamic tradition. It is perhaps not without interest to point out that the direction of these 'circumambulations',*

تدقيقا إن ’باب الملائكة‘ يقوم فى اتجاه الشمال المنحرف إلى الشرق، ويرمز إلى جانب النور والحياة، وأن ’باب الإنسان‘ يقوم فى اتجاه الجنوب المنحرف إلى الغرب، ويرمز إلى الظلام والموت، وهكذا تحدد الطريقان الدائمان للعالم المتجلى بين النور والظلام، ولا رجعة من الباب الأول إلى عالم التجلى، أما الثانى فيعيد المرء إلى عالم التجلى مرة أخرى[6].

ولازال هناك شيء من التناقض، فالشرق يُعَدُّ أعلى نقطة *أوتارا*، كما أن الحركة الصاعدة للشمس تتجه إلى الجنوب، والذى يبدو أنه أدنى نقطة، إلا أن الانقلاب الشتوى الذى يناظر الشمال وبداية التصاعد، وهو بمعنى ما أدنى نقطة، وفى حين أن الانقلاب الصيفى هو نهاية التصاعد، وهو أعلى نقطة لحركة التصاعد ويبدأ بعدها فى التنازل حتى الانقلاب الشتوى، ويكمن حل هذا التناقض فى التمييز بين المنظومة ’السماوية‘ التى ينتمى إليها مسار الشمس والمنظومة ’الأرضية‘ التى تحدد تتابع الفصول، وطبقا لقانون التشاكل العام فإن المنظومتين لابد أن يكون بينهما تناظر مقلوب، وبحيث يكون أعلى أحدهما هو أدنى الآخر، وهكذا تتحقق المقولة الهرمسية فى اللوح اللازوردى "ويكون ما علا ’فى منظومة السماء‘ هو ما دنى ’فى منظومة الأرض‘"، وكما تقول التوراة "إن الأول هو الآخر"، أى إن منظومة المبادئ هى منظومة التجلى[7]، وذلك فضلا عن أن ’النفوذ‘ المرتبط بهذه النقاط عادة ما يتخذ فيه الشمال جانب الطيبة، ويُعتبر النقطة التى يتصاعد إليها مسار الشمس فى السماء، أو

....

proceeding respectively from left to right and from right to left, also corresponds to the direction of the script in the sacred languages of these same traditional forms. — In the present form of Masonry, the direction of the 'circumambulations' is 'solar'; but it seems on the contrary to have been 'polar' in the ancient 'operative' ritual, according to which 'Solomon's throne' was placed in the west and not in the east.

6 *Bhagavad-Gita, 8,26. — One might note that the 'light' and 'darkness' characterize respectively these two ways, corresponding exactly to the two complementary principles yang and yitt of the Far-Eastern tradition.*

7 *To this double point of view there corresponds, among other applications, the fact that in geographical or other representations the point placed above may be either the north or the south; in China, it is the south; and in the Western world it was the same with the Romans and even during a part of the Middle Ages. This usage, moreover, is in reality, as we have just said, the most correct as regards the representation of terrestrial things, while on the contrary, when it is a matter of celestial things, it is the north which normally must be placed above; but it goes without saying that the predominance of one or the other of the two points of view, according to the traditional forms or according to the epochs, may determine the adoption of a single arrangement for every case without distinction; and in this respect, the fact of placing the north or the south above, generally appears to be especially linked to the differences of the two modalities, 'polar' and 'solar', the point placed above being that which the viewer has before him when he orients himself according to one or the other of these latter, as we shall explain in the following note.*

هى مدخل الملائكة *ديفا لوكا* فى العالم الأرضى، وكذلك يعتبر الجنوب 'خبيثا' دائما باعتباره نقطة هبوط إلى العالم الأرضى ومدخلا للإنسان *بيترى لوكا*[8]، ونضيف إلى ذلك أن العالم الأرضى يمكن اعتباره محلا لتحولات 'الكون والسماء' بموجب الاستبدال ذاته باعتباره نطاقا خارجا عن الكون، واعتبار التناظر المقلوب فى نطاق التجلى والنطاق الكونى من هذا المنظور قابلا للتطبيق على النطاق 'الروحى' بمعناه الواسع[9].

[8] *In this connection, let us point out incidentally another case where a similar point preserves a constant meaning throughout certain changes that constitute apparent reversals: orientation may be taken according to either one or the other of the two 'polar' or 'solar' modalities of symbolism; in the first, looking at the pole star, that is, turning toward the north, one has the east to the right; in the second, looking at the sun at the meridian, that is, turning toward the south, one has on the contrary the east to the left; these two modalities have been in use, notably in China at different epochs. Thus the side given pre-eminence has been sometimes the right and sometimes the left; but in effect, it has always been the east, that is, the 'side of light'. — Let us add that yet other modes of orientation exist, for example, by turning oneself toward the rising sun; it is to this latter that the Sanskrit designation of the south as DAKSHINA, or 'side of the right' refers; and it is also that which was used in the West by the medieval builders to orient churches. [On the question of orientation see also The Great Triad, chap. 7. ED.]*

[9] *To give an example of this application, in fairly close relation moreover with what is involved here, since the 'culmination' of the visible sun takes place at midday, that of the 'spiritual sun' could be envisaged symbolically as taking place at midnight. This is why it is said that those initiated into the 'greater mysteries' of antiquity 'contemplated the sun at midnight'. From this point of view, night represents no longer the absence or privation of light, but rather its principial state of non-manifestation, which moreover corresponds strictly to the higher meaning of darkness or of the color black as a symbol of the non-manifested; and it is also in this sense that we must understand certain teachings of Islamic esoterism, according to which 'the night is preferable to the day'. One can note, besides, that, if 'solar' symbolism has an obvious relationship with day, 'polar' symbolism for its part has a certain connection with night; and further, it is significant in this respect that the 'midnight sun' should, in the order of sensory phenomena, have its literal representation in the Hyperborean regions, that is, the actual place of origin of the primordial tradition.*

36 رمزية البروج عند الفيثاغوريين

لقد أشرنا فى معالجة بابى الانقلابين إلى التراث الهندوسى قبل أى أمر آخر، فإننا نجد فيه العناصر المرتبطة بهما على أوضح ما يكون، والواقع أن المسألة شائعة فى كل الأديان التراثية بما فيها التراث الغربى القديم، وخاصة الفيثاغورية حيث تبدو علامات البروج فائقة الأهمية، لكن تعبيرا 'باب الإنسان' و'باب الملائكة' يرجعا إلى التراث اليونانى، إلا أن ما بقى منها شظايا ناقصة، حتى إن تفسيرها قد يؤدى إلى فوضى كما فعل الذين حاولوا تفسيرها بمعزل عن مقارنتها بالأديان الأخرى.

وأول أمر لمحاولة اجتناب الغموض وتشتت المعانى هو تحديد موضع البابين، ويحسُن تذكر ما قلناه سلفًا عن 'الانقلاب' الذى جرى فى تطبيق العلاقة بين المنظومتين السماوية والأرضية، فالانقلاب الشتوى أو برج الجدى يناظر الشمال فى الدورة السنوية، وتتقدم الشمس نحو الجنوب إلى برج السرطان فى الانقلاب الصيفى من الدوررة، ولذا كان 'التصاعد' يجرى مع حركة الشمس نحو الجنوب، وكان 'النزول' يجرى فى حركتها نحو الشمال، وترى الرمزية الهندوسية أن باب *ديفا لوكا* فى الشمال وباب *بيترى لوكا* فى الجنوب، ودون أن يكون هناك تعارضًا رغم المظاهر.

ونطرح فيما يلى موجزا للفيثاغورية كما طرحه جيروم كاركوبينو *Jerome Carcopino*[1]،

لقد بنى الفيثاغوريون نظرية كاملة عن العلاقة بين حركة البروج

1 *La Basilique pythagoricienne de la Porte Majeure. — Not having the book at hand, we quote from the article published earlier, under the same title, in La Revue des Deux Mondes (issue of November 15,1926).*

وهجرة النفوس، ويستحيل معرفة التاريخ القديم لهذه النظرية، إلا أنها ازدهرت فى القرن الثانى الميلادى فى أدبيات نوميذيوس الفيثاغورى *Numenius* التى وصلت إلينا فى موجز جاف عن بروكلوس *Proclus* فى سياق تفسيره لجمهورية أفلاطون، وتحليله للبابين 21 و 22 لكتاب بورفيرى *Porphyry* بعنوان *De Antro Nympharum*.

ونجد فى ذلك مثلا طريفا للتأريخية *historicism*'، والواقع أن المسألة ليست 'بناء نظرية' فلسفية على نحو مصطنع فى تاريخ أو آخر عند الفيثاغوريين أو غيرهم لأى مفهوم فردى من أى نوع كان، لكنها معرفة تراثية تتعلق بحقائق التعميد، والتى لا يمكن أن تُعزى إلى تاريخ أو آخر، فقد تروغ هذه الاعتبارات عن 'دارس *scholar*'، ولكنه يجب على الأقل أن يكون قادرا على فهم أنه لو كان الفيثاغوريون قد 'بنوا' النظرية المقصودة فكيف نفسر وجودها فى أماكن شتى غير اليونان، وخاصة فى متون التراث *الفيدى*، والتى ظهرت قبل الفيثاغوريين بزمان سحيق؟ لكن كاركوبينو 'المتخصص' فى التاريخ اليونانى الرومانى القديم كان يجهل هذا الأمر، ولكنه قال إن هذه المعلومات ذاتها قد وجدت عند هوميروس فى اليونان قبل نومينيوس وحتى قبل فيثاغورث ذاته، فهى تعاليم تراثية تداولتها القرون، والتواريخ 'المتأخرة' التى وقّعها كتّاب بعينهم على شكل مذهب نظرى لا أهمية له.

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى بروكلوس و بورفيرى،

وقد اتفق الكاتبين على إسناد تحديد النقاط القصوى للسماء إلى نومينيوس، وأن الشتاء واقع فى مدار برج الجدى وأن الصيف واقع فى مدار برج السرطان، ولا شك أن 'اللاهوتيين' الذين استرشدوا بها قد اتفقوا على تعريف برجى الجدى والسرطان كبابين للسماء، وسواء أكان هابطا إلى الخليقة أم صاعدا إلى الملائكة فإن على النفوس أن تمر من أحدهما أو الآخر.

ويُعدُّ تعبير "النقاط القصوى للسماء" بذاته بعيدا عن الوضوح، ولابد لنا من فهم أن الشمس 'تتوقف' فى دورتها السنوية عند هاتين النقطتين، ومن هنا جاء تعبير "إنقلابين *solstices*" لتناظرا 'بابا السماء'، والواقع أن هذا هو المذهب التراثى الذى نعرفه كما طرحناه فى موضع آخر[2]، فهاتان النقطتان

2 راجع باب 22 'جوانب من رمزية السمكة'.

ترمزان على سبيل المثال أحيانا إلى قاعدة المثلث على معبد دلفى وتحت أقدام خيل عربة الشمس على صورة أخطبوط ودرفيل، وتمثلا السرطان والجدى على التوالى، ومن جانب آخر إن الكاتبين المذكورين لم يستطيعا إسناد تحديد نقطتى الانقلابين إلى نومينيوس حيث كانت معلومة من قبله، لكنهما أشارا إليه بصفته أحد الذين ذكروها قبلهما كما أنه أسندها إلى بعض 'اللاهوتيين'.

والمسألة إذن هى تحديد الدور الصحيح لكل من البابين، وهنا يفشو الاضطراب،

> يقول بروكليس إن نومينيوس قد ميز بوضوح بين باب السرطان الذى تسقط منه النفوس إلى الأرض، وبين باب الجدى الذى تتصاعد إليه النفوس فى الأثير، فى حين يُقال أن بورفيرى اعتبر السرطان فى الشمال مناسبا للهبوط، وأن الجدى فى الجنوب مناسبا للصعود، وهكذا كانت النفوس حرة فى الذهاب والإياب بدلا من التزامها 'طريقًا واحدًا'.

والحق إن نهاية هذا المقتَبَس تعبر عن مسؤولية كاركوبينو عن هذا التفسير، ولا نرى من جانبنا أن ما قاله بورفيرى يناقض ما قاله بروكلوس، وربما كان التعبير غامضا بعض الشىء ولكنه جوهريا يعنى الأمر ذاته، فما كان 'مناسبا' للصعود أو الهبوط لابد يعنى "ما جعله ممكنا"، فمن غير المحتمل أن بورفيرى قد رغب فى أن يترك الأمور بلا تحديد، وهو مالا يتوافق مع طبيعة العلوم التراثية الصارمة، ولن يكون فى كل الحالات إلا برهانا على الجهل بهذه النقطة، وأيًا كان الأمر فمن الثابت أن نومينيوس قد كرر التعاليم التراثية عن دور البابين، ولو وضع السرطان فى الشمال والجدى فى الجنوب كما أشار بورفيرى فذلك بموجب مسألة 'المدارت *tropics*' التى ليس لها إلا معنى مكانىّ، فى حين أن 'الانقلاب' له معنى زمنى يتعلق بدورة العام، ولذا كان ما قيل هنا مقلوب للرمزية *الفيدية* دون فارق حقيقى، حيث إن وجهتا النظر مشروعتان ومتفقتان بمجرد فهم علاقتهما الحقيقية.

ونحن الآن على وشك مشاهدة أمر أشد غرابة، فيقول كاركوبينو،

> من الصعب فك الاشتباك بين تنويهات مفارقة فى غياب أصل المذهب الحق عند نومينيوس، لكن من الثابت أن سياق بورفيرى قد فسره على نحو بالغ المرونة فى تشكيله على النقيض من أسلافه، وخاصة

بمنظومة الفيثاغوريين القديمة التى قامت على فقرات من أوديسا *Odyssey* هوميروس التى وصف فيها كهف إيثاكا، ولم يقتصر بورفيرى على قول إن للكهف بابين، بل قال إن أحدهما متجه إلى الشمال أما الآخر فيتجه إلى الجنوب الأكثر ربانية، وأن أحدهما فى اتجاه هابط لكنه لم يشر إلى إمكان الهبوط من الباب الجنوبى، ويقول فحسب إنه باب الملائكة، وأن من المستحيل للبشر اتخاذ طريق الخالدين.

ونعتقد أن هذا النص ينتمى إلى بورفيرى ولا نرى فيه تناقضا، ولكن ما يلى تفسير كاركوبينو،

ويرى المرء فى هذا التفسير المختصر للكون فى كهف الحوريات *Nymphs* بابين ينفتحا على السماء تمر منهما النفوس، ويناقض ما قال بروكلوس عن نوميذيوس، وهو أن الباب الشمالى مخصص لهجرة النفوس إلى الأرض، أما الباب الجنوبى فلعودتها إلى الرب.

وحيث إننا وصلنا إلى آخر المتن فيمكن أن نرى أن التناقض المزعوم من صنع كاركوبينو، فالعبارة الأخيرة فيها خطأ مزدوج واضح لا تفسير له، فأولا يبادر كاركوبينو بذكر أن برجى الجدى والسرطان عن بورفيرى، أما هوميروس فلم يذكر سوى اتجاههما إلى الشمال والجنوب دون ذكر البرجين، ولكن حيث إنه وصف الباب الجنوبى بأنه 'ربانى' فلابد أنه يناظر برج الجدى، أى إنه وضعهما بالنسبة إلى الموقع السماوى، والذى يبدو أنه المنظور السائد فى التراث اليونانى قبل الفيثاغورية، ثم إن رحلة النفوس من 'الكون' و'عودتها إلى الرب' ليستا عنده إلا الأمر ذاته، فيسبغ عليهما دون أن يدرى الصفات ذاتها، أما هوميروس فقد عيَّن باب الشمال 'للهبوط'، أى مدخل 'الكهف الكونى'، أو بالحرىِّ إلى عالم الخلق والتجلى الفردى، أما الباب الجنوبى فقد كان عنده 'مخرجًا' من الكون، وبالتالى يبدأ منه 'تصاعد' الكائنات إلى التحرر، ولا يقول هوميروس شيئا عما إذا كان 'الهبوط' كذلك يجرى من الباب ذاته، ولكن ذلك ليس لازما، فإن تسميته 'مدخل الملائكة' يشير بما يكفى لأن تكون 'تنزيلاتٍ' استثنائية بالاتساق مع ما قلنا فى الباب السابق، وأخيرا، فسواءٌ أكانت مواضع البابين منسوبة إلى اتجاه تقدم الشمس كما عند اليونانيين أم كانت منسوبة إلى فصول الدورة السنوية على الأرض فإن التراث الهندوسى دائما ما يعزو 'باب الإنسان' إلى برج السرطان وباب الملائكة إلى برج الجدى، وليس لهذه المسألة تنويعات أخرى، ولكن

سوء فهم 'الدارسين' المحدثين يحدو بهم إلى الاعتقاد بأنهم قد وقعوا على اكتشاف أمور لا وجود لها.

37 رمزية يانوس عن الانقلابين

لقد رأينا توا كيف وجدت رمزية ’بابى الانقلابين‘ فى تراث الغرب عند اليونانيين وخاصة الفيثاغوريين، كما وجدت عند الرومان مرتبطة برمزية يانوس، وهو ما نوهنا عنه من جوانب متنوعه، وسوف نتناول هنا الأمور التى ارتبطت بالأبواب السابقة رغم صعوبة فصلها تماما عن كلياتها المركبة التى هى شطر منها.

ومن الجانب الذى نتناوله الآن يقوم يانوس بدور البواب *janitor* الذى يفتح الأبواب ويغلقها فى دورة فصول العام بالمفاتيح التى تشكل صفة رئيسية من صفاته، ولنتذكر أن المفاتيح رمز ’محورى‘، ويتعلق على نحو طبيعى بالجانب ’الزمنى‘ لرمزية يانوس، فيمثل وجهيه الماضى والمستقبل فى التفاسير المعتادة، ونجد اعتبارات الماضى والمستقبل مرة أخرى فى أية دورة على غرار الدورة السنوية حين ننظر إليها من أحد طرفيها، ونضيف فى سياق هذا المنظور أننا نرى وجهى يانوس الحقيقى بين الماضى الذى درس وبين المستقبل الذى لم يحلّ بعد حتى تكتمل فكرة ’ الأزمنة الثلاثية *triple time*‘، والذى لا يرى الحاضر كما يرى الماضى والمستقبل، والواقع أن الوجه الثالث فى خفاء نظرا للتجليات الزمنية فى لحظة الحاضر التى لا تكاد تُدرَك[1]، ولكن حينما يتسامى المرء عن أحوال عوارض التجلى فإن الحاضر ينطوى على الحقيقة بأكملها، ويناظر وجه يانوس الثالث فى التراث الهندوسى عين شيفا الثالثة، والتى لا تُرى يدورها حيث لا يمثلها أى عضو جسدى، فهى تنظر ’بحاسة الخلود‘، والنظرة من هذه العين تُحيل كل شيء إلى رماد، أى إنها

1 ولهذا السبب كانت بعض اللغات مثل العربية والعبرية لا تشتمل على فعل يناظر الحاضر.

تدمر التجليات، ولكن حينما يتحول التتابع إلى مَعِيَّة ويتحول الزمنى إلى اللازمنى تجد كل شيء فى موضعه فى الحاضر الخالد أبدا، فالدمار الواضح ليس إلا تحولا.

ولكن لنعد إلى ما تعلق بالدورة السنوية وبابيها اللذان يقوم يانوس على فتحهما وإغلاقهما، و اللذان ليسا إلا بابا الانقلابين المطروحين سلفا، وقد أضفى يانوس اسمه على شهر يناير *January januarius* الذى يفتتح العام بالانقلاب الشتوى، كما أن مدرسة الصنائع *Collegia Fabrorum* فى روما كانت تحتفل بالانقلابين، وسوف نتناول هذه المسألة بتفصيل أوسع فيما بعد، وحيث إننا ذكرنا فيما تقدم أن بابى الانقلابين يؤديا إلى نصفى دائرة البروج فإن يانوس قد سُمى ’سيد الأزمنة الثلاثة‘ فإنه كذلك ’سيد الطريقين‘ أى اليمين واليسار *ديفا ياما* و *بترى ياما*[2]، ويرمز إليه الفيثاغوريون بحرف *Y*[3]، وبناءا على ذلك نرى أن مفتاحى يانوس فى التراث المسيحى قد اتخذا اسم ’ملكوت السماء‘[4]، كما يرمز المفتاح الفضى إلى الأسرار الصغرى ويرمز الذهبي إلى الأسرار الكبرى.

وقد كان يانوس كذلك رب التعميد[5]، وهى تسمية مهمة بذاتها وفى علاقتها بموضوعنا الحالى، فهى صلة سافرة بما ذكرنا عن كهف التعميد والصور الأخرى للعالم، ودوره الذى حدا بنا إلى تناول مسألة بابى الانقلابين، كما أنه تسنم رئاسة مدرسة الصنائع فى روما، وقد كان الصناع فى كل الحضارات التراثية سدنة التعميد، واللافت للنظر حقا أن ما اختفى مع الدين الرومانى القديم قد ظهر بلا انقطاع فى التراث المسيحى ذاته، ومنه إلى ما استمر حتى أيامنا أيًا كان ما يقوله الجاهلون عن ’تداول المعرفة

2 *The Sanskrit yana has the same root as the Latin ire, and according to Cicero it is from this root that the name of Janus itself is derived, its form moreover being singularly close to that of yana.*

3 *This was also represented, in an exoteric and 'moralizing' form, by the myth of Hercules between Virtue and Vice, a symbolism preserved in the sixth trump of the Tarot. This ancient Pythagorean symbol had moreover other rather singular survivals: thus it is found again during the Renaissance in the trademark of the printer Nicolas du Chemin, designed by Jean Cousin.*

4 ولا بد من إضافة طريق ثالث إلى رمزية الطريقين وهو طريق الوسط الذى يؤدى مباشرة إلى الخلاص. .

5 *Let us note that the word initiate derives from in-ire ['to go into'], so that here we find yet again the verb ire, to which the name Janus is linked.*

.'transmissions

وقد صارت احتفالات المسيحية بأعياد يانوس فى الانقلابين باسم القديسان يوحنا، ويجرى الاحتفال بهما فى الانقلابين السنويين للشتاء والصيف[6]، كما صار كل ما يتعلق بالجوانية المسيحية منسوبا إلى مذهب يوحنّاوى *Johannine*، وهو ما يضفى معنى يمتد إلى ما وراء التدين البرانى رغم كل المظاهر، فقد استمر تراث مدرسة الصنائع فى سلسلة لا تنقطع فى أعمال الحرف التى حملت الصبغة التعميدية طوال القرون الوسطى وعلى الأخص طائفة البنائين، والتى كان يرعاها القديسان يوحنا، والذى حفظته الماسونية فى تسمية 'محفل القديس يوحنا'، وهو استمرار مباشر للأخوّة فى المنظومات المذكورة[7] حتى فى إطار الاسم الحديث 'الماسونية التأملية' كشاهد على أصولها، وظل الاحتفالان باسم القديسين يوحنا استمرارا لوجهى يانوس[8]، كما استمرت تقاليد بابا الانقلابين فى التعميد حتى زمننا وحتى إن لم تعد

6 *The winter feast of St John [that is, St John the Evangelist] is thus quite near the feast of Christmas which, from another point of view, corresponds no less exactly to the winter solstice, as previously explained. A thirteenth-century stained- glass window of the Church of St Remy at Rheims offers a particularly curious and no doubt exceptional representation with regard to our present consideration. The question of which of the two Saint Johns it represents has been discussed in vain; the truth is that, without there being any need to see in it the least confusion, it represents both, synthesized in the figure of a single personage, as is shown by the two sunflowers facing in opposite directions, above his head, and corresponding here to the two solstices and to the two faces of Janus. Further, let us note in passing as a curiosity, that the popular expression 'John who weeps and John who laughs' is in reality reminiscent of the two opposite faces of Janus.*

7 *We recall that the 'Lodge of St John', although not assimilated symbolically to the cave, is nonetheless like it a figure of the 'cosmos'; the description of its 'dimensions' is particularly clear in this respect: its length is 'from east to west', its breadth 'from south to north', its height 'from earth to heaven', and its depth 'from the surface of the earth to its center'. And it may be noted, as a remarkable correspondence concerning the height of the Lodge, that according to the Islamic tradition the site of a mosque is considered consecrated not only at the surface of the earth, but from the earth to the 'seventh heaven'. Moreover, it is said that 'in the Lodge of St John temples are raised for virtue and dungeons dug for vice.' These two ideas of'raising' and 'digging' relate to the two vertical 'dimensions' height and depth, which are reckoned according to the two halves of a single axis running from 'zenith to nadir', taken in an inverse direction from one another. These two opposite directions correspond respectively to sattva and to tamas (the expansion of the two horizontal dimensions corresponding to rajas), that is, to the two tendencies of the being, toward the heavens (the temple) and toward the hells (the dungeon), tendencies which here are 'allegorized', rather than symbolized strictly speaking, by the notions of'virtue' and 'vice', exactly as in the myth of Hercules just mentioned above.*

8 *In Masonic symbolism, two parallel tangents to a circle are considered in one of several meanings to represent the two Saint Johns. If this circle is considered a representation of the annual cycle, the points of contact of these two tangents, which are diametrically opposed, then correspond to the two solstitial points.*

مفهومة فى الغرب الحديث.

38 القديسان يوحنا

رغم أن الصيف فصل بهيج وأن الشتاء فصل حزين فإن ذلك راجع إلى أن الصيف فصل النور والشتاء فصل الظلام، إلا أن الانقلابين المناظرين لهما فى الواقع على طرفى نقيض، وقد يبدو ذلك غريبا، أما بالنسبة لمن عنده علم بالتعاليم التراثية عن الدورة السنوية فمن السهل أن يألفها، فالواقع أن كل ما بلغ أقصاه لابد أن يبدأ فى النقص وما بلغ أدناه لابد أن يبدأ فى الزيادة[1]، ولذا كان انقلاب الصيف بداية هبوط دورة العام وكان انقلاب الشتاء بداية ارتفاعها، ومن المنظور الكونى فإنه يفسر مقولة القديس يوحنا المعمدان الذى يوافق ميلاده الانقلاب الصيفى فى حين يوافق ميلاد المسيح الانقلاب الشتوى، "ينبغى أن ذلك يزيد وأنى أنا أنقص"[2]، ونعلم من التراث الهندوسى أن مرحلة ارتفاع العام تتفق مع *ديفا يانا* كما تتفق مرحلة هبوطه مع *بترى يانا*، ولذا كان برج السرطان يؤدى إلى 'طريق الإنسان' كما يؤدى برج الجدى إلى 'طريق الملائكة'، وكانت فترة ارتفاع الدورة السنوية زمن 'المرح' وفترة هبوطها زمن 'الحزن'، ويصح الأمر ذاته على بابا الانقلابين اللذان ينفتحا على الأزمنة المناظرة بفضل دورة الشمس السنوية.

كما نعلم أن أعياد القديسَين يوحنا فى المسيحية توافق الانقلابين[3]، وما

---

1 وقد وجدت هذه الصور المختلفة فى 'الطريق والفضيلة' فى تراث الشرق الأقصى، وترتبط بتحولات يين و يانج.

2 يوحنا .3 :30.

3 والواقع أنه وُضع بعد وقت الانقلابين المضبوط مما جعله أشد ظهورا، حيث إن الهبوط قد بدأ بالفعل، ويناظر ذلك باب الملائكة وباب الشياطين فى الرمزية الهندوسية، ووضعهما إلى الجنوب والشمال الشرقى.

يستحق الدهشة أن صعود الدورة السنوية وهبوطها تترددا فى ازدواج اسم يوحنا ذاته[4]، والواقع أن معنى الكلمة العبرية هانان هو 'الرضوان والرحمة' وكذلك 'الحمد'، وقد أصبح من السهل الآن تقدير أن أول هذه المعانى جدير بالقديس يوحنا المعمدان وكذلك كان المعنى الثانى جديرا بالقديس يوحنا اللاهوتى، فالرحمة تتنزَّل والحمد يتصاعد، وهو ما يعيدنا إلى الارتباط بين منتصفى الدورة السنوية[5].

ومن المفيد الاعتبار فى رمز يبدو فريدا فى الماسونية الأنجلوساكسونية، أو على الأقل قد حفظته فى تراثها، وهو دائرة تتوسطها نقطة وأحاط بجانبيها مماسان متوازيان، وقيل إنهما يرمزا إلى القديسين يوحنا، والواقع أنه رمز للدورة السنوية، وتؤكد النقطة المركزية على معناه الشمسى، كما أن الدائرة ومركزها هى علامة علم الطوالع *astrology* للشمس، ويتماس المماسان المتوازيان بنقطتى الانقلاب الفصلية، حيث إنهما 'حدود' الشمس التى لا تتعداها فى رحلتها السنوية، وحيث إن الخطين يناظرا الانقلابين فلابد أن يعنيا كذلك القديسين يوحنا، إلا أن هذا التمثيل ينطوى على شذوذ واضح، فإن محور الدائرة السنوية للانقلابين لابد أن يكون رأسيا بالنسبة إلى محور الاعتدالين، فبهذا الترتيب فحسب يصبح الصعود والهبوط منطقيا، فالانقلابان هما النقطتان الأعلى والأسفل لمحور الانقلابين، لكن المماسان فى الرمز المقصود رأسيان بحيث يصبح محور الانقلابين أفقيا، وقد حدث تعديل فى هذه الحالة الخاصة على المعنى العام لرمزية الدورة السنوية، ولكن يمكن تفسيره بأن ما أدى إليه هو ضرورة تمثيل المتوازيين رأسيا بموجب علاقتهما العملية برمزية الانقلابين، ولذا وجب تمثيلهما رأسيا فى شكل رمزى للانقلابين.

4　ونتحدث هنا عن التأصيل اللغوى لمعنى هذا الاسم فى العبرية، أما عن التشابه بين يانوس ويوحنا لا يربو عن اتفاق صوتى طفيف، وليس له علاقة بالتأصيل، ولكن أهميته رمزية حيث إن القديسان يوحنا قد تكفلا بوظيفة يانوس فى انقلابا الشتاء والصيف.

5　ونذكر مرة أخرى الصورة الفولكلورية 'ليوحنا الضاحك ويوحنا الباكى' التى تصلها بفكرة الحبور والحزن المذكورة عاليه، والتى تمثل تساويا بوجهى يانوس الباكى الذى يطلب الرحمة من الرب، أى يوحنا المعمدان، والوجه الضاحك هو الذى يطوب له، أى يوحنا الإنجيلى..

وقد كان للعمودان رمزية واضحة فى ’ عمودا هرقل *pillars of Hercules*‘ [6]، فمعنى ’البطل الشمسى‘ فى دائرة بروج هرقل مناظرة للعمال الاثنى عشرة الشهيرة حتى لا تستدعى الإسهاب، فمن المسلم به أن الصبغة الشمسية التى تبرر معنى الانقلاب الموسمى فى العمودين اللذان ارتبطا باسم هرقل، وشعار *ne plus ultra* أى ’لا تذهب أبعد من ذلك‘ الذى ارتبط بالعمودين يبدو مزدوج المعنى، فهو يعبر عن التفسير الأرضى الذى يصح فى مستواه عن أنه حدود العالم المعروف، وأنهما الحدود التى يحظر على للعقل تجاوزها، ويعبر فى الوقت ذاته من المنظور السماوى أنهما حدود الشمس التى لا يصح أن تتعداها فى رحلتها السنوية كما فى حالة الرمزية التى نحن بصددها[7].

وقد تبدو تلك الاعتبارات الأخيرة بعيدة عن مقصدنا ومنطلقنا، ولكنها على الحقيقة ليست كذلك، فهى تسهم فى تفسير الرمز الذى تعلق بالقديسين يوحنا، ويحوز قول إن الصورة المسيحية هو تراث كل ما يتعلق بهذين القديسين.

---

6 والرسم الجغرافى لموقع العمودين فى مضيق جبل طارق فإن أحد العمودين فى أوروبا على الجانب الشمالى والآخر فى أفريقيا على الجانب الجنوبى.

7 *On ancient Spanish coins, a representation of the pillars of Hercules can be seen, in which they are joined by a kind of banner on which the motto ne plus ultra is inscribed; now, a fact that seems little enough known, and which we mention here only as a curiosity, is that the usual sign of the American dollar is derived from this figure. But here all the importance has been given to the banner, which originally was only accessory and which has been changed into the letter 'S', the form of which it somewhat approximates, while the two columns, which constituted the essential element, were reduced to two short parallel strokes, vertical like the two tangents to the circle in Masonic symbolism, which we have just now explained; and this is all not without a certain irony, since it was precisely the 'discovery' of America that in fact annulled the ancient geographical application of the ne plus ultra.*

رمزية البناء

39 رمزية القبة

نشر كوماراسوامى[1] *A.K. Coomaraswamy* دراسة لرمزية القبة فى فصلية *The Indian Historical Quarterly* عدد مارس *1938* وهو عمل جليل بالغ الأهمية ويتصل باعتبارات بعينها كتبنا عنها سلفًا بدون أن نتطرق إلى الجوانب المبدئية، وأول نقطة جوهرية هى الصلة بين القيمة التعميدية وفن المعمار، فكل مبنى يقوم على أساس تراثى صارم يتحصل من تركيبه وترتيبه معنى كونيًا يتسع للتطبيق المزدوج بالاتفاق بين علاقات الكون الأكبر والكون الأصغر، أى ما يشير إلى العالم والإنسان فى آن واحد، ويصدق هذا بالطبع على المعابد والمبانى المقدسة الأخرى التى لها غاية دينية بالمعنى المنضبط، ولكن فيما وراء ذلك فهى صالحة لسكنى الإنسان، فليس فى الحضارات التراثية ما هو 'دنيوى' صرف، حتى إن ذلك لا يحدث إلا نتيجة انحطاط عميق صارت فيه المنازل تُبنى للوفاء بالاحتياجات المادية لسكانها فحسب، وأن السكان من ناحيتهم لابد أن يرضوا بالمساكن المبنية على هذا المفهوم النفعى المنحط الضيق.

وبالطبع يمكن تحقيق المعنى 'الكونى' المذكور بكثير من الطرق التى تناظر كثيرًا من وجهات النظر، والتى سينبثق عنها 'طرز' معمارية قد يتخذ بعضها صورة تراثية أو أخرى، أم الآن فعلينا الاعتبار فى أحد هذه 'الطرز' التى ستبدو على الأرجح مُغرقة فى الأصولية، ولذا ستكون أوسعها انتشارا، والمبنى المقصود يتكون من قاعدة مربعة تعلوها قبة نصف كروية، ويمكن أن

1 *'The Symbolism of the Dome', later included in 'The Door in the Sky (Princeton: Princeton University Press, 1997). Ed*

نضرب مثلًا مع كوماراسوامى عن ’ستوبا‘ البوذية و’القبة‘ الإسلامية التى تضاهيها تماما [2]، ويجب أن نذكر أن هناك حالات أخرى يصعب تمييزها من الوهلة الأولى، فالكنائس المسيحية تُبنى فيها القبة على الموضع المركزى [3]، ونلاحظ أن العقد بعموديه والمنحنى الذى يرتكز عليهما ليس إلا قطاعًا رأسيًا للمبنى بأكمله، وأن مفتاح العقد على قمة القبة يمثل أعلى نقطة فيها، وسنعود لاحقًا إلى هذه المسألة [4].

ومن السهل أن نرى كيف أن الجزئين من المبنى اللذين وصفناهما توًا ليسا إلا تمثيلًا للأرض والسماء بمربع ومنحنى، ويؤكد تراث الشرق الأقصى على هذا المعنى أكثر من أى تراث آخر، ودون أن يدعيه لنفسه قصرا [5]، وحيث إننا نوهنا عن تراث الشرق الأقصى فسوف نشير إلى أن رداء الامبراطور كان منحنيًا من أعلاه ومربعا من أسفله، وقد كان هذا الرداء معبِّرًا عن معنى رمزى هو ذاته ما كنا نتحدث عنه فى العمارة [6]، ولنضف إلى

---

2 والغرض من كلى المعبدين يتناظر مع الآخر من حيث إن ستوبا فى الأصل على الأقل كانت تبنى كمتحف للآثار، والقبة تُبنى على مقابر القديسين.

3 *If a church has the form of a Latin cross, as is most commonly the case, it is fitting to note that this cross can be obtained by the development out of a cube of which all the faces are folded down onto its base plane. The face at the cube's base, which naturally remains in its original position, corresponds therefore to the central part above which the cupola rises.*

4 *In certain representations belonging to Royal Arch Masonry, the 'celestial' significance of the soffit is formally indicated by the representation on it of a part of the zodiac, one of the 'solstitial doors' then being placed on the 'keystone'; moreover, the 'door' would normally have to be different according to whether the point in question is considered as an 'entrance' or an 'exit', in keeping with what we have explained above.*

5 *In Masonic initiation, the passage from square to arch properly represents a passage 'from Earth to Heaven' (whence the term exaltation to designate admission to the grade of Royal Arch), that is, from the domain of the 'lesser mysteries' to that of the 'greater mysteries', with, in the case of the latter, the 'sacerdotal' and 'royal' aspects, for the complete title is Holy {and) Royal Arch, although, for historical reasons that need not detain us here, the 'sacerdotal art' has in the end largely given way to the 'royal art'. The circular and square forms are also called to mind by the compass and the try-square, which serve respectively to trace them, and which are taken as symbols of two complementary principles, as are, in fact, Heaven and Earth [cf. The Reign of Quantity and the Signs of the Times, chap. 20; and The Great Triad, chap. 3].*

6 والملك ذاته فى هذا الأمر مثل ’الرجل الحق‘ الذى يتوسط بين السماء والأرض، والقوى التى يوحدها فى طبيعته، وهو الموقف ذاته حينما يوضع أستاذ البناء بين الزاوية القائمة والبرجل، أما عن هذا الموضوع فلنلاحظ جانبا من الرمزية فى صدفة السلحفاة، فالجزء الأسفل مستوٍ

ذلك أن العمارة تعتبر فى الصين قائمة ’تحت الأرض *hypogean*‘ لا فوقها على منوال حرفى أحياناً ورمزى فى أحيان أخرى،

ونضيف إلى هذا المعنى العام أن المبنى بكامله من أعلاه إلى أسفله يمثل حركة من الوحدة المبدئية *principial Unity* إلى التجلى الرباعىٍ للعناصر[7]، لكن تأمل المبنى يعيد هذا التجلى إلى الوحدة مرة أخرى، ويتذكر كوماراسوامى الرمزية الفيدية أن العناصر الثلاثة التى يتكون منها كأس *تفاشترى* الواحد قد صنعت أربعة كؤوس، ورقم ثلاثة يتدخل هنا كوسيط بين ’الواحد‘ و’الأربعة‘، والذى يمثلها تماماً الصليب ذو الأبعاد الثلاثة، كما أن العملية العكسية تمثل فى أسطورة *بودها*، فبعد أن تلقى أربعة صحون صدقة من المهراجنات الأربعة للجهات الأصلية صنع منها صحنا واحدا، وهو ما يبين كيف أن ’الكأس المقدس*Grail*‘ قد صار واحداً كما كان أصلا، أى مثلما كان فى مبدا التجلى الكونى[8].

وقبل أن نسترسل فى هذه المسألة نشير إلى أن البنية المعمارية المقصودة يمكن أن تحقق أفقياً لو أننا أسقطنا المسقط الأفقى للمبنى المربع على أحد أركانه، وسيصبح هذا الجانب مصدراً للضوء فى معظم الأحوال المعروفة، أى جهة الشرق، والمثل المباشر على ذلك هو الكنيسة التى تنتهى بمسطبة شبه دائرية فى الجهة المقابلة للباب، والمثال الثانى هو الشكل الكامل للمعبد الماسونى، ومن المعلوم أن المحفل مستطيل طوله من الشرق إلى الغرب

....

مثل الأرض والنصف الأعلى مقبب كالسماء، والكائن الذى يعيش بينهما يمثِّل الإنسان بين السماء والأرض، وهكذا يكتمل ’الثلاثى الأعظم‘ الذى يقوم بدور مهم فى مؤسسات التعميد الطاوية، راجع الثلاثى الأعظم بابا *14* و *15*.

7 وتصميم الكنيسة صورة رباعية، وتبقى الرمزية العددية كما هى فى هذه الحالة مثل القاعدة المربعة..

8 وعن مسألة تفاشترى ومساعديه الثلاثة كثلاثى من الفنانين، ونلاحظ أن القواعد فى التراث الهندوسى فيما تعلق ببناء معبد يقوم المهندس ستهاباتى مع المساح سوتراجراهى والبناء فاردهاكى والنجار تاكشاكا، وقد وجد ما يكافئهم فى الماسونية بإضافة جانب معكوس، وهو ’الصاحب الشرير‘ قاتل حيرام.

ضعف عرضه من الشمال إلى الجنوب[9]، ويضاف الهيكل *Hikal* فى الجانب الشرقى للمعبد إلى قدس الأقداس *Debir* على صورة نصف دائرة[10]، وهذا المخطط يضاهى البازيليكا الرومانية تماما[11].

ولنعد الآن إلى الإنشاء الرأسى كما يسميه كوماراسوامى، ولابد من النظر إليه فى كليته بالنسبة إلى المحور المركزى، وهو يتضح فى حالة كوخ تحت قبة سقف تحمله حوائط تصل بينه وبين الأرض، وهى الحالة فى بعض *الا ستوبات* التى يظهر فيها المحور من داخل هيكلها، وأحيانًا ما تمتد الحوائط فوق قدمة القبة، إلّا أنه لا يلزم أن تكون على سمت المحور دائما، ومهما كان الأمر فإنها تمثل 'محور العالم'، والأمر المهم هو مركز المساحة الأفقية التى يحتلها المُنشأ، أى النقطة التى تقع تحت مركز القبة، والتى يُفترض أنها تمثيلٌ لمركز العالم، وليست مجرد موضع بالمعنى الحرفى والطبوغرافى بل بالمعنى المبدئى المتعالى، فيمكن أن تتحقق فى أى مركز منتظم مكرس للتعميد، ولا بد أن يُراعى فيه ضرورات التعميد فى خضم العالم[12]، والنقطة الحالية إذن هى 'كأس مقدس *omphalos*' حقيقى *نابهيه بريثيفايا*، وفى معظم الحالات تكون موضعًا للمذبح أو المدفأة بحسب استخدامه معبدًا أو سكنًا، وتعتبر

---

9 According to the Critias of Plato, the great temple of Poseidonis, capital of Adantis, also had a double square as base; if the side of the square is taken as unity, the diagonal of the double square is equal to V5.

10 In the Temple of Solomon, the Hikal was the 'Holy' and the Debir was the 'Holy of Holies'.

11 In a mosque, the mihrab, which is a semicircular niche, corresponds to the apse of a church, and it also indicates the qiblah, that is, the ritual orientation; but here this orientation, being directed toward a center which is a definite point on the surface of the earth, naturally varies according to location. part is then open to the sky, but it is precisely the celestial vault itself that in this case plays the part of a natural dome. In this connection, incidentally, there is a certain relation in a given traditional form between the arrangement of the house and the constitution of the family; thus in the Islamic tradition, the quadrilateral ordering of the house (which normally should be entirely closed outside, all the windows opening onto the inner courtyard) is connected with the limitation of the number of wives to four at most, each of them thus having as her own domain one of the sides of the quadrilateral.

12

وأحياتا

Sometimes the dome itself may not exist in the actual construction, without however the symbolic meaning being thereby altered; we would allude to the traditional type of house arranged in a square around an inner courtyard. The central

المدفأة مذبحًا حقيقيًا فى الحضارات التراثية، حيث *ترمز* إلى تجلى *آنجى*، ولابد أن نتذكر ما طرحناه سلفًا عن مولد *أفاتارا* فى *مركز* كهف التعميد، حيث إن من الواضح أن المعنى واحد والاختلاف فى التطبيق فحسب، فحينما تُفتح قمة القبة يرتفع الدخان إليها ويخرج منها، إلَّا أن ذلك له غاية نفعية صرف كما يتوهم المحدثون، ولكن له كذلك غاية روحية عميقة على سبيل الرمز، كما تُبين معنى قمة القبة فى منظومتا الكون الأكبر والكون الأصغر.

40 القبة والعجلة

من المعلوم عمومًا أن العجلة رمز للعالم، ويمثل محيطها التجلى بفعل إشعاع المركز، وهذه الرمزية تسمح بعدة معان مخصوصة، فبدلًا من تطبيقها على مجمل التجلى الكونى يمكن أن تُطبق علىً مناطق بعينها، وأحد الأمثلة المهمة فى هذا الصدد حينما نأخذ عجلتين معًا يمثل كل منهما شطرٌ من مجمل التجلى الكونى، ويرتبط هذا المثل برمزية المركبة، والتى يكثر ترددها فى التراث الهندوسى، وقد فسر كوماراسوامى *A. K. Coomaraswamy* هذه الرمزية فى مناسبات عدة، كما أشار إلى الصلة بين *تشهاترا* وبين *أوشماشا* فى مقاله فى *The Poona Orientalist* عدد إبريل *1938*، وسوف نستعير بعضًا من ملاحظاته فيما يلى.

وبناء العربة بموجب هذه الرمزية يختص بالفن الحِرَفى وتحقيقه لمثال كونى، ولا حاجة بنا إلى التذكير باعتبار أن طوائف الحِرَف فى الحضارات التراثية تحتكم على قِيَم روحية مقدسة، ويمكنهم بفضلها أن يكونوا دعامات للتعميد، زد على ذلك أن هذا التوازى التام بين المُنشأين المقصودين يتحقق عندمًا نلاحظ أن علاقة العمود *سكامبا* بالمبنى يتعلق به كل شيء فيه، وبصرف النظر عما إذا كان قائمًا ماديًا أم افتراضيًا، وقل مثل ذلك عن محور عربة الكون الذى تقول عنه بعض المتون إنه 'نَفَسٌ منفصل *فايانا*' يحتل الفراغ الوسيط *أنتاريكشا* بحيث يحفظ السماء والأرض فى مكانهما[1]،

1 *In the Far-Eastern tradition, the comparison of heaven and earth to the two boards of a bellows corresponds to this exactly. In the Hebrew tradition, the antariksha is also the 'firmament in the midst of the waters', separating the 'lower waters' from the 'upper waters' (Gen. 1:6); furthermore, the idea expressed in Latin by the word firmamentum corresponds, to the 'adamantine' character frequently attributed to the 'World Axis'.*

ويفصل بينهمًا كمًا يوحدهمًا فى الآن ذاته كقنطرة *سيتو*، وكذلك يجعل من الممكن الانتقال من أحدهما إلى الأخرى[2]، وتمثل العجلتان على طرفى المحور السماء والأرض بحيث يمر المحور من أحدهمًا إلى الأخرى، تمامًا كمًا يسرى العمود المركزى من الأرض إلى السماء عبر قمة القبو، ويحمل محور العجلتين صندوق العربة *كوشا*، والتى ترمز أرضيتها من منظور رمزى آخر إلى الأرض ويرمز سقفها المقبب إلى السماء، والجسم بينهمًا يمثل الفراغ الوسيط، ويقيدنا ذلك إلى الرمزية المعمارية التى تناولناها فى الباب السابق.

ولو كانت العجلتان ترمزا إلى السماء والأرض فسوف يطرأ اعتراض بأن كلاهمًا مستدير، لكن اختلاف المنظور هنًا مسموح به بناءًا على نظرية الدورات التى تخضع لها كل حالات التجلى ’الأرضى‘ و’السماوى‘، ويمكن اكتشاف الاختلاف المذكور بافتراض أن عجلة الأرض مسطحة وعجلة السماء مثل قبة أو قطاع من كرة[3]، وقد يبدو هذًا الاعتبار غريبًا من أول نظرة لكن هنا فى الواقع شيء رمزى يجمع فى ذاته العجلة مع القبة، وهذًا الشيء هو المعنى ’السماوى‘ الذى يتناول الشمسية *تشهاترا* التى تشبه ضلوعها برامق العجلة، ومن ثم تتوحد فى الركبة المركزية *كارنيكا* التى تشبه قطاعًا مثقفبًا من كرة، وتمر عصا الشمسية كمحور من خلال مركزها كما يمر محور العجل من ركبتا العجلتين، كما أن استطالة المحور بعد مروره من ركبة العجلة تناظر بعض حالات ستوبا الصينية حينما يرتفع مركزها من رأس القبة على شكل صارى، كما أن من الواضح أن دور الشمسية ليس إلا قبة ’محمولة‘.

وقد أدت الرمزية ’السماوية‘ بالشمسية إلى أن تصير شعارًا ملكيًا، وحتى إنها صارت شعارًا لإمبراطور العالم الكلى *تشاكرا فارتى*[4]، ولو أنها عُزيت إلى

2 وهنا نجد مرة أخرى المعنيين المتكاملين ’للبرزخ‘ فى التراث الإسلامى.

3 ويوجد هذا الاختلاف ذاته بين قوقعتى السلحفاة، وقد أشرنا إلى الرمزية المناظرة عاليه، راجع الحاشية 5 للباب السابق.

4 ولنتذكر أن تسمية شاكرافارتى ترتبط كذلك برمزية العجلة.

الملوك العاديين فبقدر مشاركهتم فى طبيعتها وفى نطاق وظيفتهم الكونية[5]، ومن المهم الآن أن نتطرق إلى أن التطبيق الصارم للمعنى الرمزى المقلوب يجعل الشمسية التى هى أصلًا من أعمال الدنيا حماية من النور، ولكن حيث إنها ترمز إلى السماء فإن أضلاعها ترمز إلى النور ذاته، ويتحتم أن تُرى من هذا المنظور حينما تعمل كرمز ملكى، كما تنطبق ملحوظة أخرى على *أوشنيشا* بمعناها البدائى كغطاء رأس مهمتها حماية الرأس من الحرارة، ولكنها لو عُزيت رمزيًا إلى الشمس لانقلب معناها إلى مصدر يشع بالحرارة، وبالاتساق مع معناها 'الشمسى' كعمامة أو تاج يعنى الأمر ذاته[6]، فهى على غرار الشمسية شعارٌ للملكية، وكلاهما يرتبط بمعنى 'المجد' الكامن فيهما بدلًا من مجرد الوفاء باحتياج بسيط للإنسان العادى.

ومن جانب آخر فإن *أوشنيشا* تلف الرأس والشمسية مرتبطة بالرأس كذلك، وبالتالى ترمزا إلى الرأس والشعر، ونلاحظ أن رمزية الشعر فى معظم الحضارات التراثية ترتبط بخيوط النور، ونجد فى الأيقونية الصينية القديمة ترابطًا بين أثر القدم والتاج[7] والشمسية تناظر على الترتيب الأرض والفضاء الوسيط والسماء، وتمثل 'الإنسان الكامل'[8]، ونجد كذلك فى

---

5 وقد أشرنا سلفا إلى الوظيفة الكونية للإمبراطور فى تراث الشرق الأقصى، ولا حاجة لقول إن الأمر ذاته هو مسألتنا هنا، وقد ذكرنا توا معنى الشمسية فى الصين وقيام الشعائر التى تنطوى على 'حضارة السماء' التى حُفظت للإمبراطور وحده، راجع الباب *17* من 'الثلاثى الأعظم'، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

6 وتعتبر العمامة فى التراث الإسلامى سمة للشيخ حتى إنها سُميت 'تاج الإسلام'، وفى حين كان التاج رمزا للسلطة الزمنية فإن العمامة رمز للنفوذ الروحى، أما عن الصلة بين التاج والشعاع الشمسى فلنتذكر العلاقة بين رمزيته ورمزية قرون الحيوان، راجع باب *28*.

7 *The throne, insofar as it is a seat, is in one sense the equivalent of the altar, the latter being the seat of Agrtv, the cosmic chariot is also driven by Agtti, or by the sun, which then has as its seat the 'box' of the chariot; and as for the relationship of the 'World Axis' with the antariksha, it can again be observed that when the altar or hearth is placed beneath the central opening of the vault of an edifice, Agtti's 'column of smoke' which rises and issues forth by this opening represents the 'World Axis'.*

8 *In this connection we can also refer back to the description of the 'macrocos- mic' body of Vaishvanara, in which the totality of luminous celestial spheres are likened to the upper part of the head, that is, to the cranial vault (see Man and His Becoming according to the Vedanta, chap. 12).*

حالات مثل *ستوبا* أن القبة تمثل من جانب بعينه[9] جمجمة الإنسان، وهذه الملحوظة بالغة الأهمية بموجب واقع أن الفتحة التى يمر منها المحور سواء أكانت قبة أم شمسية تناظر براهما راندهرا، ولكننا سنعود إلى هذه المسألة بتفصيل أوسع.

9 وقد لفت كوماراسوامى انتباهنا إلى واقع أن الملحوظة ذاتها تنطبق على الكومة *tumulus* أو رديم القبر صورة مصطنعة للجبل، ولا بد أن يتعلق بها الرمزية ذاتها، ولنلاحظ أن اسم *Golgotha* يعنى جمجمة، وهذه التسمية تشير إلى جمجمة أدم عن أسطورة من العصور الوسطى، والذى يبدو أصلها بالغ القدم، وتقول الأسطورة إنها كانت مدفونة فى ذلك المكان، مما يعيدنا إلى اعتبار 'الإنسان الكامل'، وهذه هى الجمجمة التى تُصوَر دائما تحت قدم الصليب، كما نعلم أن الصليب تمثيل أخر لمحور العالم..

41 الباب الضيق

لفت كوماراسوامى النظر فى دراسته لرمزية القبة إلى نقطة تتعلق بالتصوير التراثى لضوء الشمس وعلاقته 'بمحور الأرض'، وتظل الشمس عل الدوام فى التراث الفيدى مركزًا للكون وليست أعلى نقطة منه، ولكنها تتبدى من أى موقع كان كما لو كانت 'قمة الشجرة'[1]، ويسهل فهم هذا لو رمزنا إلى الكون بعجلة والشمس فى مركزها وعلى محيطها كافة أحوال الوجود[2]، ويتبدى 'محور العالم' من أى نقطة على المحيط، فهو قطر للعجلة وشعاع للشمس فى آن حيث يمر هندسيًا من خلالها، ومن ثم يمتد إلى ما راءها ليكمل القطر، وليس ذلك كل شيء، فهو كذلك شعاع للشمس لا يخضع لأى تمثيل هندسى، ويطرأ هنا سؤال عن سبعة أشعة تصدر من الشمس، تنتظم ستة منها فى ثلاثة أزواج من *تريفيد فاجرا*، أى الصليب ثلاثى الأبعاد، وتمثل هذه الأشعة السمت والنظير بالاتساق مع 'محور العالم *سكامبها*'، وتناظر الشمال والجنوب والشرق والغرب أى امتداد 'العالم *لوكا*' على المستوى الأفقى، أما الشعاع السابع الذى يمر من الشمس بمعنى يختلف عما ذكرنا لتونا، حتى يؤدى إلى العوالم فوق الشمسية التى تعتبر موئل الخلود، وتناظر

---

1 وقد أشرنا فى مناسبات أخرى إلى أديان مختلفة تمثل الشمس كثمرة فى شجرة الحياة.

2 والوضع الثابت للشمس يضفى عليها سمة 'القطب' الحق، ويضعها فى الآن ذاته على سمت العلاقة بكل نقطة فى الكون.

المركز تماما، ومن ثم يمثلها تقاطع الأذرع فى الصليب ثلاثى الأبعاد[3]، فالامتداد فيما وراء الشمس لا يمكن تمثيله هندسياً على أى نحو كان، وهو ما يناظر 'استحالة التواصل' و'استحالة التعبير' عن الموضوع المقصود، ومن منظورنا وكذلك من منظور كل من كان يعيش على 'محيط' الكون فإن هذا الشعاع ينتهى إلى الشمس ذاتها، ويتماهى معها من حيث المركزية، فليس هناك من يقدر على رؤية ما وراء قرص الشمس إلا فى المقام الروحانى الصرف.

وحتى نربط ما قلنا توًا بما سبقه من اعتبارات فمن المهم أن نلاحظ أن 'الشعاع السابع' الذى يصل بين القلب والشمس هو 'الشعاع' بلا جدال، وهو *سوشومنا* التى تؤسس هذا التواصل دائمًا وبلا تفرقة[4]، وهو كذلك *سوترآتما* التى تصل كل حالات الإنسان ببعضها بعضًا وتصلها جميعًا بمركزها[5]، فمن عاد إلى مركز كيانه يتماهى عنده 'الشعاع السابع' مع 'محور العالم'، ويُقال عن مثل هذا الشخص "إن الشمس تشرق دائمًا من السمت وتغرب فى النظير"[6]، وهكذا قد لا يكون 'محور العالم' هو 'الشعاع السابع' عند كائن أو آخر فى نقطة واحدة على المحيط، إلا أنه دائمًا فرضية بمعنى أن الفرد يحتكم على إمكان التماهى معها بالعودة إلى مركزه، وهذه العودة ممكنة فى أى حال من الوجود، ويجوز القول "إن الشعاع السابع هو 'المحور' الحقيقى الصمدى، وأنه الوحيد الذى يستحق هذا الاسم من المنظور الكلى، وأن أى محور بعينه منسوب إلى موقفٍ عَرَضيٍ ليس إلا 'محورا' يمكن التماهى معه"، وعلى كلٍ فإنه يضفى معناه الكامل على أية رمزية 'موضعية' لمحور العالم، أما المثل الذى تناولناه سلفًا فى سياق الحديث عن هيكل المبنى الذى بنى على قواهد تراثية

3 ويجب مراعاة أن التمثيل الرمزى للشمس بسبعة أشعة خاصة على عملة هندية قديمة، ورغم أن الأشعة مرسومة كدوائر حول قرصها فإن الشعاع السابع يتميز عن الآخرين باختلاف شكلى.

4 راجع الباب 20 من 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا' ترجمات تراث واحد قيد النشر.

5 كما قيل فى التراث الإسلامى إن معنى كلمة 'السرّ' لتسمية ما كان أعمق مركزية فى كل كائن، وفى الآن ذاته لها علاقة 'بالمركز الأسمى' بفضل استحالة الاتصال بها كما ذكرنا.

6 *Chandogya Upanishad 3.4.10.*

وخصوصًا ما اعتلاه سطح مثل القبة، هو ما ينبغى علينا العودة إليه الآن.

وسواء أكان المحور متمثلًا ماديًا على شكل شجرة أو عمود أو شعلة بعمود من الدخان المتصاعد عندما يكون مركز المبنى منبرًا أو محرقة[7]، فهى دائمًا تتصاعد إلى قمة القبة، وأحيانًا ما تتخذ شكل صارٍ يعلو القبة مثل عصا الشمسية الذى يتساوى معها رمزيا، ومن الواضح أن قمة القبة تمثل ركبة أو 'دنجل' عربة الكون، وحيث إننا رأينا أن الشمس تحتل مركز العجلة فعلى ذلك يكون مرور محور الكون إلى ما 'وراء الشمس' ومن خلالها كما ذكرنا آنفًا، ويصدق الأمر ذاته فى غياب أى تمثيل مادى للمحور، فقمة القبة بها فراغ دائرى يمثل 'عين العالم'، ومن خلالها يمكن الخروج من 'الكون'، وكما ذكرنا فى دراساتنا لرمزية الكهف، وعلى كل فليس هناك مخرج سوى هذه الفتحة المركزية[8] للمرور إلى *براهما لوكا*، وهى بالضرورة خارج نطاق الكون[9]، كما أنها الفتحة التى تمثل 'الباب الضيق' فى رمزية الإنجيل، والذى يؤدى إلى 'مملكة الرب'[10].

ومن السهل اكتشاف تناظر الكون الأصغر مع هذا 'الباب الشمسى'، وخاصة لو اعتبرنا فى التشابه بين القبة والجمجمة البشرية، فقمة القبة تناظر يافوخ الرأس، أى النهاية العليا لمسار شريان الرأس اللطيف أو *سوشومنا*،

---

7 وفى الحالة التى ذكرناها عاليه فإن السكن مبنى حول فناء سماوى يتوسطه غالبا نافورة، وتمثل 'نبع الحياة' الذى ينبثق تحت قدم الشجرة المركزية.

8 ويبدو أن هنود الشمال الأمريكى قد حافظوا على أفكار تراثية أكثر مما يُعتقد، حيث يمثلون للعوالم المختلفة بمصفوفة من الكهوف المتراكبة، ويجرى الانتقال من كهف إلى آخر بتسلق الشجرة المركزية، وبالطبع ليس عالمنا إلا أحد هذه الكهوف تحت قبة السماء.

9 ونشير فى هذا الصدد إلى وصف لطريق الملائكة ديفا يانا حيث ينتهى إلى عالم براهما فيما وراء الشمس، راجع الباب *21* من 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا'.

10 *In the symbolism of archery, the center of the target has the same significance; without dwelling on this subject here, we will only recall that the arrow is yet another 'axial' symbol and also one of the most frequent figurations of the 'solar ray'. In certain cases a thread is attached to the arrow and must pass through the target; this strikingly recalls the Gospel image of the 'eye of the needle', and the symbol of the thread (sutra) is moreover to be found also in the term sutratma.*

والذى يكمن على امتداد'الضفيرة الشمسية'، والذى يسمى *سوشومنا* هو الآخر، وليس على الحقيقة إلا ذلك افتراضياً على الأقل، فهو الشطر 'الباطنى' للمحور فى الإنسان لو جاز القول، فهذه النقطة تسمى *براهما راندرا* التى تفلت منها الروح إلى التحرر بمجرد فكاكها من التركيب العضوى النفسى[11]، ومن نافلة القول إن هذا الطريق مقصور على حال 'العارف *فيدفان*'، والذى تماهى فيه عمليًا مع 'الشعاع السابع'، وقد أصبح مستعدًا للخروج من الكون إلى ما وراء الشمس.

11 وترتبط شعائر ما بعد الموت بالتركيب العضوى النفسى ، وقد جرت إقامة هذه الشعائر فى كثير من الجبانات من قبل التاريخ، واستمرت حتى زمن قريب، كما أن التراث المسيحى لازال يحفظ صورة قرص الشمس و 'عين القبة'، واللتان تشيرا إلى الرمزية ذاتها..

42 الشكل الثُمانى

ونعود الآن إلى مسألة الرمزية التى تشارك فيها معظم الحضارات، وإلى البنى مربعة القاعدة التى تعلوها قبة، ومن المسلم به أن المربع والمكعب يرمزا إلى الأرض، وأن الكرويات والدوائر والمنحنيات ترمز إلى السماء، ويتضح معنى هاتين المجموعتين على الفور، ونضيف أن الأرض والسماء لا تشتملا هنا على الأقطاب التى تصل ما بين التجليات الناتجة فحسب كما فى مذهب 'الثلاثى الأعظم' فى تراث الشرق الأقصى، ولكن على منوال مذهب *تريبهوفانا* الهندوسي، الذى يشتمل على جوانب التجلى الأقرب إلى منظور القطبين، واللتان يُطلق عليهما 'العالم الأرضى' و'العالم السماوى'، وهناك نقطة لم نذكرها من قبل لكنها تستحق الاعتبار، ففيما تعلق بالمبنى الذى يمثل تجلى 'النموذج الكونى' ومجمل بنيته، فلو أننا اختزلنا كل شىء فى هذين الشطرين فسوف يكون ناقصًا بالمعنى الوارد فى مذهب 'العوالم الثلاثة'، والواقع أن هذه العناصر موجودة كذلك، فالقبة لا تملك الاستقرار مباشرة على قاعدة مربعة، ويحتاج التدرج من عنصر إلى آخر بناء أشكال وسيطة بين المربع والدائرة، وهو الشكل المعروف عمومًا بالشكل الثُمانى *octagon*.

وهذا الشكل الثُمانى من المنظور الهندسى أقرب شبهًا بالدائرة منه إلى المربع، وكلما زادت جوانبه كلما زاد قربا بالدائرة، والواقع أننا نعلم أن الدائرة يمكن اعتبارها حدود الشكل المنتظم متعدد الجوانب كلما ازدادت جوانبه إلى مالانهاية، ويمكن أن تُرى هنا بوضوح بالمعنى الرياضى، فليست الحد الأخير من مصفوفة ولكنها خارج المصفوفة وما وراءها، فمهما زاد عدد جوانب الشكل المنتظم لن يمكن أن تختلط بالدائرة، والتى يختلف تعريفها

بالضرورة عن الشكل المنظم متعدد الجوانب[1]، ومن جانب آخر يمكن ملاحظة أن مصفوفة الشكل المنتظم تبدأ من المربع ثم تضعيف العدد فى كل حد تال، والثُمانى هو الحد الأول أو الثانى منها[2]، وهكذا كان أبسط الأشكالً المنتظمة متعددة الجوانب، كما يُعتبر فى الآن ذاته ممثلًا لكل المصفوفات الوسيطة.

أما من منظور الرمزية الكونية خصوصًا من جانبها الفراغى فإن الأشكال الرباعية أى المربع فى حالة الشكل متعدد الأضلاع، فالرباعى يتعلق بالاتجاهات الأصلية الأربعة بما تحملها من معان فى كل تراث، ولابد من إضافة أربع نقاط وسيطة بين الاتجاهات الأصلية للحصول على ثمانية اتجاهات[3]، والتى تسميها بعض الحضارات ’الرياح الثمانى‘[4]، وتعيد إلينا فكرة ’الرياح‘ أمرًا مدهشًا، فالثلاثى *الفيدى* للأرباب يتكون من *آجنى* و *فايو* و *أديتيا*، والواقع أن *فايو* يناظر العالم الوسيط، ومن ثم كان الشطرين الأعلى والأسفل للمبنى تمثيل للعالمين الأرضى والسماوى، كما نذكر أن المحرقة أو المنبر الذى يحتل مركز القاعدة يناظر *آنجى* أى العين التى على قمة القبة والتى تمثل الباب الشمسي، وهكذا يتناظر مع *أديتيا* بالانضباط ذاته، ولنضف أن فايو يتماهى مع ’النَفَس الحيوى *vital breath*‘ فمن الواضح أنه ينتمى إلى النطاق النفسى أو التجليات اللطيفة، والتى تبرر هذا التناظر سواءً أكان فى الكون الأكبر أم الكون الأصغر.

---

1 راجع ’المبادئ الميتافيزيقية لحساب التفاضل والتكامل‘ بابا *12* و *13*. ترجمات تراث واحد، قيد المشر.

2 أو الثانى لو كان المربع معدودا كحدٍ أول، ولكن لو تكلمنا عن الحدود الوسيطة بين المربع والدائرة كما نفعل هنا فإن الثُمانى هو الحد الأول بلا جدال.

3 وحينما تناظر الجهات الأصلية العناصر الجسدية فإن النقاط الوسيطة تناظر المحسوسات فى الحرارة والبرودة والجفاف والبلل.

4 وقد كان ’برج الرياح‘ فى أثينا ثمانيا، ولنضف إلى سياقنا تعبير ’وردة الريح‘، والذى يستخدم غالبا بدون لفت الانتباه، وقد كانت رمزية الصليب الوردى تساوى بين *Rosa Mundi* و *Rota Mundi*، وقد كانت الأولى تمثيلا للعناصر والصفات المحسوسة..

ويمكن إقامة الشكلِ الثمانى بطرق عدة، مثل إقام ثمانية أعمدة تحمل القبه، ونجد فى الصين مثلاً عليها مينج *تانج*[5]، والتى يحمل سقفها ثمانية أعمدة على أرض مربعة، فتحقيق تربيع الدائرة ينشأ من الوحدة السماوية للقبة إلى مربع العناصر الأرضية، والتى لابد أن تمر بالشكل الثمانى، أو هو أبواب الرياح الثمانية[6]، وقد ذكرنا رمزية 'الأبواب الثمانية' سلفا، ويفسرها هنا واقع أن الباب محل للعبور بالضرورة، وهو مثل على التحول من حال إل آخر، وخاصة بين خارج المرء وداخله، وأيًا كانت مستوياتها، وسوف يتماهى دائمًا مع العالمين الأرضى والسماوى.

وقد كانت مواضع التناول القديمة فى الكنائس المسيحية ثمانية الشكل، ورغم نسيان الرمزية أو إهمالها التى بدأت فى عصر النهضة فقد ظلت قائمة فى أحواض التناول[7]، فهنا أيضا يجرى تحول من حال إلى آخر، كما أن التناول فى القرون الأولى كان يجرى خارج الكنيسة، ولم يكن يُسمح لمن لم يتناول أن يدخل إلى حرم الكنيسة، ولا حاجة لقول أن نقل موضع التناول إلى داخل الكنيسة بقرب الباب لم يغير شيئًا فى معناه، وقد كانت علاقة الكنيسة بما يخرج عنها تشاكل علاقة السماء بالأرض، وقد كان التناول ضروريًا للانتقال من حالٍ إلى آخر، ولذا تناظرت مع العالم الوسيط، ولكن ليس هناك غير ذلك فى التّناول إلا العلاقة المباشرة مع العالم بطبيعة الطقس التى تجرى به، والتى تعنى تجديداً للنطاق النغسى فى العناصر التى تنتمى إلى العالم الوسيط[8].

أما الاتجاهات الثمانية التى ذكرناها فى سياق التناظر بين صور الأديان

---

5 راجع 'الثلاثى الأعظم' باب 16. ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

6 *Luc Benoist, Art du Monde, la spiritualite du metier [Paris: Gallimard, 1941], P90.*

7 *Cf. ibid., p65.*

8 يرسم القسيس بنَفَسه على سطح مياة التعميد علامة الحرف اليوانى بساى أول حرف من كلمة بسيخه *psyc*، أى نَفْس، ولذلك مغزى عميق فى الاعتبارات الحالية، حيث إن منظومة النفس هى التى تعمل كوسيلة فعالة، كما أن من السهل ربط هذه الشعيرة بالنَفَسِ 'الحى' الذى نتحدث عنه.

المختلفة التى تعلقت باعتبارات أخرى غير ما نحن بصددة، فيبدو لنا أنها تستحق الذكر، فقد أشار بينوا *Benoist* إلى العرش الربانى فى أدبيات القديسة هيلجارد عبارة عن حلقة نور يحملها ثمانية ملائكه، وهذا "العرش الذى يحيط بالعوالم" ترجمة حرفية لآية "العرش المحيط" فى التراث الإسلامى، وتمثيل متماه تحدثنا عنه فى موضع آخر[9]، ويناظر الاتجاهات الثمانية وأوفاق الأبجدية العربية، ولا مناص من التسليم بأن هذه 'المصادفات' تثير الدهشة، فليس المجال مقصوراً هنا على العالم الوسيط موضوع الحديث مالم يقل المرء إن وظيفة الملائكة تأسيس اتصال بين العالم الوسيط والعالم السماوى، وأياً كان الأمر فإن هذه الرمزية يمكن وصلها بما طرحنا عاليه، ولو تذكرنا المتن التوارئى "الصانع ملائكته رياحا"[10]، ونراعى أن الملائكة رُسُل الرب حرفيا.

9 *'Notes on Angelic Number Symbolism in the Arabic Alphabet', in Insights into Islamic Esoterism and Taoism, chap. 6.*

10 المزامير *4:104*

43 حجر من السماء

تقوم رمزية حجر الزاوية فى التراث المسيحى على آية "**إن الحجر الذى رفضه البناؤون صار رأس الزاوية**"، والغرابة فى هذه الرمزية أن ’حجر الزاوية‘ يختلط ’بحجر الأساس‘[1]، والذى أشارت إليه الآية الأشهر "**وأنا أقول لك أيضًا أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها**"[2]، ونقول إن هذا الخلط غريب من المنظور المسيحى، حيث يختلط القديس بطرس بالمسيح ذاته، وحيث إن المسيح كان ’رأس الزاوية‘ كما يتبين من الآيات التالية من رسالة القديس بطرس الذى ميز بينه وبين حجر الأساس،

19 فلستم إذن بعد غرباء ونُزلا بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله،
20 مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية، الذى فيه كل البناء مركبًا معًا ينمو هيكلًا مقدسًا فى الرب، *21* الذى فيه أنتم أيضًا مبنيين معًا مسكنًا لله فى الروح[3].

وإن لم يكن الخلط ناتجًا فحسب عن طبيعة العصر الحديث فلن توجد له أسباب، ولكن يبدو أنه حدث فى زمن يستحيل فيه الجهل بالرمزية، ولذا نُبدى دهشة عما إذا كان الخلط مقصودًا فى ’استبدال‘ دور القديس بطرس بدور المسيح كخليفة للرب، ولو كان الأمر كذلك فإن ’حجب‘ رمزية ’رأس الزاوية‘ له ما يبرره[4]، وليكن ما يكون، ففى هذه الآيات تماهيًا بين حجرين

1. المزامير *118: 22*، متى *21: 10*، لوقا *20: 17*.

2. متى *16: 18*.

3. إفسوس *2: 19-22*.

4. ويجوز أن التشابه الصوتى قد عمل على حفز ’الاستبدال‘ بين الاسم العبرى كيبلياس بمعنى حجر بالكلمة اليونانية *kephale* بمعنى رأس، ولكن ليس هناك صلات الأخرى بين الكلمتين،

حتى من منظور المنطق البسيط فى استحالة تتبدى بالانتباه إلى النص، فإن ’حجر الزاوية‘ هو أول حجر يوضع فى البناء[5]، فكيف رفضه البناؤون فى إقامة المبنى ذاته؟ فلكى يمكن ذلك لابد أن يُدرك حجر الزاوية موضعه بعد اكتمال المبنى، وهكذا يصير ’رأس الزاوية‘.

ويلاحظ كوماراسوامى فى المقال الذى أشرنا إليه[6] أن مقصد القديس بولس كان تصوير المسيح كمبدأ فريد يعتمد عليه مبنى الكنيسة بكامله، ويضيف أن مبدأ أى شيء ليس جزءًا من كلٍ بل هو الجزء الواجب الذى يُختزل مجمل الشيء فى غيابه إلى لاشيء، كما أن ’حجر الأسلس‘ يمكن فى سياق بعينه أن يسمى ’حجر الزاوية‘ حيث إنه عادة ما يوضع فى ’ركن المبنى‘[7]، لكنه ليس فريدًا بما هو، فهناك غيره ثلاثة أركان على الأقل، ولو أردنا أن نتحدث عنه باعتباره ’الحجر الأول‘ فلن يختلف عن أحجار الأركان الأخرى إلا بموجب موضعه[8]، ولن يختلف عنها من حيث وظيفته، فهو أحد الدعامات الأربعة التى تساوى بعضها البعض، وقد ’يعكس‘ كل منها المبدأ السائد بمعنى ما، ولكنه لا يقدر على تمثيل مبدأ المبنى ذاته[9]، كما أنه لو كان ذلك حقًا هو الأمر فلن نستطيع الحديث منطقيًا عن ’حجر الزاوية‘ حيث إن

....

وأساس معبد لا يمكن أن يتماهى مع ’الرأس‘ التى تشكل قمته، وهو ما يربو إلى اختراع المعبد بكامله، ونعجب ما إذا كان هذا الانقلاب له صلة رمزية بصلب القديس بطرس ورأسه إلى أسفل.

5 ولابد أن يوضع ذلك الحجر فى ركن المعبد، ولكن لوحظ فى رموز القديس بطرس جوانب أو وظائف عدة، والتى تناظر ’مواقف‘ لابد من تمييزها، ومن جانب آخر كبواب للجانب الغربى حيث مدخل الكنيسة، كما أن القديس بطرس والقديس بولس يمثلا ’عمودا‘ الكنيسة، أحدهما بالمفتاحين والآخر بالسيف.

6 *'Eckstein', in the review Speculum, January 1939 [reviewed by Guinon in Etudes Tmditionnelles, May 1939. Included as chap. 18 in What is Civilisation? (Great Barrington, MA: Lindisfarne Press, 1989].*

7 وسنضطر فى هذه الدراسة إلى الإشارة إلى المصطلحات الفنية الانجليزية للماسونية العاملة، والتى حفظتها شعائر ماسونية العقد الملكى والمحافل التابعة لها، وليس لها نظائر فى الماسونية الفرنسية، وسوف نرى مدى صعوبة ترجمتها إلى الفرنسية.

8 *According to operative ritual, the 'first stone' is, as we have said, that of the northeast corner; the stones of the other angles are then placed successively following the direction of the apparent course of the sun: southeast, southwest, northwest.*

9 ولابد أن هذا ’الانعكاس‘ يتعلق مباشرة بالاستبدال الذى تحدثنا عنه.

منه أربعة، ولابد أن يكون شيئًا أكثرجوهرية من المفهوم العام لحجر الزاوية، وكل ما هناك أنها تشارك فى رمزية البناء ذاتها.

وقد نوهنا سلفًا عن شكل حجر الزاوية الذى يعتبر حقًا نقطة مهمة بموجب اختلافه عن باقى الأحجار حتى إنه لن يصلح فى موضع آخر من المبنى، وحتى البناؤون لن يفهموا الغرض منه، ولو فهموا فمن الواضح أنهم لن يرفضوه وسوف يحتفظون به حتى نهاية عملهم، ولكنهم سيحتارون "فيما يفعلون به"، وإن لم يجدوا إجابة شافية فسوف يلقون به على كوم المهملات[10]، لكن الغرض من هذا الحجر سوف يبين لمرتبة أخرى من البنائين، وهم الذين انتقلوا من 'مرحلة الزاوية القائمة إلى البرجل'، ويفرض علينا هذا التباين فى الأشكال الهندسية للمربع والدائرة اللتان ترمزان بشكل عام إلى الأرض والسماء، وفى الحالة المطروحة هنا يتكون الشكل الأعلى من قبة أو قبو[11].

والواقع أن 'حجر الزاوية' أو 'حجر العقد' كلاهما 'مفتاح عقد'، ويقول كوماراسوامى إن تعبير "*is become the head of the corner*" يجوز أن يُترجم إلى "*is become the keystone of the arch*" على نحو منضبط، فكلاهما فريد فى المبنى بكامله من حيث الشكل والوضع لكى يرمز إلى المبدأ الذى يعتمد عليه، ويبدو من المدهش أن تمثيل 'مفتاح العقد' لذلك المبدأ أنه آخر حجر يوضع فى المبنى، ويجد فيه المبنى توحده النهائى، وهنا نجد تشاكلًا آخر لرمزية 'الأول' و'الآخر' أو 'البداية' و'النهاية'، فالمبنى تمثيل للتجلى يتألق فيه المبدأ بالاكتمال التام، ويظهر بفضل التشاكل ذاته أن 'أول حجر' أو 'حجر الأساس' يُعَدُّ انعكاسًا 'لحجر الزاوية'.

ويرجع غموض تعبير 'حجر الزاوية' إلى المعانى المختلفة للزاوية، فيلاحظ كوماراسوامى أن اللغات تضفى على 'الزاوية' معنى الرأس أو الطرف الأقصى

---

10 *The expression to heave over is rather odd, and apparently little used in this sense in modern English; it would seem that it could mean 'to raise' or 'to lift up', but, according to the rest of the phrase, it is clear that here it really applies to the 'rejection' of the stone.*

11 وقد كان الفارق بين الماسونية الرباعية وماسونية العقد بصلتهما 'بالأرض' و'السماء' قد وردا هنا بمعنى 'الأسرار الصغرى' و'الأسرار الكبرى'.

كما فى اليونانية *kephale*، وتعنى فى المعمار فى اللاتينية 'تاج العمود *capitulum*' والتى لا معنى لها غير القمة، وتسميها الهندوسية *آجرا* التى تعنى طرف النهاية فى أى اتجاه، وفى حالة وصف المبنى فهى الأركان الأربعة العليا، ولكن الأهم من منظور خاص هو معنى 'حجر الزاوية' فى التراث اليهودى المسيحى وهو كلمة *pinnah* بمعنى الملائكة فى وصف حجر الزاوية، وتعبير *rosh pinnah* بمعنى 'رأس الزاوية'، كما معنى كلمة *pinnah* الصورى هو 'رئيس'، وتعنى 'رؤساء الناس'*pinnah ha-am*، وقد تُرجمت حرفيًا إلى اللاتينية *angulos populorum* [12]، والرئيس تأصيليًا من 'الرأس' *caput*'، كما ترتبط من حيث جذرها بكلمة *panim* بمعنى الوجه، زد على ذلك أن 'الوجه' ينتمى إلى رمزية عريضة تستحق دراسة منفصلة[13]، كما أن هناك فكرة مقاربة للنقطة وجدت فى السنسكريتية *آجرا* واليونانية *akros* واللاتينية *acer* و *acies*، وقد تناولنا رمزية النقطة فى سياق الحديث عن الأسلحة والقرون[14]، كما رأينا أنها ارتبطت بفكرة النهاية الطرفية *extremity*، ولكنها على الأخص تتعلق بالنهاية العليا أو أعلى نقطة على القمة، وتميل كل هذه التواصلات إلى تأييد كل ما قيل عن موضع حجر الزاوية فى أعلى المبنى، حتى لو كان فيه أحجار زوايا أخرى بالمعنى العام[15]، فهذا الحجر بالذات هو 'حجر الزاوية' بامتياز.

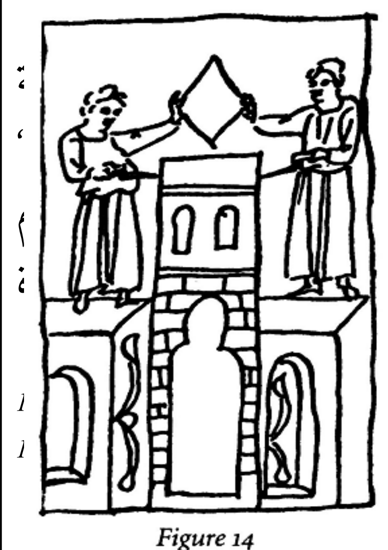


Figure 14

كما نجد مؤشرات مهمة فى الكلمة العربية 'رك
لأبعد أطراف الشىء، وتتخذ أحيانًا معنى 'السر
وتضاهى اللاتينية *arcanum*، ولها المعنى ذاته فى
مصطلح *arcane* فى اللغة الهرمسية على الأقل قد

---

12 ...he Septuagint also uses the word gonia here.

13 ... [tr. from English by E.J. Levy and J. Auboyer (Paris: Paul ... te... A Comparative Study (New York: Russell & Russell, ...ng the expression 'faces of the earth' used in the Fiji islands ... In the first centuries of Christianity the Greek word karai served to designate the five 'faces' or 'heads of the Church', that is, the five chief patriarchates, Constantinople, Alexandria, Rome, Antioch, Jerusalem [Ierusalem] of which the initial letters taken together form this word.

14 It may be noted that the English word comer is obviously derived from cornu.

15 In this sense there are not only four 'cornerstones' at the base, but there are also others at any level of the construction; and these stones are all of the same ordinary form, rectilinear and rectangular (that is, hewn on the square, the word square moreover having here the double meaning of'try-square' and 'square') in contrast with the unique case of the 'keystone'.

فى اللغة العربية[16].

وتعنى ’ركن‘ وكذلك ’قاعدة‘ أو ’أساس‘، وهو ما

يعيدنا إلى حجر الزاوية بمعنى ’حجر الأساس‘، وحينما ترد كلمة أركان وحدها فى المصطلح الهرمسى تعنى العناصر الأربعة فى تكوين العالم، ومن ثم تمثل أربعة أسس لبناء عالم واحد[17]، وهكذا نعود إلى الرمزية التى شغلتنا، فالواقع أن هناك ركن خامس لهذه الأركان الأربعة، ألا وهو عنصر الجوهرية *quintessence*، والذى ليس على ’المستوى‘ ذاته مع الأربعة الأخر، فليس مجرد أساس مثلهم، لكنه مبدأ العالم ذاته[18]، وسوف ترمز إليه ’الزاوية‘ الخامسة فى المبنى، ألا وهى القمة، والتى تسمى ’ركن الأركان‘ بموجب أنها تجمع فى ذاتها الأربعة الأخرى فى وحدة واحدة[19]، ويجوز ملاحظة أن الشكل الهندسى الناتج من اندماج العناصر الخمسة هو شكل هرم على قاعدة مربعة يرتفع حتى القمة، كما أن العناصر الأربعة المعتادة سيرمز إليها الأركان الأربعة للهرم، وسيتقدمون بدءًا من الخامس الذى نتجوا عنه كأربعة أشعة، ولذا كان ’حجر الزاوية‘ فى القمة ’منعكسا‘ فى كل من ’أحجار الأساس‘ الأربعة علامة على الارتباط الوثيق بين الرمزية الخيميائية والرمزية المعمارية، كما تفسر الصبغة الكوزمولوجية المشتركة بينهما، وهى نقطة مهمة لابد أن نعود إلى توازياتها فى المنظومة ذاتها.

ويسمى حجر الزاوية *cornerstone* فى الانجليزية بمعناه الحق ’حجر القمة *summit stone*‘ بكل من ’مفتاح العقد *keystone*‘ و’حجر الطاقية *capstone*‘،

16 *It would be interesting to look into whether there may be a real etymological kinship between the Arabic and Latin words, even in the ancient usage of the latter (for example, in the disciplina arcana of the earliest Christians), or whether it is only a question of a 'convergence' that occurred only later with the Hermeticists of the Middle Ages.*

17 *This assimilation of the four elements to the four angles of a square is naturally also related to the correspondence existing between these same elements and the cardinal points.*

18 *It would be in the same plane (at its central point) if that plane were taken to represent an entire state of existence; but such is not the case here, since it is the whole edifice that is an image of the world. — Let it be noted in this connection that the horizontal projection of the pyramid, which we shall consider a little further on, consists of the square base with its diagonals, along which the lateral edges are projected, with the summit at their meeting-point, that is, at the very center of the square.*

19 *In the sense of'mystery' that we indicated above, rukn al-arkan is the equivalent of sirr al-asrar, which as we have explained elsewhere is represented by the upper point of the letter alifi since the n/i/itself represents the 'World Axis', this corresponds exactly to the position of the 'keystone', as we shall see yet more clearly in what follows.*

وأولهما مفهوم لتناظره مع المفهوم الفرنسي *'clef de voute'*، لكن الاثنين الآخرين بحاجة إلى مزيد من التفسير، ففي حالة ’حجر الطاقية‘ الذي يسمى باللاتينية *caput* بمعنى غطاء الرأس يُعيدنا إلى تسمية ذلك الحجر ’رأس الملاك *'head of the angle*، وهو الحجر الذي يحقق *achives* ’تتويج‘ المبنى، وكذلك ’رأس العمود *'capital* الذي يتوِّجه[20]، وقد ذكرنا لتونا ’التحقيق *'achievement*،

وكلمتا *cap* و *chief* اللتان تماهي معهما تأصيليًا *etymologically identical*[21]، ولذلك كان ’رأس‘ أو ’رئيس‘ المبنى يحتاج إلى قدرة حِرَفية عالية نظرًا لشكله المخصوص، وهو كذلك أهم قطعة بالمعنى الحِرَفي *masterpiece*،[22]، حيث إنه علامة على ’كمال‘ المبنى[23].

أما عن كلمة *copestone* فإن *cope* تعنى فكرة ’التغطية‘، والتي يفسرها واقع أن الشطر العلوي من المبنى ’غطاءً‘ له، وكذلك أنه مبنىً بالطريقة التي تغطي فتحة القمة أو ’عين القبة‘ أو ’عين القبو‘[24]، وقد لاحظ كوماراسوامي

---

20 The term 'crowning' is here related to the designation of the 'crown' of the head by reason of the symbolic assimilation that we noted previously between the 'eye of the dome' and the [Brahma-randhra-,] furthermore, it is known that the crown, like horns, expresses essentially the idea of elevation. There is reason to note in this connection that the oath of the [Royal Arch] grade contains an allusion to [the crown of the skull,] which suggests a parallel between the opening of the latter (as in the rites of posthumous trepanation) and the [removing] of the [keystone.] In a general way moreover the so-called 'penalties' expressed in the oaths of the different Masonic grades, as well as the signs that correspond to them, in reality relate to the several subtle centers of the human being.

21 In the meaning of the word 'achieve' or of the somewhat ancient equivalent expression 'bring to a head' [[mener u chef]] the idea of 'head' is associated with that of'end', which corresponds well to the location of the 'cornerstone', both as 'summit stone' and as 'last stone' of the edifice. We should mention yet another term derived from [chef:] the [chevet] of a church is its 'head', that is, the eastern extremity where the apse is located, the semicircular shape of which, in the horizontal plane, corresponds to the dome or cupola in a vertical elevation, as we have explained on another occasion.

22 The word 'work' ([oeuvre]) is used both in architecture and in alchemy, and we shall see that it is not without reason that we make this comparison: in architecture, the achievement of the work is the 'cornerstone'; in alchemy, it is the 'philosophers' stone'.

23 It must be noted that in certain Masonic rites the grades corresponding more or less exactly to this upper part of the structure (we say 'more or less exactly',

24 For the setting into place of that stone we find the expression to bring forth the copestone, whose meaning is again somewhat unclear at first sight: to bring forth means literally 'to produce' (in the etymological sense of the Latin producere) or 'to bring to light'; since the stone has already been rejected previously in the course of the construction, there can be no question of its 'production' in the sense of being 'putting together' on the day when the work is finished, but since it was among the rubbish it is a question of extricating it and therefore of bringing it back to light in order to place it prominently at the summit of the edifice, so that it becomes the 'head of the angle'; and thus, to bring forth here is the opposite of to heave over.

أنه يكافئ 'لوح السطح *roof plate*' الذى يُعتبَر النهاية العليا لتاج 'المحور العمودى'، وهو *سكامبها* فى السنسكريتية و ستاوروس فى اليونانية[25]، وقد ذكرنا سلفًا أن هذا المحور لا يحتاج بالضرورة إلى تمثيل مادى فى البناء لكنه عضو جوهرى يتبلور حوله البناء بكليته، وطبيعة 'قمة عمود المحور' لا تربو عن حضور 'مثالى'، ولكنها تنعكس فى عقود *pendentive* تتدلى من مفتاح العقد داخل المبنى، ودون أن يُرى لمنحناها الأسفل اعتمادًا على شىء[26]، وهذا العمود غير المنظور هو مبدأ تتوحد فيه كل أجزاء المبنى، وهو قمة العمود المذكور ومفتاح العقد وزاوية الملاك[27].

ويبدو أن التفسير الحقيقي لحجر الزاوية فى موقع حجر القمة قد كان معلوما فى القرون الوسطى بدلالة شيوعه فى كتاب *Speculum Humance Salvationis* كما يبدو فى شكل *14*[28]، وقد كان هذ الكتاب واسع الانتشار حيث بقيت منه عدة مئات من النسخ المخطوطة، ويبدو فى الرسم بنائين يمسكا بينهما حجرًا لوضعه على قمة برج المبنى، والذى يبدو أنه كنيسة مبنية بالحجر، وهو مالا يترك مجالًا للشك فى معناه، ونلاحظ أن الحجر المذكور 'مفتاح لعقد' لابد أن يوضع من أعلى أى من السماء، وهو تعبير يتسق تمامًا مع المسيح[29]، كما يذكرنا بحجر الجريل وحجر *lapsit exillis* عند فولفرام إسكنباخ *Wolfram von Eschenbach* الذى يمكن تفسيره بعبارة *lapis ex coelis*، أى

---

25 *Stauros also means 'cross', and in Christian symbolism the cross is assimilated, as we know, to the 'World Axis'. Coomaraswamy links this word to the Sanskrit sthavara, 'firm' or 'stable', which is indeed fitting for a pillar and which moreover agrees with the meaning of'stability' given to the joining of the names of the two columns of the Temple of Solomon.*

26 *It is this summit of the 'axial pillar' which corresponds, as we said, to the upper point of the alif in the symbolism of Arabic letters; and as regards the terms keystone and 'key of the vault', we recall also that as symbol the key itself has an 'axial' significance.*

27 *Coomaraswamy recalls the symbolic identity of the roof (and more particularly so when it is in the form of a vault) with the parasol; and we will add in this connection that the Chinese symbol of the 'Great Extreme' (Tai-chi) literally designates a 'pinnacle' or 'peak'; it is in fact the summit of the 'roof of the world'.*

28 *Manuscript of Munich, col. 146, folio 35 (Lutz and Perdrizet, 11, plate 64): a photograph of this was sent to us by Coomaraswamy, and it was reproduced in the Art Bulletin, XVII, P450, fig. 20, by Erwin Panofsky, who considers this illustration as the closest to the prototype and who in this connection speaks of the lapis in caput anguli as of a keystone. It could also be said, following our previous explanations, that this figure represents the bringing forth of the copestone.*

29 *A parallel could be drawn in this regard between the 'stone descended from heaven' and the 'bread descended from heaven', for there are important symbolic relationships between stone and bread; but this falls outside the scope of the present study. In all cases, the 'descent from heaven' naturally represents the avat- arana.*

حجر من السماء.[30]

وقد لاحظ إيرفين بانوفسكى *Erwin Panofsky* أن هذا الحجر على شكل ماسة *diamond* مما يربطه بالكأس المقدس عند الجريل، ويستحق هذا الموضوع دراسة أدق حيث إنه ليس الأكثر انتشارا، ويشتمل على جوانب من رمزية 'حجر الزاوية' غير التى طرحناها، وليست أقل منها أهمية بحال فى ربط الصلات بين الرمزيات التراثية ككل.

وقبل أن نستطرد بقى سؤال بحاجة إلى توضيح، فقد ذكرنا لتونا أن 'حجر القمة' قد يكون هو ذاته 'مفتاح العقد' فى كل الحالات، إلا أنه كذلك فحسب للمبانى المسقوفة بقبة أو قبو، أو التى يعلوها شكل كالخيمة بقمة مدببة، حيث لابد أن يكون هناك 'آخر حجر' يوضع على القمة، ويقوم بدور 'مفتاح العقد' فى كل الحالات، ويناظر المنظور الرمزى المذكور دون أن يمكن تسميته بالاسم ذاته، ويُقال الأمر ذاته عن الشكل الهرمى *pyramidion* الذى درسناه فى مواضع أخرى، ولابد من فهم أن رمزية بنّاؤو العصر الوسيط قائمة على التراث اليهودى المسيحى، وخاصة فى سياق ذكر معبد سليمان كنموذج أولى، ومن الثابت أن 'حجر الزاوية' هو ذاته 'مفتاح القبو'[31]، ولو أن مسألة الأبعاد المضبوطة للمعبد قد أدت إلى جدل تاريخى إلا أن من المؤكد أن سقفه لم يكن هرميا، وهذه أمور لابد من اعتبارها فى تفسير آيات الكتاب المقدس التى تناولت 'حجر الزاوية'[32]، فليس الهرم الصغير *pyramidion*[33] الذى يوضع على قمة الهرم 'مفتاح عقد'، لكنه 'تتويج' للمبنى، ويمكن ملاحظة أنه صورة مصغرة للمبنى بأجمعه فى حجر واحد، ويناسبه تماما

---

30 *Cf. also the symbolic stone of the Estoile Internelle of which Charbonneau- Lassay has spoken and which, like the emerald of the Grail, is a faceted stone; this stone, in the cup into which it is set, corresponds exactly to the 'jewel in the lotus' (manipadme) of Mahayana Buddhism.*

31 *The 'legends' of the Compagnonnage [or association of guilds] in all its branches bear witness to this, no less than do those 'remnants' proper to ancient operative Masonry which we have been considering here.*

32 *Thus in no way could it be—as some have claimed—an allusion to an incident that occurred during the construction of the 'Great Pyramid', which as a result supposedly remained unfinished, a dubious hypothesis in itself and an historical question that is probably insoluble; moreover, this 'unfinished state' would itself run directly counter to the symbolism according to which the stone that had been rejected finally takes its eminent place as 'head of the angle'.*

33 وقد سماه بعض الأثريون 'بم بم'. المترجم.

تعبير ’رأس الزاوية‘، كما يناسبه المعنى الشكلى لكلمة زاوية بالعبرية التى تعنى ’رئيس‘ وخاصة فى حالة السقف الهرمى، والذى يبدأ من التعدد وينتهى إلى التجمع فى الوحدة، وغالبًا ما يعنى الهيكل التركيبي رمزيًا، ومما ذكرنا سلفًا فى موضوع القمة والزوايا الأربع فى القاعدة وصلتها بمعنى ’الركن‘ فى العربية، ويجوز قول إن الهرم ينطوى على نحو ضمنى على كل أجزاء المبنى، وقد كانت الرمزية الشمسيه لهذا الشكل معلومة فى زمانها وخاصة فى حالة الهرم المُصغَّر كما بينت الأوصاف التى أوردها كوماراسوامى، وتناظر النقطة المركزية عليه الشمس ذاتها، وتناظر الأوجه الأربعة جوانب ثانوية منها بتوجهاتها إلى الجهات الأصلية، ورغم حقيقة كل ذلك عن الهرم المُصَغَّر فليس إلا حالة خاصة من تراث حجر الزاوية، كما أنه يمثلها على نحو تراثى مخصوص، وهو التراث المصرى القديم، ويكافئ الرمزية اليهودية المسيحية لحجر الزاوية الذى ينتمى إلى تراث آخر يختلف عن السابق، لكنه ينقص فى خاصية جوهرية هى وظيفة ’مفتاح العقد‘.

ويمكن الآن أن نعود إلى ’حجر الزاوية‘ على شكل الماسة، فيقول كوماراسوامى فى المقال الذى رجعنا إليه فى بداية الباب أن الكلمة الألمانية *Eckstein* التى تعنى ’حجر الزاوية‘ و’الماسة‘ فى الآن ذاته[34]، ونتذكر هنا أن هذه الرمزية هى ذاتها *فاجرا* الهندوسية التى تناولناها عدة مرات فى هذا الكتاب، وعمومًا فإن الحجر الذى يُعتبر أشد الأحجار صلابة وأنصعها بريقًا قد اتُخذ فى معظم الأديان رمزًا للدوام والصلابة والقوة والاستقرار والنور والخلود، وهذه الصفات كلها تُطلق على الماس، كما أن فكرتا ’الصلابة والدوام‘ مترابطان عن قرب، وتعبر عنهما السنسكريتية بكلمة *آكشلرا* التى تناسب الحجر الوحيد الذى ينطوى على مبدأ المبنى، أما فكرة ’الاستقرار‘ التى تنطبق على العمود كافية عندما يكون تاجًا للمحور الرأسى، والذى يرمز إلى

34 *[John Joseph] Stoudt, Consider The Lilies, How They Grow: An Interpretation of the Symbolism of Pennsylvania German Art [Allentown, Pennsylvania German Folklore Society, 1937], apropos of the meaning of an ornamental motif in the form of a diamond, explained by writings in which Christ is spoken of as being the Eckstein. — The double meaning of this word is plausibly explained from the etymological point of view, by the fact that it can be understood both as 'angle stone' [pierre d'angle] and as 'angled stone' [pierre & angles], that is, a faceted stone; but this explanation, of course, takes nothing from the validity of the symbolic connection indicated by the union of these two meanings in one and the same word.*

’محور العالم‘، والذى يصفه أفلاطون ’بمحور الماسة‘[35]، كما أنه ’محور النور‘، وينطبق خاصة على الصفة الأخيرة لقمة المحور وتاجه الذى يسطع منه النور[36]، وينتهج التراث الهندوسى أن كل ما كان ’مركزيا‘ أو ’محوريا‘ يمثل الماسة، وبسهل بذلك فهم أن كل هذه العلاقات تشكل شطراً من التراث الذى يمكن أن يسمى ’كليًا *universal*‘.

وليس ذلك كل شيء، فالماسة أثمن ’حجر‘، ولو كان هذا الحجر الثمين رمزًا للمسيح الذى يتماهى هنا مع ’حجر الزاوية‘ أو مزيج من الرمزيتين فى رمزية واحدة لو أحببت، ويجوز القول إن هذه الصفات تمثل ’إنجازا‘[37] فى اللغة الهندوسية التى تسميه *تشينتامانى* أى حجر الفلاسفة فى الخيمياء الغربية[38]، ومما له مغزى عظيم فى هذا السياق أن الهرمسية المسيحية تحدث عن المسيح باعتباره ’حجر الفلاسفة‘ بما لا يقل عن ’حجر الزاوية‘[39].

وهكذا نعود إلى التعبير العربى ’ركن الأركان‘ الذى يتجلى معناه فى هذا التناظر، كما نذكر التناظر بين الرموز المعمارية والرموز الخيميائية، ونختتم هذا الباب الذى استطال رغم نقص الدراسة، فهذا موضوع لا قرار له، ولنضف أخيراً حالة خاصة من بين غيرها عن هذا التناظر بطريق ليس برهانًا على ذاته دائما، ذلك أن كافة العلوم والفنون التراثية تعبير عن ذات المبادئ والحقائق الكلية.

---

35 *Republic 616c ed.*

36 *The uncut diamond naturally has eight angles, and the sacrificial post (yupa) must be made 'of eight angles' (ashtashri) to represent the vajra (which here is also understood in its other sense of 'thunderbolt'); the Pali word attansa, literally 'of eight angles', means both 'diamond' and 'pillar'.*

37 *From the 'constructive' point of view, it is the 'perfection' of the realization of the architect's plan; from the alchemical point of view, it is the 'perfection' or the ultimate end of the 'Great Work'; and there is an exact correspondence between the one and the other.*

38 *The diamond among stones and gold among metals are both what is most precious, and they also have a 'luminous' and 'solar' character; but the diamond, like the 'philosophers' stone' to which it is here assimilated, is held to be even more precious than gold.*

39 *The symbolism of the 'cornerstone' is expressly mentioned for example in various passages of the Hermetic works of Robert Fludd, cited by A.E. Waite in The Secret Tradition in Freemasonry [London: Rider & Co., 1937], pp27-8. It must be said, moreover, that these texts seem to contain the confusion with the 'foundation stone' that we mentioned at the beginning; and what the author himself, in quoting them, says about the 'cornerstone' in several places in the same book, hardly clarifies the question and can rather only contribute to maintaining this same confusion.*

44 الحجر السماوى

وقد ذكرنا الحجر السماوى عَرَضًا وحجر *lapsit exillis* عند فولفرام فون إسكنباخ *Wolfram von Eschenbach* بينما كنا نتحدث عن رمزية 'حجر الزاوية'، وقد يكون من الأوفق العودة إلى هذه المسألة نظرًا لوجود كثير من التوازيات معها، فهذا التعبير الملغز[1] قد ينطوى على كثير من المعانى، ونبدأ بإضغام التصويت فى عبارة *lapsis ex coelis* بمعنى الحجر الساقط من السماء، وحيث كان أصل هذا الحجر 'منفيا' فى رحلته على الأرض، وتقول كثير من الأديان التى تتناول هذا الرمز أو ما يضاهيه أنه لابد أن يعود إلى السماء[2]، أما فيما تعلق برمزية الجريل فمن المهم مراعاة أنه كأس ساقط من السماء، كما يسمى حجراً فى حالة فولفرام فون إسكنباخ، وقد تكون كلى الأمرين حيث إننا نقوم بقطعها من حجر نفيس فصل نفسه عن جبهة إبليس أثناء

---

1 ويقول ويت *A.E. Waite* عن الأحجار السماوية *lapis exilis* أو *lapis exillix* فى كتابه *The Holy Grail: The Galahad Quest in the Arthurian Literature*، New Hyde Park: *University Books, 1961*، يبدو أن الهجاء يختلف فى النسخ المختلفة، ويشير كذلك باقتباس عن آرنولد فيللينيفِ إلى أن *lapis exilis* كانت أحد تسميات الخيميائيين 'لحجر الفلاسفة'، والذى لابد أن يكون على صلة بالأفكار التى طرحناها فى نهاية باب 43.

2 *We do not think there is any reason for taking much account of the Latin word exilis, taken in its literal sense of 'thin' or 'tenuous', unless perhaps one might*

سقوطه من السماء.[3]

ومن ناحية أخرى فإن ما يزيد التعقيد فى هذه الرمزية رغم أنه قد يكون مفتاحًا لصلات عدة هو أننا قد فسرنا الكأس المقدس بأنه إناء *grasale* وكذلك كتاب *gradale or graduate*، وقد جاء فى بعض نسخ الأسطورة إنه لم يكن كتابًا بل كتابة على الكأس ذاته كتبها ملاك أو المسيح عليه، كما ظهرت بعض الكتابات من أصل غير إنسانى على الحجر السماوى *lapsit exillis*[4]، وهو إذن 'حجر متكلم'، أو بالحرى 'حجر متنبئ'، فلو تكلم الحجر بالصوت فيمكن أن يتحدث بالكتابة أو الأشكال التى تبدو على سطحه مثل قوقعة السلحفاة فى تراث الشرق الأقصى، واللافت للنظر من هذا المنظور هو أن التراث التوراتى يذكر 'كأس نبؤة' للنبي يوسف[5]، والتى قد تكون فى هذه الحالة كأس الجريل المقدس ذاته، وللعجب كان يوسف الأرمتى هو الذى حفظ الكأس وسافر به من الشرق إلى انجلترا، ومما يثير الدهشة أن أحدًا لم يلتفت إلى هذه 'المصادفات' من قبل على أهميتها ومغزاها.[6]

---

3 عن رمزية الجريل راجع باب *5* من 'ملك العالم'،ترجمات تراث واحد، قيد النشر وينبغى تذكر أن رمز النجمة الباطنية يجتمع مع الحجر الثمين رغم احتلافهما.

4 وحجر أورجا الأسود كغيره من الأحجار السوداء التى قامت بدور فى كثير من الأديان لابد أن يكون نيزكا 'سقط من السماء'، راجع باب *1* من 'ملك العالم'. ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

5 سفر التكوين *44: 5*.

6 ويبدو 'كأس العِرافة' كما لو كان النموذج الأصلى للمرآة، فالتفسير 'السحرى' المحض الذى يختزل كل شيء إلى أداة للتنجيم أو الطلسمات بحسب الحال إيذانٌ بانحطاط هذه الرموز، أو بالحرى انحطاط الطريقة التى يُرى بها، حيث لازالت تشير إلى علوم تراثية أكثر من مجرد العِرافة الدنيوية التى تضفى عليها معنى 'جماليا' يُغطى التفسير السحرى، والذى يجرى تواصله مع بقايا الفلكلور لتبرهن على أن لها فائدة.

ونلاحظ كذلك أن 'كأس العرافة' يبين كل شيء فى الحاضر لو مان يمكن فهم المعنى الحقيقى منه، ويرتبط يقينا برمز 'العين الثالثة'، وكذلك بالجوهرة الساقطة من جبهة إبليس، ثم إن الإنسان كسب من سقوطه 'عينا ثالثة'، أى 'حاسة الخلود'، ومن ثم نجح الجريل فى حيازتها.

ولنعد إلى الحجر السماوى *lapsit exillis*، فلابد من الإشارة إلى أن البعض قد ضاهوا بينه وبين *Lia Fail* أو 'كأس المصير' الذى كان فى الواقع 'حجراً متكلماً'، وقد يكون بالفعل 'حجراً من السماء' حيث تقول أسطورة أيرلندية إن جماعة *توثا دى دانان Tuatha de Danann* أحضرته معها من موئلها الأول، وقيل إن له سمات 'سماوية' أو على الأقل 'فردوسية'، ومن المعلوم أن هذا الحجر قد كان حجر التتويج عند قدماء الملوك الأيرلنديين، ثم صار فى تاج ملوك انجلترا بعد أن أحضره إدوارد الأول إلى كاتدرائية وستمينيستر كما تقول أشهر الآراء عنه، ولكن ما بدا غريباً عن هذا الحجر من منظور آخر أنه يتماهى مع الحجر الذى عمَّد به يعقوب بيت إيل[7]، وليس ذلك كل شيء، فيقول التراث العبرى إن ذلك الحجر الأخير هو الذى تعقب بنى إسرائيل فى المتاهة وفاض بمياه يشربوها[8]، والذى فسره القديس بولس بأنه لم يكن سوى المسيح نفسه[9]، وأنه صار حجر الأساس *shethiyah* تحت خيمة العهد فى معبد أورشليم[10]، وهكذا اتُخِذ رمزًا 'لمركز العالم'، كما صورته أديان تراثية أخرى نظيراً لكأس معبد دلفى[11]، وحيث إن هذه التماهيات جميعاً رمزية فيجوز القول إنه كان الحجر ذاته فى كل هذه الحالات.

أما عن الرمزية 'الإنشائية' فلابد من مراعاة أن حجر الأساس المذكور لا يصح خلطه 'بحجر الزاوية'، حيث إن الأخير هو تاج المبنى، فى حين أن حجر الأساس فى مركز قاعدة المبنى[12]، رغم أن يختلف عنه بوضعه المركزى،

---

7 باب *6* من 'ملك العالم'، ترجمات تراث واحد، قيد النشر..

8 سفر الخروج *17*: *5*، ويضاهى الماء النابع من هذا الحجر بالغذاء الذى يقدمه الجريل، ويعتبرونه 'وعاء الوفرة *vase of abundance*'.

9 كورنثة *10*: *4*، ولابد من ملاحظة العلاقة بين تعطير يعقوب للحجر وتعطير الملوك فى تتويجهم وتعطير المسيح. .

10 و'حجر الأساس' هذا قد ترقى إلى 'حجر زاوية *Yesod*' فى رمزية سيفيروت التى سنعود إليها فيما يلى. .

11 *Again The King of the World, chap. 9. — The Omphalos was moreover a 'baetyl', a designation identical with Beth-el, or 'house of God'.*

12 وموضع 'حجر الأساس' قبل أن يكون فى الزاوية سوف يحسم الاضطراب فى تفسيرها، ولذا لم نحتج إلى ذكرها فى سياق الحديث عن 'حجر الزاوية'.

والمعنى المعتاد لهذا التعبير أنه يحتل قاعدة أحد أركان المبنى، وقد قلنا إن أحجار الأركان الأربعة انعكاس ’لحجر الزاوية‘ أو ’حجر القمة‘، ويمكن الحديث هنا عن انعكاس فى علاقة مباشرة بالحالة السابقة، فحجر القمة وحجر الأساس على الخط الرأسى ذاته، ولذا كان حجر الأساس إسقاطًا لحجر القمة على مستوى القاعدة الأفقى[13]، ومن ثم يجوز القول إن حجر الأساس يجمع بين الجوانب الجزئية التى تمثلها الأركان الأربعة، والواقع أن حجر الأساس المركزى وحجر الزاوية كلاهما قاعدة لعمود ’المحور الرأسى‘، وسواءٌ أكان منظوراً أم خفياً فى وجود ’مثالى‘، ويعتبر حجر الأساس فى الحالة الأخيرة موضعاً لمدفأة أو منبرًا يناظر ’قلب‘ المبنى.

وقد قلنا إن ’حجر الزاوية‘ يمثل ’الحجر الذى سقط من السماء‘، وقد رأينا الآن أن الحجر السماوى *lapsit exillis* ينطبق عليه هذا المقال على نحو أوثق، وهو ما يوحى بعلاقة بعينها مع "الحجر الذى رفضه البناؤون"، ويعتبر هؤلاء البنائين ملائكة[14] من المنظور الكونى، وحيث إن كل ’نزول‘ من السناء ليس بالضرورة ’سقوطا‘[15] فهناك أسباب للتمييز بين التعبيرين، وهلى كل فإن فكرة ’السقوط‘ لا تنطبق بأى معنى على حجر الزاوية الذى يحتل موضعاً فى القمة[16]، ويمكن الحديث عن ’النزول‘ لو أننا ربطناه بالمبنى على نحو أوثق، ولكن لو اعتبرنا فى المبنى ذاته بما فيه من رمزية أجزائه فإن موضعه يمكن أن يوصف بالسماوى حيث إن قاعدته وسقفه يمثلا الأرض والسماء معاً فى

---

13 ويناظر ذلك ما ذكرنا سلفا عن الإسقاط الأفقى للهرم، والذى تبرز قمته فى نقطة تلاقى قمم الجوانب المثلثة على قاعدة مربعة، أى فى مركز المربع، ويتحدد موقع المعبد فى الماسونية العاملة قبل فهم هيكله بما يسمى ’منهاج النقاط الخمس‘، والذى يقوم أولا بتحديد الأركان حيث توضع الأحجار الأربعة الأولى، ثم تحديد المركز بتقاطع المحورين، وتسمى هذه النقاط الخمسة ’علامات الأرض‘، ولا شك أن ذلك هو المعنى الأصلى لهذا المصطلح الماسونى..

14 ولابد من فهمه كعامل تحت إشراف فيشفاكارما وهو ’مهندس الكون الأعظم‘، راجع باب 3 م ’هيمنة الكم وعلامات الزمان‘ ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

15 وتنطبق هذه العلامة على تنزُّل أفاتارا رغم أن وجوده الأرضى بمثابة ’منفى‘ من حيث المظاهر.

16 ونضيف أن هذا الحجر قبل أن يوضع فى موضعه كان مرفوضا.

نموذجه الكونى[17]، ونضيف كذلك فى ختامنا أن كل شىء يوضع على المحور عل ارتفاعات متفاوتة يمكن أن يمثل مواضع متنوعة للشىء ذاته، ويناظر كل منها حالًا إنسانيًا فى العالم بحسب موقعه من الجرم الأكبر والجرم الأصغر، وسوف نشير فحسب إلى أن تطبيقها على الكائن الإنسانى يجرى فى العلاقة بين 'حجر الأساس' فى مركز القاعدة و'حجر الزاوية' فى مركز القمة، فلا انفصال بينهما كما بيَّنا فى موضع آخر عن موقع 'لوز' أو 'نواة الخلود'[18].

---

17 راجع باب *39* 'رمزية القبة' والباب *14* من 'الثلاثى الأعظم'.

18 See Perspectives on Initiation, chap. 48. — This connection with the luz is clearly suggested moreover by the parallels we have pointed out above with Bethel and with the 'third eye' (see on this subject The King of the World, chap. 7).

45 الأركان

إضافة إلى ما تقدم عن ’حجر الزاوية‘ يحسن أن نذكر تفصيلا مكمِّلا بنقطة خاصة، وهى عن الكلمة العربية ’رُكن‘ أو ’زاوية‘ ومعانيها المختلفة، وسوف نعكف على الإشارة إلى الاتفاق المدهش مع الرمزية المسيحية المبكرة، وهو اتفاق يزيد اتضاحا كلما أجرينا مقارنة مع أديان أخرى، ونتحدث الآن عن جمَّاديون أو جمَّاديا بالمعنى العام ذاته، ويدين باسمه لحرف جامًّا اليونانى (Γ)[19].

شكل 15

19 راجع باب *10* من ’رمزية الصليب‘ حيث ذكرنا فيه أن الجامّات هى التى تشكل ’الصليب الحق‘، لكن المحدثون يسمونها سواستيكا مما يتمخض عنه اضطراب واضح، ولسوء الحظ وقع بين رمزين يختلف معناهما تماما.

وقد كان أول نموذج لهذا الرمز شكل *15* الذى يسمى أحيانا ’صليب الكلمة‘[20] ويتكون من أربع زوايا قائمة تتجه إلى المركز ومن ثم يتشكل الصليب بالفراغ الناتج بينها، كما يشكل أربعة طرق تبدأ من المركز أو تنتهى إليه بحسب اتجاه العبور، كما أن الشكل بمجمله يمثل تقاطع طريقين، وهو النمط الأولى للحرف الصينى هينج، والذى يصور العناصر الخمسة، ونرى هنا أربعة فراغات تناظر الاتجاهات الأصلية الأربعة حول المركز الذى يتوسطها كعنصر خامس، ورغم تشابه اصطلاحات هذه العناصر[21] فإنها لا تماهى مع التراث الهندوسى ولا التراث الغربى القديم على أى نحو كان، وحتى نتجنب الاضطراب فمن الأصوب اتباع الرأى القائل بترجمة هينج إلى ’العوامل الطبيعية‘ باعتبارها ’قوى‘ تعمل على العالم الجسدانى وليست مكونات مادية فيه، ولا يزال صحيحا أن الفراغات تناظر أركان العالم بينما تبنيه العناصر رغم الاختلاف حول معنى العنصر المركزى، والواقع أن الأثير لا يوضع على مستوى عناصر القاعدة حيث إنه يناظر ’حجر الزاوية‘ الحقيقى، أى القمة أو ’ركن الأركان‘، أو هو ’الأرض‘ فى تراث الشرق الأقصى، والذى يرتبط مباشرة ’بحجر الأساس‘ المذكور سلفا[22].

شكل 16

ويظهر تمثيل الأركان الخمسة على نحو أوضح فى صورة أخرى للجمّاديون فى شكل *16*، وتبدو فيه الزوايا القائمة أركانا بالمعنى الحرفى لمربع تحيط بصليب فى مركزه، وتتجه قمة الزوايا القائمة إلى

---

20 ولا شك أن سبب ذلك من حيث المعنى العام للرمز فإن من المعتقد أنه رمز للكلمة بموجب أنه يعبر عن الأناجيل الأربعة، كما يُلاحظ أن هذا التفسير يناظر بين الآراء الأربعة، والتى تتعلق رمزيا بأرباع الفضاء، ولابد من اتحادها حتى يكتمل التعبير عن الكلمة كما تلتقى أركان الزوايا الأربعة لتشكل القمة..

21 فهناك ماء فى الشمال ونار فى الجنوب وخشب فى الغرب ومعدن فى الشرق وتراب فى الوسط، ونجد بينها ثلاثة تسميات مشتركة مع أديان أخرى، ولكن التراب لا يعنى هنا تناظرا مكانيا.

22 ويلزم مراعاة أن القبور التى تقام فى وسط منطقة تناظر عمليا منبرا أو مذبحا فى مركز معبد.

الخارج على عكس اتجاهها فى شكل 15[23]، وهنا يبدو الشكل الكامل كما لو كان مسقطا أفقيا لمبنى، ويحدد الصليب موضع حجر الزاوية فى القمة رغم عدم وجوده على المستوى الأفقى ذاته، لكن الصليب إسقاط له على القاعدة ليشكل المحور الرأسى للمبنى، كما يمثل الصليب المسيح رمزيا كحجر الزاوية بما يبرر هذا التناظر على نحو ظاهر.

والواقع أن كلا الشكلان من منظور الرمزية المسيحية يعتبر تمثيلا للمسيح فى وسط حوارييه الأربعة، ويكافئ الصورة الشهيرة للمسيح بين أربعة حيوانات فى رؤيا حزقيال وفى سفر الرؤيا [24]، وهذه الحيوانات الأربعة هى أشهر الرموز للحواريين الأربعة[25]، ولا يتناقض تمثيلهم بأحجار الزوايا الأربعة مع واقع أن القديس بطرس قد سُمِّى ’حجر أساس‘ الكنيسة، والمسألة ببساطة أن الاختلاف بين التعبيرين ناتج عن تعبير أحدهما عن المذهب وتعبير الآخر عن تكوين الكنيسة، ولا مناص من التناقض بينهما، حيث إن الأساس الحق للمذهب المسيحى هو الأناجيل.

ونجد فى التراث الإسلامى ترتيب رباعى فى الخلفاء الأربعة بعد الرسول كأركان أربعة للدين، ويبدو الرسول ذاته ’ركن الأركان‘ على منوال المسيح فى رمزية الشكلين السابقين، كما يبدو على مستوى يعلو عن القاعدة، أى إنه نظير لحجر الزاوية على قمة المبنى، ولابد من ملاحظة أن منظورا المسيحية السابقَين يعيدا إلى الذهن أن بطرس الرسول كان يسمَّى ’حجر زاوية‘ الكنيسة و’خليفة‘ المسيح و’بديلا‘ عنه، ولكننا سنرى ’حجر زاوية‘ واحد، أى إن أحجار الأركان الأربعة قد وضِعت فى مكانها دون تمديد للتناظر، فى حين أن الرمز الإسلامى المذكور يجعل الخلفاء الأربعة ’أحجار أساس‘، والذين كان لهم دور

---

23 وتناظر الزوايا الأربعة والصليب فى المركز ’النقاط الخمس‘ التى تحدد موقع المعبد فى التراث القديم..

24 ورموز الحيوانات الأربعة تناظر أربعة مهراجات يعتبرها الهنود والتبتيون خُلفاء على الجهات الأصلية وأصقاع الأرض.

25 وقد صور قدماء المصريون حورس بين أربعة من أبنائه، كما أنه كان يصور فى المسيحية المبكرة كرمز للمسيح..

خاص فى تاريخ شريعة الإسلام، أما خلفاء القديس بطرس فى المسيحية فلم يكن لهم صفات تميزهم عمن أتى بعدهم، كما نضيف أن أركان الإسلام الخمسة تتناول الحياة الإنسانية على الأرض، ويرى الإسلام كذلك خمسة أركان ملائكية سماوية هم جبريل و روفائيل و ميكائيل وإسرافيل و الروح، والروح التى تتماهى مع ميتاترون فى التراث المسيحى والتى تناولناها فى دراسات أسبق تحتل المقام الأعلى من بين الخمسة، وهو بمثابة انعكاس مباشر مخصوص للوظائف المبدئية، وهو فى العالم السماوى 'ركن الأركان'، ويقوم فى مقام بين عالم الخلق وعالم الحق، وهو فحسب الذى يجعل الخروج من طباق الكون أمرا ممكنا.

46 جمع ما تبعثر

لقد اقتبسنا فى أحد أعمالنا[1] فى سياق الحديث عن *مينج تانج* و *تيين تى* صيغة ماسونية يصبح فيها دور 'المعلمين' "نشر النور وجمع ما تبعثر منه"، والواقع أن التوازى الذى استنتجناه فى تلك المناسبة قد تعلق بالشطر الأول من هذه المقولة فحسب[2]، أما الشطر الثانى الذى يبدو ملغزا حيث إن له ارتباطات مدهشة فى رمزيات أديان أخرى، وقد استحسنَّا طرح بعض الملاحظات التى لم يمكن معالجتها سلفا.

وحتى نفهم تماما ما نحن بصدده نرجع إلى التراث *الفيدى* الذى يبدو صريحا فى هذا الشأن، والحق إن "ما تبعثر" هو أشلاء جسد *بوروشا* الأضحية الأولانية، والتى قسمها الملائكة *الديفات* على كل ما ولد من مخلوقات الأرض[3]، ونرى هنا صورة رمزية للتحول من الوحدة إلى التعدد، وبدونها لا يجرى تجلٍ بأى شكل كان، ويتضح أن "جمع ما تبعثر" أو استعادة *بوروشا* إلى ما كان عليه قبل البداية لو جاز القول، أى إلى حال ما قبل التجلى ليس إلا العودة إلى التوحيد المبدئى، ويتماهى *بوروشا* مع *براجاباتى* 'سيد المخلوقات'، والذى انبثقت عنه الخلائق 'كسلالته' بمعنى ما[4]، وهو كذلك *فيشفا كارما* أى 'مهندس الكون الأعظم'، وبصفته هذه فإنه من ضحى بنفسه[5]، ولو قيل إن '*الديفات*' هى التى ضحت به فلا فارق فى الواقع بين الحالين، فليست

---

1 راجع باب *16* من 'الثالوث الأعظم'، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

2 وقد كان شعار تيين تى هووى *T'ien Ti Huei* المذكور يعنى '*تحطيم الظلام تسينج واستعادة النور مينج*'.

3 *See Rig Veda, 10.90.*

4 *The Sanskrit praja is identical to the Latin progenies.*

5 وقد كان المسيح فى المفهوم المسيحى للتضحية ضحية وكاهنا فى الآن ذاته.

الديفات إلا 'القوى' التى يحتكم عليها فى ذاته.[6]

وقد قلنا عدة مرات أن كل طقس تضحية لابد أن يُرى كصورة للتضحية الكونية الأولى، كما أن كل ضحية صورة للمضحى ذاته، كما قال كوماراسوامى "إن *البراهمة* لديهم براهين على أن كل أضحية تمثيل للمضحى، والتعميد الكلى *ديكسا* هو موت وميلاد جديد، ومن الثابت أن المُعَمَّد هو الأضحية" *تايتيريا سامهيتا* vi.1.4.5، "إن الضحية هى المضحى ذاته" *آيتاريا براهمانا*، 11.2[7]، ويعود ذلك بنا مباشرة إلى الرمزية الماسونية فى مرتبة الأستاذ، والتى يتماهى فيها المُعَمَّد بالضحية، كما أن الصلة بين أسطورتا حيرام[8] و أوزيريس قد تأكدت حينما نأتى إلى "جمع ما تبعثر" وهو أشلاء أوزيريس التى جمعتها إيزيس، لكن الأمر الأصولى أن بعثرة أشلاء أوزيريس هى ذاتها بعثرة أشلاء *بوروشا* أو *براجاباتى*، فهما نسختان لوصف العملية الكونية ذاتها فى صورتين تراثيتين متباعدتين، ومن الصحيح أن حالة أوزيريس وحيرام ليست مسألة تضحية بل اغتيال، ولكن ذلك لا يغير أمرًا جوهريا، فلننظر إليها من جانبين متكاملين أحدهما ملائكى *divic* والآخر شيطانى *asuric*،[9] ويكفى هذا القدر فى سياقنا الحالى وإلا ابتعدنا عن الغرض الذى نتناوله.

وكذلك تحدث القبالة العبرية لا عن تضحية ولا اغتيال بل عن نوع من 'التحلل' الذى كانت نتائجه مماثلة على كل حال، وهو تقسيم جسد آدم القديم *Adam Kadmoti* على كل المخلوقات التى تشكل الكون الكلى، حتى

---

6 وتعليقا على الفقرة عن ترنيمة الفيدا التى تقول "إن التضحية قد جعلت الشياطين يضحون"، ويقول سايانا إن الديفات هم صور لنفَسِ براجاباتى،

Cf. what we have said on the subject of angels in 'Monotheism and Angelology' [See Miscellanea, pt. 1, chap. 2]. It is to be understood of course that in all this it is always a question of aspects of the divine Word with which 'Universal Man' is effectively identified.

7 *'Atmayajna: Self-Sacrifice' [Coomaraswamy: Selected Papers, 2, Metaphysics, ed. Roger Lipsey (Princeton: Princeton University Press, 1977)].*

8 ربما كان اسم حيرام صفة بديلة لاسم 'سيت' أخو أوزيريس الذى الذى قتله وبعثر أشلاءة فى الأسطورة المصرية القديمة، خاصة وأن تابوت أوزيريس أبحر من الدلتا إلى سواحل فينيقيا وتعقبته إيزيس لتعيد إليه الحياة، وينتشر هناك اسم حيرام. المترجم.

9 *Cf. also the murder and dismemberment in the Greek mysteries of Zagreus by the Titans. It is known that these latter are the equivalents of the Asuras of the Hindu tradition. It is worth noting, moreover, that current usage itself applies the same word 'victim' both in the case of sacrifice and in that of murder.*

إنها تبدو كشظايا صغيرة من الجسد، ويناظر 'إعادة توحيدها' استعادة آدم القديم، وهو الإنسان الكامل *بوروشا* بأحد معانى الكلمة، وهكذا كان الأمر ذاته موضوع التضحية، وقبل أن نسترسل نضيف أن مرتبة الأستاذ الماسونية تمثل افتراضياً على الأقل اكتمال 'الأسرار الصغرى'، وما يجدر اعتباره فى هذه الحالة هو إعادة التكامل فى مركز الحال الإنسانى، لكننا نعلم أن الرمزية دائمًا ما تنطبق على مقامات مختلفة بموجب التناظر القائم بينها[10]، فقد تتعلق مرة بعالم بعينه ومرة أخرى بالتجلى الكونى ككل ومرة ثالثة بإعادة التكامل فى 'حال أولانى'، وكلها أحوال آدمية كما لو كانت صوراً للتكامل النهائى، إلا أنها ليست إلا مراحل على الطريق إليه.

ويقول كوماراسوامى "إن الأمر الجوهرى الأول فى التضحية هو التقسيم والأمر الثانى هو إعادة التوحيد"، ولذا تتكون التضحية من مرحلتين متكاملتين هما *بوروشا* الواحد الذى ينقسم إلى كثرة، ثم يصير واحداً مرة أخرى، وقد كانت إعادة توحيد *بوروشا* ممثلة رمزيًا فى إنشاء المنبر الفيدى الذى يحتوى على رموز كل العوالم[11]، وتتطلب التضحية تعاون كل الفنون حتى تتم، والتى تجعل من المضحى *فيشفا كارما* ذاته[12]، وحيث إن كل فعل شعائرى *ritual* فى مجمله هو كل عمل طبيعى يتسق مع 'النظام' *rita*، ويمكن أن يُرى فى سمت الأضحية من واقع تأصيل الكلمة اللغوى، وما يصدق على المنبر الفيدى يصدق كذلك على أى مُنشأ مبنى باتباع القواعد التراثية، والتى تنبثق على الحقيقة من 'نموذج كونى' واحد كما تناولناه فى مواضع أخرى[13]، ومن الواضح أن ذلك ينتمى إلى رمزية البناء مثل الماسونية، فالبنّاء يجمع مواد مبعثرة ليبنى منشئاً لو كان حقًا ما يجب أن يكون لتحققت فيه خصائص تُضاهى الوحدة 'العضوية' للكائن الحى من منظور الكون الأصغر، أو لعالم من

---

10 وكذلك تنطوى الخيمياء على تناظر بين عمليات 'العمل الأبيض' و'العمل الأحمر' حتى إن الأخير يعيد إنتاج الأول فى مقام أعلى.

11 راجع باب 58 'باب السماء'.

12 *Cf. A.K. Coomaraswamy, Hinduism and Buddhism [New York: Philosophical Library, 1943], p26.*

13 وعادة ما تتضمن طقوس إقامة معبد أضحية أو تقدمة بمعنى الكلمة فى الغرب حتى أيامنا، بناءً على تخفيف يتعلق بإقامة شعائر تأسيس محفل ماسونى.

عوالم الكون الأكبر.

وحتى نختتم هذه الدراسة نقول إن هناك نوع آخر من الرمزية، ويبدو مختلفا من حيث مظهره البرانى، لكن له أصول مكافئة، وهى استعادة كلمة من عناصرها على انفراد[14]، ولكى نفهم ذلك لابد من تذكر المنظور التراثى عن الاسم الحق الذى ليس إلا تعبيرًا عن جوهر الكائن، وتستلزم إعادة بناء اسم أن يكون على شاكلة الكائن ذاته رمزيا، فالدور الذى تقوم به الحروف فى القبالة تتعلق بالخلق أو التجليات الكلية أمر معروف، ويجوز القول إن التجلى يتشكل من حروف منفصلة، والتى تناظر تعدد العناصر، وأن إعادة توحيد الحروف تعيد الاسم إلى مبدئه[15]، ويصبح "جمع ما تبعثر" من هذا المنظور هو ذاته "البحث عن الكلمة المفقودة"، فهذه الكلمة المفقودة على الحقيقة ليست إلا اسم 'مهندس الكون الأعظم'.

---

14 ويناظر ذلك فى الطقوس الماسونية طريقة لتبادل 'الكلمات المقدسة'..

15 طالما بقى المرء فى تجليات عالم التعدد لا يملك إلا الهمس باسم المبدأ بتمييز انعكاسه فى صفات الخلق، حيث لا يمكن التعبير عنها إلا على نحوٍ متشظٍ مبعثر، والماسونى الذى لم يصل إلى مرتبة الأستاذ لن يتمكن من 'جمع ما تبعثر'، فلا يعلم إلا الهمس بها.

47 الأسود والأبيض

إن الرمز الماسونى للبلاط الذى يشبه رقعة الشطرنج أو الضامة من الرموز التى لا تكاد تُفهم أو تُفسر كما ينبغى، وقد ذكرنا فى مواضع شتى أن الألعاب كانت فى الأصل شىء يختلف تمامًا عن مجرد التسلية الدنيوية التى صارت إليه فى زمننا، والشطرنج بالتأكيد أحد الألعاب التى لها أصل 'مقدس' لازال يبين حتى الآن رغم انحطاطه الراهن.

فالمعنى المباشر لتجاور الأبيض والأسود هو النور والظلام أو النهار والليل، وكذلك كل الثنائيات المتعاكسة، ونجد فى هذا الصدد رمز *يين يانج*[1] فى رمزية الشرق الأقصى، ويمكن ملاحظة التداخل بينهما وارتباطهما الذى لا ينفصم، ونجد فى هذه الحالة أن الشكلين يفصلهما خط على شكل حرف *S*، وتمثلا خلط نوعين من المساحات ببعضهما مثل الأبيض والأسود التى قد لا توحى بشىء غير التجاور[2].

ولن يفيد تكرار ما سبق الحديث عنه هنا فيما تعلق بعلامة *يين يانج*، ولكن سنكتفى بذكر أن هذه الرمزية لا يشوبها شائبة من 'الثنوية'، فهذه المزدوجات تقوم على مبدأ الوحدة *تاى كى* فى الشرق الأقصى، وهذه مسألة فى غاية الأهمية بموجب أنها أثارت كثيرًا من التفاسير المغلوطة، فقد اعتقد

---

1 راجع باب *4* من 'الثلاثى الأعظم'، وقد أتيح لنا قراءة مقال ربط كاتبه اللون الأبيض بالين والأسود باليانج، والعكس هو الصحيح، فماذا نستنتج من ذلك إن لم تكن النتائج المتحصلة منها نتيجة لأفكار مسبقة؟

2 وقد استُخدِم الترتيب الأخير فى حالات خاصة، ونعلم أنها وجدت بين فرسان المعبد، وقد كان أحد شعاراتهم حصان أسود بأرجل بيضاء، وهو المعنى ذاته.

البعض أنهم يستطيعون الحديث عن ’ثنوية‘ فيما تعلق برمز يين يانج، وربما كان ذلك نتيجة سوء فهم، ولكنه كذلك قد يكون ناتجًا عن سوء نية، وعلى كل ففيما تعلق بالمعنى الرمزى لترابيع البلاط التى تشبه رقعة الشطرنج غالبًا ما كانت التفاسير تصدر عن مناوئين للماسونية، والذين يتهمونها بالمانوية *Manichaism*[3]، ويمكن بالتأكيد أن يكون بعض ’الثنويين‘ قد قلبوا المعنى الحقيقى للرمزية حتى يفسروها بالاتساق مع مذاهبهم، وللسبب ذاته استطاعوا تغيير الرموز التى تعبر عن التوحيد والصمدية بقدر ما يفقهونها، ولكنها على كل ليست إلا انحرافات عن الرشد التراثى *heterodox deviations*، والتى لن تؤثر على الرمزية ذاتها على أى نحو كان، كما لن تستطيع المساس بالمنظور التعميدى بانحرافاتها التى لا تستحق الانتباه[4].

وفيما عدا المعنى الذى طرحناه هناك أيضًا معنى أعمق قد نتج مباشرة من المعنى المزدوج للون الأسود، وهو ما فسرناه فى مناسبات أخرى، ولكننا الآن نعتبر فى المعنى الكوزمولوجى الأدنى، وعلينا أن نتناول المعنى الميتافيزيقى الأسمى، ونجد فى التراث الهندوسى مثالًا واضحًا هو أن المُعمَّد لابد أن يجلس على فراء أبيض وأسود، بما يرمز إلى التجلى واللاتجلى على الترتيب[5]، وتبرر حقيقة أنها طقس تعميدى جوهرى مقارنتها بالبلاط الماسونى وتسميات المعانى المرتبطة به حتى لو كانت تعبيرًا مناسبًا عنه، وحتى لو كانت منسية تمامًا فى الحال الراهن، فلدينا رمزية تساويها فى *آرجونا* الأبيض و *كريشنا* الأسود، وهما الفانى والخالد أو ’الأنا‘ و’النفس‘[6]، وكذلك

---

3 وعليه فإن هؤلاء الناس لو كانوا منطقيون لا ستنكفوا من لعب الشطرنج حتى لا يقعوا فى مخاطر إدانة أنفسهم، ألا تكفى هذه الملحوظة البسيطة برهانا على عقم أفكارهم؟

4 و سوف نتذكر ه نا الطبيعة الإبليسية وراء ’انقلاب الرموز‘ الأرثوكسية، وخاصة رمزية منظمات التعميد لتعنى عكسها، والحق إن هذه الانقلابات من أعمال المناهضين للتعميد، راجع باب *30* فى ’هيمنة الكم وعلامات الزمان‘،ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

5 *Satapatha Brahmana m.2.1.5-7. — On another level, these two colors also represent heaven and earth, but attention must be paid to the fact that by reason of their correspondence with the unmanifested and the manifested, it is then black that is linked to heaven and white to earth, so that the relations existing in the case of yin-yang are inverted; moreover, this is only an application of the inverse sense of analogy. The initiate must touch the junction of the black and white hairs, thus uniting the complementary principles from which he is to be born a 'Son of Heaven and of Earth' (cf. The Great Triad, chap. 9).*

6 *This is also the symbolism of the Dioscuri [Castor and Pollux]; the relation of these with the two hemispheres or the two halves of the 'World Egg' brings us back moreover*

الطائرين المتلازمين بلا انفصال فى الأوبانيشادات، وهو ما يثير رمزية أخرى عن نسرين رأس أحدهم آبيض ورأس الآخر أسود فى ماسونية المراتب العليا، وهو برهان على أن اللغة الرمزية ذات صبغة كلية.

………………………………..

to the consideration of heaven and earth, which we indicated in the previous note (cf. The Great Triad, chap. 5).

48 الحجر الأسود و الحجر الأبيض

أحيانًا ما يجب لفت الانتباه إلى التوهمات اللغوية التى أدى إليها اسم كيبل *Cybele*، ولن نعود هنا إلى ذكر التى خلت من أى أساس بشكل واضح، والتى غالبًا ما كانت من بنات أفكار ناس بعينهم[1]، ولكننا سنقتصر على بعض المقارنات التى تبدو جادة من النظرة الأولى حتى لو كانت بلا مبرر، وقد وجدنا مؤخرًا فرضيات تدفع بأنها اتخذت اسمها من كلمة 'قبه' العربية، بدعوى أنها كانت "تُعبد فى مغارات نظرًا لطبيعتها الجنائزية"، ويعتور هذا التأصيل المزعوم خطئان يكفى أحدهما لتدميره، فتعتمد أولًا على أول حرفين فحسب من جذر كلمة *Cybele*، والذى يحتوى أصلًا على ثلاثة حروف، ولا حاجة لقول إن الحرف الثالث جدير بالإهمال شأنه شأن الحرفين الأولين، والواقع أنه لا يعتمد إلا على سوء فهم، فلم تكن القبة تعنى 'قبوًا'، ويعتقد كاتب هذه الفرضية "إن القاعة المقبية السقف أو المدفن" تعنى 'قبة *dome* أو *cupola*'، والتى تنتمى إلى الرمزية السماوية لا الأرضية، ولذا كانت العكس المباشر للطبيعة التى تُعزى إلى *Cybele* أو 'الأم العظيمة'، وقد ذكرنا فى دراسات أخرى أن القبة عادة ما تعلو مبنى على قاعدة مربعة أو مكعبة، وهو ما ينتمى إلى رمزية أرضية، وهذا ما يدعونا إلى تناول فرضية أخرى عن موضوع أصل اسم *Cybele*، ولها أهمية خاصة فيما نتناوله هنا.

وقد جرت محاولات لاشتقاق *Kubele* من *kubos*، ولكنها على الأقل قد تجنبت سوء الفهم فى الحالة الأسبق، ولكن هذا التأصيل شأنه شأن السابق من حيث الاكتفاء بأول حرفين من *Kubele*، وهو مايؤدى إلى

1 *We will therefore say no more about the assimilation of Cybele to a 'mare' (cavale), nor about the parallel that some have sought to draw with 'chivalry', nor, again, about the no less imaginary connection with the 'Kabbalah'.*

استحالة صياغة وجهة نظر لغوية[2]، ولو كانت المسألة مقصورة على رؤية تشابه صوتى بين كلمتين كما يجرى غالبا فقد يكون لها قيمة رمزية من منظور بعينه، وهذا أمر مختلف تماما، لكن لابد من قول إن كلمة *Kubele* على الحقيقة ليست من أصل يونانى قبل فحص هذه النقطة على نحو أدق، وأن هناك أمرا ملغزا فى هذا التأصيل، ويتصل مباشرة بالكلمة العبرية 'جِبَل *gebal*' والعربية 'جَبَل'، واختلاف الحرف الأول من *g* إلى *k* ليس إلا تصحيفا معتادا لا يترك مجالا للشك فى أنها تعديل ثانوى تؤيده أمثال عدة، وهو اسم ربة الجبل[3]، وجدير بالذكر أن معنى اسمها مساوٍ تماما لمعنى اسم *بارفاتى* فى التراث الهندوسى.

ولاشك أن معنى كيبل له علاقة 'بالحجر الأسود'، وهو رمز معروف بشكله المخروطى، وهو يشبه 'بيت إيل' من حيث الوزن الصرفى، ولابد من اعتباره صورة مصغرة من الجبل من حيث الصبغة المحورية، وحيث إن الأحجار السوداء المقدسة قد جاءت من النيازك فإن هذا الأصل السماوى يضفى عليها صبغة 'جنائزية *chthonian*' أشرنا إليها فى أول هذا الباب وتناظر جانب واحدا من كلمة *Cybele*، أضف إلى ذلك أن المحور الذى يمثله الجبل ليس 'أرضيا'، فهو يربط بين السماء والأرض، ونضيف أن سقوط 'الحجر الأسود' وتعاليه النهائى يجرى على هذا المحور رمزيا، فهنا كذلك نجد علاقة بين السماء والأرض[4]، ولا جدال فى أن كيبيل غالبا ما تؤَل إلى 'الأرض الأم'، إلا أن لها جوانب أخرى، كما أن من الممكن أن الإهمال التام لهذا

---

2 وسوف نشير عَرَضا إلى أن ما يثير الشك رغم انضباط الترادف وشيئا من التماثل الصوتى أن يكون هناك قرابة بين كوبوس اليونانية و كعب العربية، بموجب الحرف الثانى ع الذى لا مثيل له فى اللغات الأوروبية ولا يمكن كتابته، وعادة ما يلجأ الغربيون إلى استنباط نتائج خاطئة لكلمات تنتمى إل جذور مختلفة.

3 ونلاحظ عرضا فى سياقنا أن *Gebal* كان اسم مدينة ببيلوس الفينيقية وكان يطلق على أهلها *Giblim* وقد بقى ذلك الاسم 'كلمة سر' فى الماسونية، ولكن لم يلحظ أحد الصلة بين هذا الاسم وبين اسم *Ghibellines* فى العصر الوسيط، لكن بينهما تشابه مدهش، ولو كان من قبيل الصدفة فلابد أن تكون عجيبة للغاية..

4 *In connection with this, see 'Lapsit exillis' [chap. 44 above]. — There exists in India a tradition according to which at one time mountains could fly. Indra hurled them to Earth and fixed them there by striking them with lightning; this is manifestly to be compared further with the origin of the 'black stones'.*

الجانب ناتج عن هيمنة الجانب الأرضى، والذى أدى إلى اضطرابات بعينها، وعلى الأخص الذى أدى إلى تمثيل ’الحجر الأسود‘ و’الحجر المخروطى‘ رغم أنهما ينتميا إلى رمزيتين مختلفتين[5].

فالحجر الآسود بالضرورة ’حجر أساس‘ ولذا كان أرضيا كما تعنى صورته[6]، ويدل على خير وجه على وظيفة ’الأرض الأم‘ لتمثيل المبدأ ’القابل *substantial principle*‘ للتجلى الكلى، ولذلك يرى المنظور الرمزى أن الصلة بين كيبيل والحجر المكعب لايصح إنكارها بناءًا على أنها مجرد انحراف صوتى، ولكن ذلك لا ينبغى أن نسعى إلى تأصيله، ولا إلى تماهيه مع ’الحجر الأسود‘ المخروطى، إلا أن هناك ظرفا واحدا تنعقد فيه الصلة بين ’الحجر الأسود‘ و’الحجر المكعب‘، وهو حين لا يكون الحجر الأسود ’حجر أساس‘ بل ’حجر زاوية‘ على الأركان الأربعة للمبنى، بل حجر شيثياه الذى يحتل قاعدته، ويناظر النقطة التى وقع فيها ’الحجر الأسود‘ على الطرف المقابل للمحور الرأسى ذاته، والذى ليس مكعب الشكل، ويناظر مبتدأ الموضع ’السماوى‘ ومنتهاه للحجر الأسود، ولن نسهب فى هذه الاعتبارات نظرًا لأننا طرحناها بتفصيل أكثر فى موضع آخر[7]، لكننا سنذكر فى الختام بشكل عام أن رمزية ’الحجر الأسود‘ فى أوضاعه وأشكاله المختلفة مرتبط بمنظور الكون الأصغر إلى ’وضعية‘ لوز *luz*أو بذرة خلود الإنسان.

---

5 وقد لفتنا النظر فى مقال نشر فى عدد يناير فبراير *2945* إلى فرضية جسيمة عن وجود ما يسمى ’الربة كعبة‘ والتى يُفترض أن الحجر الأسود بمكة يمثلها،

We have called attention in a review [fjudes Traditionnelles, January-Febru- ary 1946] to the incredible supposition of the existence of a so-called 'goddess Kaaba' who supposedly would have been represented by the 'black stone' of Mecca, also called Kab'ah; this is another example of the same confusion, and since then we have been surprised again to read the same thing elsewhere, which shows that this error would seem to be current in certain Western circles. It must be recalled, therefore, that Ka'bah is in no way the name of the 'black stone', this latter not being cubic, but is the name of the edifice in one corner of which this stone, which is indeed in the form of a cube, is set; and if the Ka'bah is also Bayt Allah ('house of God', like the Beth-el of Genesis), it has however never itself been considered as adi- vinity. Moreover, it is very probable that the peculiar invention of the so-called 'goddess Kaaba' was in fact suggested by the above-mentioned comparison of Kubele and Kubos.

6 *See The Reign of Quantity and the Signs of the Times, chap. 20.*

7 *See again 'Lapsit exillis'.*

49 حجر منحوت و حجر غشيم

طالعنا مقالا عن أن المنابر العبرانية القديمة كانت تبنى بأحجار غشيمة، ووجدنا فقرة مثيرة تقول،

"إن الماسونية قد غيرت رمزية البناء بالحجر الغفل من نطاق المقدسات إلى نطاق الدنيوية، وقد كان الغرض الأصلى منه التعبير عن العلاقات التى تفوق الطبيعة بين النفس وبين الرب 'الحى'، ومن ثم التعبير عن حقائق خيميائية وأخلاقية واجتماعية وغيبية".

وما نعرف عن هذا الكاتب من هذه السطور أنه أحد الذين تبلغ الأفكار المسبقة لديهم حدًا يتجاوز الأمانة، فأن تُغيِّر منظومة تعميدية معنى رمزيا "إلى نطاق الدنيوية" أمر عبثى لا يمكن أخذه بجدية، كما أن تضخيم لفظة 'الحى' تنم عن نية مبيتة لتحديد النطاق المقدس على منظور التدين، وأن الغالبية العظمى من الماسونيين المعاصرين لا يفهمون رموز دينهم بأكثر مما يفهم المسيحيين رموز دينهم، فكيف يكون الماسونيون أو المسيحيون مسئولون عن أمور ناتجة عن أحوال العالم الحديث؟ والذى يعتبرهما 'قد عفا عليهما الزمن *anachronistic*' بموجب صبغتهما التراثية؟ وقد أصبحت الميول الأخلاقية التى قامت منذ القرن الثامن عشر حقائق واقعة لو تحسبنا للعقلية العامة للانحطاط 'التأملى *speculative*' الذى نوهنا عنه مرارًا، ويمكن قول الأمر ذاته عن أهمية المنظور 'الاجتماعى' المتزايدة، وليس الماسونيون المعاصرون استثناءً من هذه القاعدة، ولو نظرنا بلا تحيز لما يُدرَّس باسم الكنيسة المسيحية فلن نجد إلا قليلا غير الاهتمامات الاجتماعية والأخلاقية، وحتى نفرغ من هذه الملحوظة نشير إلى الخطل الذى ربما يكون

متعمدا فى وصف الماسونية ’بالغيبية *occultist*‘ التى تنأى عنها تماما حتى فى نطاق ’التأملية‘ أما عن الخيميائية أو بالحرى الرمزية الهرمسية فليس فيها ما هو دنيوى، فهى تتعلق بما يسمى ’الأسرار الصغرى‘، والتى تشكل نطاق التعميد فى الصنائع عموما والماسونية خصوصا.

ولم تكن بدايتنا فى هذا الباب للتركيز على المسألة المطروحة فى تلك الفقرة رغم أهميتها بقدر ما كانت مناسبة لطرح بعض المعلومات المفيدة عن رمزية الحجر الغفل والحجر المنحوت، والواقع أن الماسونية تضفى على الحجر الغفل معنى مختلفا عن معناه فى بناء المنابر اليهودية والآثار قبل التاريخية *megalithic monuments*، ولو كان الأمر كذلك فأنها لا تنتمى للتراث ذاته، وذلك أمر هين الفهم للذين قرأوا تفسيرنا للاختلافات الجوهرية بين الشعوب الرعوية والحضرية[1]، فعندما تحول الإسرائيليون من الرعى إلى الحضر لم يعد هناك حظر على البناء بالحجر المروَّم بعد أن لم يبق من سبب له فى زمن بناء معبد سليمان، والذى لم يكن عملا دنيويا على وجه التاكيد، كما أن أصول الماسونية تنتمى إليه رمزيا على أقل تقدير، ولم يهم كثيرا أن يُبنى المنبر من حجر غفل، فهى حالة شديدة الخصوصية لم يحفظها التراث دون أى تهوين للرمزية الأولانية، وقد أصبح من المستحيل بناء أشد المنابر تواضعا بالحجر الغفل، زد على ذلك أن المنبر ليس فيه شيء من المعادن، وهو ما أشار إليه الكاتب المذكور فى مقاله، كما أنه أمر ينتمى إلى طبقة أخرى من الأفكار التى فسرناها فى سياق الحديث عن رمزية ’سبك المعادن‘ فى الماسونية.

ولاشك أن القوانين الدورية ’قبل التاريخية‘ عند الشعوب التى بنت الآثار المذكورة كانت أقرب إلى المبدأ ممن أتى بعدهم، لكن من المؤكد كذلك أن ذلك الحال لا يبقى على ما هو دون تغير فى أحوال الإنسانية وتاريخها مما احتاج إلى تعديلات وتلاؤمات متوالية للتراث، والتى ستحدث حتما حتى فى سياق وجود شعب واحد ودون انقطاع فى تراثه كما تبين الأمثلة فى تاريخ العبرانيين، ومن جانب آخر عالجناه سلفا كان من المؤكد أن يجرى استبدال البناء بالخشب بالبناء بالحجر بين الشعوب الحضرية نظرا

---

1 راجع البابين *21* و *22* من كتاب ’هيمنة الكم وعلامات الزمان‘، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

'للتصلب' المتوقع فى المرحلة الدورية 'الهابطة'، ولكن بمجرد أن صارت هذه الصيغة فى البناء ضرورية لأحوال الزمن فى حضارة تراثية فلابد أن الحضارة ذاتها قد أمدتها بالشرعية مع الشعائر والرموز اللازمة فى الوسط الإنسانى، وهو ما ذكرناه عن التعديل فى هذا الشأن، وتنطبق هذه الشرعية على كل الحِرَف والصنائع بدءً من قطع الحجر للمنشئات، ولن تكون فعالة إلا بشرط أن يكون لكل حرفة تعميدا يناسبها حسب مفهومها التراثى، فكل حرفة لابد لها من تطبيق مبادئها فى إطار مجالها، وقد كانت الأمور تسير على هذا المنوال فى كل الحرف وفى كل أين، فيما عدا فى العالم الغربى الحديث بالطبع، والذى فقد كل سماته التراثية، ويصدق ذلك على حرفة البناء التى نعتبر فيها هنا على وجه الخصوص، ولكنه يسرى كذلك على الحرف الأخرى بحسب الزمن والمكان، ومن المهم مراعاة أن ذلك التسويغ الشرعى كان ممكنا بكل ما تعلق به أحوال فيما عدا فى الحِرَف الميكانيكية التى لم تظهر إلا فى العصر الحديث، أما عن الحجارين والبنائين الذين تعودوا على منتجات حرفتهم فماذا يعنى الحجر الغفل عندهم إلا 'مادة أولية' أو 'فوضى' من حيث كل جوانبه وتناظراته مع الكون الأكبر والكون الأصغر؟ أما الحجر المنحوت من كل جوانبه فهو الكمال لا كذب، وهذا هو كل ما هنالك من تفسير للفارق الرمزى بين الحجر المنحوت والحجر الغفل كما فى حالة الآثار القديمة المذكورة والمنابر البدائية وحتى الأحجار الغفلة التى نشأت فى الماسونية، وسنضيف دون تمديد للنقطة أن ذلك الاختلاف يناظر جانبا مزدوجا فى 'المادة الأولية' يتفق مع تجليها إما كرمزٍ للعذرية وإما كرمزٍ للفوضى، وقد كانت *براكريتى* فى التراث الهندوسى هى الاحتمال الصرف الذى يكمن تحت كل تجليات الوجود، كما أنها جانب من *شاكتى* أو 'الأم الربانية'، ومن الواضح أن المنظورين ليسا قصريين على أى نحو كان، وهو ما يبرر وجود منابر الحجر الغفل جنبا إلى جنب مع منابر الحجر المنحوت، وتبين هذه الملاحظات أن تفسير الرموز كأى شىء آخر يحتاج أولا إلى وضع كل شىء فى موضعه الصحيح وإلا أدى إلى المخاطرة بالوقوع فى أشد الأخطاء *egregious errors*.

الرمزية المحورية ورمزية التحولات

50 رمزية التشاكلات

قد يبدو غريبا للبعض أن نتحدث عن رمزية التشاكلات، فلو كان يُقال غالبا أن الرمزية قائمة على التشاكل، وكل رمز أيا كان لابد أن يعبر عن تشاكل، إلا أن هذه الطريقة فى النظر إلى المسألة ليست تامة الانضباط، فما تقوم عليه الرمزية فى المقام الأول هو التناظر بين مقامات الوجود المختلفة، ولكن ليس كل تناظر تشاكل، ونحن نأخذ التشاكل بأشد معانية انضباطا حسب الصيغة الهرمسية، أى علاقة ما هو أسفل بما هو أعلى، وهى علاقة لا نفتأ نكررها كلما سنحت سانحة لذكرها، وتعنى جوهريا اعتبار 'العلاقة المقلوبة' بين حدَّين، وسنجد فى الرموز التى سنعالجها فيما يلى أن هذا الاعتبار محفور فيها بوضوح، ولابد أن يندهش الذين يرجعون إلى هذه الرموز أنهم لم يلاحظوا ذلك من قبل، لكنهم يعبرون عن عجزهم عن تفسيرها على وجهها الصحيح.

وتعتمد بنية الرموز التى نتناولها على العجلة سداسية البرامق، وقد ذكرنا أن العجلة عموما رمز للعالم، ويمثل محيطها التجلى الذى تنتجه البرامق التى تمتد من مركزها، لكن عددها يختلف من حالة إلى أخرى كى تضيف إلى الرمز معان بعينها، ويختفى محيطها فى بعض الرموز المشتقة منها إلا أن بنيتها لا بد أن تعتبر مرسومة بداخله، ولذا تعتبر هذه الرموز موصولة بالعجلة وشكلها الخارجى حتى لو لم تكن موجودة وظاهرة بصراحة، ويعنى غيابها ضروة حصر الانتباه فى تجليها ذاته وليس فى المجال التى تجلت فيه، ويظل

هذا المجال بلا تحديد خارج نطاق الرسم الواقعى للدائرة.

وأبسط الأشكال يُعتبر أساسا لكل الأشكال الأخرى، وهو ستة أنصاف أقطار تنبثق عن المركز وتشكل ثلاثة أقطار أحدهما رأسى واثنان مائلان عليه بالتساوى، ولو كانت الشمس تحتل المركز لأصبحت البرامق هى الأشعة الستة المذكورة عاليه[1]، ولكن 'اليوم السابع' ليس له ما يمثله غير المركز ذاته، أما الصلة التى أشرنا إليها بالصليب الثلاثى الأبعاد فتتضح على الفور فى المحور الرأسى الذى لا يتغير والقطرين المائلين اللذان يشكلا إسقاطا للمحورين الأفقيين، لكن هذا الاعتبار الأخير رغم ضرورته للفهم الكامل للرمز ليس من بين التى تحقق كمال التشاكل، فيكفى أن نعتبر فى الرمز بذاته دون الحاجة إلى مقارنته بغيره من الرموز التى ارتبطت بجوانبه المختلفة ومعانيها المركبة.

ويسمى هذا الشكل فى الرمزية المسيحية رمز المسيح البسيط *simple chrismon* من واقع أنه يتكون من اتحاد حرفا '*I*' و'*X*' اليونانيين كحروف أولى لكلمتى *Jesous Christos*، وهو معنى ظهر فى أول عهود المسيحية، لكن لا حاجة لقول أن الرمز ذاته قد ظهر قبل المسيحية بزمن طويل فى كل مكان وزمان، فيبدو رمز المسيح القسطنطينى الذى تكون من اتحاد حرفا '*X*' و'*P*' كأول حرفين من كلمة *Christos* لآول وهلة اشتقاقا مباشرا من رمز المسيح البسيط، فالمعنى الأصولى محفوظ تماما ولم يزد عليه سوى المنحنى الذى أضيف على المحور الرأسى أو حرف '*I*' على سبيل التمايز، وتبدو نصف الدائرة كما لو كانت تناظر قرص الشمس الذى يظهر إلى جانب المحور الرأسى أو 'شجرة العالم'، ويهمنا هذه التفصيلة فيما سوف نتناوله لاحقال عن رمزية الشجرة[2].

---

1 راجع باب *41* 'الباب الضيق'.

2 كما أن بعض الصور الوسيطة بين رمز المسيح والرمز المصرى 'عنخ' تدل على قرابتهما باعتبار ما قيل عن الصليب ثلاثى الأبعاد، كما أن أنشوطة حرف *P* تتخذ معنى الرمز المصرى 'للجام الحصان'، وهو أحد تنويعات رمز المسيح بعلامة الأربعة عند طوائف الحِرَف القديمة، والتى

ولنلاحظ خاصة أن رمزية الفروسية التى تتخذ الرمز العام للستة برامق التى يدور حولها كثيرا من التنويعات على شعارات الدروع، فنلاحظ على سبيل المثال أن النسر أو أى طائر آخر تناظر رأسه وطرفا جناحاه وذيله ومخلباه أنصاف الأقطار الستة، ثم إننا لو نظرنا إلى شعار مثل الزنبقة *fleur-de-lis* لرأينا الأمر ذاته، ولا يهم ما إذا كانت الحالة الأخيرة هى الأصل التاريخى للشعار المقصود، وهو موضوع أدى إلى ظهور فرضيات عدة، فسواء أكانت الزنبقة زهرة حقيقية تساوى رمزية العجلة ورمزيات زهرية أخرى مثل اللوتس والوردة ببتلاتها الستة أم كانت رأس حربة أم طائرا أم نحلة فإن الرمز الكلدانى القديم للملكية 'سار' أو حتى ذكر الضفدع[3]، أم كانت ناتجة عن تحريف أم إضغامٍ لعدة أشكال أخر فقد حافظت فقط على السمات العامة المشتركة بينها، وهى موضوع حديثنا، وهى العامل الجوهرى فى تحديد المعنى الرئيسى.

ومن جانب آخر لو أننا مددنا خطوطا بين النقاط الستة اثنين اثنين فإننا نحصل على خاتم سليمان المعروف الذى تشكل بتقاطع مثلثين متساويا الأضلاع باتجاه معكوس، ومن ثم النجمة السداسية التى تختلف عنها برسم المحيط الخارجى، ومن الواضح أنها تنويع على الرمز ذاته، كما أن هرمسية القرون الوسطى المسيحية قد رأت فى المثلثين توحدا للطبيعتين الربانية والإنسانية فى شخص المسيح، وعدد *6* الذى ينتمى إليه هذا الرمز على نحو طبيعى يشتمل على معنى هذا التوحد أو التوسط الذى يناسب تماما فى هذا

....

تحتاج إلى دراسة خاصة، لكن *quatre de chiffre* لا يمكن ترجمتها عمليا إلى اصطلاح واحد، راجع باب *67* 'علامة الأربعة'، كما أن رمز المسيح أحيانا ما يُحاط بدائرة تنسبه إى رمزية العجلة سداسية البرامق..

3 ولابد أن هذا الرمز على غرابته كان مقبولا فى قديم الزمان، فقد كان سجاد كاتدرائية ريمس *Rheims* يصور زهرة برسيم تحملها ثلاث ضفادع، كما أن من المحتمل أن الضفادع كانت رمزا قديما للبعث بموجب أنها تمثل مرحلة جمعت بين البريات والبحريات، وهو ما جعلها رمزا مسيحيا فى القرون الأولى.

المقام[4]، فهذا العدد فى القبالة اليهودية هو عدد ’الخلق فى ستة أيام‘ كما ورد فى سفر التكوين من العهد القديم، والذى يتعلق كذلك برمزية الاتجاهات الستة فى الفضاء، إلا أن تسمية هذا الرمز باسم ’الكلمة‘ له ما يبرره فى الترجمة الشكلية لآية إنجيل يوحنا "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيئ مما كان" *1 :3*.

ونأتى الآن إلى النقطة التى نريد طرحها فى هذه الدراسة، فالمثلثان المنعكسان فى خاتم سليمان يمثلان ثالوثين كل منهما انعكاسا مقلوبا للآخر، ومن ثم يصبح الرمز هنا تمثيلا للتشاكل، فأنصاف الأقطار الستة يمكن أن تشكل ثالوثين متناظرين أحدهما الذى تشكل بالثلاثة أطراف أنصاف الأقطر العليا وبين الثلاثة السفلى، وحيث أنهما يقومان على جانبى مستوى الانعكاس الأفقى كما فى فى المثل السابق فإنهما ينفصلا بدلا من أن يرتبطا رغم أن العلاقة بينهما تامة التساوى، ولكى نبين معنى الرمز على نحو أوضح فإن القطر الأفقى فى الشكل السداسى يمثل الصورة التى تظهر على سطح الانعكاس الأفقى أو سطح الماء بالمعنى المقلوب، ونضيف أن أنصاف الأقطار المائلة تشكل الصورة المرئية للمخروطين من قمة إلى قمة حول القطر الرأسى، وهنا كذلك قمتهما المشتركة فى مركز الشكل، وتقع فوق مستوى الانعكاس، وكل من الركنين صورة مقلوبة من الآخر.

وأخيرا نعود إلى شكل خيوط الأشعة السته الذى يتعدل أحيانا بشكل طفيف يسهل التعرف عليه، وكذلك رمز الشجرة المهم التى لها ثلاثة فروع وثلاثة جذور، حيث نجد بوضوح ثلاثيان منعكسان مذكوران توا، وهذا المخطط يمكن رؤيته من جهات متعاكسة تتخذ فيها الفروع موقع الجذور، وسوف نعود إلى هذا الموضوع فى باب ’شجرة العالم‘.

---

4 وقد كان الرمز الصينى الذى يحتوى على ستة كشيدات متوازية يمثل الحد الأوسط من ’الثلاثى الأعظم‘، أى الوسيط بين السماء والأرض، أى ’الإنسان الحق‘ الذى جمع فى ذاته الطبيعتين السماوية والأرضية.

51 شجرة العالم

لقد تحدثنا عن 'شجرة العالم' ورمزيتها المحورية فى عدد من المناسبات[1]، وسوف نضيف هنا دون ذكر ما تناولناه سلفا بعض الملاحظات التى تتعلق بنقاط بعينها من هذه الرمزية، وخاصة فى الحالات التى تبدو الشجرة فيها مقلوبة، أى إن جذورها إلى أعلى وفروعها إلى أسفل، والتى خصص لها كوماراسوامى دراسة مستقلة بعنوان 'الشجرة المقلوبة'[2]، ومن السهل فهم أن سبب الانقلاب هو أن الجذور تمثل أصل مبدئها فى حين تمثل الفروع تجليات هذا المبدأ، لكن هذا التفسير العام يحتاج إلى إضافة بعض الاعتبارات بدرجة أكبر من التعقيد، والذى يعتمد دائما على تطبيق 'المعنى المقلوب' للتشاكل، وقد أشرنا سلفا إلى تشاكل الرمز بالمعنى المنضبط بما يمثله، أى إن شكل أطراف أنصاف الأقطار الستة تنتمى إلى مجموعتين ثلاثيتين كل منهما مقلوب للأخرى، أى مخطط الفروع الثلاثة والجذور الثلاثة، وهو مخطط يمكن النظر إليه من جهتين متعاكسين، وهو ما يعنى إمكان النظر إلى الوضعين المختلفين والمتكاملين للشجرة من أسفل أو من

---

1 راجع بابى 9 و25 من 'رمزية الصليب'.

2 لقد اقتبسنا من كاثا أوبانيشاد فى باب 5 من 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا' وكذلك من بهاجافاد جيتا، حيث بدت الشجرة على هذا المنوال، وقد اقتبس كوماراسوامى كثيرا غير ذلك متونا لا تقل عنها صراحة، وخاصة من ريجفيدا ومايتريا أوبانيشاد، *Coomaraswamy: Selected Papers, 1, Traditional Art and Symbolism, ed. Roger Lipsey (Princeton University Press, 1977). Ed.*

أعلى، أى بحسب المنظور من جهة المبدأ أو من جهة التجلى[3].

ويقتبس كوماراسوامى من دانتى وصف شجرتين مقلوبتين[4] بالقرب من قمة 'الجبل'، أى تحت مستوى الفردوس الأرضى مباشرة، وعند الوصول إليه تُرى الشجرتين فى وضعهما الطبيعى، وهكذا تبدو الشجرتان واقعيا انعكاسا للشجرة الوحيدة تحت مستوى تجدد الإنسان وخلقه، ومن المهم مراعاة أن الفردوس الأرضى لازالت شطرا من 'الكون'، إلا أنها افتراضيا 'فوق كونية'، ويجوز قول إنها تمثل 'قمة الكائن العَرَضى *بهافاجرا*'، ولذا تماهى مع سطح ماء العالم، وهو سطح الانعكاس، وهو ما يعيدنا إلى رمزية الصور المنعكسة، والتى نوهنا عنها فى تشاكل "ما علىَ" عن سطح المياه، أى النطاق 'فوق الكونى' منعكسا على 'ما دنى' عن هذا السطح، أى فى النطاق 'الكونى'، وبتعبير آخر فكل ما كان فوق مستوى الانعكاس معتدل وكل ما كان تحته مقلوبًا، ولو افترضنا أن الشجرة ترتفع عن سطح المياه فإن ما نراه صورة مقلوبة 'للكون' فى انعكاسها، فجذورها من أعلى وفروعها من أسفل، وعلى العكس لو أننا انتقلنا إلى مستوى أعلى من 'المياه'، فلن نرى هذه الصورة لأنها تحت أقدامنا، لكننا سوف نرى أصلها، أى الشجرة الحقيقية، والتى تمثل معتدلة فى هذه الحالة، لكن الشجرة هى هى على الدوام، إلا أن موضعنا هو الذى تغير منسوبا إليها، وكذلك النقطة التى ننظر منها إليها.

ويؤيد ذلك واقع أن متون التراث الهندوسى تذكر أن إحدى الشجرتين 'كونية' والأخرى 'فوق كونية' حيث إن أحدهما فوق الأخرى، ويمكن اعتبار أحدهما انعكاسا للأخرى، إلا أن ساقهما مشتركة بحيث صارتا جزآن

---

3 لقد أشرنا فى موضع آخر إلى أن الشجرة الثلاثية يمكن أن تكون بذاتها جُمَّاعا للتوحيد والثنوية، وتمثل لهما الرمزية التوراتية بشجرة الحياة وشجرة المعرفة، كما أشرنا إلى السيقان الثلاثة لشجرة السفيروت فى القبالة، وهى إذن الساق الوسطى التى تعتبر محورية تماما، راجع باب 9 فى 'رمزية الصليب'، ولكى نربط هذه الصورة بالمخطط المذكور لا بد من وصل 'العمودين الجانبيين' بخطين يتقاطعا على العمود الأوسط عند مركزه، أى تيفيريث التى تبرر طبيعته الشمسية مركزه المشع.

4 *Purgatory, 22-25.*

من ساق واحد، وهو ما يناظر مذهب "جوهر *آتما* الواحد وطبيعتيه"، ونجد ما يساويه فى تراث أفستان عن شجرتى *هاوما*، أحدهما بيضاء والأخرى صفراء، أحدهما سماوية والأخرى أرضية، وتبدو الثانية بديلا للأولى، فالإنسانية نائية عن 'الموئل الأولانى' كما تصير الرؤية غير المباشرة 'بديلا' عن رؤية الحقيقة، ويتحدث كتّاب ظوهار العبرى عن شجرتين تعلو أحدهما الآخرى، وتبدوا على خاتم أشورى.

وليست الشجرة المقلوبة رمزٌ ينتمى إلى 'الكون الأصغر' كما رأينا، بل ينتمى كذلك إلى 'الكون الأكبر' للسبب ذاته كما فى رمز 'الإنسان الكامل'، فيقول أفلاطون "إن الإنسان نبات كوكبى سماوى"، وهو ما يعنى أنه كالشجرة المقلوبة جذورها فى السماء وفروعها فى الأرض، وقد أساء الغيبيون فى زماننا استخدام هذه الرمزية التى ليست عندهم أكثر من مجرد مقارنة، ويفلت منهم معناها الأعمق تماما، ويعكفون على تفسيرها بمعانٍ 'مادية كثيفة' ليبرروها باعتبارات 'تشريحية' أو 'مورفولوجية' على جانب كبيرٍ من الرعونة الصبيانية، وهو مثل واحد بين كثرة من التشوهات التى أصابوا بها الأفكار الجزئية من التراث التى سعوا إلى فهمها كى يضيفونها إلى جملة مفاهيمهم[5].

وأحد المصطلحان لتسمية 'شجرة العالم' فى السنسكرية *نياجرودها* أى النمو إلى أسفل، وليس ذلك بموجب نمو الجذور الهوائية للأشجار من هذا النوع[6]، ولكن حينما تكون المسألة رمزية الشجرة فإنها تُعَدُّ مقلوبة[7]، ويشير مصطلح *نياجرودها* إلى هذه الشجرة تحديدًا، والتسمية الأخرى آشفاتها الذى يبدو فى الأصل على الأقل شجرة معتدلة رغم أن التمايز قد لا يكون واضحا، فهذه الكلمة تعنى 'موقف الحصان *ashva-stha*'، والحصان هنا رمز لآجنى أو الشمس أو كلاهما معا، ويُعتبر فى نهاية طريقه حيث يتوقف عند بلوغ 'محور

5 أى تمثيل الإنسان بشجرة بدون إشارة إلى انقلابها، ويقوم بدور مهم فى طقس كاربونارى.

6 *The species nyagrodha is commonly known as the 'banyan'. Ed.*

7 *Aitareya Brahmana, 7.30; Satapatha Brahmana, 11.2.7.3.*

العالم'[8]، ونتذكر فى هذا الصدد علاقة بين الأديان المختلفة حول صورة الشمس التى تتصل بالشجرة على نحو آخر، فيُمَثَّل لها بثمرة 'شجرة العالم'، والتى تسقط من شجرتها فى بداية كل دورة حتى تسكن فى النهاية، وتصبح الشجرة فى هذه الحالة 'موقف الشمس' حقا[9].

ولازال هناك ما نضيفه عن *آجنى*، فهو يتماهى مع 'شجرة العالم'، وهو ما أضفى عليه اسم *فاناسباتى* أى 'رب الشجر'، وهو ما يضفى بدوره على شجرة 'المحور' طبيعة نارية يرتبط عن قرب 'بالعليقة المشتعلة' من حيث إنها موقع التجلى الربانى، ولابد أن لها موضعا مركزيا، وقد ذكرنا فيما سلف 'عمود نار' أو 'عمود دخان' *آجنى* بديلا فى تمثيل بعض حالات الشجرة أو العمود 'المحورى'، وتكمل الملحوظة الأخيرة تفسير التساوى المذكور وتضفى عليه معناه[10]، وقد اقتبس كوماراسوامى من كتاب ظوهار فقرة عن 'شجرة الحياة' التى "تمتد من أعلى إلى أسفل"، أى إنها مقلوبة تمثل 'شجرة النور' التى تتسق تماما مع هذا التماهى ذاته، ويمكن أن نضيف إلى ذلك حالة من التراث الإسلامى فى سورة النور[11] "شجرة مباركة"، أى شجرة تمر نفوذا روحيا[12] " **لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ**" أى 'مركزية أو محورية'[13]، "**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**" النور 35 ويرمز هذا النور إلى نور الله سبحانه، وهو

---

8 وكذلك تقوم النسور بدور فى التراث اليونانى عندما تطير من أطراف العالم لتحط على الكأس المقدس فى مركز العالم.

9 راجع باب *9* من 'رمزية الصليب'، والحرف المقطعى الصينى الذى يعنى 'الشمس الغاربة' يصورها تستريح على شجرتها فى نهاية النهار.

10 ويجوز قول إن 'عمود النار' و'عمود الدخان' هما اللذان أرشدا العبرانيين عند خروجهم من مصر، الخروج *14*، إضافة إلى أنهما تجلٍ للحضور الربانى. .

11 القرآن الكريم سورة النور 35

12 وقد جاء هذا النفوذ الروحى كذلك فى القبالة العبرية حيث يُرمز إليه 'بندى النور' الذى ينتج من 'شجرة الحياة'.

13 وكذلك فإن موضع المحور القطبى بالمعنى 'الجغرافى' الصرف ليس فى الشرق ولا فى الغرب.

اللهِ بِذاته حقا، حيث قيل فى الآية ذاتها "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"، ومن الواضح أن الشجرة زيتونة بفضل توهج زيتها، وبالتالى طبيعتها النارية، ونجد هنا 'شجرة النور' المذكورة، ومن جانب آخر فى المتون الهندوسية على الأقل التى تصف الشجرة المقلوبة[14]، والتى تتماهى مع *براهما*، ولو أنها تماهت مع *آجنى* فى موضع آخر فلا تعارض بينهما، فإن آجنى فى التراث الفيدى أحد جوانب *براهما*، وفى المتن القرآنى فإن الله سبحانه يضئ العالم فى إهاب النور[15]، ولا مجال للإسهاب عن التوازى بأكثر من ذلك، لكننا نجد فيه مثلا باهرا للاتفاق بين الأديان.

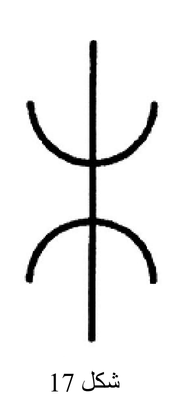
.

[14] *Maitri Upanishad 6.4.*

[15] وهذا النور 'نور على نور' يردد وضع الشجرتين المذكورتين 'شجرة على شجرة'، وهنا نجد 'جوهرا واحدا' و 'طبيعتين' علوية ودنيوية، أو لطيفة وكثيفة، وتناظر النور الباطن فى طبيعة الشجرة والنور الظاهر فى شعلة المصباح، والأول دعامة جوهرية للثانى.

52 الشجرة و فاجرا

لقد تحدثنا فى الباب السابق عن صورة شجرة ذات ثلاثة فروع وثلاثة جذور، والتى قامت على رمزية التشاكل العامة حتى إنها تُرى فى اتجاهين نقيضين، وسوف نضيف الآن بعض الملاحظات التكميلية، والتى ستوضح الصلة القريبة بين الرموز المختلفة 'لمحور العالم'، والواقع أن من السهل رؤية أن المخطط المذكور يتماهى أصوليًا مع صورة *فاجرا* المزدوجة شكل *17*، فالنهايتان المتعاكستان تشكلا الرمزية التى ذكرناها توا، وقد عرضنا فى دراسة سابقة لرمزية *فاجرا*[1]، وأشرنا إلى الصلة بين التثليث الذى يظهر عادة فى الرمزية المحورية لتمثيل المحور المركزى ذاته، والذى يحتل الموضع المركزى، ويصاحبه التياران الكونيان على يمينه ويساره ليشكل ثالوثًا 'لشجرة العالم'، كما أشرنا إلى أن هذه الحالة تمثل ثلاثية مزدوجة فى الفروع والجذور، وتذكرنا بأطراف فاجرا التى تشبه الرمح الثلاثى أو *تريشولا*.


شكل 17

وقد يطرأ سؤال عن الصلة بين رمز الشجرة ورمز البرق اللذان يبدوا لأول وهلة أمران مختلفان تمامًا، لكن ذلك يدفعنا إلى الذهاب فيما وراء واقعة واحدة عن المعنى المحورى تشارك فيها الرمزيتان، ونجد إجابة لهذا السؤال فيما ذكرنا سلفًا عن الطبيعة النارية لشجرة العالم، والتى تماهى معها *آجنى* باسم *فانا سباتى* فى

1 راجع باب *28*عاليه، وعن شكل فاجرا راجع *A.K. Coomaraswamy, Elements of Buddhist Iconography.*

الرمزية الفيدية، كما أن ʼعمود النارʻ يساوى المحور تمامًا، ومن الواضح أن طبيعة البرق لها بريق حارق، كما أن لمعة البرق من أكثر الرموز شيوعًا للاستنارة بالمفهوم الفكرى أو الروحى، وأما ʼشجرة النورʻ التى سبق ذكرها فإنها تعبُر كل العوالم وتنيرها كما ورد فى الفقرة التى اقتبسها كومارا سوامى من كتاب ظوهار، **"إن الاستنارة تبدأ من القمة وتمتد فى خطوط مستقيمة تخلل الساق بكامله"**، ويثير هذا الدفق من النور فكرة لمعة البرق، كما أن محور العالم يُعتبر مضيئًا دائمًا، وقد عرضنا لفكرة أفلاطون التى تصفه ʼكمحور من الماس المضىءʻ، وهو ما يصله مباشرة *بفاجرا* التى تعنى صاعقة البرق و صاعقة الماس.[2]

ونجد أكثر من ذلك فى التسميات المنتشرة لشجرة المحور *axial tree*فى أديان متنوعة، فهى ʼ شجرة الحياةʻ حينا وحينا تُعرف فى المذاهب التراثية على علاقة مباشرة ʼبالنورʻ وʼالحياةʻ، ولن نسترسل بأكثر من ذلك فى الدراسة الحالية، وقد عالجنا هذه المسألة فى موضع آخر[3]، وسوف نتذكر فحسب فيما تعلق بموضوعنا واقع أن القبالة العبرية توحدها مع فكرة رمزية ʼندى النورʻ الذى ينتج من ʼشجرة الحياةʻ، كما أن الفقرة التى اقتبسها كومارا سوامى من كتاب ظوهار عن الشجرة المقلوبة[4] حيث تصير شجرتين أحدهما فوق الأخرى، وقد سُميا ʼشجرة الحياةʻ وʼشجرة الموتʻ، وهو ما يُذكّر بدور رمز أشجار الفردوس الأرضى، وكذلك تعنى اكتمال التناظرات التى ابتغينا طرحها، فهذه المعانى ʼللموتʻ وʼالحياةʻ تتصل فى الواقع بالمعنى المزدوج لصاعقة البرق، والتى تمثلت فى طرفى فاجرا كما قلنا عاليه[5] حين تحدثنا عن القوة المزدوجة للإنتاج والتدمير، واللائى يعبر عنهما الميلاد والموت فى عالمنا هذا، أو هو ʼشهيقʻ الكون وʼزفيرهʻ فى التجليات الكونية، وقد بين كتاب ظوهار التناظر بين المرحلتين بوضوح، فالشجرتان أحدهما صاعد والآخر هابط،

---

2 وقد وجدنا توازيا كذلك بين الرمزية البوذية عن ʼعرش الماسʻ تحت شجرة المحور، وفى كل ذلك لابد من اعتبار الماس من حيث شفافيته وبريقة وصعوبة تقسيمه واستحالة تغيره كصورة للمحور فى صمديته..

3 *'Verbum, Lux et Vita' [in Perspectives in Initiation, chap. 48].*

4 راجع الحاشية رقم *2* ، والباب *26* ʼرمزية الأسلحةʻ، وكذلك باب *25* ʼالصاعقةʻ.

5 *ee above 'Symbolic Weapons' [chap. 26] and also 'Thunderbolts' [chap. 25].*

وكل منهما يتخذ موضع الآخر فى تبادل الليل والنهار، ألا ينجح ذلك فى تبيين مغزى كل هذه الرمزية؟

53 شجرة الحياة ورحيق الخلود

حينما تحدثنا عن 'شجرة العالم' وتمثيلاتها الشتى ذكرنا على الخصوص شجرة *هاوما* فى التراث *الأفيستى*، وتتصل هذه الشجرة وخاصة *هاوما* البيضاء 'الفردوسية' التى كانت *هاوما* الصفراء بديلة لها بجانب 'شجرة الحياة' من 'شجرة العالم'، فالرحيق الذى يستخرج منها يسمى *هاوما*، وله مواصفات رحيق *سوما الفيدى* المعروف الذى يتماهى مع *أمريتا* 'رحيق الخلود'، وحتى لو كانت *سوما* تصنع من الأعشاب لا من الشجر فليس ذلك اعتراضًا مقبولًا على صلتها برمزية 'شجرة العالم'، والواقع أن هذه الشجرة لها تسميات شتى إضافة إلى التى أطلقت على الشجرة بالمعنى المنضبط، ونجد من بينها 'نباتات *oshadi*' وحتى نوع من 'البوص *vetasa*'[1].

ولو تناولنا الرمزية التوراتية عن الفردوس الأرضى فإن الاختلاف الوحيد هو أنها تثمر فاكهة للخلود لا رحيقا، ولذا كانت 'طعامًا للخلود' وليست مشروبا[2]، لكنها على كل حال شجرة أو نبتة تحتوى على النسغ المُركَّز الذى هو جوهر النبات[3]، كما يحسن ملاحظة الرمزية النباتية فى الفردوس الأرضى، فإن شجرة الحياة وحدها هى التى بقيت فى وصف أورشليم السماوية، فى حين كانت باقى الرموز معدنية، وتثمر هذه الشجرة اثنى عشر ثمرة هى اثنى عشر 'شمسا' أو *أديتيا*

1 *Cf. A.K. Coomaraswamy, 'The Inverted Tree' [see chap. 51,112]*

2 *Among the Greeks, 'ambrosia', inasmuch as it was distinguished from 'nectar', is also a food, even though its name may be etymologically identical with that of amrita.*

3 وتعنى الكلمة السنسكريتية راسا كلى 'النسغ' و'الجوهر'.

فى التراث الهندوسى، والشجرة ذاتها تمثل الوحدة بينها لدى عودتهم إليها[4]، ويذكرنا ذلك بما قلناه عن الشجرة 'كموقف للشمس *station of the Sun*'، حيث تأتى الرموز التى تمثل الشمس إلى الشجرة لتستريح من فى نهاية الدورة، و *الأديتات* هم أبناء *آديتى*، وتعبر هذه الكلمة عن فكرة 'عدم الانقسام *indivisibility*' التى تعني كذلك 'عدم الذوبان *indissolubility*' وبالتالى 'الخلود'، كما أن *أديتى* ليست منبتّة الصلة 'بالجوهر النباتى' من واقع أنها 'ربة الأرض'[5] وفى الآن ذاته 'ربة الملائكة *Devas*'، والتناقض بين أديتى و ديتى[6] قد أنتج الملائكة *Devas* والشياطين *Asuras*، وربما ارتبط بهذا المعنى 'بشجرة الحياة' و'شجرة الموت' كما ذكرناهما فى الباب السابق، كما أن ذلك التعارض موجود فى رمزية الشمس ذاتها، حيث إنها تتماهى كذلك مع 'الموت *Mriyu*' عندما تلتفت إلى 'عالم الدنيا'[7]، كما أنها 'باب الخلود' الذى يمكن أن يسمى "الوجه الآخر للشمس"، وهو الذى يستدير نحو النطاق 'فوق الكونى'، ومن ثم تتماهى مع الخلود ذاته، وتعيدنا هذه الملحوظة الأخيرة إلى ما تناولناه سلفًا عن الفردوس الأرضى، والذى لازال شطرًا من 'الكون *cosmos*' إلا أن موقعه الافتراضى 'فوق كونى *supra-cosmic*'، ويفسر ذلك لماذا يمكن الحصول هناك على ثمرة 'شجرة الحياة'، وهو ما يربو إلى قول إن الكائن الذى بلغ مركز عالمنا قد بلغ الخلود، وما يصدق على الفردوس الأرضى يصدق كذلك على أورشليم السماوية، وحيث إنهما جانبان متكاملان للحقيقة ذاتها بحسب رؤية علاقتها فى مبتدأ الدورة الكونية أم فى نهايتها.

ومن نافلة القول أن كل هذه الاعتبارات لابد أن تتعلق بواقع وجود أديان مختلفة، وتبدو الرموز النباتية كما لو كانت 'تطلبًا للبعث والخلود'، و'الغصن الذهبي' فى الأسرارية القديمة، والأكاسيا التى حلت محل التعميد الماسونى، وكذلك سعف

---

4 راجع 'ملك العالم' بابا 4 و 11، كما يمكن الإشارة إلى ما قلناه سلفا عن 'رحيق الخلود' والتبدلات التراثية التى جرت عليه، المرجع السابق باب 5 و 6.

5 *Cf. A. K. Coomaraswamy, 'The Inverted Tree', art. cit.*

6 وهى ربة هندية قديمة للأرض لكنها أقل سلطانا من آديتى الربة التى تحكم النظام الشمسى بأكمله، ... ولذا قيل إنها أم 'العمالقة *Titans*'. موسوعة الأديان والفلاسفات الشرقية، تراث واحد قيد النشر.

7 *In this connection, considerations could also be developed from the relationship of the sun and its revolutions with time (Kala) which 'devours' manifested beings.*

النخيل فى التراث المسيحى، والدور العام الذى تقوم به الرمزية بالأشجار دائمة الخضرة، والأشجار التى تنتج الصموغ أو الأعناب[8]، ولا مجال للاعتراض على أن الزرع يُعتبر ذا طبيعة 'شيطانية *asuric*' فى التراث الهندى، والواقع أنه ينمو فى الهواء لكن جذوره فى خفاء تحت الأرض، وهو ما يعنى طبيعة مزدوجة تناظر 'شجرة الحياة' و'شجرة الموت'، كما أن جذوره المدفونة هى التى تغذى نموه الخضرى، وهو ما يعنى 'أولوية' *الأسورات* فى علاقتهم *بالديفات*، ومما له مغزى أن يكون الصراع بينهما حول 'رحيق الخلود'.

وقد كانت العلاقة الوثيقة بين 'رحيق الخلود' وبين 'شجرة الحياة' لها نتائج جسيمة من منظور العلوم التراثية، وهى أن 'أكسير الحياة' يتعلق بالجانب النباتى من الخيمياء[9]، فى حين أن موضعه يضاهى موضع 'حجر الفلاسفة' فى جانب الخيمياء المعدنى، أى أن 'الأكسير' هو 'الجوهر النباتى' بلا جدال، وعلى كلٍ فإن استخدام تعبير مثل 'الخمر الذهبية' لا يصح أن يكون سبباً للاعتراض، فشأنه شأن 'الغصن الذهبى' الذى يعنى الطبيعة 'الشمسية' للموصوف، ومن الواضح أن هذه الصفة تعبير شائع فى المنظومة النباتية كما فى المنظومة المعدنية، وهنا نتذكر الصلة بين التمثيل للشمس 'بثمرة شجرة الحياة' وتعبير 'التفاحة الذهبية'، والواضح أننا حين ننظر إلى هذه الأمور من حيث مبدئِها فلابد من اعتبار الجانبين النباتى والمعدنى من حيث مدلولهما الرمزى قبل أى شيء آخر، وهو ما يعنى مسألة 'التناظرات' أو ما يماثلها فى نطاق الوجود الكونى، ومن دون أن يمنع ذلك من التسليم بمعناها الحرْفى عندما يتعلق الأمر بخصائصها العملية، ويمكن رؤية التباين بسهولة كما ذكرنا فى سياق الحديث عن الطبيعة المزدوجة للنبات، فالخيمياء النباتية لها تطبيقات 'مقلوبة' لو كان التعبير مناسبا، وكل ما كان دواءً لمرضٍ فى 'علم السموم' يمكن أن يسبب 'داءً' فى جانب آخر[10]، ولا نملك بالطبع أن نطرح هنا كل ما تعلق بهذه الملاحظات الأخيرة، ولكنها سوف تسمح على الأقل بالنظر إلى التطبيقات الممكنة فى مجال الطب التراثى من الناحية الرمزية ظاهراً ومن الناحية المبدئية باطناً على منوال 'شجرة الحياة' و'شجرة الموت'.

---

8 *Cf. The Esoterism of Dante, chap. 5, and The King of the World, chap. 4.*

9 *This aspect was developed more explicitly in the Taoist tradition than anywhere else.*

10 *In Sanskrit, the word visha, 'poison' or 'draught of death', is considered the antithesis of amrita, or 'draught of immortality'.*

54 رمزية السلم

لقد ذكرنا فى باب سابق[1] أن الرمزية التى حفظها تراث هنود الشمال الأمريكى والتى تمثلت فيها العوالم المختلفة بكهوف متراكبة تمر فيها المخلوقات من عالم إلى آخر بالتسلق على الشجرة المركزية، وقد وجدت حالات مماثلة لهذه الرمزية التى تحقق فى الشعائر بتسلق شجرة يمثل 'صعود' الكائن على 'المحور'، وهذه الشعائر *فيدية* كذلك وليست شامانية فحسب، ويبرهن انتشارها على قربها من التراث الأولانى الحقيقى.

ويجوز أن تُستبدل الشجرة هنا برمز 'محورى' آخر على منوال صارى السفينة، ولابد من مراعاة أن بناء سفينة أو عربة أو منزل تحقيقٌ 'لمبدأ كونى' من المنظور التراثى، كما أن من المهم مراعاة أن 'عُشّ الغراب'[2] يحيط بأعلى الصارى ليقوم بدور 'العين' أو قمة القبة، والذى يتخلل مركزها المحور الرأسى حتى لو لم يكن تمثيله ماديا ظاهراً، وقد يجد عشاق الفولكلور تفسيرا للعبة 'العمود المطلى بالشحم' فى المعارض الموسمية كبقية من تراث غابر للشعيرة التى ذكرناها تواً، وفى هذه الحالة أيضا تمثل الحلقة المربوطة فى قمة العمود تفصيلة مهمة لابد أن تُبلغ بالتسلق، وهذه الحلقة تمثيل 'لعين الشمس'، وسوف تتفق فى 'الذهن العام' الذى استطاع أن يبتكر هذه الرمزية.

وهناك رمز واسع الانتشار قريب الصلة بالفكرة ذاتها، وهو السلم الذى يمثل رمزا 'محوريا'، وقد قال كومارا سوامى "إن محور الكون الكلى سلم لا يكف

---

1 راجع باب *43* 'الباب الضيق'. المحقق..

2 وهى كناية عن شرفة المراقبة بأعلى مكان فى السفينة التى يقف فيها بحّار لمراقبة الأفق وما فيه من أرض وسفن. المترجم.

الصعود والهبوط عليه"[3]، والواقع أن وظيفة السلم هى التمكين لهذه الحركة، وحيث إن الشجرة أو الصارى يقوما بالدور نفسه فيمكن القول إن السلم يكافئهما فى هذا الغرض، كما أن شكل السلم يذكرنا بأن العمودين القائمين يناظرا ’شجرة المعرفة‘ فى القبالة اليهودية، فهما نظيران للعمودان الأيمن والأيسر فى شجرة السفيروديم *Sephirothic tree*، وليس أيا منهما ’محوريا‘ تماما، لكن المحور الحقيقى لا يُرى، ويُعتبر ’العمود الأوسط‘ محصلة لتوحيد العمودين بالسلالم التى تربطهما أفقيا ويمر المحور عليها بلا تحديد[4]، وهكذا يُقدم لنا السلم رمزية متكاملة، فيمكن تشبيهه ’بجسر‘ عمودى يرتفع خلال العوالم سُلّمة بسُلّمة، والسلالم ذاتها هى العوالم أو طبقات الوجود الكلى[5]، والحجر الذى ’أَقامه كالعمود‘ صورة أخرى من ’محور العالم‘، ويتخذ موضع السلم على نحو ما[6]، وتشكل الملائكة المقام الأعلى من الوجود، وتناظر سلالم السلم كل منها مرتبة مخصوصة، وهو ما يفسره واقع استقرار السلم على الأرض، وهو ما يعنى أن عالمنا ذاته ’دعامة‘ للوصول إلى مراتب أعلى، وحتى لو امتدَّ السلم تحت الأرض حتى يشتمل على مجمل العوالم فإن شطره السفلى سيكون خافيا فى كل الأحوال، تماما كمن وصل إلى ’كهف‘ يقع فى مرتبة بعينها، فالشجرة المركزية تمتد إلى مستويات تستعصى على البصر، وحيث إن السلالم كانت معبرا للسالكين فلا حاجة بنا إلى الاعتبار فيها فيما تعلق بالتحققات اللاحقة، فكل ما يهمها الآن هو عبور السلالم العليا.

ولذلك كان السلم يستخدم كعنصر من شعائر تعميدية، وقد قيل إن كلا من سلالمه صنعت من المعدن الذى يناظر مرتبتها السماوية، أى المقامات العليا للوجود، وقد وجد هذا السلم فى الأسرارية الميثرائية بسبع درجات تمثل

---

3 *'The Inverted Tree' [now in Coomaraswamy 1: Selected Papers, Traditional Art and Symbolism, ed. Roger Lipsey (Princeton: Bollingen Series, Princeton University Press, 1977), p390.]*

4 وقد كان فى الهرمسية المسيحية رمز يساويه فى حرف *H* بعمودية الذى يصل بينهما قضيب أفقى..

5 وتؤدى رمزية ’الجسر‘ على نحو طبيعى إلى اعتبارات أخرى ، راجع فيما يلى باب *53* و *64* عن رمزية ’اللوح المحفوظ‘ فى الإسلام، والتى يمكن اكتشاف صلاتها فى المثال اللازمنى فى المتون المقدسة عن الذى هبط عموديا من السماوت العُلى عبر كل العوالم..

6 راجع باب *9* من ملك العالم.

الكواكب السبعة، كما وجد عند طوائف تعميدية فى العصور الوسطى، ولا شك أن الماسونية الاسكتلندية قد استخدمتها لتعميد المراتب العليا، وكما ذكرنا فى دراستنا عن دانتى[7]، حيث نجد السلالم ترمز إلى 'علوم' كثيرة، ولكن ذلك لا يتمخض عن اختلاف أصولى، فإن دانتى يقول "إن 'العلوم' تتماهى مع السماوات'"[8]، ولا حاجة لقول إن تلك العلوم لا بد أن تكون تراثية بمعنى الكلمة من المقام الجوانى، حتى بين الذين تفصح ألقابهم عن الانحطاط الذى وقع فيه الإنسان الحديث، فلم يعد يرى غير علوم وآداب دنيوية، والتى ليست إلا قواقع فارغة تخلو رواسبها من الحياة.

ونجد فى حالات بعينها سلما مزدوجًا، ويعنى أن كل صعود لابد أن يتبعه هبوط، فيتحقق الصعود على جانب منه 'بالعلوم' ومراتب المعرفة التى تناظر أحوال التحققات، ثم يتحقق الهبوط من الجانب الآخر 'بالفضائل' أى ثمار مراتب المعرفة[9]، زد على ذلك أن أحد قوائم السلم البسيط يمكن أن يكون للصعود والقائم الآخر للهبوط بالاتساق مع المعنى العام للتيارين الكونيين على اليمين واليسار، ويناظرهما الوضعان الخارجيان *lateral* بالنسبة إلى 'المحور' الحقيقى، وحتى لو كان لامنظورا فهو المبدأ الجوهرى الذى ترتبط به المعانى لكى تُفهَم.

وختاما لنعتبر فى رمزية أخرى فى شعائر تعميدية بعينها، وهى الصعود على سلم حلزونى، ولا بد من قول إن هذا الصعود أقل مباشرة من الصعود الرأسى باتجاه موازٍ للمحور، ويعنى ذلك أن الحركة اللولبية حول المحور تبدو 'هامشية' لا 'مركزية'، لكن المبدأ واحد فى الحالتين، فهو دائما صعود خلال بنية مقامات الوجود الرأسية، وتعبر دورات اللولب عن درجات الوجود الكونى كما طرحناها فى موضع آخر[10].

---

7 *Cf. The Esoterism of Dante, chaps. 2 and 3.*

8 *Convivio 11,14.*

9 *It must be said that this correspondence of the ascent and of the re-descent sometimes seems to be inverted; but this may simply result from some alteration of the primitive meaning, as often happens in the more or less confused and incomplete state in which the Western initiatic rituals have come down to us.*

10 راجع 'رمزية الصليب'..



55 ثقب الإبرة

إن أحد تمثيلات ’الباب الضيق‘ المذكور سلفا هو رمز ’ثقب الإبرة‘ فى متن الإنجيل[1]، ويبدو التعبير الانجليزى *eye needle's* أى عين الإبرة مناسبا فى هذه المسألة، فهو يصل بين هذا الرمز مباشرة بما يساويه على منوال ’عين القبة‘ فى الرمزية المعمارية، وهى تمثيلات متنوعة ترمز إلى ’الباب الشمسى‘ كما أنها تسمية فى رمز ’عين العالم‘، وسوف نلاحظ أن الإبرة لو غُرِست رأسيا لصارت رمزا ’لمحور العالم‘، وصار ثقبها فى أعلاها نظيرا تاما لعين القبة.

ولهذا الرمز عدة صلات مهمة لاحظها كومارا سوامى[2] فى حكاية *جاتا كا* عن إبرة معجزة، ويسمى ثقبها فى اللغة البالية *pasa*، وهو ذاته الكلمة الهندوسية *pasha* التى تعنى ’عقدة‘ أو ’أنشوطة‘، ويبدو لأول وهلة أن الإبر فى قديم الزمان لم تكن تُثقَب كما نعرفها بل كانت تُثنى لتشكل أنشوطة يمر فيها الخيط، ولكن الأهم عندنا هو العلاقة التى نشأت بين تطبيق كلمة *باشا* على عين الإبرة إلى جانب معانيها المعتادة، والتى تشتق بدورها من فكرة ’العقدة‘.

وعادة ما تستخدم كلمة *باشا* فى الرمزية الهندوسية بمعنى ’الأنشوطة‘ لا سو التى تُستخدم لصيد الحيوانات[3]، وبهذه الصورة تصبح شعارا للموت *Mrityu*أو

1 "إِنَّ مُرُورَ جَمَل مِنْ ثَقْب إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ!" متى 19: 24.

2 *'Some Pali Words', [in Coomaraswamy 2: Selected Papers, Metaphysics, ed. Roger Lipsey (Princeton: Princeton University Press, 1977); the word pasha is treated on pp308-9. Ed].*

3 أو الشنق. المترجم.

Yama، وكذلك *فارونا*[4]، وقد كانت ’الحيوانات‘ التى تُصاد بالأنشوطة *باشا* تجد نفسها مقيدة، وكلما تحركت يزداد القيد ضيقا، وهو معنى ’القيد *bond*‘ الرابط الدائم، فكذلك الكائن الحى مقيد على الدوام بأحوال مخصوصة من الوجود المتجلى، وحتى يترك ذلك الحال عليه أن يتحرر من تلك القيود، وبمعنى رمزى لابد أن يفلت من الأنشوطة *باشا* قبل أن تحكم وثاقه، وهو يشاكل المرور من فكى الموت قبل أن تطبق عليه[5]، وقد صدق كوماراسوامى بقوله إن *باشا* وجه آخر من ’الباب الضيق‘ تماما كما يمر الخيط من ثقب الإبرة الذى يمثل المرور من ’الباب الشمسى‘ فى رمزية التطريز، ولنضف إلى ذلك الخيط الذى يمر من ثقب الإبرة له ما يساويه فى رمزية أخرى هى رمى السهم *archery* باسم ’الهدف *butt*‘ وإصابة مركز الهدف، وهو مصطلح مهم بذاته فى هذه العلاقة، فالخروج من الكون يحتاج إلى ’نطحةٍ‘ تدفع إلى الخلاص النهائى من قيود الوجود المتجلى.

وتؤدى بنا هذه الملحوظة إلى الاتفاق مع كوماراسوامى على أنها ترتبط ’بالموت الأخير‘ قبل ’الخلاص‘ مباشرة، وليس بعده عودة إلى حال مشروط، وهكذا يكون ’لضم‘ الإبرة ممثلا رمزيا للخروج من ’باب الشمس‘، فلا مجال ’لخروج من نطاق الكون‘ فى أية حالة أخرى، إلا أننا يمكن أن نتحدث بالاستعارة والمعانى النسبية عن ’المرور من ثقب الإبرة‘[6] أو الهروب من *باشا*، ولكى نسمى كل مرور من حال إلى آخر ’موتًا‘ عن حال و’ميلادٍ‘ فى حال آخر‘ كما أسلفنا فى مناسبات أخرى.

وهناك جانب مهم آخر لرمزية *باشا* لم نتحدث عنه بعد، وهو يتعلق على الخصوص بمفهوم ’العقدة الحيوية *vital knot*‘، وعلينا أن نبين أنه ينتمى إلى نطاق الأفكار ذاتها، والحق إن ’العقدة الحيوية‘[7] تمثل ما يربط عناصر مختلفة فى الشخصية الفردية، وهو ما يُبقى الكائن فى حاله أى *باشو*، فحين تنفك العقدة

---

[4] الرب الفيدى الأقدم الذى ’يحيط بكل شيء *All-Encompassing*‘، وهو الشمس والمحيط وكل شيء، لكنه حتى الآن رب المحيطات والأنهار فحسب. المترجم.

5 *Cf. the representations of Shinje, the Tibetan form of Yama.*

6 *Cf. Dante, Purgatory x, 16.*

7 *This symbol of the 'vital knot' in the rites of the Compagnonnage is represented by a cravat knotted in a special way; the equivalence with the running knot or the loop of the pasha is obvious here.*

تحلل العناصر، وهذا التحلل بمثابة موت الشخصية الفردية لكى يتحول الكائن إلى حال آخر كخطوة إلى 'الخلاص' النهائى، ويجوز قول إن الكائن الذى نجح فى الإفلات من الأنشوطة *باشا* قبل أن تحكم وثاقه فإنها قد تراخت له طوعا، وهذان طريقان مختلفان للتعبير عن الأمور، وسنكتفى بذلك عن 'العقدة الحيوية' التى قد تقودنا إلى تفاصيل شتى، وقد نوهنا سلفا[8] فى سياق الحديث عن الرمزية المعمارية عن 'النقطة الحساسة' للمبنى فيما تعلق بكونه إنسانى أم كونى، وأن 'قطع' العقدة فى الأسطورة اليونانية يساوى الخروج من 'الباب الشمسى'.

8 *Cf. 'Cologne or Strasbourg?' in Studies in Freemasonry and the Compagnonnage, and chap. 26 of the present work. Ed.*

56 عبور المياه

أشار كوماراسوامى إلى أن 'طريق الحجيج' فى البوذية والبراهمية مثل 'رحلة' يمكن ربطها بثلاثة طرق برمزية 'نهر الحياة والموت'، ويجوز إنجازها إما بالسباحة عكس التيار نحو منبعه أو إلى الشاطئ الآخر، أو مع التيار إلى البحر[1]، كما أصاب بملاحظة أن عن هذا الاستخدام للرمزيات المختلفة من حيث المظهر لكنها على معنى روحى واحد، وهو ما يتفق مع طبيعة الميتافيزيقا، والتى لم تكن 'منظومية *systematic*' على الإطلاق، ولكنها دائما ناصعة الوضوح قريبة الفهم، فلا يلزم إلا التأكد من المعنى الصحيح لرمز النهر ومنبعه وشاطئيه ومصبه، وفهمها فى كل من الحالات المذكورة.

وأول حالة هى السباحة ضد التيار *upstream*، وربما كانت أشدها إدهاشا، فلابد للنهر من أن يُفهم على أساس تماهيه مع 'محور العالم'، فهو 'النهر السماوى' الذى يتدفق إلى الأرض، ويسميها التراث الهندوسى أسماء على شاكلة *جانجا* و *ساراسوات*، وهى أسماء جوانب من *شاكتى*، كما نجد فى القبالة العبرية أسماء 'نهر الحياة' الذى يناظر 'قنوات' شجرة السفيروت، والتى تنتقل بها بركات 'العالم الأعلى' إلى العالم الأدنى، كما أنها ترتبط مباشرة بالشكيناه، وهى مكافئة لشاكتى على خير وجه، كما أنها كذلك مسألة مياه تفيض إلى أعلى، وهو تعبير عن العودة إلى المنبع السماوى، ويمثلها هنا على وجه التقريب حالة 'السباحة عكس التيار' بتحويل اتجاه التيار، والتى يقول عنها كوماراسوامى أنها قائمة فى الشعائر الفيدية

1 Cf. the word samudda in his 'Some Pali Words' [republished in Coomaraswamy 2: Selected Papers, Metaphysics, ed. Roger Lipsey (Princeton: Princeton University Press, 1977); the word samudda is treated on pp324-327. Ed.].

بتحويل موضع المذبح، وهو صورة أخرى ’لمحور العالم‘، وهكذا نرى أن كل ذلك قريب الترابط فى رمزية ’الشجرة المقلوبة‘ التى تناولناها عاليه.

ونلاحظ كذلك تشابها واختلافا فى الآن ذاته فى رمزية الأنهار الأربعة للفردوس الأرضى، فهذه الأنهار تفيض أفقيا على سطح الأرض وليست رأسية فى اتجاه محورها، وتتخذ مصدرها من تحت أقدام ’شجرة الحياة‘، وهى ’محور العالم‘ كما أسلفتا، وقل مثل ذلك عن شجرة السفيروت فى القبالة، ويجوز قول إنها تصل إلى مركز العالم الأرضى، ومن ثم تنتشر على الأرض على منوال الأنهار الأربعة، أو تستبدل ’شجرة الحياة‘ ’بالنهر السماوى‘، والذى ينقسم ويفيض فى الاتجاهات الأصلية، ويبدو أن ’السباحة عكس التيار‘ تحدث على مرحلتين، الأولى أفقية حتى تصل إلى شجرة العالم، والمرحلة الثانية تبدأ من هذا المركز وتتحرك رأسيا على محور العالم، وبداية هذه المرحلة تعنى تمام المرحلة الأولى، وتناظر هاتين المرحلتين من المنظور التعميدى ’الأسرار الصغرى‘ و’الأسرار الكبرى‘ على التوالى.

والحالة الثانية هى عبور النهر من ضفة إلى أخرى، ولا شك أنها أكثر شيوعا وشهرة، ويكاد أن يكون لها حضور فى كل الأديان وخاصة فى طقوس التعميد[2]، وقد يجرى هذا العبور على طوف أو قارب، وهو ما يصلها بالرمزية الشهيرة للملاحة[3]، والنهر الذى ينبغى عبوره فى هذه الحالة هو ’نهر الموت‘، والشاطئ المتروك هو عالم التغيرات، أى مضمار الوجود المتجلى، و’الشاطئ الآخر‘ هو ’*نيرفانا*‘[4]، وهى حال الكائن الذى تحرر من الموت.

---

[2] *Whence the symbolic signification of words such as Pontifex and Tirthan kara, which we have mentioned elsewhere; hence, too, in Sanskrit, diverse terms containing etymologically the idea of 'crossing', including Avatara, which literally means a 'downward crossing' (avatarana), that is, the 'descent' of a Saviour.*

[3] *Coomaraswamy points out in this connection that the symbol of the barque of salvation (in Sanskrit, tiava, in Latin navis) is found in the designation of the 'nave' of a church; this barque is an attribute of St Peter, after having been an attribute of Janus, just as were the keys, as we have explained elsewhere.*

[4] وأوسع معانيها فى الجوانية الإسلامية هو ’الفناء‘

والحالة الثالثة هى 'السباحة مع التيار'، ولابد من الاعتبار فى 'المحيط'[5] فى هذه الحالة، لا من حيث كونه امتدادا شاسعا من المياه بل باعتباره الغاية من السباحة، وهكذا يصبح تمثيلا *لنيرفانا*، وتختلف رمزية الشاطئين فى كل حالة عما ذكرنا توًا حتى إننا نجد فيها ازدواجية فى معنى الرموز حيث إنها لم تعد مجرد عبور من شاطئ إلى آخر، بل هى فى الواقع اجتناب الشاطئين، فهما 'عالم الإنسان' و'عالم الملائكة'، أو هما حال 'الكون الأصغر *آدهيآتما*' وحال 'الكون الأكبر *آدهيديفاتا*'، كما أن هناك مخاطر أخرى فى التيار ذاته لابد من اجتنابها كى نصل إلى الغاية، ويُرمَز إليها بتمساح مفتوح الفكين يقف 'عكس التيار' ولا بد من الهروب منه، فهو يمثل الموت *ميرتيو* ويقوم بدور 'سادن الباب'، أما الموت فيمثله مصب النهر *the mouth of the river*، والذى أطلق عليه كوماراسوامى *mouth of the sea* الذى يبتلع ما يفيض به النهر، وهكذا يصبح لدينا رمزا جديدا 'للباب' إضافة إلى الأبواب التى تناولناها سلفا.

---

[5] وتعنى سامودرا حرفيا 'تجمع الماء' الذى يذكرنا بكلمات سفر التكوين "لتجتمع المياه تحت السماء فى مكان واحد"، أى مكان تجرى فيه جميع الأنهار، تماما كما تجتمع أضلاع الشمسية فى مركزها أو تجتمع عناصر القبة فى قمتها.

57 الألوان السبعة وقوس قزح

لقد تحدثنا سلفا عن رمزية ’الأشعة السبعة‘ للشمس[1]، ويجوز التساؤل عما إذا كانت الأشعة السبعة لها علاقة بألوان قوس قزح السبعة؟ فهذه الألوان تعنى فى كل الأديان الأشعة المختلفة التى يتكون منها نور الشمس، والواقع أن هناك صلة بينهما، ولكنها فى الآن ذاته أمثلة نمطية للتشوهات التى تصيب مذهبا تراثيا نتيجة قصور الفهم، لكن التشوه فى الحالة التى نتناولها الآن سهل التفسير، فكان لا بد من وجود سباعى لكن أحدها لا يبدو ظاهراً، ومن ثم استُبدل به آخر بدون تسويغ مشروع، فأصبحت الرمزية فى هذه الحالة مزيفة تماما، ولو سُئِلنا الآن عن السبب الذى جعل سباعى الألوان خافيا عن الإنسان المعتاد على هذا المنوال؟ فالجواب هو لأن هذا المصطلح يناظر ’الشعاع السابع‘ أى الشعاع ’المحورى‘ أو ’المركزى‘ الذى يتخلل ’الشمس‘، وحيث إنه شعاع يختلف عن الأشعة الأخرى فلن يمكن تمثيله شكليا كما نمثل للآخرين[2]، وبناءً على هذ الواقع وكذلك بموجب أن المصفوفة الكاملة لرمزياتها وصبغتها التعميدية تبدو سرا فى المنظور التعميدى، فيمكن القول إن الاستبدال المذكور له تأثير فى حجب المستور عن عيون الدنيويين، زد على ذلك عدم أهمية ما إذا كان مقصودا أم لمجرد عدم الفهم، وهو أمر يصعب تحديده على نحو منضبط[3].

---

[1] راجع بابا *41* و *50*.

[2] ويمكن القول بالرجوع إلى بداية ’أناشيد الطريق والفضيلة‘ إن كل شعاع بمثابة طريق، لكن الشعاع السابع فحسب هو ’الطريق‘ لا كذب.

[3] وقد ارتحلنا فى مجموعة غريبة من المعلومات فى هذا الشأن، ولكن للأسف بدون مرجعية مؤكدة، ويشير الإمبراطور جوليان ’الزنديق‘ فى موضع ما إلى ’الرب سباعى النور *Heptaktis*‘

والواقع أن قوس قزح ليس فيه سبعة ألوان بل ستة فحسب، وليس هناك ضرورة لإجهاد الذهن فيكفى الرجوع إلى الأفكار الأساسية للطبيعة عن ألوان الأزرق والأصفر والأحمر، كما أن هناك ثلاثة ألوان أخرى هى البرتقالى والبنفسجى والأخضر، ومجموعها ستة ألوان، وبالطبع هناك أيضا عدد لامحدود من الظلال الوسيطة بين هذه الألوان، ولا يكاد التحول بين أحدها والآخر يبين للبصر، ولكن ليس هناك سبب مشروع لإضافة أى من هذه الظلال إلى مصفوفة الألوان، وإلا استطاع كل امرئ إضافة طائفة منها إلى مصفوفة الألوان السبعة حتى تصير غير قابلة للفهم، ولا علم لنا بما إذا كان أحد المناوئون للرمزية قد تناول هذه المسألة من قبل، ولكن لو حدث ذلك فلابد يبدأ بأن السبعة عدد اعتباطى، وقد اعتبروا اللون الكحلى القاتم *Indigo* من ألوان قوس قزح، ولكنه ليس إلا ظلًا بين البنفسجى والأزرق[4]، وما من سبب يدعو إلى النظر إليه كلون قائم بذاته فليس إلا ظلا من الظلال على منوال الأزرق المُخَضَّر والأزرق المُصَفَّر، كما أن محاولة طرح هذه الظلال فى تعداد الألوان يدمر اتساقها وترتيبها، والذى لو فُهِم على وجه صحيح لوضع فى مخطط هندسى بالغ البساطة والوضوح من المنظور الرمزى، فيمكن وضع الألوان الثلاثة الأولية على أركان مثلث متساوى الأضلاع، ثم توضع الألوان الثلاثة الثانوية على أركان مثلث مكافئ مقلوب فوق الأول، وهكذا يكون لدينا كل الألوان الأولية والثانوية التى تشكل ' خاتم

....

الذى لا تُنكَر طبيعته الشمسية، وأن يُعالَج فى الأسرار بأكبر قدر من التحفظ، ولو حدث أن فكرة خاطئة مثل 'الألوان السبعة' تعود إلى ماضٍ سحيق فقد يعجب فيما إذا كانت قد انتشرت على أيدى المريدين من طرق التعميد ذاتها، فقد وجدوا فيها وسيلة لحفظ الفكرة التراثية دون كشف طبيعتها الظاهرة، وفى الحالة العكسية لابد من افتراض أن اللفظ البديل اختراع للعامة، والذين يعلمون بوجود السباعى تلقائيا، ولكنهم يجهلون كنهه الحق، وقد تكون الحقيقة بين الفرضيتين، فمن الممكن تماما أن يكون الرأى السائد عن الألوان السبعة ناتج عن تصفيحات متتابعة للفكرة الأصلية.

[4] ولابد أن يكون مصطلح 'الأزرق الداكن *indigo*' من أصل حديث، ولكن ربما كان بديلا لتسمية أقدم، أو ظلٌ بديلٌ لآخر بغرض استكمال اللون السابع، ولكى تحقق من ذلك نحتاج إلى بحث تاريخى من نوع معقد بعض الشىء، وهو بحث لا نملك له وقتا ولا مراجع تحت يدنا، لكن هذه نقطة ثانوية، حيث نقترح فقط بيان أن المفهوم السائد عن عدد الألوان خاطئ فضلا عن تشويه الفكرة التراثية.

سليمان'، ولو رسمنا حول المثلثين دائرة فسوف تكون الألوان الثانوية على نقطة وسط القوس الذى يصل بين نقطتى الركنين بين لونين أوليين، وتنتج الظلال الوسيطة بالتناظر على كافة نقاط محيط الدائرة باندماجها[5]، لكن المثلثين المزدوجين يحتويا على الألوان الستة فحسب[6]، وقد تبدو هذه الملحوظات بالغة البساطة لا تستلزم جهدا فكريا، ولكنها فى الواقع مرجع لتصحيح الأفكار المغلوطة عند العامة، فهى تبين على الفور ما لا يعرف الناس كيف يرونه، وتختلف 'المعقولية *good sense*' عن 'المعقولية العامة *common sense*' اللتان غالبا ما تختلطا، ولكنها على وجه اليقين ليست ما قال عنه ديكارت "الأمور المشتركة على أوسع نطاق فى العالم".

وحتى نجيب عن السؤال عن 'الحد السابع' الذى لابد أن يضاف إلى الألوان الستة حتى يكتمل السباعى فلابد من العودة إلى التمثيل الهندسى للألوان السبعة كما فسرناها فى مناسبات أخرى، أى الاتجاهات الستة التى يشير إليها الصليب ثلاثى الأبعاد ومركزه الذى تبدأ منه هذه الاتجاهات، ومن المهم فى البداية ملاحظة التشابهات بين هذا التمثيل وبين الذى ذكرناه توا فيما تعلق بالألوان، فكل اثنين من الاتجاهات الستة يتعاكسا فى خطوط مستقيمة على جانبى المحور المركزى، وتناظر فى مجملها أبعاد الفراغ الثلاثة، ولو كنا نبغى تمثيلا على بعدين فلابد أن يكون لشكل ذا ثلاثة أبعاد، ويشكل عجلة بستة برامق أو أى شكل رمزى آخر يساويه، وهذه المحاور تصل بين القمتين العكسيتين للمثلثين فى خاتم سليمان، وهكذا يكون التمثيلان واحدًا[7]، وعلى ذلك تكون العلاقة بين الألوان الستة والحد السابع تقوم

---

[5] ولو نحن عكفنا على تعداد ألوان قوس قزح بما فيها الدرجات الوسيطة بين ستة ألوان رئيسية مثل الأزرق الداكن بين الأزرق والبنفسجى فسوف يكون لدينا اثنى عشر لونا وليس سبعة ألوان، ولو رغبنا فى تمييز أكثر فسوف يلزم تسمية عدد مساوٍ بين كل لونين رئيسين، أى أن ذلك ليس إلا تطبيقا أوليا لمبدأ السبب الكافى.

[6] وقد نلاحظ واقع أن الألوان المرئية تملأ مساحة القوس بدون فواصل ظاهرة بما يقطع بأنها دورة كاملة، أما الألوان غير المرئية فى ضوء الشمس التى تسميها الطبيعة الحديثة 'تحت الحمراء' و'فوق البنفسجية' فلا علاقة لها بالنور، وتختلف طبيعتها عنه تماما.

[7] ويمكن اعتبار اتجاهات لامحدودة العدد بما فيها كل الاتجاهات البينية التى تناظر ألوانا تقع بين الألوان الستة الرئيسية، ولكن هناك سببا يدعو إلى تمييز الألوان الستة فحسب، وهو أنها تشكل

بدورها ذاته كالمركز بالنسبة إلى الاتجاهات الستة، كما أنها ستكون فى مركز المخطط، أى فى نقطة التعارضات الواضحة، والتى ليست إلا تكاملات فحسب، وتذوب جميعا فى توحدها، ويربو ذلك إلى قول إن الحد السابع ليس لونا على الحقيقة بل مركزا للاتجاهات، لكن حيث إن المركز هو الشكل الرئيسى الذى ينتسب له الفراغ والاتجاهات الستة معًا، كما لابد أن يكون المبدأ الذى اُشتُقَت منه الألوان الستة والتى ينطوى عليها على نحو تركيبى، ولذا لابد أن يكون هو الأبيض بلا لون *colorless*، مثلما كانت النقطة بلا بعد *dimensionless*، فلا يظهر الأبيض فى قوس قزح بأكثر مما يظهر 'اليوم السابع' فى التمثيل الهندسى، لكن كل الألوان ليست إلا تفاضلات للنور الأبيض، مثلما كانت اتجاهات الفراغ نموا لاحتمالات الوجود المبنية فى النقطة الأولانية.

والسباعى الحقيقى إذن هو النور الأبيض والألوان الستة التى لا تعدو تفاضلات منه، ويتبع ذلك أن الحد السابع هو الحد الأول على الحقيقة بموجب أنه مبدأ الآخرين جميعا، والتى لا يمكن أن توجد بدونه، لكنه أيضا آخرها بمعنى عودتهم إليه فى النهاية، فتوحد الألوان الستة يجعلها نورا أبيضًا ولدهم جميعا، ويجوز القول إن السباعى قد اكتمل تمثيله بواحد فى المركز وستة على المحيط، ويقوم على التوحد بين الواحدية والسداسية، فتناظر الوحدة المبدأ اللامتجلى وتناظر الألوان الستة مجمل عالم التجلى، ويمكن أن نضاهى ذلك برمزية 'الأسبوع' فى سفر التكوين، فالحد السابع يختلف جوهريا عن الستة الأخر، فالخلق على الحقيقة "عمل ستة أيام" لا سبعة، وكان اليوم السابع 'راحة'، هو على الحقيقة الأول كذلك، فهذه 'الراحة' ليست إلا العودة إلى المبدأ الخالق فى الحال المبدئى اللامتجلى، وهى الحال الذى انطلق منه ظاهريا فحسب بالنسبة إلى الخلق، ولكى ينتج الخلق فى دورة سداسية، ولكنه لم يرحل عنها مطلقًا، تماما كما لا تتأثر النقطة بانتشار الفراغ، والتى تبدو كما لو كانت تخرج إلينا لتصف الاتجاهات الستة أو النور الأبيض فى توهج قوس قزح، كما تبدو أنها تقسم ذاتها حتى تشكل الألوان الستة وتصف المبدأ اللامتجلى، والذى من دونه يمتنع التجلى على أى صورة كانت،

....

الإحداثيات المتعامدة التى ينتسب إليها المكان، والتى 'يقاس' بدلالتها، ونجد فى التناظر بين الألوان الستة والاتجاهات الستة انضباطا تاما..

ولكى تعبر عن نفسها فى 'عمل الأيام الستة' إلا أنها لا تعبأ بهذه التجليات ولا تتأثر بها، و'الشعاع السابع' هو 'الطريق' الذى يعود إليه الإنسان الذى مر بدورة تجلى إلى عالم اللاتجلى ليتوحد مع المبدأ الذى لم ينفصل عنه مطلقا على الحقيقة إلا على نحو وهمى.

58 باب السماء

طرح *كوماراسومى* فى دراسته المهمة[1] Svayamatrnna: Janua Coeli تفسيرا رمزيا للمذبح *الفيدى*، وخصوصا لثلاثة قوالب طوب مجوفة svayamatrnna تشكل الجزء الجوهرى للمذبح، كما يمكن أن تكون من الحجر sharkara، ولا بد أن تكون 'ذاتية التجويف' أى إنها مجوفة بطبيعتها، رغم أنها قد تكون مصطنعة فى بعض الحالات، وأيًا كان الأمر فإن المسألة ثلاثة قوالب حلَقية الشكل من الآجر أو الحجر، والمفروض أنها تمثل العوالم الثلاثة أى الأرض والجو والسماء، ومعها ثلاثة قوالب أخرى تمثل 'النور الكونى' أى *آجنى* و *فايو* و *أديتيا*، وتشكل المحور الرأسى للكون، كما وجدنا على عملة هندية قديمة تمثيلا للعوالم الثلاثة على هيئة ثلاث حلقات ترتبط بخط عمودى يمر بمراكزها[2].

ويناظر الحجر الأسفل فى هذه القوالب المتراصة الموقد أو المذبح معماريا، فى حين يمثل أعلاها 'عين' القبة[3]، وهكذا تشكل 'مدخنة' و'طريقا'[4] يسلكه *آجنى* إلى

---

1 *In Zalmoxis, 11,1939. [Republished in Coomaraswamy: Selected Papers 1, Traditional Art and Symbolism, ed. Roger Lipsey (Princeton: Princeton University Press, 1977.) E[d.].*

2 ونجد فى العمارة الإسلامية ثلاث كرات متراصة رأسيا يعلوها هلال على المآذن أو القباب، وترمز الكرات الثلاثة إلى العوالم الثلاثة، وهى 'عالم الملك' و'عالم الملكوت' و'عالم الجبروت'، ويرمز الهلال إلى الجلال الربانى فى 'عالم العزّة' وهو العالم الرابع، ومن الواضح أن العمود الرأسى الذى يحمل هذه التركيب يتماهى مع صارى المعبد البوذى ستوبا، كما يضاهى الرموز المحورية التى ذكرناها سلفًا.

3 راجع باب *41* 'الباب الضيق'.

السماء، ولابد لنا نحن أيضا من اتِّباعه, وحيث إنها تسمح بالمرور من عالم إلى آخر على محور الكون فى اتجاهين متعاكسين فإنها طريق *الديفات* أى الملائكة و *الأسورات* أى الشياطين الذين يهبطون ويصعدون منها بمعونة 'الأنوار الكونية' الثلاثة كسلالم، وأقرب الرموز إليها 'سلم يعقوب'[5]، وما يوحد هذه العوالم هو 'النَفَسُ الكلى *سارفابرانا*' الذى يمثله التجويف المركزى للأحجار المتراكبة[6]، وبتعبير آخر يساويه فإن *سوترآتما* تربط أحوال الوجود ببعضها بعضا كما أوردنا فى سياق آخر، ومركزها جميعا هو 'الشعاع الشمسى'، أو على وجه الدقة هو 'الشعاع السابع' الذى يمر بمركز الشمس[7].

والواقع أن هذا المرور 'من الشمس' هو ما تشير إليه رمزية الحجر الأعلى، والذى يناظر 'عين' القبة أو 'سقف الكون'، أى فتحة الخروج من الكون، فى حين أن الرمزية المعمارية ترمز إلى الكون ذاته والعوالم التى يشتمل عليها بمجمل البناء، وما يناظر فى الإنسان الفتحة العليا فى يافوخ الرأس *براهما راندرا*، والتى تنتهى إليها قناة الشريان المحورى *سوشومنا* التى تتصل 'بالشعاع الشمسى' الذى يسمى *سوشومنا* كذلك، وهو ليس إلا *سوترآتما* من منظور علاقة بعينها للكائن، وهكذا كان القالب الأعلى يكافئ جمجمة 'الإنسان الكونى' لو اتبعنا رمزية 'تشبيهية' لتمثيل مجمل الكون، ومن ناحية أخرى نجد فى رمزية البروج الفتحة ذاتها فى برج الجدى، وهو 'باب الملائكة *ديفا يانا*' الذى يؤدى إلى 'ما وراء الشمس'، فى حين

....

4 ويذكر كوماراسوامى بعض الشخصيات الشعبية على منوال سانتا كلوز والتشخصات المتنوعة التى ارتبطت بعيد الميلاد، والتى يُقال إنها تهبط وتصعد من المدخنة، وليست بعيدة الصلة بموضوعنا الحالى.

5 راجع باب 57 'رمزية السلم'، ومن المفهوم أن 'الديفات' فى التراث الهندوسى مكافئة للملائكة فى التراث اليهودى المسيحى والإسلامى.

6 ويرتبط ذلك عموما برمزية التنفس و'النفس الحيوى'.

7 ولابد من فهم معنى كل هذه الرموز من منظور الكونين الأكبر والأصغر، حيث إنها تنطبق على كلا العالمين كما يتضح هنا، وكذلك تنطبق على كل كائن فى تجليهما، والقلب هو المركز الذى يعتمد عليه تواصل كل شيء تحت الشمس، ونعلم أن القلب ذاته نظير للشمس وصورة لها فى كيان كل كائن.

كان برج السرطان هو 'باب الإنسان *بترى ياما*' الذى يرتهن بالكون ولا يغادره[8]، كما يجوز قول إن الكائنات التى تمر من باب أو آخر من 'بابا الانقلابين' يناظر الحالات التى يكون فيها 'الباب الشمسى' مفتوحا أو مغلقا، ويبين *كوماراسوامى* أن الطريقين *يانا* مرتبطان بنصفى الدورة السنوية والشمال والجنوب بمدى ظهور حركة الشمس والصعود نحو الشمال من باب الجدى، ومن ناحية أخرى الهبوط نحو الجنوب من باب السرطان.

ولذا كانت الشمس أو ما تمثله فى منظومة المبادئ[9] بمثابة 'عين العالم' وهى الطريق الحق إلى 'باب السماء'، أو *fanua Coeli*، والتى سُميت بأسماء عدة مثل 'التجويف'[10]، و'الفم'[11] وحتى 'ركبة عجلة العربة'، زد على ذلك أن المعنى المحورى لهذا الرمز الأخير واضح[12]، إلا أن هناك ما يدعو إلى التمييز هنا حتى نجتنب ما قد يسبب اضطرابًا للبعض، وقد ذكرنا فى مناسبات أخرى ما تعلق برمزية يانوس القمرية، وقلنا إن القمر هو باب السماء *Janua Coeli* وباب الجحيم *fanua Inferni* فى آن واحد[13]، وحتى نؤسس تناظرا مشاكلا فى هذه الحالة لا بد من اعتبار تصاعد القمر وهبوطه فى الدورة القمرية بدلًا من اعتبار صعود نصفا الدورة السنوية وهبوطها، ولو أمكن تسمية الشمس والقمر باب السماء فذلك لأن السماء ليست واردة فى الحالتين بالمعنى ذاته، والحق إن هذا المصطلح قابل لوصف كل ما بلغ طبقة أسمى من أحوال الإنسان فى الكون، لكن هناك فارقا عظيما بينها وبين الأحوال الإنسانية الفائقة التى لاتزال رهينة الكون[14]، وليس

---

8 راجع باب *35* 'باب الانقلابين'، وكذلك باب *36* 'رمزية البروج عند الفيثاغوريين'.

9 وعادة ما يستخدم كوماراسوامى اصطلاح 'الشمس المقدسة *Supernal Sun*'.

10 راجع باب *55* 'ثقب الإبرة'.

11 وسنعود إلى هذه النقطة فى باب *59* 'كالا موخا'.

12 وموضع العجلتان فى 'عربة الكون' هما القطبين فى نهايتا محور الكون، أى السماء والأرض، وبالطبع نتحدث هنا عن العجلة 'السماوية'.

13 ونقول 'متشاكلا' وليست 'متساويا'، فحتى لو كانت بترى ياما فلا يجوز قول إن الشمس هى 'باب الجحيم *Janua Inferni*'.

14 *These are properly speaking the states of supra-formal manifestation; the Cosmos must be considered as comprising all manifestation, supra-formal as well as formal, while that which is beyond the Cosmos is the non-manifested.*

’الباب الشمسى‘ المقصود للسماء فوق الكونية بل ’الباب القمرى‘، وهو *سفارجا* أول العوالم الثلاثة، ورغم أنه أعلى منسوب فى الكون إلا أنه لازال واقعا فى قهر الكون مع العالَمين الآخرين، ولنعد إلى الاعتبار فى أعلى القوالب الجوفاء الثلاثة للمذبح الفيدى، فيمكن قول إن ’الباب الشمسى‘ قائم على سطحها العلوى، وأن ’باب القمر‘ قائم على سطحها السفلى حيث إن هذا القالب يمثل *سفارجا*، كما أن جُرم القمر موصوف بأنه ملامس للسطح الأعلى لنطاق العالم الوسيط *أنتاريكشا* الذى يمثله القالب الأوسط[15]، ويمكن القول بالمصطلح الهندوسى إن ’باب القمر‘ يفضى إلى *إندرا لوكا* وإن ’باب الشمس‘ يُفضى إلى *براهما لوكا*، وفى تراث الغرب القديم تناظر *إندرا لوكا* مفهوم *Elysium*، وتناظر *براهما لوكا* مفهوم *Empyrean*، فالأولى ’داخل الكون‘ والثانية ’خارج الكون‘، ونضيف أن ’باب الشمس‘ هو وحده ’الباب الضيق‘ الذى ذكرناه سلفًا، والذى تخرج منه الكائنات من الكون، حيث تحرر من روابط الوجود المتجلى وتخرج إلى عالم الخلود.

---

15 *Both this intermediary world and the earth (Bhumi) belong to the domain of the human state, of which they constitute respectively the subtle and gross modalities; this is why, as Coomaraswamy quite rightly remarks in noting the correspondence of the Vedic symbolism of the perforated bricks with that of the ritual jades pi and ts'ung of the Chinese tradition (which represent respectively heaven and earth), that the pi, which is a disc with a pierced center, corresponds to the upper brick, while the ts'ung, whose form is a hollow cylinder inside and a paral- lelpiped with a square base on the outside, must be considered as corresponding to the two other bricks taken together, the entire human domain thus being represented by a single object.*



59 كالا موخا

تناول *كومارا سوامى* فى سياق الباب السابق رمزا آخر يتعلق معناه 'بباب السماء' وهو 'رأس الوحش'، والتى وجدت على صورة أو أخرى فى بلاد متنائية حيث اكتست بأسماء متنوعة، وقد اتخذ بعضها أسماء مثل *كالا موخا* و *كيرتى موخا* فى الهند و *طاو تييه* فى الصين، كما وجدت فى كمبوديا و جاوا وحتى فى وسط أمريكا، وعُرِف فى فنون أوروبا فى العصر الوسيط، وما ينبغى ملاحظته أنه عادة ما يوضع على عارضة بوابة أو على مفتاح عقد أو على قمة محراب *تورانا* يحتوى على تمثال معبود أو صورته، ويرتبط دائما بفكرة الباب التى تضفى عليه أهمية رمزية[1].

وقد وردت بعض التفاسير لهذا الشكل قد تحتوى على قدر من الحقيقة فيما عدا أنها لا تنطبق على كل الحالات، وهكذا قال مارشال *K. Marchal* إن معظم الأشكال التى درسها تفتقد الفك الأسفل، ويضيف إلى ذلك استدارة العينين[2]، ويستنتج أنها صورة للجمجمة الإنسانية[3]، إلا أن الفك الأسفل يوجد أحيانًا وعلى الخصوص فى *طاو تييه* الصينى رغم أنه ظهر مرة واحدة فحسب، وكما لو كان قد شُقَّ على نصفين متماثلين انطرحا إلى الخلف على جانبى الجمجمة، وقد فسرها هينتز *Carl Hentze* بأنها تناظر فراءً مشدودًا لنمر أو دُب[4]،وقد يكون ذلك وصفًا دقيقًا

---

[1] ويصوره كوماراسوامى بصورة طاو تييه من حقبة هان، والتى نتدلى منها حلقة، ويمكن اعتبارها النموذج الأول لدقاقات الأبواب فى زمننا، حيث يبدو فيها قناع معدنى لوحش يمسك بفمه حلقة معدنية، وترمز هذه الحلقة إلى 'الباب الضيق' فى خشم الوحش الفاغر فى حالات أخرى.

[2] والواقع أن هذه الصورة من خصائص التمثيلات التراثية للكائنات 'المرعبة'، ويحيلها التراث الهندوسى إلى ياكساس وغيره من الأرواح 'الحارسة'، وكما يسميها التراث الإسلامى 'الجن'..

[3] *'The Head of the Monster in Khmer and Far-Eastern Decoration' in Journal of the Indian Society of Oriental Art, 1948.*

4 *'Le Culte de l'ours et du tigre et le "T'ao t'ie", in Zalmoxis, 1,1938.*

لهذه الحالة الخاصة، ولكنه لن يكون كذلك فى معظم الحالات التى تصور الوحش بفم فاغر، وحتى فيما تعلق بحالة *طاو تييه* فإن هذا التفسير 'تاريخى' ولا علاقة له بالتفسير الرمزى.

زد على ذلك أن *طاو تييه* واقعيًا ليس نمرًا ولا دبًا ولا أى وحش آخر، ويصف هينتز السمات المركَّبة لهذا القناع الخيالى فيقول "يبدو مثل حلق حيوان مفترس بأنياب هائلة وقرون كالجاموس أو الكباش، ووجه بومة وبداية أجنحة ومخالب طائر كاسر وحلية على الجبهة على شكل ذبابة *cicada*"، وهو شكلٌ بالغ القدم فى الصين كما نجد على مصنوعات البرونز من حقبة *تشانج*[5]، وعادة ما يُترجم *طاو تييه* إلى 'حيوان شره' أو 'غول'، وتبدو أنها أضفيت عليه بعد ظهوره بزمن طويل، لكن تسميته لها ما يبررها، فهو على الحقيقة حال وحش مفترس، ويصدق الأمر ذاته على ما يساويه فى الأديان الأخرى، والتى لا تطرح شخصية مركبة على منوال *طاو تييه*، وعلى كلٍ يبدو أنه اختُزِل إلى حيوان واحد، فهو الأسد فى الهند الذى يسمى *كالا*، أو *ماكارا* رمز *فيرونا*، أو النسر *جارودا*، لكن المعنى واحد دائمًا.

لكن المعنى الذى جاء فى مقالة هينتز عن *طاو تييه* هو 'عِفريت الظلام'، وقد يكون ذلك صحيحا بمعنى بعينه شرط أن يُفسَّر فى دراسة أخرى[6]، فلا يجوز أن يكون عفريتا بالمعنى المعتاد بل بالمعنى الفيدى *آسورا*، كما أن الظلام المقصود هو 'الظلام الأسمى'[7]، وبتعبير آخر فإن المسألة هى رمز 'الهوية الأسمى' التى تمنح 'نور العالم' وتمنعه على دورات، وهكذا ينتمى *طاو تييه* وما يشاكله إلى *فريترا* وما يساويه، وكذلك إلى *فارونا* الذى يرسل المطر ويحبسه، وهو تبديل بين دورات لا تتغير ودورات تتغير للتجلى الكونى[8]، وقد أصاب *كوماراسوامى* بقول إن هذا الوجه هو

---

5 H.G. Creel, Studies in Early Chinese Culture [Baltimore: Waverly Press, 1937، ويرى هذا الكاتب أن العناصر الواردة فى هذا التمثيل مستقاة من الثور والوعل، كما يرى الصلة المحتملة بينها وبين الحيوانات التى كانت أضحيات فى عصر هان.

6 وليس لدينا معرف مباشرة بكتاب *Die Sakralbronzen unci ilire Bedeutung in der Friihchinesichen Kulturen, Anvers, 1941*، وندين لكوماراسوامى بإشارته إليه بالمعنى الذى تُرجم به اصطلاح طاو تييه.

7 *See our study 'The Two Nights' [chap. 31 in Initiation and Spiritual Realization],*

8 والنور والمطر رمزان للقوى السماوية، وسوف نعود إليها فى الباب التالى.

على الحقيقة 'وجه الرب' أيًا كانت مظاهره، فهو المحي والمميت[9]، وليست إذن 'وجه الموت' تمامًا كما يقصد مارشال مالم يُتخذ كرمز، ويستطرد *كوماراسوامى* "إنه يقوم بدور الموت *مريتيا* الذى يسمى كذلك *كالا* "[10].

وتعنى *كالا* بالمعنى المنضبط 'آكل الزمن'[11]، ولكنه أيضا تسمية لمبدأ الموت من حيث إنه 'مدمر' أو 'محول' للتجلى، والذى يستعيدها فيما بعد إلى حال اللاتجلى كما لو كان يمتصها فى ذاته، ويكاد هذا المفهوم للموت أن يكون أسمى المفاهيم قاطبة، كما أنه يتحول رمزيا إلى الشمس، ومن المعلوم أن قناع الأسد '*سينها موخا*' مستعار من رمز الشمس، ويعيدنا ذلك إلى موضوع باب السماء *يانوا كويلى*، ويتذكر *كوماراسوامى* المسيح فى هذا السياق، والذى قال **"أنا الباب"** وكذلك **'أسد يهودا'** و **'شمس الإنسان'**[12]، وتحتل صورة المسيح فى مجده *Pantokrator* الموضع المركزى فى أقبية الكنائس البيزنطية، أى الموقع المناظر لعين القبة، وهو ما يمثل الطرف الأعلى من 'محور العالم' والباب الذى يفضى إلى 'الخروج من الكون'[13].

ولنعد إلى *كالا*، فالاسم المركب الذى يُقال له *كالا ماكارا* فى جاوة الذى اندمجت فيه ملامح الأسد بملامح *ماكارا* له معنىً شمسيًا، وتشير إلى رمزية *فارونا* الذى يتماهى مع الموت *ياما* أو *مريتيو*[14]، و *ماكارا* هو التمساح *شيشومارا* بفكين مفتوحين يقاوم التيار، ويمثل الطريق الواحد الذى لابد أن يسلك فيه حتمًا كل

---

9 و'المحي' و'المميت' من الأسماء الحسنى فى التراث الإسلامى.

10 ويلفت كوماراسوامى النظر إلى مقابض السيوف الإندونيسية حيث تصوَّر وحوش مفترسة رمزا للموت، ومن الواضح أنها توافق الغرض منها، كما يمكن إجراء مقارنة مع بعض تمثيلات شينجى والصورة التبيتية لياما،والذى يمسك بيديه 'عجلة الوجود'، ويبدو على استعداد لالتهام كل ما بدا فيها من كائنات، راجع *Marco Pallis, Peaks and Lamas, London: The Woburn Press, 1974], P146).*

11 والمعنى الأولى لكلمة 'أسود' يعيدنا إلى رمزية 'الظلام'، والتى تنطبق حتى فى عالم التجلى على أى انتقال من حال إلى غيره.

12 *The 'solar door' (surya-dvara) is the 'door of Deliverance' (mukti-dvara); the door (dvara) and the mouth (mukha) are here equivalent symbols. The sun, as 'Face of God', is likewise represented by a lion mask on a Christian sarcophagus at Ravenna.*

13 راجع باب *41* 'الباب الضيق'.

14 راجع باب *55* 'ثقب الإبرة'.

الكائنات، ويبدو التمساح ’سادنًا للباب‘ الذى يجتازه الكائن حتى يتحرر من قيود الشروط العرضية للوجود المتجلى[15]، وهذا المكارا فى البروج الهندوسية هو علامة الجدى، أى ’باب الملائكة‘[16]، ومن الواضح أن له جوانب متناقضة بين النفع والضرر، والتى تناظر بدورها ثنائية ميترا وفارونا أو ’شمس النهار‘ و’شمس الليل‘ وهو ما يربو إلى قول إن الحال الذى أنجزه الكائن يقدم نفسه إلى ماكارا، فيصبح فمه إما ’بابًا الخلاص‘ وإما ’فكًا الموت‘[17]، وهذه الحالة هى حال الإنسان العادى فى عبوره نطاق الموت، ولابد أن يعود إلى حال جديد من التجلى، أما الأول "المؤهل للمرور من باب الشمس"[18] على الشعاع السابع فإن سؤال ’من أنت؟‘ الذى يُسأله على الباب، وجوابه الحقيقى ’أنا أنت‘.

---

15 راجع باب 56 ’عبور المياه‘، وهذا التمساح هو آمّيت عند قدماء المصريين، وهو وحش ينتظر نتائج القيامة بعد ’وزن القلوب‘، ثم يلتهم الساقطين فى الاختبار، كما أنه التمساح الذى ينتظر ’الجوكر‘ فى الورقة 21 من أوراق الطاروت، و’الجوكر‘ هنا ترجمة للإنسان الدنيوى الذى لا يعلم من أين أتى ولا إلى أين يذهب، ويسير كالأعمى وهو غافل عن الحافة التى سيسقط فيها.

16 راجع باب 22 ’جوانب من رمزية السمكة‘، وبدلا من جانب ’التهام التمساح‘ يتخذ ماراكا مهمة الدرفيل المنقذ.

17 وقد رُبطت رموز الحب والموت فى أديان تراثية بعينها على نحو يناظر مزدوجة ميترافارونا، وحيث إن لدينا أسباب لربطها بصرعى الغرام *Fedeli d'Amore*، فإن الازدواجية ذاتها قائمة فى ’النصفين من كرة الأرض‘ التى يرمز لها ديوسكورى *Dioscuri*، راجع باب 5 ’اللولب المزدوج‘ فى ’الثلاثى الأعظم‘. .

18 *Jaiminiya Upanishad Brahmatia 1.6.1.*



60 النور والمطر

لقد أشرنا توًا إلى علاقة مخصوصة بين النور والمطر من حيث إنهما رمزين للفيض السماوى أو الروحى، ويبدو هذا المعنى واضحًا فى حال النور، أما المطر فقد أسهبنا فيه فى موضع آخر[1]، لتوضيح أنها مسألة تنزيل لهذه البركات فى العالم الأرضى، والإشارة إلى أنها المعنى الأعمق الخالى من 'السحر' الذى تفشى بين الذين جعلوا من 'تنزيل' المطر غاية لهم[2]، كما أن النور والمطر كلاهما فيه قوة 'إحياء' تمثل تأثير التنزيل المقصود[3]، كما تتصل رمزية 'الندى' بالمطر عن قرب، وتشارك كثيرٌ من الأديان التراثية فى هذه الرمزية ما بين الهرمسية[4] والقبالة العبرية [5] حتى تراث الشرق الأقصى[6].

ويحسن الانتباه إلى أن النور والمطر من هذا المنظور ليسا مقصوران على السماء بل يرتبطا كذلك بالشمس، وهو ما يتفق مع الظواهر الطبيعية للنور والمطر بالمفهوم الحرفى، والواقع أن الشمس هى مصدر النور فى عالمنا، كما أنها سبب تبخر الماء وصعوده إلى الطبقات العليا من الجو حتى يسقط كأمطار على الأرض، كما

---

1 'الثلاثى الأعظم' باب *14*.

2 *This symbolism of rain has been preserved, through the Hebraic tradition, even in the Catholic liturgy itself: Rorate, Coeli, desuper, et nubes pluant Justum Isaiah 45:8.*

3 أما عن النور فى هذا السياق فراجع كتابنا *Perspectives on Initiation, chap. 47*.

4 ويربط تراث الصليب الوردى بين الندى وبين النور.

5 كما تتذكر الصلة بين اسم ميتاترون والتفاسير التى قيلت عنه مرتبطة بالنور والمطر معا، مما يؤكد على الصبغة 'الشمسية' له، والتى تتعلق بالملحوظات التالية.

6 راجع 'ملك العالم' باب *3*، و 'رمزية الصليب' باب *9*.

يجب الانتباه إلى فعل الشمس فى إنتاج المطرِ ناتج عن الحرارة، وهكذا نجد المصطلحين المتكاملين فى الضوء والحرارة، والتى يُستقطب فيها العنصر الحارق كما أوضحنا فى دراسة سابقة، وهذه الملحوظة تفسير للمعنى المزدوج فى الرمزية التى قليلًا ما فُهِمَت.

وقد كان يجرى تمثيل الشمس بنوعين من الأشعة فى أزمنة وأماكن مختلفة حتى فى الغرب فى العصور الوسطى، أحدهما مستقيم والآخر متموج، والمثل الباهر لهذا التصوير لوح أشورى من القرن التاسع قبل الميلاد فى المتحف البريطانى[7]، وتبدو الشمس فيه نجمة بثمانية أشعة[8]، وقد ارتسم كل شعاع من الأربعة الرأسيين والأفقيين بخطين بينهما زاوية حادة، وارتسم كل من الأشعة الأربعة الوسيطة بثلاثة خطوط موجية، وقد رُسِم كل من الأشعة الموجية الأربعة بخطين يلتحما فى نهايتهما على منوال الأشعة المستقيمة، وهكذا ينتج عنها الرمز المعروف 'للسيف الملتهب[9]' والعنصر الجوهرى الذى لا بد من اعتباره فى كل الحالات هو الخطوط المستقيمة والخطوط الموجية، والتى يمكن اختزالها فى رسم أبسط، ولكن ما هو مغزى الخطوط الثلاثة؟

وأول أمر هو المعنى الذى يبدو طبيعيًا فى التمثيل الصورى للشمس، فتمثل الخطوط المستقيمة النور والخطوط الموجية الحرارة، وهوما يناظر رمزية حرفا **ريش** و **شين** فى الأبجدية العبرية، ومن جذر **آر** و **آش** اللذان يعبرا عن هذين الصيغتين المتكاملتين للنار[10]، ولكن ما يعقد الأمور هو أن الخطوط الموجية تستخدم عادة رمزًا للماء على اللوح الأشورى ذاته، حيث يمثل الماء مصفوفة من الخطوط الموجية

---

7 *This tablet is reproduced in The Babylonian Legends of the Creation and the Fight between Bel and the Dragon as told by Assyrian Tablets from Nineveh (a publication of the British Museum).*

8 *This number 8 may have in this context a certain connection with the Christian symbolism of the Sol Justitiae, (cf. the symbolism of the eighth card of the Tarot); the solar God, before whom moreover this representation is placed, holds in one of his hands 'a disc and a rod which are the conventional representations of the measuring line and of the staff of justice'. On the subject of the first of these two emblems, let us recall the relationship that exists between the symbolism of 'measure' and that of the 'solar rays' (see The Reign of Quantity and the Signs of the Times, chap. 3).*

9 ونشير عرَضا إلى أن الصورة الموجية أحيانا ما تمثل البرق، والذى يرتبط بالمطر بمدى ظهوره كنتيجة لفعل صاعقة البرق فى السحاب، والتى تحرر الماء الذى تنطوى عليه.

10 راجع دوليفه *The Hebraic Tongue Restored Fabre d'Olivet*.

تماثل المرسومة حول الشمس، والواقع أنه ليس هناك تناقض، فالمطر الذى يناسبه رمز الماء تمامًا يمكن اعتباره منبثقًا عن الشمس، كما أن تأثير حرارة الشمس يجعل من المشروع إدماجه بالحرارة ذاتها[11]، والإشعاع المزدوج الذى نعتبر فيه هو الضوء والحرارة من منظور بعينه إلا أنه قد يكون النور والمطر من منظور آخر، فالشمس فى الحالتين تعمل فى إحياء كل شيء.

وبهذا الصدد لا بد من ملاحظة أن النار والماء عنصران نقيضان، وليس هذا التناقض إلا مظهرٌ خارجى لحالة من التكامل فيما وراء النطاق الذى يفرض التناقض، فهما على منوال كل النقائض التى لا بد أن تلتقى وتتوحد فى مبدئها، والذى تمثل الشمس صورته الظاهرة، فهما على الحقيقة متماهيان، وهو ما يبرر التمثيل الشكلى الذى نحن بصدده، وحتى لو طرحناها من مستوى أدنى إلا أنه يناظر حالات عليا للتجلى عن العالم الجسدانى الذى يجعل من الماء والنار نقيضان بالمعنى 'الكثيف' الذى فرض تناقضهما، فلازال بينهما تماهٍ نسبى، ويصدق الأمر ذاته على 'المياه العليا'، وهى تناظر الإمكانات اللاصوريًة للتجلى، والتى يمثلها السحاب رمزيًا حيث تسقط منه الأمطار على الأرض[12]، وفى الآن ذاته تعيش النار فى البرق[13]، كما أن الأمر على هذا المنوال فى التجليات الصورية، فهناك عدة

---

[11] وفى لغة تراث الشرق الأقصى يصبح النور يانج بمعنى الحرارة، كما يُعدُّ ين مظلما بالنسبة له، مثلما تصبح المياه ين بالنسبة إلى النار، ويمثل الخط المستقيم هنا يانج ويمثل الخط المتموج ين من كلا المنظورين.

[12] والمطر لا بد أن يؤخذ فى الاعتبار لتمثيل النفوذ الروحى بصفته 'ماء السماء'، ومن المعلوم أن السماء تناظر الأحوال فوق الصورية، فبخر ماء الأرض بحرارة الشمس صورة 'للتحول' من الماء الأدنى إلى الماء الأعلى والعكس..

[13] ويُضاهى ذلك بالملحوظة التى طرحناها عاليه عن مسألة البرق، ويُكمل تبرير التشابه بينه وبين رمز الماء، وفى الرمزية القديمة للشرق الأقصى اختلاف طفيف للغاية بين البرق لِي وين و بين السحاب يون وين، فكلاهما يشتمل على مصفوفات من اللوالب أحيانا بدوائر وأحيانا بمربعات مما يجعل التمايز بينهما لا يكاد يُلحَظ فى الواقع، كما أن كلاهما مرتبط برمزية التنين، *H.G. Creel, Studies in Early Chinese Culture, pp 236-37*، ولنلاحظ أيضا أن تمثيل البرق بلولب يؤكد ما طرحناه سلفا عن العلاقة بين رمز اللولب المزدوج وبين فاجرا. راجع 'الثلاثى الأعظم'، ترجمات تراث واحد قيد النشر باب *6*.

إمكانات تتعلق بالنطاق اللامنظور، ولنر كيف ينظر الخيميائيون إلى الماء و"أشعته التى تتوهج بنارها"، ويطلقون لفظ ’الوضوء‘ لا على الاغتسال بالماء أو غيره بل على ’التطهر بالنار‘، وقد أخفى القدماء ’الوضوء‘ فى لغز *السلامندر* الذى قيل أنها تعيش فى النار على تيل لا يحترق[14]، ويمكن أن نفهم من ذلك كثيرًا من التنويهات فى الرمزية الهرمسية عن ’نار لا تحرق‘ و’ماء لا يبلل الكف‘، وكذلك ’الزئبق الحى‘ بفعل الكبريت، والذى أطلق عليه ’ماء مشتعل‘ أو حتى ’نار سائلة‘[15].

ولنعد إلى رمزية الشمس، فنضيف فحسب أن هناك نوعان من الأشعة فى كثير من الرمزيات التى تتعلق بالقلب والشمس أو ما تمثلها، فهى على الحقيقة ’قلب العالم‘، وبمدى ما كان القلب مركزًا لكلٍ من النور والحرارة، وهو ما يستلزم طرح اعتبارات أخرى[16].

---

14 وهذا ’التيل الذى لا يحترق‘ هو الأسبستوس.

15 راجع ’الثلاثى الأعظم‘، باب *11*.

16 راجع باب *69*.

61 سلسلة العوالم

قال *كريشنا* فى *بهاجافاد جيتا "لقد تعلقت بى كل الأشياء*[1] *كصفوف من اللآلىء على خيوط*"[2]، وهى رمزية تتعلق *بسوترآتما* التى تناولناها فى موضع آخر، وهو*آتما* كالخيط *سوترا* الذى ينفذ فى كل العوالم ليربطها معا، كما أنه فى الآن ذاته 'النَفَس' المذكور فى متن آخر والذى يحييها فى الوجود، والذى لن يكون لها من دونه وجودًا على أية صورة كانت، ونحن نتكلم هنا عن العوالم من منظور الكون الأكبر، ولكن لابد من فهم إمكان الحديث عن كائن واحد من منظور الكون الأصغر بالرمزية ذاتها.

فكلُّ عالَمٍ أو كلُّ حالٍ فى الوجود يمكن تمثيله بِكُرَة يمر منها خيط يصل بين قطبى الكرة، ويتضح على الفور أن قطب هذا العالم أو هذا الحال ليس إلا شطرًا من قطب التجلى الكلى بمجمله، وهكذا يتأسس الاتصال بين كل الأحوال وكل العوالم التى يشتمل عليها التجلى، ولابد من حل اضطراب مؤسف قبل أن نذهب بعيدًا فى بحث هذه الرمزية، ويتعلق بالتمييز بين 'أعلى' و'أسفل'، ففى نطاق الظواهر العضوية لو بدأنا من أى نقطة على سطح كرة فى اتجاه هابط فذلك اتجاه نحو المركز، فالاتجاه إلى أسفل دائمًا يعنى مركز الكرة، لكن هذا التوجه لا يقف عند نقطة المركز بل يستمر نحو النقطة العكسية على سطح الكرة، ومن ثم يتجاوز الكرة

---

[1] و كل الأشياء أى مجمل التجلى تنطوى على العوالم وليس هذا العالم، كما جاء فى ترجمة حديثة "على نهج شرى أوروبيندو".

[2] بهاجافاد جيتا *vii. 7*.

ذاتها، وقد ظن البعض أن الهبوط إلى أسفل يمكن أن يستمر، واستنتجوا من ذلك أن الهبوط يتجه إلى المادة أى إلى ما تعلق بالعالم الكثيف فى النطاق الجسدانى، لكنه كذلك 'هبوط نحو الروح'[3]، ولو جاز القول فإن الروح ذاتها تنطوى على جانب 'خبيث *malific*'، والواقع أنه يلزم رؤية الأمور بطريقة مختلفة تماما، فالمركز فى هذا التمثيل الشكلى واقع فى أسفل نقطة[4] وما وراءها، ولا مناص له من الارتفاع مرة أخرى، فقد ارتفع دانتى من الجحيم باتباع الاتجاه الذى بدأ منه هبوطه، أو على الأقل ما يبدو كذلك هندسيا[5]، حيث إن جبل الفردوس الأرضى فى الرمزية الفراغية يقع على مشارف أورشليم[6]، وتكفى لحظة تفكر لتوضيح أن التمثيل لن يعنى شيئًا بأى وضع آخر، فلن يتسق مع رمزية الثقل التى تُعَدُّ مهمة فى هذا الشأن، فكيف يجوز أن تكون أسفل نقطة فى الكرة هى فى الآن ذاته أعلى نقطة منها؟ وكيف يمكن تمثيل الأمور الأخرى لو كان على المرء أن يبدأ من آخر نقطة؟[7] والأمر الحقيقى الوحيد فى كل ذلك أن نقطة الهبوط ليست قائمة فى النطاق الجسدانى، فهناك عنصر 'تحت جسدانى *infra-corporeal*' على امتداد عالمنا، لكنه ينتمى إلى النطاق النفسى، والذى يستعصى على التمثيل بأى روحانية أيًا كانت، حتى إنها أبعد شىء عن الروحانية، حتى إنه يبدو النقيض التام لها من كافة الجوانب، ولو جاز قول إن الروح لها نقيض، والاضطراب

---

[3] قال الأب بوسيل *Rev. V. Poucel* فى كتابه *La Parabole du Monde, III* "قد يكون سوء الاستخدام الذى فشا فى أيامنا فى استخدام كلمات 'روح' و'روحى' عاملا من عوامل سوء الفهم، لكن هذا الأمر ينبغى كشفه لا قبوله، حتى تتجنب نتائجه الخاطئة".

[4] وعلى العكس فقد كانت أعلى نقطة حينما تطرأ الحاجة إلى قلب الرمز حتى نفهمه 'بمعناه المقلوب' هو الذى يناظر الوظيفة الحقة للمركز بما هو. 'الثلاثى الأعظم' باب *23*.

[5] ونذكر هذا التحفظ لأن المرور بالمركز أو النقطى الأدنى 'تصحيح' لقول إنه تغير فى الاتجاه، أو على وجه الدقة تغير 'كيفى' فى عكس الاتجاه..

[6] 'جوانية دانتى' باب *8*.

[7] وأن يُصَوَّر سكان المناطق المعادية برأسهم إلى أسفل نتيجة خطأ من النوع ذاته قصرا على المعنى الحرفى و'العضوى'..

الذى أشرنا إليه الآن ليس على الحقيقة إلا ما تمخَّض عن خلط النفسى بالروحى[8].

وقد ينشأ اعتراض على ما قلنا عن حالات الوجود المتجلية وبنيتها، أى تنوع الحالات بين العلو والهبوط، كما لا بد من وجود اتجاه إلى أعلى، وطريق عكسى للاتجاه إلى أسفل على المحيط ذاته الذى يوحد بينهما، وهذا صحيح بمعنى بعينه، لكن لابد أولًا من ذكر أن هذا التمايز لا أثر له على *سوترآتما*، والتى هى فى كل أين متماهية مع ذاتها أيًا كانت الأحوال التى تنفذ فيها وتقيتها، كما أن هذا الاعتراض يتعلق بسلسلة العوالم بكاملها وليس بأيها على انفراد، والحق إن أيًا من هذه العوالم بكل ما يستطيع الامتداد إليه ليس إلا شظية من مجمل التجلى الكونى، ولذا كان تمثيلها لا يربو عن نقطة بتطبيق الرمزية الهندسية على الاتجاهات الرأسية والأفقية، فمن الممكن تمثيل العوالم كمصفوفة لانهاية لها من الأقراص التى يمر فيها المحور الرأسى[9].

وعلى كلٍ يمكن أن نرى فى حدود كل عالم أن المحور لا وصول له إلا عن طريق نقطة واحدة، حتى إن الحركة إلى أعلى أو أسفل لن تمكن إلا خارج حدوده.

كما يمكن إضافة ملحوظة أخرى عن المحور المقصود تُضاهى 'الشعاع السابع' للشمس، وبناءً على رمزية أخرى تناولناها سلفًا، فلو كان محور العالم يمر بالعالم الذى نمثل له بكُرة فلا يمكن أن يكون قطرًا لهذه الكرة، حيث إن المحاور الثلاثة التى تمثل الأبعاد الفراغية تتعاكس اثنين اثنين بحيث تشكل الأشعة الستة للشمس، ولا بد أن يكون 'الشعاع السابع' عموديًا عليه جميعا، فهو فحسب الذى يمكن أن يكون محور التجلى الكلى أو ما نسميه المحور الرأسى المطلق الذى يُنسَبَ إليه محاور العالم الذى نقصده، والتى ستكون جميعًا أفقية نسبيا، ومن الواضح أن

---

[8] ولنضف إلى سياقنا على عكس ما يقول الكاتب فى الفقرة المقتبسة ذاتها، أنه ليس هناك ما يسمى 'وهم روحى *spiritual illusion*'، والخوف الدائم الذى يعانى منه المتنسكين هو أن يخدعهم الشيطان برهان على النفاذ من النطاق النفسى، فكما فسرنا فى موضع آخر أن الشيطان لا يستطيع أن يمتلك زمام أمرهم حين ينتمون إلى النطاق الروحى المُغلق فى وجهه.

[9] ويبين هذا التمثيل أن التواصل قد تأسس من خلال هذا المحور فحسب، ويمكن التواصل فقط بين المراكز المناظرة..

ذلك لن يمكن تمثيله هندسيا[10]، وهو ما يبين استحالة وجود أى تمثيل كفء، فعلى أقل تقدير لن يمكن تمثيل 'الشعاع السابع' إلا بنقطة واحدة تتفق مع مركز الكرة، كما تبين أن كل كائن محتبس فى حدود عالم بعينه، أى فى أحوال وجود مخصوصة، فإن المحور 'خفى' لا يراه، ولا يرى إلا النقطة التى 'رسمها' المحور فى ذلك العالم، زد على ذلك أن هذه الملحوظة الأخيرة لازمة لفهم رمزية المحور والعلاقة بين العوالم التى يربطها معًا بما لايمنع من تمثيل 'سلسلة العوالم' بمصفوفة من الكرات[11] أو عقد من اللالئ كما نوهنا فى أول الباب[12]، والحق أقول إن من الصعب طرح صورة أفضل ولا أوضح من ذلك.

وكذلك من المهم ملاحظة أن سلسلة العوالم "لا يمكن اجتيازها إلا فى اتجاه واحد فحسب يناظر ما أسميناه الاتجاه الصاعد للمحور"، تتضح هذه الحقيقة عندما نلجأ إلى الرمزية الزمنية، والتى تمثل العوالم أو أحوال الوجود بدورات زمنية متتابعة، وتُعتبر الدورات السابقة لعالم أو حال بعينه فى وضع أسفل والدورات التابعة فى وضع أعلى، وهو ما يعنى أن الصلة لا بد أن تُفهم على أنها لا تنقلب، وعدم القابلية لانقلاب هذه السلسلة تعنى أنها 'سببية' على نحو صارم، حتى لو كانت تفترض تزامنًا لا تتابعًا، فالعلاقة بين السبب والنتيجة لا يمكن أن تنقلب، وتشكل فكرة المصفوفة السببية المعنى الحق الذى تعبر عنه رمزية الدورات المتتابعة، فمنظور التزامن دائمًا ما يناظر منظومة أعمق من التتابع.

وتمثُل 'سلسلة العوالم' عمومًا على هيئة دائرية[13]، فلو كان كل عالم دورة يُرمَز

---

[10] وقد يُغرى البعض استحضار 'بعد رابع' فى المسألة، ولكنه لايقبل تمثيلا حيث إنه على الحقيقة مقولة جبرية تعبر عنه لغة هندسية.

[11] وفى أحوال بعينها تُستَبدل الكرات بحلقات صغيرة مثقوبة المركز، وهو ما يناظر الأقراص التى اعتُبِرت فيما بعد أفقية بالقياس إلى المركز المذكور.

[12] ومن المشروع اعتبار أن عقدا من هذا النوع لابد أن يكون رمزا 'لسلسة العوالم'، فكما قلنا سلفا إن واقع إسباغ صبغة 'زخرفية' على عنصر ليس إلا نتيجة انحطاط من جرَّاء سوء فهم المنظور التراثى.

[13] وليس هذا الشكل نقيضا 'لرأسية' المحور أو المحيط الذى يصوره، فحيث إن المحيط بطول لامحدود يمكن أن يُمثَّل له بخط مستقيم فى كل جزء منه، ودائما ما يكون عموديا على نطاق

إليها بدائرة فإن التجلى الكلى بجمله سيكون ’دائرة من الدوائر‘، فلو كان عبور السلسلة من بدايتها إلى نهايتها يجرى فى اتجاه واحد إلا أنه يمكن اجتيازها مرة أخرى فى الاتجاه ذاته، وتناظر فى توزيع التجليات مستوى غير الذى سلكه الاجتياز البسيط من عالم إلى آخر[14]، وحيث إن هذا المضمار قد يستمر بلا توقف فإن لانهائية التجليات ذاتها تتضح على نحو أكمل، ولا بد من إضافة أن نقطة إغلاق هذه الدائرة[15] تضاهى غيرها من النقاط، فهى لا تنتمى إلى مصفوفة الأحوال المتجلية، فالبداية والنهاية يتصلا ويتفقا، أو بالحرى هما الشيء ذاته، لكن ذلك لا يجرى على مستوى التجلى نفسه بل فيما وراءه أى فى المبدأ ذاته[16].

والرمز المشترك بين الصور التراثية المختلفة ’لسلسلة العوالم‘ هى المسبحة، والتى تشير مباشرة إلى الصلة بما طرحناه فى أول هذا الباب عن ’النَّفَس‘ الذى يحفظ العوالم، وأن الصيغة التى تُنطق مع كل خرزة من المسبحة تناظر من حيث المبدأ على الأقل شهيقًا وزفيرًا، وهما رمز لخلق العالم واسترجاعه، وتناظر الفترة بين شهيق وآخر الانتقال من خرزة إلى التى تليها، كما تناظر أيضًا لحظة صمت ترمز إلى *برالايا*[17]، وهكذا يتضح المعنى العام لهذه الرمزية، وأيًا كانت الصورة التى يتزيا بها كل حال من الأحوال، كما يجب مراعاة أن العنصر الجوهرى هو الخيط الذى يصل بين خرزات المسبحة، والذى قد يبدو واضحًا تمامًا، فما من مسبحة ولا عُقْد

....

الوجود الأفقى الذى يشكل هذا العالم، وهو نطاق لعنصر متناهى الصغر فى التجلى، والذى ينطوى على عوالم لا تحصى من هذا النوع.

14 وهذا العبور من عالم إلى آخر بمصطلح التراث الهندوسى برالايا، والعبور من النقطة التى يلتقى فيها طرفا السلسلة ماهابرالايا، ويمكن أن ينطبق ذلك بالتشاكل على درجات أكثر خصوصية، وبدلا من رؤية العوالم فى علاقتها بجمل التجلى لن يرَ المرء إلا صيغا من عالم بعينه بالنسبة إلى كمال ذلك العالم.

15 وربما كان من الأضبط للمعنى المقصود قول إنه يبدو مغلقا حتى يتجنب عبورا جديدا فى هذه السلسلة، والذى لن يكون إلا تكرارا لما سبقه، وهو استحالة صرف، لكن بمعنى آخر أو جانب آخر إنه ينغلق من حيث المبدأ بمدى ما تماهى النهاية مع البداية.

16 ونرجع هنا إلى ما قلناه سلفا عن ’لقاء الأضداد‘ فى كتابنا *Initiation and Spiritual Realization, chap. 29.*

17 التحلل فى نهاية دورة زمنية للعالم كالبا، حيث يتحول التجلى إلى اللاتجلى، ليظهر فى أعقابه عالم جديد. موسوعة الأديان والفلسفات الشرقية، ترجمات تراث واحد، قيد النشر. المترجم.

بلا خيط، ولو لزم لفت النظر إلى هذا فإن حبات المسبحة هى التى تبدو من الظاهر وليس الخيط، ولذلك أهمية عظمى من حيث إن الخرزات تمثل العوالم المتجلية فى حين يمثل الخيط ما لا يتجلى، أى *سوترآتما*.

وتسمى المسبحة فى الهند *آكشا مالا* أى باقة *الآكشات*، وكذلك *آكشا سوترا*، ولكن ماذا تعنى *آكشا*؟ والحق إن هذه مسألة معقدة[18]، فالجذر الفعلى *آكش* الذى اشتُقت منه هذه الكلمة يعنى 'التخلل' أو 'المرور'، ومن هنا كانت *آكشا* هى المعنى الأول 'للمحور *axis*'، كما أن الكلمتان تماهيا، ولنرجع إلى اعتبار أن المرء يمكن أن يرى معنى الصلة 'المحورية' *لسوترآتما*، ولكن كيف أن *آكشا* لم تعد تعنى خيط المسبحة بل خرزاتها فحسب؟ ويتوقف فهم ذلك على أن معظم التطبيقات الثانوية لهذه التسمية قد انتقلت من جراء المرور من المحور إلى القطر المتعامد عليه، وعلى الأخص فى نقطة تخلله، فعلى سبيل المثال أن *آكشا* هى 'عين' ركبة العجلة[19]، وتعيدنا فكرة 'العين' إلى المفهوم الرمزى 'للمحور' و'الشعاع الشمسى' الذى ينير العوالم بموجب أنه يتخللها جميعًا، كما أن *آكشا* هى كعب الزهر التى تُلقى لاستنباط عدد العيون على أوجهه الستة[20]، وهى كذلك اسم نوع من البذور لنبات تصنع منه حبات المسبحة، ذلك أن مثقوب المركز بما يؤهله ليكون 'عيناً' يمر فيها الخيط المحورى[21]، وهو ما يؤيد الأهمية الأولانية للخيط فى رمزية 'سلسلة العالم'، فهذا ما يضفى على حبات المسبحة اسمًا ثانويًا مثلما نقول إن 'العوالم' ليست عوالمًا على الحقيقة فيما عدا أن *سوترآتما تخللها*[22]، ويختلف عدد حبات المسبحة بحسب الدين، وحتى بحسب تطبيقات خاصة متنوعة، لكن الصور الشرقية عادة ما يكون فيها *108* حبة فى الهند والتبت، والواقع أن الأحوال التى

---

[18] ودين لكوماراسوامى فيما تعلق بهذا الموضوع.

[19] وهنا ينبغى أن نتذكر ما قيل سلفا عن الرموز على منوال 'عين القبة' و'ثقب الإبرة'.

[20] كما لاحظنا من منظور مذهب الدورات أن تسمية الأوجه بترتيب نقاطها العددى هى ذاتها أسماء الأزمنة يووجات.

[21] وتسمى البذرة رودراكشا بمعنى 'ذات العين الحمراء'، كما تسمى المسبحة رودراكشا فاليا، أى حلقة أو خيط لحبات المسبحة.

[22] ومن المعلوم أن كلمة لوكا بمعن 'عالم' فى السنسكريتية ترتبط بأصلها فى النور والبصر، ومن ثم رمزية العين 'كشعاع شمسى'.

تشكل التجلى الكلى لا تحصى، لكن من الواضح أن هذه الكثرة لن يمكن تفسيرها برمز من النطاق المحسوس مثل الحالة الراهنة، ولا بد من أن تتكون المسبحة من عدد محدود من الحبّات[23]، وهكذا كان العدد الدورى يناسب الشكل الدائرى على نحو طبيعى مثل الذى نعالجه الآن، وهو إذن "دائرة الدوائر" كما نوهنا سلفًا.

أما فى التراث الإسلامى فتبلغ حبّات المسبحة *99*، وهو عدد دائرى معامله *9*، كما أنه فى هذه الحالة عدد الأسماء الحسنى[24] حيث إن كل حبّة تمثل عالما، كما أنه كذلك قد يتعلق بالملائكة بصفتهم حكام السماوات[25]، وكل ملاك يمثل اسمًا ربانيًا[26] تتصل 'روحه' بعالم معين، كما قيل إن حبّة واحدة من المسبحة تنقص لاكتمال *99* إلى *100*، وتناظر هذه الحبة الناقصة 'اسم الذات'، ولا وجود لها إلا فى الفردوس[27]، وهذه مسألة تستدعى التفسير.

فرقم *100* مثل جذره رقم *10*، وعادة ما تستخدم مقياسًا مربعًا وليس دائريا[28]، ولذا لا تعداد لها على محيط 'سلسلة الوجود' ذاتها، لكن الواحد الناقص يناظر نقطة الوصل بين طرفى هذه السلسلة، فهو لا ينتمى إلى مصفوفة الأحوال المتجلية، وهذه النقطة فى الرمزية الهندسية بدلًا من تمثيلها محيط التجليات بجمله سوف تعود إلى المركز[29]، أما المبدأ فلا يظهر ضمن التجليات إلا بأوصافه، أو بتعبير لغة التراث الهندوسى *aspects 'non-supreme'*، أى جوانبه اللامتسامية، ويجوز قول إنها صور افتراضية *لسوترآتما* تناسب عبورها فى عوالم مختلفة، لكن المبدأ ذاته

---

23 فاللغة كذلك غالبا ما تستخدم الأعداد رمزيا مثل 'عشرة آلاف' التى فسرناها فى موضع آخر، راجع 'مبادئ حساب التفاضل والتكامل' باب *9*.

24 وتنقسم المسبحة ذات *99* حبة إلى ثلاثة مجموعات كل منها *33*، وهكذا نجد فيها المضاعفات ذات الأهمية الرمزية التى طرحناها فى مواضع أخرى.

25 كما ينبغى تذكر أن القديس توما الأكوينى كان يعظ بمذهب *angelus movet stellam*، والذى شاع فى العصور الوسطى فى الغرب، لكن الناس الذين يسمون أنفسهم 'توماويون' فى هذا الزمن يفضلون الصمت حتى لا يصبحوا معارضين للمفهوم 'الميكانيكى *mechanistic*'.

26 ورغم أننا كررنا هذه القول مرارا فإننا سنعود إليه فى دراسة لاحقة.

27 وهذه المسبحة الملائكية المئوية لها علاقة بملاك 'الوجه الربانى' بمعنى ميتاترون أو الروح.

28 'الثلاثى الأعظم' باب *8*.

29 وهذه هى 'الرجعى' التى نوه عنها القرآن الكريم "إنا لله وإنا إليه راجعون" البقرة *156*.

أى *بارامآتما* وليس *سوترآتما*، أو هو الجوهر المستقل مطلقًا عن كافة الارتباطات والتعينات أيا كانت، ولا يجوز اعتباره ضمن التجليات حتى على نحو وهمى، رغم أنها نابعة منه ومعتمدة عليه تمامًا وإلا ما كانت حقيقية بأى درجة كانت [30]، فلا وجود للمحيط إلا بالمركز، لكن المركز لا يعتمد على المحيط بأى شكل، وتبدو العودة إلى المركز على مستويين مختلفين، ويمكن أن تنطبق رمزية 'الفردوس' المذكورة سلفًا على المستويين، فلو اعتبرنا أولًا الصيغ المتعددة لحال وجود بعينه مثل الوجود الإنسانى فإن تكامل هذه الصيغ سوف ينحو إلى مركز تلك الحال 'الجنّة' بمعناها الحرفى، ولازال ذلك معنى نسبيًا إلا أن مجمل التجليات المقصودة أمر جوهرى لكى نتحرر منها دون أثر من وجود مشروط لكى نحقق الانتقال من مركز حال بعينه إلى مركز الوجود بأكمله، والتى سُمِّيت بالاستعارة 'جنة الذات'، ولنضف إلى ذلك أن لها مئة حبة فى المسبحة المئوية، وهى الوحيدة التى تبقى بعد أن تسترد الباقين إليها فى النهاية، فليس فى الحقيقة المطلقة موضع للأسماء التى تصف 'تمايزات' عالم الكثرة، ولم يعد هناك حتى 'اللهم' التى تجمع كثرة الصفات الحسنى فى وحدانية الجوهر، فليس هناك إلا 'اللّٰه' جل جلاله المتعالى 'عما يصفون'، أى إنه فيما وراء كل الصفات، والتى ليست إلا انعكاسات للحقيقة الربانية التى تصلح لأفهام الكائنات وتعبيرها.

---

[30] والتعالى المطلق للمبدأ يستلزم 'عدم تبادل العلاقة' التى فسرناها سلفا واستبعاد كل ما كان 'شِركًا' أو 'حلولا'.

62 جذور النباتات

يقول تراث القبالة إن من بين الذين يدخلون ’الجنة *بارديس*‘[1] من سوف يعيث فى حديقتها بقطع جذور النباتات، ولكى نفهم هذا المعنى لابد من الإشارة إلى رمزية الشجرة المقلوبة التى ورد ذكرها فى عدة مناسبات[2]، فجذورها إلى أعلى حيث إنها المبدأ ذاته، ويعنى قَطعها اعتبار ’النباتات‘ أو الكائنات التى ترمز إليها ذات وجود مستقل عن المبدأ، وفى حالتنا الراهنة فتلك الكائنات ملائكة تنتمى إلى درجة من الوجود فوق الإنسانى، ومن السهل فهم النتائج التى تتمخض عن هذا الأمر خاصة فيما يسمى ’القبالة العملية‘، والحق إن تسبيح الملائكة من هذا المنظور ليس على سبيل الوساطة بالسماء كما يرى المنظور التراثى الرشيد *orthodoxy* ولكن كقوى مستقلة تنطوى على الشِرْك بمعناه فى التراث الإسلامى واللغة العربية، ونظرًا لأن تلك القوى تبدو مرتبطة بالقوى الربانية بدلًا من أن تكون مشتقة منها فإن نتائجها تعتمد على نطاق السحر، وهو النطاق الذى يشتمل على الذين يرتكبون هذه المعاصى، ومن ثم يحتبسون فيها أجلًا أم عاجلًا، فإن هذه المعصية لا تترك مجالًا للتدين، ويستحيل التواصل بينهم وبين المبدأ حتى ’تنقطع‘ الجذور، ويجوز إضافة أن النتائج ذاتها التى تخضت عن الانحطاط إلى صور من السحر على منوال ’احتفالات السحر‘، وفى هذه الحالة الأخيرة فإن المخاطر تقل

---

1 والفردوس *Pardes* رمزيا هى ’حديقة‘ لابد أن تأخذها هنا بمعنى تمثيل نطاق أعلى من المعرفة الأسمى المحفوظة، والحروف الأربعة *PRDS* مرتبطة بأنهار جنة عدن الأربعة، ومن ثم تناظر مراتب معرفية متعددة، ومن نافلة القول إن الذين ’يعيثون فسادا‘ فى جنة عدن قد وصلوا إلى درجة لازال يمكنهم فيها الضلال..

2 راجع الباب *51* ’شجرة العالم‘.

نظرًا لتفاهة النتائج التى يصلون إليها رغم أن المعصية هى ذاتها فى الحالين[3]، وأخيرًا لا بد من ذكر أن ذلك تفسير لأحد الطرق التى يظهر فيها هذا الانحراف الذى يُعزى أحيانًا إلى 'سقوط الملائكة' على هذا المنوال، حيث إن مشاركتهم فى المبدأ الذى شكل كينونتهم أصلًا يجعلها تستعصى على الظهور بما هى عليه، ولا يتبقى منهم إلا الجانب السلبى فحسب، والذى يبدو ظلًا مقلوبًا للكائن ذاته[4].

ورجوعًا إلى التراث الرشيد فإن الملاك 'وسيط ربانى'، وليس إلا تعبيرًا عن أحد الأسماء الحسنى فى نطاق التجلى اللطيف، ففى هذا النطاق فحسب يمكن تأسيس اتصال بين الحال الإنسانى والمبدأ الربانى، ويمثل فيه 'الوسيط' المقصود جانبًا مُتاحًا لأفهام الكائنات التى تعيش فى حال إنسانى، وهذا أمر واضح فى تسميات الملائكة، والتى دائمًا ما تكون مرهونة باسماء ربانية، والحق إن الأسماء مناظرة تمامًا لطبيعة الكائن الملائكى باعتبارها جوهره ذاته، وطالما ظل هذا المعنى صوب النظر فإن 'الجذور' لا تُقطع، وبالتالى يجوز قول إن المعصية هى التصديق بأن الاسم الربانى ينتمى إلى الملاك بما هو ككائن 'منفصل'، ويصبح ممكنًا عندما يُغلف الغموض اللغة المقدسة، ولو تحسبنًا لكل ذلك فإن هذه الحقيقة سوف تُفهم على نحو أعمق من النظرة الأولى[5]، وتضفى هذه الاعتبارات كل قيمتها على التفسير القبالى لكلمة 'ملاكى *angel My*'[6] "الملاك الذى يحمل اسمى"، أى حيث

---

[3] وعن مسألة 'احتفالات السحر'، فإن استخدام أسماء الملائكة بنطقها العبرى لا شك أنه أحد الأسباب التى دعت ويت *A.E.Waite* إلى الظن بأن كل الاحتفالات السحرية تنتمى إلى أصل يهودى، راجع *Perspectives on Initiation, chap. 20 The Secret Tradition in Freemasonry, PP 397-99.* ونحن نرى أن هذا الرأى لا يقوم على أساس متين، والواقع أن استعاراتهم من الأصول القديمة للسحر فى العالم الغربى ليس له لغة مقدسة إلا العبرية..

[4] ويمكن القول إنه لا أهمية لأن يؤخذ حرفيا أم رمزيا، ففى هذه الأحوال قد يستدعى ملاكا فيحضر إليه شيطان أو عفريت.

[5] ولنتذكر فى هذه العلاقة ما أشرنا إليه سلفا عن تناظر المراتب المختلفة للمعرفة بالمعنى الباطن فى المتون المقدسة، والواضح إنها مسألة لا شأن لها بالتعاليم البرانية، وهى كل ما يقدر عليه اللغات الدنيوية ودراسة اللغة المقدسة بمناهج دنيوية كما يطرحها اللغويون الجدد.

[6] ويعنى أصل كلمة ملاك 'مرسال' أو 'رسول'، وقل مثل ذلك عن الكلمة العبرية *mal'akh*.

يحمل الرب ذاته على الأقل من أحد أسمائه 'الصفاتية'[7]، وينطبق هذا التفسير أولًا على 'ميتاترون' أى ملاك الوجه الربانى[8] وهو ميكائيل، وليست 'ملاكى' إلا كناية عنه، فوظيفته الشمسية تجعله متماهيًا مع ميتاترون على نحو ما، لكن ذلك يسرى على كل الملائكة، فكل ملاك بالمعنى المنضبط 'حامل' للاسم الربانى من منظور التجلى، وحتى من منظور 'الحق'، والفارق الوحيد هنا هو إمكان بناء الأسماء الحسنى على ترتيب بعينه بحسب أولوية انبثاقها من الجوهر الربانى، كما أن هذه الأسماء لا بد أن تُفهَم على أنها لامتناهية حال النظر إليها على نحو 'تخصيصى'، ويسرى هذا الأمر على كافة الملائكة[9].

وقد يمكن التساؤل فى كل هذه الاعتبارات التى طرحناها عن الملائكة فحسب عما إذا كانت تنطبق على كل كائن فى أى مرتبة من طباق الوجود، كما أنه يعتمد تمامًا على المبدأ فى كل ما كان، والاعتماد ذاته درجة من المشاركة، فيجوز بهذا المعيار تحديد درجة 'حقيقيته'، أضف إلى ذلك أن كل كائن يحمل فى مركزه المبدأ الربانى افتراضيًا على الأقل، والذى يستمد منه وجوده حتى على نحو وهمى، ويناظر هذا التعاليم القبالية تمامًا، والتى تقول إن 'القنوات' التى يسرى فيها النفوذ المنبثق عن المبدأ قد وصلت بكاملها إلى المخلوق المتجلى، ولم تتوقف عند مرحلة أو أخرى من الوجود الوجود الكلى بما فيها أسفلها[10]، وحتى نُكمل رمزيتنا الأولى نقول إنه ليس هناك مخلوق يضاهى 'شجرة بلا جذور'، فمن الواضح أن هناك مراتب لاعتبار درجة المشاركة المذكورة، وأن هذه الدرجات تناظر درجات الوجود ذاتها، ولذا

---

[7] راجع 'ملك العالم' باب 3، ومن المنظور المبدئى فالملاك أو ما يمثل من فضائل فى الرب، ولكن العلاقة تبدو مقلوبة من عالم التجلى.

[8] والحساب العددى لاسم ميتاترون يساوى الاسم الربانى شادّاى.

[9] ولابد من فهم أن هذا الأمر عن 'التعالى الجماعى' وليس اللاتناهى العددى فالملائكة تجل عن الحصر، ولا ينتمون إلى نطاق الوجود المشروط بالكم. راجع 'مبادئ حساب التفاضل والتكامل' باب 3.

[10] وتهبط رمزية هذه 'القنوات' تدريجيا فى كل هذه الأحوال لو نظرنا إليها من الاتجاه الصاعد، فتعيننا على بلوغ مستويات أرقى قد تقوم بدور 'وسيط' للذين لازالوا على المستوى الأسفل، حيث إن الاتصال مع المبدأ يستلزم المرور من هذا النطاق.

كانت حقيقية بمدى تساميها، أى كلما اقتربت من المبدأ، فهنا سبب للتمايز بين حال الكائن الذى بلغ نطاق التجلى اللاصورى أو اللافردى الذى يناظر الملائكة وبين الكائن الذى فى نطاق التجلى الصورى أو الفردى، ويؤدى بنا ذلك إلى طرح تفسير مختصر.

فيستحيل خارج النطاق اللاصورى أن يعبر الكائن عن صفات المبدأ على نحو كامل بقدر الإمكان، فالتمايز بين هذه الصفات يؤدى إلى تمايز بين الكائنات، ويجوز القول إنه "تمايز بلا انفصال *بهيدابهيدا*"[11]، فمن نافلة القول إن كل هذه الصفات صفة واحدة فحسب، وهذا أقل تحديد ممكن فى حال الكائن المتجلى، أى إنه حال مشروط، ومن جهة أخرى حيث إن طبيعة كل كائن قد اختُزِلت إلى صفة واحدة فمن الواضح أنه يحتكم فى ذاته على وحدة من مقام مختلف أكثر حقيقية من الوحدة النسبية ’المركبة‘ للفرد بما هو، وهذا الاختزال للطبيعة الملائكية إلى صفة واحدة دون تركيب إلا فيما تعلق ’بالفعل‘ و’القوة‘ الكامنان فى كل المخلوقات فى عالم التجلى[12]، وقد اعتبر القديس توما الأكوينى الاختلافات بين الملائكة يضاهى الفوارق بين الأجناس لا بين الأفراد[13]، ولو أردنا الآن أن نجد تناظرًا أو انعكاسًا لما طرحنا توًا فى نطاق التجلى الصورى، فلابد أن نعتبر الكائن الفرد لا من حيث خصوصيته بل بالحرى بين ’العوالم‘ أو ’أحوال الوجود‘ ذاتها كلٌّ بمجملها فى ارتباطها باسم ربانى نتجت عنه لو جاز القول[14]، ويعود بنا ذلك إلى مفهوم الملائكة كحفظة للعوالم إضافة إلى ما طرحناه فى باب ’سلسلة العوالم‘.

---

11 راجع ’هيمنة الكم وعلامات الزمان‘ باب *9*.

12 ويجوز قول إن الملائكة موجودة ’بالفعل‘ الذى تعبر عنه كما أنها موجودة ’بالقوة‘ فيما تعلق بكل الصفات الأخرى.

13 راجع ’هيمنة الكم وعلامات الزمان‘ باب *11*.

14 ولا حاجة للقول إن هذه الطريقة فى الحديث مشروعة فقط من منظور يَعتبر الصفات متمايزة كما هى فى حال التجلى، حيث إن وحدة الجوهر الربانى التى سيعود إليها كل شىء كان لا يمكن أن تتأثر بالتجلى على أى نحو كان.

63 رمزية الجسر

رغم أننا تحدثنا سلفًا عن رمزية الجسر فى مناسبات متنوعة فإننا نود إضافة بعض الملاحظات إلى ما ذكرنا بعد أن طالعنا دراسة عن الموضوع[15] للسيدة دونا لويزا كومارا سوامى، والتى عالجت فيها الصلة بين هذه الرمزية و بين مذهب سوترآتما، وحول المعنى الأصلى لكلمة سيتو التى تنتمى إلى أقدم الكلمات الهندوسية المختلفة التى تعنى 'جسر'، والوحيدة التى وجدت فى ريج فيدا، وهذه الكلمة مشتقة من جذر س ى بمعنى 'ربط'، والجسر الذى يعبر نهرًا بين شاطئ وآخر، ولكن وراء هذا المعنى العام للمصطلح هناك أمر بالغ الدقة، فعادة ما كان هذا الجسر يبنى بالحبال فى نموذجه الطبيعى المعتمد، أو بحبال مشدودة على المنوال ذاته تشاكل شجرة تنمو بين الشاطئين، حتى 'يرتبط' بها الشاطئان، وحيث إن الشاطئان يمثلان رمزيًا حالتين مختلفتين من أحوال الوجود فمن الواضح أن الحبل يقوم بدور يشاكل دور 'المحيط' الذى يربط حالتين ببعضهما، أى سوترآتما ذاتها، ولا بد أن يكون هذا الحبل دقيقًا ومتينًا فى الآن ذاته، فهو صورة مناسبة للطبيعة الروحية، وكذلك كان الجسر الذى يمكن تمثيله بشعاع نور، وعادة ما يوصف فى التراث بأنه دقيق كحد السيف، ولو كان من الخشب فلا بد أنه مصنوع من فرع واحد من شجرة واحدة[16]، وهذا الضيق سبب 'خطورة' الطريق المذكور، وهو الطريق الوحيد الممكن، ولكن لم ينجح فى عبوره أحد، وندر من استطاع عبوره بوسائله بدون معونة[17]، فدائمًا ما يحوق الخطر فى عبور حال إلى حال، لكن هذا الخطر يتعلق

---

15 ' The Perilous Bridge of Welfare' in Harvard Journal of Asiatic Studies, August 1944.

16 In this connection let us recall the double meaning of the English word beam, which designates both a girder and a ray of light, as we have already observed elsewhere (see 'Masons and Carpenters', Studies in Freemasonry and the Compagnon- nage, chap. 5).

17 وهذه من مميزات أبطال الشمس فى الأساطير والحكايا التى يرد فيها عبور جسر.

خصوصًا بالمعنى المزدوج ’الطيب‘ و’الخبيث‘ للجسر، وهو ما توفر فى رمزيات شتى، والتى سوف نعود إليها لاحقا.

والعالَمين اللذين يمثلهما الشاطئان بالمعنى العام هما السماء والأرض، وقد كانا متوحدان فى أول الآمر، ولكنهما انفصلا بفعل التجلى، وقد أصبح النطاق بينهما يتمثل فى نهر أو بحر يمتد بينهما[18]، وأصبح الجسر مساويًا تامًا لعمود المحور الذى يربط السماء بالأرض حتى لو فصل بينهما، ويستلزم هذا المعنى فهم الجسر على أنه رأسى بالضرورة[19] على منوال كل رموز ’محور العالم‘، مثل محور العربة حينما تمثل العجلتان السماء والأرض[20]، وهو ما يؤسس الهوية الأصولية لرمزية الجسر وهى رمزية السلم، والتى ذكرناها فيما تقدم21، وهكذا أصبح عبور الجسر لايربو عن العبور على المحور، وهو فحسب ما يوحد الأحوال المختلفة، فالشاطئ الذى يبدأ منه الجسر قائم فى هذا العالم، أى الحال التى يأمل الكائن فى عبورها على المحور ليجد نفسه على الطرف الآخر فى حال فى حال جديد من التجلى، وهو حال عالم المبادئ، فأحد الشاطئان نطاق الموت حيث ينتظر كل ما يتغير، والآخر هو نطاق الخلود[22].

---

18 وبمعنى أضيق لهذه التطبيقات الرمزية فسوف تكون دائما حالتان على مستوى المرجعية ذاتها تنشأ بينهما علاقة تناظر علاقة السماء بالأرض..

19 وسوف نتذكر هنا ’حيلة الحبل‘ التى جاء وصفها بحبل يلقى فى الهواء ويبقى معلقا ويتسلق عليه طفل أو رجل حتى يغيب عن البصر، وحتى لو كان ذلك لا يعدو إيهاما فليس لذلك أهمية فى منظورنا الحالى، أما عن التسلق فهو تمثيل باهر لما نتحدث عنه,

20 وقد أشارت السيدة كوماراسوامى إلى أن هناك حالات بوصف فيها الجسر على شكل قوس، وعلى نحو تتماهى فيه ضمنيا مع قوس قزح، وليست هذه كل الحالات الشائعة فى الرمزية التراثية، وسوف نضيف فحسب أن ذلك لا يتعارض مع مفهوم الجسر العمودى، وكما ذكرنا عن ’سلسلة العوالم‘ والخط المنحنى إلى مالانهاية يمكن أن يوصف بالاستقامة، والذى سوف يكون عموديا على الدوام فى نطاق الوجود المتجلى الذى يرتحل فيه حتى لو لم يكن هناك تماهيا بين الجسر وقوس قزح، والذى يرمز إلى اتحاد السماء بالأرض.

21 ’رمزية السلم‘ باب 54.

22 من الثابت أن الرمزية العامة لعبور المياه كطريق للنفاذ من الحياة إلى الخلود، فقد يكون العبور على جسر أو من مخاضة تناظر حالة المارّ من شاطئ إلى آخر، وذلك باستثناء الذين وُصِفت لهم إما كحركة ضد التيار نحو المنبع أو مع التيار والسقوط فى البحر، فى حين أن الرحلة يمكن

وقد ذكرنا لتونا أن المحور يربط بين السماء والأرض ويفصل بينهما كذلك، كما أن الجسر هو الذى يوحد بين الشاطئين ويسمح بالمرور من أحدهما إلى الآخر، ويجوز أنه بمعنى آخر عائق بينهما، وهو ما يعيدنا مرة أخرى إلى صبغة 'الخطر'، وهو معنى ضمنى لكلمة 'سيتو' التى تربط بين المعنيين، فهى تربط بين شيئين من ناحية وتكون فخًا يصيده من ناحية أخرى، ويمكن أن يقوم الحبل بالدور ذاته، كما أن الجسر قد يبدو فى حال أو أخرى أى 'الطيبة' أو'الخبيثة' بمدى ما يستطيع التحرر منه، ويمكن ملاحظة أن الرمزية المزدوجة المعنى للجسر قد نتجت من واقع أنه معبر بين جهتين نقيضتين، لكن عبوره لا يجرى إلا فى اتجاه واحد، فالمرور من 'هذا الشاطئ' إلى 'الشاطئ الآخر' ينطوى على خطر النكوص الذى لابد من تجنبه[23]، اللهم إلا فى حالة واحدة هى تحرر من الوجود المشروط وإمكان التجول بين العوالم بلا قيود، ويبدو النكوص فى هذه الحالة من قبيل الوهم فحسب، أما فى كافة الأحوال الأخرى فإن الشطر الذى تم اجتيازه من الجسر لابد أن 'يختفى عن البصر'، ويصبح كما لو كان لا وجود له، تمامًا مثل السلم الرمزى الذى تعتبر قاعدته هى الموضع الذى وُجِد فيه الكائن الذى يتسلقه، فالشطر الذى يسفله يختفى عن بصره كلما اطَّرد صعوده[24]، وطالما لم يبلغ الكائن عالم المبادئ الذى يستطيع الهبوط منه إلى عالم التجلى دونما تأثر به فإن التحقق يمكن إنجازه فى اتجاه صاعد فحسب، أما الذى تعلق بالطريق حبًا فى الطريق ذاته فهو يتخذ الوسائل غايات، ويصبح الطريق عقبة أمامه بدلا من أن يهديه عمليًا إلى التحرر، وهو ما يعنى الاستمرار فى قطع القيود التى تربط الكائن بالمراحل التى عبرها حتى يختزل الطريق إلى نقطة واحدة تشتمل على كل شىء وتصبح مركزًا للوجود الكلى.

....

أن تتم بوسائل أخرى، مثل رمزية 'الملاحة'، والتى تطبق على كل الحالات، راجع باب 56 'عبور المياه'.

23 ومن هنا جاء التنويه إلى الأساطير والروايات من كل حدب وصوب عن خطر التراجع والنظر إلى الخلف.

24 *There is here something like a 'resorption' of the axis by the being traversing it, as we have already explained in The Great Triad, to which we will also refer on certain other related points, notably concerning the identification of that being with the axis itself, whatever may be the symbol by which the latter is represented, and also, consequently, with the bridge, which gives the true meaning of the 'pontifical' function, which is very clearly alluded to, among other traditional formulas, by this Celtic phrase from the Mabinogion cited as an epigram by Mrs Coomaraswamy: 'He who would be Chief, let him be the Bridge.'*

64 الجسر وقوس قزح

عندما أشرنا إلى رمزية الجسر ومعناها المحورى فإن ارتباط هذه الرمزية بقوس قزح ليس شائعًا كما يُعتقد غالبا، فهناك حالات يرد فيها هذا التمثيل، ومن أوضحها ما جاء فى التراث الاسكندنافى حيث يتماهى جسر الجليد مع قوس قزح، ويوصف القوس فى بلاد أخرى بأنه جسر نصفه صاعد ونصفه الآخر هابط، وتبدو غالب هذه الأحوال متأثرة بمقارنة ثانوية من دون أن يعنى ذلك تماهياً بين الرمزين، وربما كان ما يفسر هذه المقارنة أن قوس قزح غالباً ما يرمز إلى توحد السماء والأرض، وهكذا نجد صلة واضحة بين الوسائل التى يتحقق بها التواصل وعلامات التوحد، ولكنه لايحمل مع التمثيل معنى التماهى، ونضيف أن هذا المعنى بعينه لقوس قزح قد وجد فى صورة أو أخرى فى معظم الأديان، وأنه ناتج عن علاقة مباشرة بالمطر، فالمطر يمثل تنزيل البركات السماوية على العالم الأرضى[1].

وأشهر مثل فى الغرب لهذا المعنى التراثى لقوس قزح هو الإصحاح التاسع من سفر التكوين [13]**وَضَعْتُ قَوْسِي فِي السَّحَابِ فَتَكُونُ عَلاَمَةَ مِيثَاق بَيْنِي وَبَيْنَ الأَرْضِ.** [14]**فَيَكُونُ مَتَى أَنْشُرْ سَحَابًا عَلَى الأَرْضِ، وَتَظْهَرِ الْقَوْسُ فِي السَّحَابِ،**، وينبغى ملاحظة أن 'علامة العهد' ليست مطروحة لتسمح بالمرور من عالم إلى آخر، كما لا وجود لأى تنويه كان عن إمكانية ذلك، وقد ورد المعنى ذاته بصور مختلفة بين اليونانيين مثلا، فقوس قزح عندهم وشاح إيريس *Iris* أو ربما إيريس ذاتها، فلم يكن التمثيل الرمزى قد بلغ حد التشبيه *anthropomorphism* الذى فشى فيما بعد، والمعنى المقصود هنا هو أن إيريس كانت 'رسولة الأرباب' وتقوم بدور الوساطة بين السماء والأرض، لكن من نافلة القول إن هذا التمثيل بعيد من كافة جوانبه عن رمزية الجسر، فإن قوس قزح يبدو على اتصال بالتيارات الكونية التى تنتقل بها الرسائل بين السماء والأرض، وأكثر من ذلك من حيث إنه أفضل بصورته المنحنية من المحور

---

[1] راجع باب *60* 'النور والمطر' وكذلك 'الثلاثى الأعظم' باب *14*.

المستقيم الذى يجرى عليه اتصال مباشر بين أحوال الوجود[2]، وقد نوهنا سلفًا عن أن هذه الصورة ليست بالضرورة نقيضًا لفكرة 'الرأسية' لكن من الصحيح أن التعبير عن هذه الفكرة لا يمكن أن يجرى بمظاهر مباشرة كما هو الحال فى معظم الرمزيات المحورية.

ولا بد من اعتبار أن رمزية قوس قزح رمزية مركبة لها جوانب متعددة، ولكن أهمها ما يمثله بالثعبان، والذى تكرر ظهوره فى أديان عدة، وقد ثبت أن الحروف الصينية التى يتكون منها اسم قوس قزح مشتقة من جذر 'ثعبان'، ورغم أن هذا التمثيل لا يقوم صوريًا فى أيٍ من أديان الشرق الأقصى حتى إننا نجد فيه ذا كرة سحيقة القدم[3]، ويبدو أن هذه الرمزية لم تكن مجهولة تمامًا عند قدماء اليونانيين، فيقول هوميروس إن قوس قزح كان مرسومًا على صدرية أجاممنون على شكل ثلاثة ثعابين لازوردية على شاكلة قوس قزح الذى رسمه زيوس على السحاب تذكرة للإنسان[4]، وعلى كل فإن 'الأفعى الربانية' فى بعض مناطق أفريقيا وخصوصًا قبائل داهومى تشبه قوس قزح، وفى الآن ذاته تعتبر سيدة الأحجار الكريمة والثروة، وقد يبدو فى ذلك بعض التضارب بين جانبين من رمزية الأفعى، فلو كان يُعزى إليها أو إلى التنين حراسة الكنوز كما يشيع غالبًا فإن التنين له صبغة تحت أرضية لا سماوية، ولكن قد يكون بين هذين الجانبين المتعارضين تناظرًا يضاهى ما بين النبات والمعدن[5]، ومن زاوية أخرى نجد من الغريب وجود تشابه بين 'الأفعى الربانية' و'الأفعى الخضراء' فى الرمزية الشهيرة فى حكايات جوته، وهى الأفعى التى تتحول إلى جسر ثم تتشقق إلى أحجار كريمة، ولو كان هناك صلة بين هذه الخاصية الأخيرة وقوس قزح فسوف تعيدنا إلى رمزية تماهيهما، ولن تثير دهشة شديدة حيث إن جوته يمكن أن يستلهم من التراث الاسكندنافى، كما يجوز

---

2 ويُفهَم من ذلك المنظور أن الشكل الدائرى أو نصف الدائى على منوال قوس قزح يمكن أن يُعَدَّ إسقاطا لجزء من حلزون.

3 *Cf. Arthur Waley, The Book of Songs [Boston: Houghton Mifflin, 1937, P.328.*

4 الإلياذة *11: 26-28* ، ونأسف لعجزنا عن تحديد المرجع على نحو أكثر دقة، وخاصة عندما يُرمَز إليه بثلاث حيات، ويبدو غريبا حتى إنه يستدعى فحصا أعمق.

5 'هيمنة الكم وعلامات الزمان' باب *22*.

قول إن القصة المذكورة ليست واضحة تمامًا من حيث مكانية عناصرها الرمزية التى ألهمت جوته ولا من حيث معناها، وأن تفسيرها غير مُرضٍ فى كلِّيته[6]، ولا نرغب فى قول المزيد عن هذا الأمر، ولكن يبدو لنا أن فيها جوانب عرَضية مثيرة قد تؤدى إلى علاقات غير متوقعة[7].

ومن المعلوم أن أحد المعانى الرمزية للحية يتعلق بالتيارات الكونية التى نوهنا عنها عاليه، والتى ليست فى الواقع إلا تأثيرات لأفعال وردود الأفعال والتعبيرات التى صدرت من السماء والأرض8، وهو ما يقدم التفسير الوحيد المحتمل لتمثيل قوس قزح بالحية، وهو ما يتفق تماما، ومن ناحية أخرى هناك الصبغة المعروفة لقوس قزح كعلامة على توحد السماء والأرض، وهو مما عبرت عنه التيارات المذكورة، فمن دونها لن يمكن أن توجد، ونضيف أن معنى الحية مرتبط أصلًا بالرمزية المحورية للشجرة أو العمود، وهو ما يسهل فهمه بموجب أن اتجاه المحور يحدد نوعية هذه المؤثرات الكونية، ولكن شرط ألا تختلط هذه الرمزية بالتى سبقتها بأكثر مما يمكن أن يختلط لولب يلتف على اسطوانة بمركزها، وإجمالًا يمكن الاعتبار فى الصلة بين أكثر الرموز طبيعية لقوس قزح والجسر، لكن هذه الصلة قد أدت فى بعض الأحوال إلى انصهار الرمزان معا، والذى يبرره ازدواجية التيارات الكونية التى تذوب فى توحد محور التيارات، إلا أننا لا بد أن نعتبر فى واقع أن التمثيل المقصود للجسر بقوس قزح، ومن ثم يمكننا التساؤل عن المبدأ على

---

6 وهناك دوما فى تناول جوته للرمزية أمر سديمى مضطرب، وهو أمر لوحظ فى تركيبه لأسطورة فاوست، ويجوز إضافة أن هناك أكثر من سؤال عن المصادر التى اعتمد عليها مباشرة فى التعميد، كما أن هناك طبيعة تجاربه التعميدية فى طرق غير الماسونية.

7 أما عن تشبيه قوس قزح بأفعى جوته فإننا لانقبل اعتبار اللون الأخضر الذى يرمز إلى الأفعى رغم أن البعض أرادو أن يجعلوا منه اللون المركزى، ولكنه يمكن أن يكون اللون المركزى لو اعتبرنا الأزرق الداكن لونا آخر من الألوان، وقد فسرنا سلفا الأسباب التى تجعل من هذه المقدمة عملا لا معنى له ولا قيمة من المنظور الرمزى، راجع الباب 57 'الألوان السبعة وقوس قزح'، وينبغى أن نلاحظ فى ذلك أن المحور يناظر 'الشعاع السابع'، وبالتالى كان اللون الأبيض، فى حين أن تفاضل الألوان فى قوس قزح تشير إلى شىء برانى فى علاقته بالشعاع المحورى..

8 'الثلاثى الأعظم' باب 5.

الأقل، فليس هناك اختلاف بين معنى الجسر المستقيم والمنحنى[9]، والذى يناظر الاختلاف بين السلم العمودى واللولبى[10] والاختلاف بين الطريق 'المحورى' الذى يؤدى مباشرة إلى حال مبدئى، والطريق 'الدائرى' الذى يعنى دروباً بين أحوال مختلفة، ورغم أن الغاية فى الحالتين واحدة[11].

---

9 ولنتذكر هنا أن هذا المضيق الرأسى هو ما يناظر تعبير 'الطريق المستقيم' فى التراث الإسلامى، راجع باب 25 فى 'رمزية الصليب'.

10 راجع 'رمزية السلم' باب 54.

11 وقد كان الاستخدام التعميدى للسلم اللولبى بناء على تماهيه مع درجات التعميد لكائنات مختلفة الأحوال، وأحد أمثلة هذه الرمزية الماسونية للسلم اللولبى الذى يتكون من 19 درجة مقسمة إلى 3+4+5+7، ويؤدى إلى 'القاعة الوسطى'، وفى حالة السلم يلتزم بنفس البنية فى السلالم، ولكن أوضاعها وشكلها تعنى عدم الوقوف عليها فليست إلا معبرا للصعود، بينما يمكن التوقف للراحة على الباسطات بين كل مجموعتين من السلالم.

65 سلسة الاتحاد

إن من بين الرموز الماسونية التى تميل فى أيامنا إلى الاستعصاء على الفهم رمز ’سلسلة الاتحاد‘[1]، والتى تحيط بالشطر الأعلى من مبنى المحفل، وقد ظهرت عليها علامات بالطباشير لكى تحدد للماسونية العاملة الخطوط الخارجية للمبنى، ولا شك أنهم مصيبون فى ذلك حتى لو لم يكن كافيا، ولابد على الأقل من الاستفسار عن القيمة الرمزية لعلامات الطباشير[2]، كما يبدو من الغريب إسناد هذا الموضع لأداة وظيفتها رسم الخطوط الخارجية على الأرض مما يحتاج كذلك إلى تفسير.

ولكى نفهم هذه النقاط لابد أولًا من تذكر المنظور التراثى عن أن أى مبنى كان وضرورة أن يكون على غرار نموذج كونى، كما أن المحفل من المفروض أن يكون صورة للكون، ولا شك فى أن الذكرى الأخيرة لهذه الفكرة قد استمرت فى العالم الغربى حتى أيامنا، وحيث إن الأمر كذلك فإن موقع المبنى لابد أن يتحدد و’يؤطَّر‘ بموجب أمر يناظر ’بنية الكون *framework*‘، وسوف نرى ما يكون، لكننا نستطيع القول إن الرسم الطباشيرى يمثل انعكاسه الأرضى، وقد سبق أن رأينا أمرًا مشاكلًا يتعلق بتصميم المدينة حسب القواعد التراثية[3]، والواقع أن

[1] وقد استخدم الاصطلاح فى طوائف العصر الوسيط رمزا ’لسلسلة التحالف *chain of alliance*‘.

[2] ويحمل هذا الرمز اسم آخر هو ’شريط التجاويف‘ الذى يبدو زينة على حواف الأريكة، ونعلم أن الأريكة رمز للسماء، ولكن ليس فى ذلك تناقض كما سوف نرى.

[3] راجع الباب 13 ’دائرة البروج والاتجاهات الأصلية‘.

المدينة والمبنى كلاهما لا يختلفا جوهريًا، فالمسألة على الحقيقة دائمًا هى تقليد نموذج كونى.

فحينما يقوم مبنى حتى فى مراحله الأولية فإن خطوط الطباشير لا لزوم لها، فوضع ’سلسلة الاتحاد‘ لا يعنى خطوط المبنى الخارجية التى رُسمت لها، بل النموذج الكونى الذى بُنِيت على غراره، وقد كانت الذكرى دائمًا سببًا لوجوده وتحديد المعنى الرمزى للمحفل ومرافقه المختلفة، وتصبح خطوط الطباشير ذاتها فى صورة ’سلسلة الاتحاد‘ رمزًا لبنية الكون، ولن يصعب تحديد موضعها لو أن هذه هى الحالة حقا، فهذه البنية ليست أرضية بل سماوية[4]، ولابد من إضافة أن ذلك الاستبدال للأرض بالسماء لم يكن يكن مستعارًا منها.

وما يجعل معنى هذا الرمز واضحًا أن خطوط الطباشير ’أداة‘ بسيطة، بينما كانت ’سلسلة الاتحاد‘ أمرًا مركبًا من عقد على مسافات[5] عددها اثنى عشر[6]، وتناظر دائرة البروج *zodiac* [7]، والحق إن دائرة البروج تنطوى على أفلاك الكواكب، وهى التى تشكل ’غلاف‘ الكون أى بنيته *framework* التى تحدثنا عنها سلفا8، ومن الواضح أنها حقًا ’بنية‘ السماء.

---

4 ولذا كان تمثيل حافة الأريكة له ما يبرره مما ليس انعكاسا أرضيا للإطار السماوى.

5 وتسمى هذه العقد ’بحيرات الحب‘، وربما كان ذلك الاسم يُطلق على نوع بيينه من العقد، أى بمعنى خاص يحمل سمات القرن الثامن عشر، ولكنه قد يكون من بقايا أقدم كثيرا، وربما ارتبط برمزية صرعى الغرام *Fedeli d'Amore*.

6 *The 'Board of the Lodge', which figures at the head of Ragon's Mafonnerie occulte, in fact no longer in common use, is manifestly incorrect, not only for which the extremities of the 'chain of union' correspond. In this connection it should be noted that a similar arrangement, though in a circular form, is found in certain megalithic monuments whose connection to the zodiac is equally obvious. the number of knots in the 'chain of union' but also for the strange and even inexplicable position attributed to the zodiacal signs.*

7 *Some people think these twelve knots imply, 'ideally' at least, the existence of an equal number of columns—ten in addition to the two columns of the west to which the extremities of the 'chain of union' correspond. In this connection it should be noted that a similar arrangement, though in a circular form, is found in certain megalithic monuments whose connection to the zodiac is equally obvious.*

8 أما عن تقسيم المدن بناءً على دائرة البروج راجع باب *13*، وأما ما تبقى قوله هنا فيحسن ملاحظة أن هذا التقسيم يحدد مواضع العناصر المختلفة التى تمخض المدينة عن توحدها،

وهناك أمر آخر لايقل أهمية، فالبنية عادة تنطوى على وظائف عدة أهمها حفظ الأمور فى موضعها وكذلك العناصر المتنوعة التى تشتمل عليها حتى تجعل منها كلًا منتظما، وهو تأصيل كلمة 'كون'[9]، ولذا لابد أن 'تصل' أو 'توحّد' هذه العناصر مع بعضها بعضًا، وهو ما يعبر عنه تسمية 'سلسلة الوجود' على نحو صورى، والحق إن المعنى العميق مشتق من ذلك، فشأنها شأن كل الرموز على صورة سلسلة أو حبل أو خيط تشير جميعًا إلى سوترآتما، وسوف نكتفى هنا بلفت النظر إلى هذه النقطة دون معالجة تفسير أكمل، ذلك أننا سنعود إليها لاحقا، فهذه الخصيصة لازالت جلية فى بعض رمزيات 'البنية' التى سنتناولها.

....

والمثل الآخر منها يقوم فى رمزية الشرق الأقصى من حقبة مينج تانج، وقد تحدثنا عنها فى 'الثلاثى الأعظم' باب *16*.

[9] ويجوز القول إن عالمنا قد 'انتظم' بتعينات مندمجة من الزمان والمكان وترتبط بدائرة البروج بعلاقتها المباشرة بالدورة السنوية وتناظرها مع الاتجاهات الأصلية، ولا حاجة لقول إن النقطة الأخيرة قريبة من مسألة اتجاهات المعابد فى التراث القديم.

66 البنى والمتاهات

درس كومارا سوامى معنى العلامات الرمزية لبعض ’العقد‘ فى رسوم آلبريخت دورر[1]، وهذه العقد بالغة التعقيد والتركيب، وتتكون من خط واحد فى تداخلات وجدائل فى إطار دائرى، وفى حالات عدة كان اسم *DURER* منقوش على مركزها، وتضاهى العقد برسم يُعزى إلى ليوناردو دافينشى كتب فى مركزه *Academia Leonardo Vinci*، وقد رأى البعض أن هذه كانت ’جامعة‘ جوانية من الجامعات التى شاعت فى إيطاليا فى زمنه، والواقع أن هذه الرسومات كانت تسمى ’متاهات *mazes* أو *labyrinths*‘، ويشير كومارا سوامى إلى أنها على علاقة وثيقة بالمتاهات رغم الفوارق التى ترجع إلى أسباب تقنية، وخاصة فيما تعلق برسوم أرضيات كنائس بعينها من العصر الوسيط، كما أنها تنطوى على ’توقيع جماعى‘ لطوائف البنائين، وبمدى ما ترمز إلى الصلة بين أعضاء الجماعات التعميدية أو الجوانية على الأقل، وتعبر هذه الرسوم عن تشابه مدهش بسلسلة الاتحاد الماسونية، ولنتذكر أن عقد السلسلة لها معنى عظيم، ولهذا السبب وسبب آخر سنتناوله فيما بعد من المهم مراعاة أنها تعبر عن استمرارية لا تنقطع[2]، فمتاهات الكنائس يمكن عبورها من جانب إلى آخر دونما عوائق تستدعى التوقف أو

---

1 *'The Iconography of Durer's "Knots" and Leonardo's "Concatenations"', in The Art Quarterly, Spring 1944.*

2 *We might recall here the pentalpha, which, as sign of recognition of the Pythagoreans, had to be drawn without a break in continuity.*

التقهقر، فهى واقعيًا طريق طويل لا بد من عبوره كاملًا حتى تصل إلى المركز[3]، وفى حالات بعينها يصور 'معلم الصنعة' نفسه فى الوسط، تمامًا كما فعل دورر و دافينشى فى رسومهما، وهو ما يعنى رمزيًا وضع أنفسهم فى 'أرض مقدسة'[4]، أى فى مكان محفوظ للمختارين *elect* كما نوهنا فى موضع آخر[5]، أو فى مركز روحى كان صورة 'لمركز العالم' كما هو الحال الشرق الأقصى حيث كان الامبراطور يقيم دائمًا فى الموقع المركزى[6].

ويؤدى بنا ذلك مباشرة إلى اعتبارات من طيقة أعمق 'جوانية'، وإلى معنى أعمق لهذه الرمزية، وحيث إن عبور المتاهة أو ما يساويها ينجح فى الوصول إلى 'الموقع المركزى' من منظور التحقق التعميدى[7] فإن العيور بحد ذاته بكل تعقيداته تمثيل لعالم الكثرة بأحواله وصِيَغه فى الوجود المتجلى[8] التى 'تجول' فيها الكائن قبل أن يستقر فى هذا المركز، فإن استمرار الخط صورة من سوترآتما تربط كل الأحوال ببعضها بعضًا مثل 'خيط آريادنا' فى عبور المتاهة، وهذه الصورة من الوضوح حتى ليكون من المدهش أن يفشل أحد فى ملاحظتها[9]، والملحوظة التى ختمنا بها

3 *Cf. W.R. Lethaby, Architecture, Mysticism, and Myth [New York: G. Braziller, 1975], chap. 7. This author, who was himself an architect, has collected in his book a great number of interesting facts about architectural symbolism, but unfortunately he was not able to discern their true meaning.*

4 ونعلم أن المتاهات المقصودة كانت تسمى "الطرق إلى أورشليم"، وكان عبورها بديلا عن الحج إلى الأراضى المقدسة، وقد اشتمل مسجد عمر فى مركزه على تخطيط لمعبد أورشليم.

5 راجع باب 29 'الكهف والمتاهة'.

6 راجع الباب 16 فى 'الثلاثى الأعظم' فى سياق هذه المقارنة لنتذكر لقب الإمبراطور *Imperator* الذى أسبغ على رئيس منظمة للصليب الوردى.

7 وقد ينطبق ذلك بحسب الحال على مركز حالة من أحوال الوجود أو على الكائن بكامله، وسوف يكون فى الحالة الأولى بمثابة 'الغاية' من الأسرار الصغرى، وسيكون فى الحالة الثانية غاية الأسرار الكبرى.

8 ونقول 'صِيَغِه' ليضم الحالة التى نرى فيها تجلى الكائن بكاملة فحسب، وهو أمر لازم فى 'الأسرار الصغرى'.

9 ومن المهم فى المسألة ذاتها مراعاة أن رسوم دورر و دافينشى قريبة الشبه بالأرابيسك كما لاحظ كوماراسوامى، وقد بقيت آخر آثار هذا النمط فى العالم الغربى فى التوقيعات وغيرها من

الباب السابق عن رمزية ’سلسلة الاتحاد‘ تجد مبررها، وقد أكَّدنا من ناحية أخرى على صيغة ’البنية‘ التى تطرحها السلسلة، ويكفى النظر إلى صور دورر و دافينشى لنرى أنها كذلك ’بنية‘ حقة حول المركز، والتى تنطوى على تشابه آخر بين هذه الرموز، كما أن هناك حالات أخرى سنجد فيها الصبغة ذاتها على نحو يبرهن على اتفاق كامل بين الأديان المختلفة.

ويلفت جاكسون نايت *Jackson Knight* النظر فى كتابه[10] إلى اكتشاف فى اليونان بالقرب من كورنثه لنموذجين مصغرين لمنزلين من فترة ما قبل التاريخ التى تسمى *geometric age*[11]، وقد رسمت طرق متعرجة حول البيت، والذى تبدو خطوطه ’بديلا‘ للمتاهة، وتبدو دفاعاً ضد أعداء أو مؤثرات نفسية معادية، ويجوز اعتبار أن هذه التعاريج لها خصائص حامية، زد على ذلك أنها تدفع الخبائث من تخلل المنزل من الخارج كما تمنع الطيبات من مغادرته من الداخل لتتبعثر خارجه، ولو كان من الممكن إبان فترات بعينها ألا تثير هذه الظواهر اهتماماً فلا ننسى أن اختزال الرموز لمجرد الاستخدامات السحرية نظير لانحطاط التراث، وهى حالة نُسيت فيها المعانى الأعمق[12]، وبناءًا على ذلك فلابد أن البداية كانت أمرًا أكثر مما تبدو حاليا، ولو تذكرنا أن كل مبنًى فى التراث مبنيٌ على غرار نموذج كونى فسيسهل فهم ما تدور حوله المسألة، فطالما لم يعد هناك فارقاً بين ’المقدس‘ و’الدنيوى‘ وطالما لم يقم المنظور الدنيوى نظراً لتهافت التراث فقد ظلت بعض المنازل على ما كانت، فالمنزل كان صورة للكون أو ’عالم صغير‘ مغلق ومكتمل، ولو لاحظنا أنه ’مؤطَّر‘ بالمتعرجات على منوال المحفل الذى لم يضع بعد معناه الكونى فسيكون محاطًا بسلسلة الاتحاد، ويبدو تماهى الرمزان جلياً فى الحالتين، وليس أمامنا إلا إطاراً للكون.

....

الزخارف المعقدة التى تتكون من خط واحد مستمر، وهو أمر كان يروق لأساتذة الخط والتذهيب حتى منتصف القرن التاسع عشر، وهو الوقت الذى لم تعد الرمزية مفهومة لهم.

10 *Cumaean Gates; see on this subject 'The Cave and the Labyrinth' [chap. 29].*

11 *The two models are pictured on page 67 of the cited book.*

12 وبالطبع لم يستثن هذا المعنى العميق التطبيق ’السحرى‘ كأمر مشروع بين أمور أخرى، لكن الانحطاط كان يعنى فقدان المبدأ والتعامى عن أى شىء إلا التطبيق المنبتّ فى مقام أدنى.

وهناك مثل باهر من منظور رمزية 'الأُطُر' فى رسم حروف صينية تعنى أصلًا شعائر التثبيت أو الاستقرار[13]، وهو رسم دائرتين متراكزتين أو حلزون حولها، وقد كان حرف هينج اسمًا لهذه الشعائر، ويتكون فى الخط الصينى القديم من حلزون أو دائرتين متراكزتين بين خطين مستقيمين، وقد جرى فى العالم أجمع 'تثبيت' مدن وقرى ومعسكرات برسم دائرتين متراكزتين حولها[14]، ولنضف إلى ذلك أننا يمكن أن نرى تماهى 'البِنى' و'الأُطُر'، أما عن حرف شيش *chich* الذى وصفه بعض المعلقين المحدثين 'بالعظمة' فإن الكاتب الذى ذكرناه توًا قال إنه يعنى السحر الذى يضمن تكامل الفراغات التى يشتمل عليها الإطار مع العلامات التى تحمى المبنى على منوال الغرض من الحواف المرسومة فى أعمال الفن القديمة، وما يسمى شيش فو *chich fu* دعاء 'تكوَّن' فى هذا الطريق، كما أن الطاعون يمكن أن 'يؤطَّر' لمنع انتشاره، وهذه مسألة 'سحر' صريحة أو ما يُفتَرض أن يكون سحرا، لكن فكرة 'التثبيت' تبين كذلك أصوليًا أنها انفصال جوهرى عن 'البنية'، وهو كما ذكرنا جمع العناصر المختلفة فى إطار البنية وإقائها فى موضعها، زد على ذلك أن الفقرة التالية من لاو تسو قد اشتملت على الحروف المذكورة، وهو أمر له مغزى فى هذا الصدد "حينما نضع إطارًا حول أرواح الحيوانات السبعة، كى نصل إلى التوحد يصبح المرء حصينًا لا يبلى"[15]، وجاء فى موضع آخر "ويرجع الفضل إلى المعرفة المؤطرة 'شيش' حينما نسير مباشرة على الدرب العظيم"[16]، والواضح أن أول الطريقين يهدف إلى استقرار النظام الطبيعى فى العناصر المكونة للكائن حتى يتوحد، والطريق الثانى هو "المعرفة المحكمة التأطير"، حيث تضع كل شىء فى وضعه المناسب، كما أن المعنى الكونى للتأطير لم يختف فى هذه الحالة، والواقع أن المفاهيم التراثية تقول أليس الإنسان 'كونًا أصغر'؟ وأليست المعرفة تنطوى على مجمل الكون؟

---

13 *These rites obviously correspond to a particular case of what in Hermetic language is designated 'coagulation' (see The Great Triad, chap. 6).*

14 *Arthur Waley, 'The Book of Changes', in Bulletin of the Museum of Far Eastern Antiquities, number 5, Stockholm, 1934.*

15 'أناشيد الطريق والفضيلة' باب 10، ترجمات تراث واحد قيد الطبع.

16 المرجع السابق باب 53.

67 علامة الأربعة

كان أحد الرموز من بين شعارات الطوائف القديمة يتميز بصبغة ملغزة، وأطلق عليه ’علامة الأربعة *quatre de chiffre*‘[1]، ذلك أنه واقعياً رسم عدد 4 العربى، وأحيانًا ما يلحق به خطوط رأسية أو أفقية، والتى قد تكون عناصرًا من رموز أخرى أو حروفًا أو صورًا لتشكل كلًا مركبًا تحتل فيه الأربعة المكان الأعلى دائمًا، والواقع أنه شاع بينُ جلِّ من الطوائف إن لم يكن كلها، ومن الغريب أن يتصدى كاتب غيبى لعزو هذه العلامة إلى الكاثار *the Cathars*، كما ادعى أنها تنتمى قصرًا إلى جمعية سرية لباعة الكتب والطبّاعين، ومن الصحيح أنها ظهرت على عديد من علامات الطبّاعين إلا أنها ظهرت كذلك عند النجارين والقزازين وصناع السجاد والنساجين على سبيل المثال لا الحصر لكى نبرهن على أن رأى الكاتب لا يقوم على أساس، كما لوحظ استخدام بعض الأفراد أو الأسر للرمز ذاته للعلامات المرسومة على دورهم وشواهد قبورهم ومنازل أحفادهم، وانتمائهم إلى طوائف بعينها[2]، ولكن لا شك أن العلامة المقصودة كانت علامة تجارية

---

[1] ولا سبيل إلى ترجمة تعبير *quatre de chiffre* على نحو مباشر، فالمعنى الأولى فى كل المراجع الموثوقة هو فخ لصيد الحيوانات، ويُعرف فى انجلترا باسم ’فخ رسم الأربعة *figure four trap*‘، وذلك نظرا لأن تركيبه شبيه بعصاة مُكَسَّرة، وحيث إن جينو يستخدمه بمعنى مغاير فإننا سنحتفظ بالاسم الفرنسى أو نترجمه عرضيا إلى *sign of four*، المحقق.

وكذلك فى العربية إلى ’علامة الأربعة‘، المترجم.

[2] وقد أشرنا فى موضع آخر إلى هذه النوع فى الحديث عن الماسونية ’المقبولة‘.

تتعلق مباشرة بطوائف الحِرف التعميدية، كما أن الحكم بناءً على استخداماتها يؤكد أنها كانت بالضرورة علامة على أستاذية فى الصنعة.

أما عن معنى *quatre de chiffre*، وهو ما يهمنا قبلٍ أى شىء آخر فإن الكتّاب قد تناولوها بلا اتفاق بينهم، وبلا وعى بأن الرمز عمومًا يمكن تفسيره على طرق عدة، ودون قصر على أحدها دون الآخرين، وليس فى ذلك ما يثير الدهشة أيًا كان ما يظن المفكرون الدنيوين، فليست كثرة المعانى كامنة فى الرمزية ذاتها، لكن فى هذه الحالة وما يشاكلها قد نجد إحلالًا أو انصهارًا لعدد من الرموز فى رمز واحد، وقد ذكر ديونا *W. Deonna* أن علامة *quatre de chiffre* قد ظهرت بين رموز أخرى على الأسلحة القديمة[3]، كما تحدث بإيجاز عن أصلها ومعناها، وطرح رأيًا غريبًا عن "المعنى الأسرارى لعلامة الأربعة"، ودون أن يرفض هذا الرأى تمامًا إلا أنه فضل رأيًا آخر هو "أنه علامة فى علم التنجيم تعنى جوبيتر"، والواقع أن الشكل العام لهذه العلامة يشاكل عدد *4*، كما أن من المؤكد أنه مرتبط بمفهوم 'الأستاذية'، ورغم ذلك فإننا نعتقد على النقيض من رأى ديونا أنها ليست إلا رمزًا ثانويًا أيًا كانت مشروعيته، وأضيف إلى معنى مبدئيًا لرمزها[4].

ولا شك أنه رمز رباعى وليس بسبب مشاكلته للعدد *4*، لكن هناك سبب أشد حسما، فكل الحالات التى ظهر بها يمثل صليبًا اتصل طرفه الأعلى بأحد الأذرع الأفقية بخط مائل، ولذا لا جدال فى أنه رمز رباعى من دون تحيز ضد كل المعانى الأخرى[5]، ويؤيد هذا التفسير أن هناك بعض الحالات التى استخدمت رمز *quatre de chiffre* قد ارتبطت برموز أخرى، وتحتل موضع الصليب فى تمثيلات عامة تتماهى معها فيما عدا اختلاف واحد، وهو عندما استُخدم رمز *quatre de chiffre* فى رسم 'كرة العالم'، أو حينما تعلو رمز القلب كما ظهر غالبًا فى شعارات الطباعين[6].

---

3 *'Armes avec motifs astrologiques et talismaniques' in Revue de l'Histoire des Religions, July-October 1924.*

4 ونجد فى الورقة الثالثة من الطاروط رمزية جوبيتر والرباعى.

5 ويشكل الصليب المربع من جانبه الحركى، فى حين يمثل المربع الصليب من جانبه السكونى.

6 ويعنى القلب الذى يعلوه صليب فى الأيقونية المسيحية 'القلب المقدس' على نحو طبيعى، كما أنه من الناحية الرمزية تمثيل 'لقلب العالم'، ولنلاحظ أن الشكل الهندسى للقلب مثلث مقلوب،

وليس ذلك كل شيء، لكن بقى أمر لا يقل أهمية عما سبق رغم رفض ديونا له، فقد قال فى المقال المُشار إليه عاليه إن "اشتقاق هذه العلامة من شعار قسطنطين قد جرى على عواهنه فى وثائق الميروفيين و الكارولبين"[7]، ويقول إن هذه فرضية تعسفية لا يساندها شيء، ونحن بعيدون عن رأيه تماما، فمن الغريب أن نلاحظ أن من بين الأمثلة التى طرحها رمزين يشتملا على رمز المسيح، وقد استُبدل فيهما الحرف اليونانى *P* بعلامة الأربعة، فألا يكفى ذلك لحفزه على اهتمامٍ أوفر؟ فيجب مراعاة أن هناك نقيضين فى اتجاه العلامة بما لا يسبب اختلافًا واضحا فى المعنى[8]، وحينما نلتفت إلى الوضع الطبيعى لعلامة الأربعة نجد أنها تتجه إلى اليسار، فى حين كان حرف *P* يتجه إلى اليمين، وقد فسرنا سلفًا[9] كيف نميز رمز المسيح عما يسمى "رمز المسيح الفسطنطينى"، فالأول له ستة أنصاف أقطار والثانى بثلاثة أقطار، وأحدهما رأسى بخطين مائلين ، ويتكون من إدماج حرفى *T* و *X* اليونانيين، ويتكون الثانى من إدماج حرفى *X* و *P*، وهو مشتق من الأول بإضافة أنشوطة إلى الجزء الأعلى للمحور الرأسى تحول *T* إلى *P*، ولكن لها معنى آخر يتجلى فى أشكال أخرى[10]، بما يقلل من دهشتنا لاستبداله بعلامة الأربعة، والتى ليس إلا تنويعًا عليها[11]، ويتضح كل ذلك بملاحظة أن الخطين

....

وأن الرمز بكامله ليس إلا رمزا خيميائيا للكبريت فى وضع مقلوب، والذى يضاهى إنجاز ’العمل الأعظم‘.

[7] ولابد من الاهتمام بتمييز التشوهات العرضية نتيجة عدم فهم الرمزية، أو للتشويه المقصود .

[8] ونقول ’اختلافًا واضحا‘ رغم أنه قد يناظر اختلافا فى شعائر المحفل، ولنضف إلى ذلك أن حضور علامة المربع بين الأشكال تشير إلى المرتبة الرابعة من مراتب المحفل التعميدية، إلا أن ذلك لا يحط بقيمة العلامة رغم صعوبة البرهنة عليها..

[9] راجع الباب *50* ’رمزية التشاكلات‘.

[10] وقد ذكرنا حالة كانت فيها عروة حرف *P* تتخذ شكل رمز مصرى لحلقة حورس، وقد كان الحرف فى الآن ذاته يشبه إبرة من قبل التاريخ، وقد لاحظ كوماراسوامى أنها لم تُثقب كما حدث بعد ذلك لكنها انثنت على نفسها لتشكل عروة يدخل فيها الخيط، راجع باب *55* ’ثقب الإبرة‘.

[11] أما عن رمز المسيح القسطنطينى فنشير إلى الحروف الأولى لأربع كلمات تشكل معا الاسم اليونانى لعيسى *IHSV*، ولا تثير هذه الواقعة انتباها مالم تظهر فى ’محفل الصليب الأحمر فى روما والقسطنطينية‘، والذى التحق بماسونية النراتب العليا الانجليزية..

الرأسيين فى رمز المسيح وعلامة الأربعه يمثل القطب الأعلى من محور العالم، وتمثل أنشوطة حرف P 'عين الإبرة' التى ترمز إلى 'الباب الضيق'، أما علامة الأربعة فيكفى تذكر علاقتها بالصليب، والتى تتسق تمامًا مع الصبغة 'المحورية'، كما ينبغى الاعتبار فى فى الخط المائل الذى يربط بين ذراعين من الصليب ليُغلق مثلثًا على أحد زواياه، ومن ثم يدمج بين معنيين رباعيين مع رمزية 'الباب الضيق'، وهاهنا نجد أمرًا متوافقًا لرمز 'الأستاذية'.

68 الأربطة و العُقد

تحدثنا فيما سلف عن رمزية الخيط فى عدة سياقات تتناول منها جوانب متعددة، إلا أن المعنى الميتافيزيقى المنضبط لها دائما ما يكون سوترآتما من منظورى الكونين الأكبر والأصغر، كما أن التمثيلات المختلفة التى نشأت عنها لا تفرق بين الخيط والحبل والسلسة أو الخط المرسوم الذى نوهنا عنه[1]، أو حتى عن الطريق الذى توفره الوسائل المعمارية على منوال المتاهات[2]، والتى تفرض على المرء الدخول من بدايتها إلى الخروج من نهايتها حتى يصل إلى بغيته، والأمر الجوهرى فى كل حالة هو أن الخيط لا ينقطع، كما أن وضعه قد يكون أقل أو أكثر تعقيدًا، وغالبا ما يناظر صيغا مخصوصة أو تطبيقات للرمزية العامة، وهكذا كان الخيط يرتد على ذاته ليشكل جدائلا وعقدا فى بنية واحدة تمثل نقطة الفعل والقوى التى تعمل على تكثيف التلاصق بين مكونات تناظر حال التجلى، حتى ليمكن القول إن هذه العقدة تقيم الكائن فى الحال المقصود، وأن حلها يؤدى إلى موته عن هذا الحال، وهو ما تعبر عنه بوضوح مصطلحات على منوال 'العقدة الحيوية *knot vital*'، ووقع أن العقد تتعلق بأحوال مختلفة متمثلة على الدوام فى رسم رمزى لا بد أن تُفهَم كنقيض لما قلنا توا بصرف النظر عن أنها مفروضة بأحوال تقنية للتمثيلات ذاتها، وتناظر واقعيا وجهة النظر المتزامنة التى دائما ما تكون مبدئية أكثر من منظور التتابع، ونشير إلى الصلة الرمزية بالنسيج التى تناولناها سلفا فى موضع آخر[3]، مثل النقاط التى تعبر فيها اللحمة بين خيوط السدى

---

[1] راجع باب *66* 'البنى والمتاهات'.

[2] راجع باب *29* 'الكهف والمتاهة'.

[3] راجع باب *14* 'رمزية الصليب'.

لتشكل النسيج، كما أن هذه الخيوط تشكل ’خطوط القوى‘ التى تشكل بنية الكون.

وقد تحدث مرسيا إلياد *Eliade Mircea* فى مقال له[4] عن رمزية الأربطة والعُقد عن ازدواجية الرمزية التى تستحق انتباها خاصا، وبالطبع نرى أنها كامنة على نحو طبيعى فى الرمزية[5]، فأول أمر نشير إلى رابطة يمكن أن تُدرك كقيد أو كرابط موحِّد، والكلمة تحمل المعنيين حتى فى اللغة العادية، وتناظرهما فى رمزية الروابط وجهتى نظر يمكن القول بتناقضهما، ولو كانت أوضحهما تأخذ الرابطة بمعنى القيد فذلك لأنها الكائن المتجلى ذاته، وبمدى اعتباره ’مرتبطًا‘ بأى من أحوال الوجود المشروطة، وأنها محتبسة فى حدود هذه الحال العرَضية، ويُرى معنى العقدة من المنظور ذاته مؤيدا لمعنى الرابطة عموما، وكما نوهنا سلفا فإن العقدة تمثل تثبيتا للحال المفروض، والجزء الذى شغلته العقدة من الرابطة هو كل ما يستطيع الكائن أن يراه، حيث إنه عاجز عن اجتياز حدود حاله، وتفلت منه الصلة مع الأحوال الأخرى بالضرورة، أما المنظور الثانى فيمكن القول بأنه أشمل كلية، فهو الذى ينطوى على مجمل الأحوال، وكى نفهمها فلسنا بحاجة إلا العودة إلى فكرة سوترآتما، حيث تتضح الروابط بأكملها[6]، وهو ما يوحد الأحوال المختلفة، وليس فيما بين بعضها بعضا فحسب بل كذلك بمبادئها ذاتها، حتى إن الكائن لا يرى فيها القيد فحسب بل كذلك يمكنه استخدامه للعودة إلى المبدأ فضلا عن إدراك الطريق إلى غايته، وفى هذه الحالة يتحول الخيط أو الحبل إلى قيمة ’محورية‘ حقة، ويمثل تسلق الحبل رأسيا على منوال تسلق شجرةٍ أو صارٍ عملية العودة إلى

---

4 *'Le "Dieu lieur" et le symbolisme des noeuds' in Revue de I'Histoire des Religions, July-December 1948 (see our review in Etudes Traditionnelles, July-August 1949*

5 ولنشر أيضا إلى هذا الطقس وخاصة تطبيقاته السحرية، والقصد الطيب أو الخبيث كما يستدعى الحال، ويناظر المعنى المزدوج للأربطة والعقد، لكن ما يهمنا هو المبدأ الذى صدر عنه ذلك التردد بغض النظر عن تطبيقه المخصوص، والذى لا يربو عن انحراف عن المبدأ، وقد أكد إلياد ذاته على عدم كفاية التفسير ’السحرى‘ الذى يقصر عليه بعض الناس أنفسهم، ونتيجة فشلهم فى فهم المعانى الأعمق للرموز، وهو فشل يضاهى فشل التفاسير ’السوسيولوجية‘ وتوابعها التطبيقية.

6 ولا بد من فهم أن هذا الامتداد لامتناه، حتى لو كانت فى أى تمثيل كان فلن تتمكن من الوجود الفعلى.

المبدأ[7]، وتصوُّرُ الصلة بالمبدأ عن طريق سوترآتما تحريك العرائس[8]، وتمثل العروسة هنا الكائن الفرد، ويمثل لاعبها 'النفس'، وبدون الخيط تبقى العروسة خاملة، مثل أنه بدون سوترآتما يظل الوجود خاملا كاللاشيء، ويقول تراث الشرق الأقصى "وتصير كل الخلائق فراغا فحسب".

وحتى فى المنظور الأول المذكور يبقى ازدواجا فى المعنى من نوع آخر، ويتعلق بالطرق المختلفة بموجب اختلاف المقامات الروحية، حيث يتمكن من تقويم الحال الذى وجد فيه نفسه، وتعكس اللغة هذه الازدواجية بالمعانى التى تضفيها على كلمة 'ارتباط *attachment*'، فالواقع أن المرء لو ارتبط بشخص أو بشيء فسوف يعتبر انفصاله عنه شرًا، وحتى على مستوى الواقع فإن الانفصال المذكور يشكل تحررا من بعض المحددات التى يجد فيها المرء ذاته، وعموما فإن ارتباط الكائن بحاله وفى الآن ذاته يمنعه من التحرر من قيوده الكامنة فى ذلك الحال يجعل الكائن يعتقد أن من سوء الحظ افتقاده، أو بتعبير آخر يُعزيه إلى 'خبث الموت' عن ذلك الحال، والذى نشأ عن فتق 'العقدة الحيوية' وتشتت مكونات فردانيته[9]، لكن الكائن الذى تحقق بشيء من التربية الروحية بما يمكنه من الأمل فى العبور إلى ما وراء شروط أحواله، و'يحقق' هذه الشروط كقيود بما هى حقا، وهكذا يتم 'الانفصال' عنها افتراضيا على الأقل، ففتق القيود أو بتعبير آخر الانتقال من هذه القيود إلى 'ما يوحِّد'، والذى ليس إلا الاعتراف بوعى الكائن أصوليا بطبيعة سوترآتما الحقة.

---

7 وهذا هو المعنى الصحيح فى الهند عما يسميه المسافرون 'حيلة الحبل *rope trick*'، رغم الظن بأنه أقلُّ أصالة من الظواهر السحرية، والتى ليس لها أهمية من الناحية الرمزية، وهو كل ما يهمنا هنا.

8 *Cf. A.K. Coomaraswamy, 'Spiritual Paternity and the "Puppet Complex"', in The Bugbear of Literacy [Bedfont, Middlesex: Perennial Books, Ltd., 1979], chap. 6 (see our review in Studies in Hinduism).*

9 ويُلاحَظ عموما قول إن الموت 'تفكيك' للوجود الفردى، وهذا التعبير ذاته متصل برمزية المسرح، كما أنه منضبط حرفيا رغم أن اللذين يقولونه غافلون عن ذلك، راجع *Perspectives on Initiation, chap. 28. ED.*

69 القلب المتوهج والقلب المشتعل

أشرنا فى حديثنا عن ’النور والمطر‘ والتمثيلات المختلفة للشمس إلى نوعين من الأشعة بخطوط مستقيمة وأخرى متموجة، والتى وجدت بشكل مماثل للتعبير عن القلب رمزيًا، ومن أعظم الأمثلة له نحت صغير غائر للقلب على رخام أسود منذ القرن السادس عشر فى كنيسة للكاثوزيين بدير القديس دنيس *St Denys d'Orques*، والتى درسها من قبل شاربونييرى لاسّاى[1]، والقلب المتوهج بين دائرتين مرسوم على أحدهما دائرة البروج وعلى الأخرى الكواكب وعلامات البروج، أما القلب فيمثل ’مركز العالم‘ متصلًا بالرمزيتين المكانية والزمنية[2]، وهو تمثيل ’شمسى‘ بلا جدال، وإضافة إلى ذلك رسم ’طبيعى‘ للشمس فى وسط دائرة الكواكب فى موضعها من الرمزية الفلكية، وبما يبين أنها الشمس الروحية.

ولا حاجة بنا لتذكر العلاقة بين الشمس والقلب، فكل منهما يحتل مركز موقعه حتى إنهما يشتركا فى المعنى المركزى، وهو أمر شائع فى المذاهب التراثية فى الغرب والشرق، وعلى سبيل المثال يقول بروكلوس،

"إنها العرش الأوسط فوق الأثير شعارها قرص متوهج هو قلب العالم،
إنك تملأ العالم رعاية توقظ الذكاء"[3].

---

1 *'Le Marbre astronomique de Saint-Denis d'Orques' in Regnabit, February 1924 [and also in Charbonneau-Lassay's Le Bestiaire du Christ, chap. 10].*

2 وهناك كذلك تفاصيل للشكل ذاته بالغة الأهمية من المنظور الرمزى، فهكذا حمل القلب جرحًا أو على الأقل ندبةً على شكل حرف يود العبرى، والذى يعنى ’عين القلب‘ أو ’بذرة النبوة *avataric seed*‘ التى تكمن فى ’المركز‘، وسواء أفُهِمت من منظور الكون الأكبر أم الأصغر، راجع *Perspectives on Initiation, chap. 48*.

3 *Hymn to the Sun (from the [French] translation of Mario Meunier).*

وقد أوردنا هذا المتن بالذات تفضيلا له عن كثير غيره، ذلك أنه يذكر الذكاء الذى نبع منها، وقد أُتيح لنا تفسير ذلك مرارًا، فالقلب فى كل تراث هو محل الذكاء[4]، ويقول ماكروبيوس،

"إن اسم 'ذكاء العالم' الذى أضفى على الشمس يناظر قلب السماء[5]، فهو مصدر النور الأثيرى، والشمس فى هذا المضمار كالقلب فى الكائن الحيوى[6].

وقد قال بلوتارك "إن الشمس لها قوة القلب، فهى تعطى من نفسها حرارة ونورًا كما لو كانت مجبولة من دماء وأنفاس"

ونجد فى هذه الفقرة الأخيرة عن القلب والشمس ذكرًا للحرارة والنور تناظر النوعين من الأشعة اللذان نوهنا عنهما، ولو كان النَفَسُ مرتبط بالنور فذلك لأنهما رمز للروح، وهى بالضرورة مثال للذكاء، أما الدماء فمن الواضح أنها وسيلة 'لإحياء القلب'، وتنم عن الدور 'الحيوى' للمبدأ المركزى للكائن[7]، وهو الذكاء جوهريًا.

وفى بعض الحالات يمثل القلب مع إحدى صفتى النور والحرارة، ويُرمز إلى النور بطبيعته بالإشعاع المعتاد، أى بالأشعة العمودية فحسب، أما الحرارة فيمثَّل لها بلهب ينبعث من القلب، ويُلاحَظُ أن الأشعة حتى لو وجدت الخاصيتان تتوحد معهما وتبدو وفرة جانب الضوء، ويؤيد هذا التفسير واقع أن إشعاع القلب هو الأقدم، ويرجع إلى الحقبة التى كان الذكاء فيها يُعزى إلى القلب، فى حين

---

4 ولابد من فهم أن ما نتناوله هنا هو مسألة الذكاء المحض بالمعنى الكونى وليس العقل، والذى ليس إلا انعكاسا فى المستوى الفردى، والذى يتصل بالمخ ، والذى ليس إلا مسخا *analogue* للكائن الإنسانى كما يمسخ القمر نور الشمس.

5 وقد كان تعبير 'قلب السماء' حاضرا فى تراث الشمال الأمريكى بمعنى الشمس.

6 *On the Dream of Scipio, i, 20.*

7 وقد مثَّل أرسطو للحياة العضوية بالحرارة، واتفاقا مع المذاهب الشرقية، وحتى ديكارت حدد موضع القلب بنار بلا نور، لكن ذلك كان المبدأ الوحيد للنظرية النفسية، والتى دائما ما تكون 'آلية *mechanistic*' صرفًا، وكما هو الحال دائما فى علم الطبيعة عنده، والتى لا تقارب المنظور التراثى للأقدمين.

انتشر القلب المشتعل مع الأفكار الحديثة التى اختزلت القلب إلى الانفعال فحسب، والواقع أن من المعلوم أن القلب لم يعد له معنى إلا ذلك، وأن علاقته بالذكاء قد نُسِيت تماما، زد على ذلك أن أصل الانحراف راجع إلى العقلانية من حيث غاياتها الأخيرة لمماهاة الذكاء الصرف بالعقل، فالعقل عندها لا شأن له إلا بالبصيرة المتعالية، وهو بالضبط ما جرى تجاهله وإنكاره فى العقلانية، ومن الصحيح من ناحية أخرى أن القلب مركز الكائن، وتنتمى إليه كل صيغ الكائن على نحو غير مباشر على الأقل، وبما فيها ما يسميه النفسيون 'الانفعال *affectivity*'، ولكن هناك أسباب كافية لتأمل العلاقة بين 'المركزية الحقة' وبين البصيرة، فى حين كانت كل الصيغ الأخرى 'هامشية'، إلا أن البصيرة الفكرية *intellectual intuition*، التى محلها القلب نائية عن الأفهام، واغتصب العقل الذى يقطن فى المخ دور القلب المنير *illuminating*[8]، ولم يبق للقلب إلا احتمال اعتباره محلاً للانفعال [9]، وكان مقدرًا على العالم الحديث أن يشهد رفيقًا للعقلانية فيما سُمى 'العاطفية *sentimentalism*'، أى الميل إلى رؤية أعمق الأمور وأسماها فى الكائن لتوكيد هيمنة العقل على الذكاء، ومن الجلى أن هذا الأمر كغيره من الأمور ليس إلا تمجيدًا لما 'تحت العقل' فى شيء أو آخر، والذى فشا نظرًا لأن الذكاء قد اختزل إلى العقل فحسب.

ولو صرفنا النظر عن الانحراف الحديث الذى ذكرناه توًا فهناك علاقة بعينها بين القلب والانفعال لابد من قيامها فى حدود إطارها المشروع، وهى العلاقة التى نتجت مباشرة عن القلب باعتباره المركز الحيوى ومحل 'الدفء والحياة' والانفعال، فهما أمران لصيقان بأحدهما الآخر حتى ليمكن القول إنهما متصلان تماما، فى حين أن علاقته بالذكاء تنتمى إلى مستوى آخر، فالعلاقة بين الحياة والانفعال واضحة فى الرمزية ذاتها، حيث إن كلاهما جانب من الحرارة[10]، فنحن نتحدث فى

---

8 *Cf. what we have said elsewhere on the rationalist sense given to the 'lights' of the eighteenth century, especially in Germany, and on the related meaning of the llluminati of Bavaria (Perspectives on Initiation, chap.* [12].

9 وهكذا كان باسكال الذى عاصر بدايات العقلانية يفهم بالفعل وظيفة 'القلب' بمعنى العواطف فحسب.

10 والمسألة هنا فى الحياة العضوية بمعناها الحرفى وليس بأى معنى من مقام أعلى، والذى ترتبط فيه 'الحياة' بالنور، مثلما ورد فى إنجيل يوحنا. راجع *Perspectives on Initiation, chap. 47.*

اللغة المعتادة عن دفء العواطف أو الانفعال مهما كان وعينا[11]، كما لا بد من ملاحظة أن النار تتوسط بين جانبين متكاملين هما الضوء والحرارة، ويجوز القول إنهما جانبان نقيضان حتى من منظور الفيزياء البسيط، فمن المعلوم أنه كلما زاد توهج الشعلة كلما قلت حرارتها، كما أن العواطف حرارة بلا ضوء[12]، ويمكن أن نجد فى الإنسان نورًا بلا حرارة كنور العقل، فنوره منعكس مثل نور القمر البارد الذى يرمُز إليه، وفى مستوى المبادئ فإن هذين الجانبين يتكاملا، فهما شطران من الطبيعة الجوهرية ذاتها، وكذلك العقل المحض الذى ينتمى إلى مستوى المبادئ، ومن ثم يؤكد مرة أخرى على أن الإشعاع الرمزى بجانبيه يمكن أن يتكامل معه، والنار التى تكمن فى مركز الكائن نور وحرارة فى الآن ذاته، ولو رغبنا فى ترجمتهما لكانا الذكاء والحب، ورغم أنهما جانبين لا ينفصما من النار ذاتها، يلزم حتى تصبح الترجمة مقبولة ومشروعة أن نضيف أن الحب المقصود يختلف ببون شاسع عن 'العاطفة' التى أُسبغ عليها الاسم ذاته كما حدث حيال الذكاء والعقل.

والواقع أن من السهل فهم أن هناك اصلاحات بعينها قد اشتُقت من الانفعال *affectivity*، كما أنها تخضع لإحلال تشاكلى فى مستوى أعلى، فبغض النظر عن المعنى الحرفى المباشر فكل شىء له قيمة رمزية فى علاقته بالحقائق الأعمق، وخاصة كلما طرأ سؤال عن الحب فى المذاهب التراثية، وفيما بين الأسراريين أنفسهم رغم حتمية وقوع اضطراب، وتظهر اللغة الانفعالية *affective language* كصيغة للتعبير الرمزى، فهما زاد الانفعال إلا أن من غير المسموح كما يدعى النفسيون المعاصرون أنه ليس هناك من الأمر إلا العواطف الإنسانية والمشاعر التى تتوجه إلى كائن فوق إنسانى، إلا أن الإحلال الرمزى أشد وضوحًا حينما نعلم ان التطبيقات التراثية لفكرة الحب ليست مقصورة على البرانية، وخاصة فى النطاق الدينى، وتمتد إلى النطاق الجوانى والتعميدى، وعلى الأخص فى فروع عدة من المدارس الإسلامية الجوانية، وقد كانت الأمر ذاته فى العصور الوسطى

---

11 والقلب المشتعل بين المحدثين يمثل الحب لا بالمعنى الدينى بل بالمعنى الحسى القح، وقد كان هذا المثيل شائعا فى القرن الثامن عشر على الخصوص.

12 ولذا وصف الأقدمون الحب بالعمى..

الغربية وخاصة طوائف الفروسية[13]، كما كانت كذلك فى المذاهب التعميدية التى وجدت تعبيرًا بليغًا عنها فى دانتى و صرعى الغرام *Fedeli d'Amore*، ونضيف أن التمايز بين الذكاء والحب تناظرا فى التراث الهندوسى جنانا مارجا و بهاكتى مارجا، أى طريق العرفان وطريق المحبة، والتنويه الذى ذكرانه سلفًا عن طوائف الفرسان برهان على أن طريق المحبة يناسب الكشطريا فى حين يناظر الذكاء أو العرفان البراهمة *Brahmins*، ولكن ذلك ليس إلا اختلاف يقوم على النحو إلى فهم المبدأ بالاتساق مع اختلافات الطبائع الفردية، والتى لا تؤثر على وحدة المبدأ ذاته.

[13] ومن المعلوم أن الأساس الرئيس للتراث المسيحى كانت أية القديس يوحنا "الرب محبة"، والتى تعنى قصرا انتقالا رمزيا مقصودا، وقد كانت صيحة الحرب غند فرسان المعبد *Vive Dieu Saint Amour*.

70 القلب والمخ

نشرت مجلة *Vers I'Unite* فى عدد يوليو أغسطس سبتمبر اكتوبر عام *1926* دراسة للسيدة داريل *Mme Th. Darel*، والتى وردت فيها عدة ملاحظات تقارب بعض جوانب موضوعات تناولناها بالتفسير من قبل، ولا بد من إبداء بعض التحفظات على تعبيرات بعينها تفتقد الدقة المطلوبة، ولا نظن أن اقتباس بعضها سوف تكون أقل إثارة للاهتمام،

"لو كان هناك حركة جوهرية فلابد أنها حركة الكائن الرأسية الذى تشرئب جوارحه نحو المثالى، والذى تتصاعد صلواته وأنبل مشاعره كعطر البخور نحو السماء، لقد خلق الرب فى هذا الإنسان معبدا داخل معبد الرب، وأفاض عليه قلبا خالدا كمحراب يشاكل سببه الأول فى مركز حركته تجعله جديرا بأصله، وفى الآن ذاته جعل له مخُا على شاكلة مملكة الحيوان برمتها، لكنه خاضع لحركة ثانوية بالنسبة إلى الأولى، فالمخ أداة للفكر فى عالم من الفكر الكامن فى الإنسان، والعالم يجعله قابلا للتحقق بوساطته، لكن القلب وحده له شهيق وزفير سرى يجعل الإنسان متوحدا مع الرب حتى يصبح 'فكرا حياً'، ويحفظ الإنسان بفضل هذا الوجيب الملكى وعد الرب، ويعمل بوصاياه لينقذ ذاته من نفسه، ويحرص على طاعة الشريعة ويسعد بالالتحاق بطريقه السرى الفريد الذى يؤدى إلى القلب الكلى الربانى، أما النكوص إلى درك الحيوانية مهما أطلق عليها من أسماء سامية، وليس على الإنسان إلا استخدام مخه وبنيته، وحيئذ يعيش بإمكاناته على التحول، ويعيش بالفكر الكامن لينشره فى العالم، ولكن ليس بقوة فكره الحى، لكن بالأديان والقديسين وحتى بالآثار التى حملت معنى روحيا كاد يختفى، ويتكلم عن أصل الإنسان والفضل الذى يميزه، ويتركز انتباهه على الاحتياجات الكامنة فى حاله النسبى، والتى يمكن أن يمارسها حتى يستعيد توازنه الباطن وبركَتُه، فحتى التزيُّد فى الانحراف يعرِّفه مدى عِقَمها، والذى ينتكس إلى حركته

الغريزية ويحتمى بقلبه ويحاول الهبوط إلى القبر الصامت حيث يخفت ضوضاء العالم، ولو تسرب بعضها إلى السمع فذلك لأنه لم يبلغ العمق الكافى ولا تخطى العتبة العظمى، .... إن الإنسان والعالم واحد فحسب، وقلب الإنسان وقلب العالم واحد فحسب".

وسوف يكتشف القارئ هنا فكرة القلب كمركز لوجود الكائن، وهى فكرة تشارك فيها كل الأديان القديمة، وهى الأديان التى انبثقت عن التراث الأولانى، ولازالت بقاياها ظاهرة فى كل أين وفى كل من عرف كيف يراها، وسوف نعود إلى ذلك لاحقا، وكيف يكتشفون كذلك فكرة السقوط بعيدا عن مركزه الأصلى وشوشت على الاتصال المباشر 'بقلب العالم'، وهذا ما كان يجرى على نحو طبيعى فى حال جنة عدن[1]، وأخيرا سيكتشف فيما تعلق بالدورالمركزى للقلب أن الحركة الزهرية الدائرية والحركة المركزية الطاردة تناهزا الحركة الثنائية فى التنفس[2]، والحق إن الانتقال الذى نوشك أن نعالجه فى إطار ثنائية هذه الحركات يتعلق بالقلب والمخ معًا، وهو ما يبدو للوهلة الأولى كما لو كان حالة فوضى، رغم أنه من منظور آخر يشتمل على قطبى الكائن الإنسانى،

"إن فى الإنسان قوة مركزية طاردة محلها المخ، أما الحركة الزهرية الدائرية فمحلها القلب، وهو محل الحركة الأولى وحافظها، ويتمثل فى حركتين من القبض والبسط، تضخ الدم لرى أعضائه لتوليد الحياة وتستعيده إلى المضخة. لكن القلب شيء آخر مثل الشمس التى تحفظ سرها الملكى فى حين تنشر الحياة على الأرض، فكذلك القلب الذى يتولى الوظائف الدقيقة للحياة العميقة التى يميزها حتى من لا يكاد يعلم عنها شيئا، ولم ينتبه إلى مملكة الحياة الباطنة التى يحتل منبرها، فالقلب فى مفهومنا موطن الحياة الكونية وحافظها، ويعلم ذلك المتدين الذى يجعل من القلب معبدا ويقيم منه رمزا مقدسا كما تعرفه كل الأديان السابقة والحضارات الغابرة فى أقدس شعائرها، وتفرض الصمت على ذكائها الجدلى قبل أن تدلف إلى المحراب حيث تسمو فيما وراء الكائنات النسبية فى الوجود، ويعيدنا هذا التوازى بين المعبد والقلب إلى الصيغة المزدوجة للحركة التى ترفع الإنسان إلى ما وراء ذاته وتُحِلُّه من عمليات التجلى من ناحية، ومن الناحية الأخرى

---

1 راجع باب *3* 'القلب المقدس والكأس المقدس'.

2 راجع باب *8* 'فكرة المركز فى الأديان القديمة'.

تشركه فى التجليات بمجملها".

وقد وجدنا المقارنة بين المعبد والقلب أشد توكيدا فى القبالة اليهودية3، كما أننا طرحنا من قبل التعبيرات التى استخدمها بعض اللاهوتيون فى العصر الوسيط عن تشبيه قلب المسيح بمحراب العهد4، أما عن الحركة الرأسية والأفقية فتضاهى رمزية الصليب كما تناولتها بعض مدارس الجوانية الإسلامية، وربما تحدثنا عنها يومًا ما5، والواقع أن هذه الرمزية مطروحة فى بقية المقالة ذاتها، وسوف نقتبس منها العبارات التالية فى ختام عرضنا، والتى تضاهى ما طرحنا سلفًا6 عن رمزية المركز والدائرة والصليب المعقوف،

"إن الصليب هو الرمز الكونى بلا جدال منذ ما نستطيع تخيله من الزمن، فهو يمثل ما يوحد الرأسي والأفقى بمعناهما المزدوج، ويجعل الحركة المزوجة تنطلق من مركزه كمولّدٍ وحيد لكليهما،... فكيف لا نعزو إليها معنى ميتافيزيقيا لعلامة تستجيب بهذا الكمال إلى طبيعة الأمور؟ وحتى يعبر الصليب عن الصلب الرباتى فقد كان عليه أن يحوِّر معناه المقدس، والواقع أن هذا الرمز فى أول أمره كان تعبيرا عن علاقة الإنسان والعالم بالرب، واستحال اجتناب تماهى الخلاص والصليب، كما استحال عدم صلب الرجل الذى كان قلبه أسمى مثال للربانى فى عالم تناسى هذا السر، ولو كان علينا طرح تفسير هنا فسوف يسهل بيان أن الأناجيل ورمزيتها العميقة لها دور بالغ الأهمية فى هذا الأمر، فالمسيح أكثر من حقيقة، وأكثر من الوقائع التى كانت منذ ألفى عام مضت، فقد قام من القبر من حيث يهبط الإنسان النسبي لكى يحيا خالدا كإنسان ربانى، وقد استعادة القلب الكلى الذى ينبض فى قلب الإنسان، والذى أهدر دمه لخلاص الإنسان والعالم".

والملحوظة الأخيرة لنا رغم تعبيرها الغامض تتفق أصوليًا مع ما قلنا سلفًا عن القيمة الرمزية للوقائع التاريخية، وعلى الخصوص التاريخ المقدس7، وبصرف النظر

---

3 *Le Coeur du Monde dans la Kabbale hebralque' [see also The King of the World, chap.* [3] *and in The Symbolism of the Cross, chaps.* [4] *and* [7].

4 *'Corporative Signs and their Original Meaning', Studies in Freemasonry and the Compagnonnage, chap.* [14].

5 *CF. The Symbolism of the Cross, ESPECIALLY CHAP. 3. Ed.*

6 *'The Idea of the Center in the Traditions of Antiquity' [chap 8].*

7 *'Les Arbres du Paradis' in Regnabit, March 1926, p295. [See also The Symbolism of the Cross, chaps. 9 and 25. Ed.)*

عن حقيقتها كوقائع بالطبع، لكننا لا ننوى حاليا الإسهاب فى هذه الاعتبارات، وغاية مرادنا انتهاز الفرصة التى أتاحتها المقتبسات السابقة، والعودة إلى مسألة العلاقة بين القلب والمخ، أو الملكات التى يمثلها هذين العضوين، وقد سبق أن عالجنا هذا الموضوع[8] إلا أن من المفيد أن نضيف إليها بعض الشيء.

وقد رأينا لتونا كيف يمكن اعتبار القلب والمخ قطبين، أى عنصرين متكاملين، ومنظور التكاملية لا يناظر فى الواقع حقيقة أنظمة بعينها على مستويات عدة على سبيل التعبير، وهو أقل برانية وأقل سطحية من التناقض الصريح رغم أنه ينطوى على شطرٍ من الحقيقة لو تمسكنا بالظواهر المباشرة، وقد صالح اعتبار التكاملية بين الأضداد على الأقل فيما اتصل بالتوازن بينهما، إلا أن هذا المنظور لايكفى من واقع أنه يسمح بالثنوية، فقول إن فى الإنسان قطبين أو مركزين قد يحدث بينهما تضاربا أو اتفاقا بحسب الحال فإنه يصدق حال الاعتبار فى الإنسان فى حال بعينها، ولكنها لا تُعتبَر 'لامركزية' أو 'لامتوحدة'، وأنها بما هى تشخيص لحال الإنسان الساقط الذى انفصل عن مركزه الأصلى، وقد "عرف آدم الخير والشر" لحظة سقوطه من الفردوس، أى إنه بدأ ينظر إلى الأمور من منظور الثنوية فى طبيعة 'شجرة المعرفة'، ووجد نفسه مطرودا خارج الوحدة المبدئية التى تناظر 'شجرة الحياة'[9].

وأيا كان الأمر فمن المؤكد أن الثنوية قائمة فى الكائن بموجب المنظور النسبى العرضى، ولو نحن اتخذنا منظورًا أعمق أو اعتبرنا الكائن فى حال يناظره فإنه يستعيد توحد كيانه[10]، ومن هذه النقطة فى العلاقة بين العنصرين التى بدت متناقضة ثم متكاملة تصير أمرا آخر، فتصبح خضوعا لا ارتباطا، وهكذا لا تصبح العلاقة بين عنصر وآخر على مستوى واحد، وكما لو كانت نوعا من التساوى بينهما، لكنها على العكس اعتماد أحدهما على الأخرى كمبدأ لهما، وهذه هى العلاقة التى تقوم بين القلب والمخ.

---

[8] راجع الباب 69 'القلب المتوهج والقلب المشتعل'.

[9] *See 'Les Arbres du Paradis', art. cit. — From certain comparisons that can be made between biblical and apocalyptic symbolism and Hindu symbolism, it becomes quite clear that the essence of the 'Tree of Life' is properly the 'ndivisible' (in Sanskrit Aditi); but this would take us too far from our subject.*

[10] *The Scholastic adage esse et unum convertuntur may be recalled here.*

وحتى نوضح هذه المسألة فسوف نعود إلى الرمزية التى ذكرناها عاليه*11*، والتى مثَّل فيها القلب الشمس ومثَّل المخ القمر، أو بالحرى المبدأ الكونى الذى ينتمى إليه كلا الجرمين السماويين كمتكاملات، والواقع أنهما كذلك من منظور بعينه، فبينهما توازٍ أو تماثل يسهل إيجادها فى كل الأديان، وتجعل الهرمسية من الشمس والقمر أو من نظائرهما الخيميائية من الذهب والفضة صورة للمبدئين الإيجابى والسلبى أو الذكورى والأنثوى فى صيغة تعبير أخرى متكاملان على الحقيقة*12*، كما أن اعتبار المظاهر فى عالمنا أمر مشروع فإن الشمس والقمر يضاهيا على الحقيقة دورين متماثلين، فهما فى التعبير التوراتى ’نوران عظيمان بحكم الأعظم النهار ويحكم الأصغر الليل‘ سفر التكوين *1: 16*، كما يصفهما التراث الصينى والفيتنامى والملاوى بالتساوى بمعنى ’عين النهار‘ و’عين الليل‘، إلا أن يستحيل ادعاء هذا التساوى فيما وراء المظاهر، حيث إن الشمس هى مصدر النور فى حين يعكس القمر نورها*13*، ويجوز القول إذن إن القمر جُرمٌ ’مضئ‘ لا وجود له إلا بالشمس,

وما يصدق على الشمس والقمر يصدق كذلك على القلب والمخ، أو على الأصح على الملكات التى يناظر فيها الجُرمان ما يرمزا إليه، أى بين الذكاء البصيرى وبين الذكاء الجدلى أو العقلانى، فالمخ أو عضو الذكاء الجدلى يقوم بدور ’الناقل‘، ولم يكن بلا مبرر أن كلمة ’انعكاس‘ تنطبق على الفكر العقلانى، والذى يرى الأمور كانعكاس فى مرآة *quasi per speculum* كما قال القديس بولس، كما لم يكن بلا مبرر أن يكون جذر *men* أو *man* يعنى فى اللغات الغربية المختلفة عدة

---

11 راجع الباب السابق..

12 ويحسن ملاحظة أن كلا من الاصطلاحين يمكن أن يُستَقطَب إلى فاعلٍ وقابلْ، حيث تتحد الشمس والقمر فى الزيجوت الذى تحدث يانوس عن أحد جوانبه، وهو *Lunus-Luna* كما ذكرنا فى باب *18*، ويجوز أن يُفهم ذلك بالتشاكل بين القوى المركزية الطاردة والقوى الزهرية التى تشكل منظورا يتعلق بالتناظر مع المخ والقلب على الترتيب، ومن منظور آخر فإن كلى القوتان تتعلق بالقلب، كنظير مكّمِل للوظيفة المركزية.

13 ويمكن تعميم هذه ’القابلية *receptivity*‘ على كل شىء لتشخيص المبدأ القابل حتى لا يبقى تساوٍ بينه وبين المبدأ الفاعل، رغم أنه يلزم من معنى واحد أن يقترن بالآخر فى العلاقة ذاتها.

كلمات بمعنى *moon* فى اليونانية و *moon* فى الانجليزية و *mond* فى الألمانية14، و من جانب آخر تعنى ملكة العقل *mental* والسنسكريتية *manas* واللاتينية *mens*،15 والألمانية *mann* و *mensch*، والواقع أن العقل *reason* ليس إلا الملكة المباشرة للمعرفة المباشرة، والتى هى صيغة الذكاء الإنسانى، كما أن البصيرة الفكرية يمكن أن تفوق الإنسان حيث إنها مشاركة مباشرة فى الذكاء الكلى، والذى يكمن فى القلب، أى فى مركز الكائن حيث نقطة التواصل مع الربانى، والذى ينير باطنه ويشع فى ظاهره.

ويرمز النور إلى المعرفة حتى يصبح طبيعيا أن يمثل نور الشمس المعرفة المباشرة، أى المعرفة البصيرية، والتى هى الفكر الصرف، ويمثل نور القمر المعرفة المنعكسة أو الفكر الجدلى للعقل، وكما لا يستطيع القمر أن يشع بذاته بدون الشمس، فكذلك العقل فى إطار الواقع الذى يُعتبِر مضماره الصحيح، ولن يعمل على خير وجه إلا بضمان المبادئ التى تنير له الطريق وتوجهه، والتى تتلقى نورها من العقل الأسمى، وعن هذه النقطة هناك ازدواجية لا بد من فضِّها، فإن الفلاسفة المحدثون16 يخدعون أنفسهم على نحو غريب فى حديثهم عن مبدأ 'العقلانية'، وكما لو كانت هذه المبادئ تنتمى إلى العقل الحق، وكما لو كانت من منتجاته على نحو ما، فى حين أنهم لكى يحكموا العقل لا بد أن يفرضوا عليه أنفسهم، ومن ثم لابد أن يأتون من أعلى، وهذا مثال بسيط على الخطل العقلانى، والذى يمكن أن نفهم منه الاختلاف الجوهرى بين العقلانية *rationalism* وبين الفكرية الحقة *true intellectuality*، ولا حاجة بالمرء إلا لفهم أن المبدأ بالمعنى المنضبط من واقع استحالة اعتماده على أمر آخر، ولا يمكن فهمه على نحو مباشر

---

14 ومن هنا كذلك كان اسم الشهر *mensis* فى اللاتينية و *monat* فى الألمانية و *mots* فى الفرنسية، وهو فى الوقع الشهر القمرى *'lunation'*، كما ترتبط به فكرة 'القياس' من ذات الجذر اللاتينى *mensura* وفكرة التخصيص *allotment*، لكن ذلك سوف ينبو بنا عن مقصدنا..

15 كما أن الذاكرة تسمى بكلمات مقاربة لكلمة *memory*، ففى اليونانية *mnesis,* و *mnemosune*، والواقع إنها لا تعدو مرآة عاكسة على منوال القمر من جانب بعينه.

16 وليكن نُصب أعيننا أننا نعنى بهذا التعبير تمثيل العقلية الحديثة كما عرَّفناها فى مناسبات شتى، فإن منظور الفلسفة الحديثة وطريقتها فة وضع الأسئلة لا تقابس الميتافيزيقا.

إلا بصيريا *intuitively*، ولا يمكن أن يخضع للمعرفة الجدلية للعقل، ولو لجأنا للمعرفة المدرسية فإن البصيرة هى *habitus principiorum* أما العقل فهو *habitus conclusionum* فحسب.

ويتمخض عما سبق نتيجة أصولية عن طبيعة البصيرة والعقل، فالمعرفة البصيرية مباشرة معصومة من الخطأ[17]، وعلى عكس المعرفة غير المباشرة أو الوسيطة التى تتسلل إليها الأخطاء بسهولة، ويتضح من ذلك خطل ديكارت فى الرغبة فى إضفاء العصمة على العقل، وهو ما فسره أرسطو كما يلى،

> إن من ضمن خصائص الذكاء [18] الذى نتوصل به إلى الحقيقة هناك ما يصح وهناك ما يخطئ ويؤدى إلى خطأ، والعقل دائما من النوع الثانى، وليس من شيء أصح من البصيرة، فالمبادئ أفضل من البرهان، ولكل علم رفيق من العقل، أما معرفة المبادئ فليست علماً، ولكنها صيغة أسمى من المعرفة العلمية أو العقلانية، والتى تشكل المعرفة الميتافيزيقية الحقة، زد على ذلك أن البصيرة أصدق من العلم ومن العقلانيات التى تبنيها العلوم، بما يعنى أن المبادئ تستقى من البصيرة [19].

ولكى يؤكد أرسطو على السمة البصيرية للفكر فإنه يذهب إلى قول "إن المرء لا ينبغى له البرهان على المبادئ، لكنه يدرك حقيقتها مباشرة"[20].

وهذا الإدراك المباشر للحقيقة بصيرة فوق عقلانية، ويبدو أن الفكرة البسيطة التى فقدها الإنسان الحديث هى 'معرفة القلب' بمصطلح المذاهب الشرقية، فهذه المعرفة ذاتها تستعصى على التواصل، وتستلزم 'التحقق' بها بدرجة أو أخرى على

---

17 وقد قال القديس توما الأكوينى فى كتابه *Summa Theologica I q.58, a. 5 and q.85, a.6* "إن البصيرة يمكن أن تخطئ غايتها الحقة، لكن ذلك الخطأ عفوى بالصدفة، ذلك أنه يؤكد أمرا أمام نظام جدلى لا يسلم بوجوده، ومن ثم تحول البصيرة الصرف إلى موضع المسائلة، كما أن 'العصمة' تنطبق فحسب على الفهم الحق للحقائق البصيرية، وليس من وقائع الجدل.

18 *Ordinarily'properties' (avoirs) is used for the Greek word exis [ejtEl?] which is practically untranslatable into French, and corresponds more closely to the Latin habitus, signifying simultaneously nature, disposition, state, and mode of being.*

19 *Posterior Analytics [11,19, ioob 5-15].*

20 ولنتذكر كذلك تعريف القديس توما للعقل "إن العقل *Ratio* تسمية لبعض جدليات النفس التى يشكل بها الكائن معرفته بغيره، لكن *intellectus* تمثل المعرفة الجدلية البسيطة".

الأقل، ولكى نعرف ما يقوم على الحقيقة وكل ما يمكن أن يُقال عنها ليس إلا تقريبا يقصر عن بلوغ الغاية، وقبل كل شيء لا بد من فهم الخطأ فى تصديق الفلاسفة فى أن طبيعة هذه المعرفة مفهومة عند من يرضى بفحصها 'فلسفيا'، أى من ظاهرها فحسب، فلابد من تذكر أن الفلسفة شأنها شأن كل 'المعرفة الدنيوية' ليست إلا أمرا عقلانيا، وعلى العكس منها فإن 'العلم المقدس' بالمعنى الذى تقصده فى كل كتاباتنا يقوم بالضرورة على المعرفة فوق العقلية، وكل ما قلناه عن الرمزية والتعاليم التى تنطوى عليها تتعلق بالوسائل التى وضعتها المذاهب التراثية فى متناول الإنسان لكى يتمكن من تحقيق المعرفة الحقة فيما تعلق بكل المعارف الأخرى، وبالقدر الذى يحقق بعضها مشاركة من بُعد بالتفكر غير المباشر، مثلما كان نور القمر انعكاسا كالحا لنور الشمس، فإن 'المعرفة القلبية' هى الإدراك المباشر للنور المفهوم، والذى قال عنه القديس يوحنا اللاهوتى فى مقدمة إنجيله 'شمس الروح' التى هى 'قلب العالم'.

71 شعار القلب المقدس فى جمعية أمريكية سرية

إننا نعلم أن أمريكا الشمالية بلاد مولعة بجمعيات الأسرار وأشباه الأسرارالتى تتكاثر فيها إضافة إلى أديان شتى وأديان زائفة وطوائف من كل نوع كان، والتى تتخذ مظهراً سرياً بدورها، فهل نرى فى ذلك احتياجاً إلى الأسرار التى كانت تجلياتها غرائبياً فى معظم الحالات؟ وربما كانت أمرًا لموازنة تنامى الروح العملية التى تعتبر أحد الخصائص الرئيسية للعقلية الأمريكية، ونظن من ناحيتنا أن الأمر هكذا، والواقع أننا نرى هذه التناقضات الحادة نتائجًا لانعدام التوازن ذاته الذى وصل إلى أقصى حد فى هذه البلاد، لكن لابد حالياً من قول إنها تكاد تنتشر فى العالم الغربى بأجمعه.

وبعد هذا الملحوظة العامة لابد من ذكر أن هناك تمايزات شتى بين الجمعيات السرية الأمريكية، وأن من الخطأ الجسيم الظن بأن كل هذه الجمعيات تتغيا هدفاً واحداً، فهناك من يدَّعى الكاثوليكية مثل' فرسان كولومبوس'، وهناك من ينحو إلى الجمعيات اليهودية، لكن السواد الأعظم من البروتستنت، وقد اعتمد بعضها منظور الحياد الدينى، وهذا سبب كاف للحذر، فالدعاية البروتستنية شديدة الخبث وتتخذ كافة الصور حتى تتلائم مع الدوائر المختلفة التى تنوى تخللها، ولا يثير الدهشة أن تعمل على نحو سرِّى تحت غطاء الجمعيات المذكورة.

ولابد من قول إن هناك منظمات بعينها تتخذ صوراً هزلية أو حتى طفولية، ولا وجود فيها لما يسمى أسرارًا على الحقيقة، وليس لها مبرر للوجود حتى تثير حب الاستطلاع لاجتذاب تابعين جدّد، أى باختصار إن الخطر الرئيس يتمثل فى استغلال عدم التوازن العقلى الذى نوهنا عنه لتونا، فنجد بينها جمعيات بسيطة

للمعونة تتخذ شعائرًا رمزية غالبًا على غرار الماسونية لكنها خيالية وتفضح جهلًا مشينًا بين مؤسسيها بأبسط حقائق الرمزية الحقة.

وهذه الجمعيات 'الأخوية' كما يسميها الأمريكيون أكثر انتشارًا من غيرها، لكن هناك جمعيات تدَّعى التعميدية أو الجوانية، إلا أن معظمها لا يستحق النظر بجدية، وربما كانت أشد خطرًا بموجب ادعائها الانتماء إلى جماعة الصليب الوردى مما قد يضلل البسطاء والجهلاء، ولقب' الصليب الوردى' على سبيل المثال يحظى بإغراء بالغ، وقد اتخذته بعض الجمعيات التى أنشأها من لا يعلمون فتيلًا عن 'الصليب الوردى' فى سابق الزمان، وماذا نقول عن الجماعات التى تحمل عنوانًا شرقيًا، أو الذين يدَّعون دينًا تراثيًا قديمًا، أو الجماعات التى خضعت تمامًا للأفكار الغربية القحة والأفكار الحداثية الصرف؟

ومن بين الأطياف القديمة بعض الجماعات القليلة لفت أحدها انتباهنا، ويبدو أنه يستحق اللوم من جانبنا بسبب بعض العبارات التى تشتمل عليها طقوسهم رغم عدم وضوح اصطلاحاتهم التى تثير معانيها الشك، ومنها ما كُتب على منوال الملحوظة المذكورة1، والتى تتعلق بمحفل يسمى *Order of Chylena* الذى لا نعلم عنه شيئًا آخر،

> لقد أسس آلبرت ستولى *Albert Staley* المحفل عام *1879* بعنوان *The Standard United States Guide*، وبه خمس مراتب لطوائف الحرف مستقاة من المرتبة الحقة *E Pluribus Unum* **وهو شعار الولايات المتحدة**، وعلى رايتها كلمات *Evangel and Evangeline* فى أطار نجمة سداسية، وتبدو كلمات *Philosophy of Universal Life* أى فلسفة الحياة الكلية كما لو كانت تعبر عن دراستهم الأساسية، وهى تشيلينا *Chylena* المخطوبة، وكلمة *I Am* **تبدو كما لو كانت تعنى** "إنك تنظر إلى القلب المقدس" وتبين حدوده الخارجية *Me* أو *T* على وجه الدقة تعنى تشيلينا.

ومن النظرة الأولى بدا اكتشاف أى شىء من كل ذلك بوضوح أمرًا عويصًا أو حتى مفهومًا، وهناك بعض التعبيرات المستعارة من اللغة الماسونية مثل "خمس مراتب لطوائف الحرف"، و'الكلمة المفقودة للمعبد'، كما وجدت رموز معروفة بالمعنى العام، مثل النجمة السداسية أو "خاتم سليمان"، والذى تناولناه

---

1 An extract taken from a brochure entitled Arcane Associations, published by the Societas Rosicruciana of America (Manchester, NH, 1905).

سلفًا، كما تعرفنا على النوايا فى إظهار المحفل بصبغة أمريكية، ولكن ماذا يعنى حقًا كل ما كان غير ذلك؟ وخاصة ماذا تعنى العبارة الأخيرة وهل يجب أن نرى رمز القلب المقدس مزيفًا إضافة إلى ما ورد عن لاسّاى *Charbonneau-Lassay* وما كتب فى مقال له بمجلة *Regnabit* فيما مضى؟

ولا بد من الاعتراف أننا لم نستطع اكتشاف معنى اسم تشيلينا، أو كيف تكون تسمية 'للمخلِّص'، أو حتى معنى ما إذا كانت تشيلينا متدينة أم لا، ويبدو أن الجملة التى تحتوى على كلمتى 'مخطوبة' و'المخلص' تنويه عن التوراة، وربما إلهام من نشيد الإنشاد، ومن الغريب أن يبين لنا ذلك المخلص القلب المقدس كما لو كان المسيح ذاته، ولماذا يعود اسم تشيلينا مرة أخرى؟ ومن جانب آخر يعجب المرء من وجود اسم *Evangeline* هنا، وهو اسم بطلة لونجفيلو فى أحد قصائده الشهيرة، ويبدو أنها مؤنث *Evangel* الذى رافقته، فهل ذلك تأييدًا للروح الإفانجيلية بمعنى خاص عند طوائف البروتستنت الذين يزينون أنفسهم به؟ وأخيرًا لو كان اسم إثيوبيا يعنى الجنس الأسود[2] على نحو طبيعى فربما لزم استنتاجها من 'الخلاص البروتستنتى'، ولا بد أنه كان اقتراحًا من أعضاء الجمعية، ولو كان ذلك هو الحال فإن شعار *E Pluribus Unum* يمكن أن يُترجم إلى محاولة التصالح إن لم يكن الاندماج بين الأجناس المختلفة التى تتكون منها الولايات المتحدة، والذين فرقت بينهم الأحقاد العنصرية، وهذا مجرد افتراض، ولكن ليس هناك ما يمنع منه.

وحتى لو كنا نتعامل مع منظمات بروتستنتية فليس ذلك سببًا كافيًا للظن أن شعار القلب المقدس قد انحرف تأويله، والحق إن بعض البروتستنت[3] كانوا مخلصون حقًا للقلب المقدس، إلا أن الحالة الراهنة خليط من أفكار الضلال والرشد فى السطور القليلة التى اقتبسناها، والتى تثير الريبة فى 'فلسفة الحياة الكلية'، والتى يبدو أن مركزها فى مبدأ *I Am*، ولاشك أن كل ذلك يمكن فهمه على نحو مشروع وحتى اتصاله بمفهوم القلب كمركز للكائن، ولكن ميول الروح الحديثة التى

---

2 وربما برر نشد الإنشاد واقع تسمية التى تقول "أنا سوداء لكنى جميلة" بصفتها 'مخطوبة'.

3 وقد اقتبسنا بالفعل مثلا عل ذلك من قسيس كروميل الأب توماس جودوين، والذى أملى كتابا عن عبادة قلب غيسى المقدس فى رسم للمسيح من علامة تجارية قديمة، نفس المرجع.

تمثلها العقلية الأمريكية خير تمثيل فإننا نخشى أنها ستَّتخذ بمعنى إنسانى صرف، وهذا ما نرغب فى لفت النظر إليه فى فحص تلك الألغاز.

وقد اتجهت الميول الحديثة كما نرى فى البروتستنتينية إلى الفردية، والتى تجلت بكلكلها فى مبدأ 'البحث الحر *free enquiry*'، والذى يعنى إنكار السلطة المشروعة للتراث الروحى، ومن المنظور الفلسفى فإن تلك الفردية ذاتها تؤكد على العقلانية، والتى تنكر أن ملكة المعرفة أسمى من العقل، أى صيغة الذكاء الإنسانى الفردى، وتنبثق هذه العقلانية مباشرة على الديكارتية، والتى تذكرنا بها صيغة *I Am*، والتى تعنى 'المفكر' ولا غير كنقطة انطلاق لكل الحقيقة، والفردية على المستوى الفكرى تتمخض حتمًا عما يمكن تسميته' أنسنة الدين *humanization of religion*' والتى تنحط إلى التدين *religiosity*، أى إن الدين ليس إنفعالًا وخليطًا غامضًا من الآمال بلا غاية محددة، زد على ذلك أن 'الانفعالية' مكمل 'للعقلانية'[4]، وحتى دون الحديث عن مفاهيم على منوال 'التجربة الدينية' عند ويليم جيمس *William James*، ولدينا أمثلة شتى من هذه الانحرافات بدرجة أو أخرى فى تنويعات البروتستنية وخاصة الأنجلو ساكسونية، حيث تذوب 'العقيدة' وتختفى لتترك وراءها 'الأخلاقية' الإنسانياتية التى أصبح لها ضجيج وعجيج فى مساق زماننا، وهى النتيجة المنطقية للبروتستنتية التى ليست دينية *non-religious* وإن لم تكن مناهضة للدين *anti-religious*، والتى تشكل خطوة فى نشر الميول التى تؤدى إلى مضاعفتها.

ولا يثير الدهشة فى هذه الأحوال أنهم أحيانًا ما يستخدمون مصطلحات وعبارات ورموز مقصورة على الدين، ولكنها الآن مُفرَغة من أصلها وآبقة عن معناها الأصلى، وهكذا يسهل خداع اللاهين عن هذا التشويه، وسواء أكان الخداع مقصودًا أم عفويًا فالنتيجة واحدة، فصورة القلب المقدس قد تنكرت لتمثل 'قلب الإنسانية' كما قال لاسّاى فى مقال له بهذا الصدد مذكور فيما تقدم، ويتحدث فيها عن 'قلب مارى' كرمز لقلب الأم كوطن للإنسان، وهو قلب أنثوى، وعن قلب عيسى كرمز للقلب الأبوى للإنسانية، وهو قلب ذكورى، وكلاهما من أصل ربانى من حيث مبدئهما الروحى والطبيعى.[5]

---

4 راجع الباب *69* 'القلب المتوهج والقلب المشتعل'.

5 *Quotation from L'Echo de I'Invisible (1917), in 'Les Representations blasphematoires du Coeur de Jesus', Regnabit, Aug.-Sept., 1924, pp192-p193.*

ولا ندرى تمامًا ما الذى جعل هذا المتن يخطر لنا فى سياق ما يتعلق بالجمعيات السرية فى أمريكا، ولكننا نقول بلا يقين أننا نواجه أمرًا من النوع ذاته، وأيًا كان الأمر فإن سوء تفسير القلب المقدس إلى 'قلب الإنسانية' ينطوى على مذهب 'الطبيعية *naturalism*'، ويهدد بانهيار وشيك إلى عبادة فجة، ولم يعد 'دين الإنسانية' فى الحقبة الحالية حِكرًا على أوجست كومت *Auguste Comte* وبعض تلامذته الموضوعيين، والذين كان لهم فضل الحديث صراحة عما يعمد الآخرون إلى التعبير عنه بالتورية بعبارات فاترة وسوء نية مبيت، وقد لاحظنا الانحرافات التى جعلت الناس يطلقون اسم 'الدين' على أمور دنيوية صرف[6]، فهل ذلك الخطل الذى غالبًا ما يكون عفويًا ليس نتيجة لمبادرة بعض الذين قصدوها عمدًا، وتكفلوا بتشويه العقلية الغربية منذ بداية العصر الحديث؟ ونميل إلى الظن أن أن هذا النوع من العقيدة 'الحضرية' التى نراها فى كل أينٍ تسهم فى ترويج ذلك الدين الزائف الذى غابت عنه كل الأفكار الربانية، وعلى منوال ما جرى بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن لا رغبة عندنا حاليًا فى تناول هذه المسألة، لكننا نعلم أننا لسنا الوحيدين الذى يفكرون فى هذه الأعراض المزعجة، ونختم هذا الباب بقول إنها متصلة بالفكرة المركزية ذاتها، والتى صارت ديدنًا لتفريغ الإنسانية من الدين، وليس بموجب الفهم المسيحى، بل بديلًا لإقصاء الإنساية عن الرب، وحيث إن الأمر كذلك فمن السهل فهم أن الذين يروجون لهذه الفكرة يسعون إلى اتخاذ القلب المقدس أضحوكة على اتحاد الطبيعتان فى شخص المسيح.

6 راجع الباب الأول 'إصلاح العقلية الحديثة'.

إن أحد الرموز المشتركة بين المسيحية والماسونية مثلث مكتوب فيه الاسم الرباعى اليهودى Tetragrammaton[1]، وأحيانًا ما يُكتب حرف **يود** فقط باعتباره أول حروف الاسم على سبيل الاختصار[2]، كما أن له معنى مبدئيًا[3] ينطوى على الاسم الربانى فى بعض المذاهب[4]، وأحيانًا ما يُستبدل هذا الحرف برسم عين، وتعنى عمومًا 'العين الرائية The All-Seeing Eye'، فالتشابه بين رسم العين ورسم الحرف يمكن أن يُفسَّر على نحو يتخذ معانٍ عدة، وقد يكون من المفيد ذكر بعض خصائصها دون إسهاب أو محاولة الوفاء بحقّ الموضوع.

وأول ملحوظة هى أن المثلث المذكور دائمًا ما يحتل موقعًا مركزيًا، كما أن الماسونية تضعه بين الشمس والقمر[5]، واللتان تناظرا العينين اليمنى واليسرى على الترتيب 'للإنسان الكامل' من حيث تماهيه مع 'الكون الأكبر'[6]، ولكى تنضبط

---

1 وعادة ما يسمى المثلث فى الماسونية دلتا بموجب أن حرف دلتا اليونانى مثلثا، ولكننا لا نرى مسوغا لهذه المقارنة بأصول الرمز المقصود، ومن الواضح أن معناهاه ثليثى رغم أن الحرف اليونانى يناظر فى الأبجدية عدد 4. .

2 ويُكتب الاسم الرباعى اختصارا بثلاثة أحرف يود، ولها صلة وثيقة بالمثلث فإنها تناظر المراتب الثلاثة لماسونية طوائف الحِرَف.

3 وحرف يود يُعَدُّ عنصرا أوليا لكل حروف الأبجدية العبرية.

4 وعن هذا الموضوع راجع 'الثلاثى الأعظم' باب 25.

5 وقد كان المثلث فى ظهوره فى الكنائس المسيحية عادة ما يوضع فوق المذبح، وحيث إن المذبح ذاته يحمل الصليب فإن ارتباط الصليب والمثلث يرمز إلى الكبريت فى الخيمياء الهرمسية..

6 راجع 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا' باب 12، وخاصة فيما ورد عن الرمزية الماسونية، وتجدر الإشارة إلى أن العينان هما 'نور' الكون الأصغر.

الرمزية تمامًا فإن هذه العين لا بد أن تكون 'عين الجبهة' أى 'العين الثالثة' التى تشاكل حرف يود، وأشد من ذلك إدهاشًا أن هذه العين 'ترى كل شيء' فى معيِّة تامة فى الحاضر الخالد أبدا[7]، وهناك أمر بعيد عن الصحة فى هذا التمثيل، والذى يحشر شكلًا للعين الثالثة لا مبرر له فى الأيقوتية الغربية حيث لا يفهمها أحد.

كما أن المثلث المعتدل يرمز إلى المبدأ، لكن المثلث المقلوب انعكاس له فى عالم التجلى، وتبدو نظرة العين المرسومة متجهة إلى أسفل[8]، أى من المبدأ إلى التجلى، ثم إن المعنى العام للحضور الدائم *omnipresence* بتحول إلى معنى خاص 'للعناية الربانية'، ولو رأينا هذا الانعكاس على الكائن الإنسانى لابد من مراعاة أن الشكل المقلوب للمثلث ليس إلا المخطط الهندسى للقلب[9]، وتصبح 'العين، هى 'عين القلب' فى الجوانية الإسلامية بكل المعانى المرتبطة بها، كما لا بد من ذكر أن القلب 'مفتوح'، ويجوز تمثيل عين حرف يود رمزيًا 'بالجرح'، ونذكر فى هذا السياق أن 'القلب المشع' للقديس دنيس *St Denis d'Orques* الذى ذكرناه سلفًا[10] والذى كانت أحد خصائصه هى 'الجرح' أو ما يجوز تسميته بذلك ظاهريًا يتخذ رسم حرف يود.

وليس هذا هو كل شيء فى تمثيل "عين القلب" كما قلنا توًا بحسب أحد المعانى الشكلية فى 'البذرة' التى ينطوى عليها القلب وقد استُبدِلت بالثمرة، وهو ما يمكن أن يُفهم بمعنى الكون الأكبر والكون الأصغر كذلك[11] عندما تنطبق على الكائن الإنسانى، وتضاهى هذه الملحوظة الأخيرة باعلاقة بين 'العين الثالثة' وبين

---

7 ومن منظور 'الزمن الثلاثى' فإن القمر والعين اليسرى يناظرا الماضى، والشمس والعين اليمنى يناظرا المستقبل، وتناظر العين الثالثة لحظة الحاضر الممتدة التى لا تنقسم بين الماضى والمستقبل، أى إنها انعكاس للأبدية فى الزمن.

8 ويجوز عقد صلة بين ذلك وبين معنى اسم أفالوكيتشفارا، ويقال عنه إنه 'الرب الناظر إلى أسفل'.

9 وكلمة 'مقلوب' مشتقة من جذر 'قلب' ذاته.

10 راجع 'القلب المتوهج والقلب المشتعل' باب *69*.

11 راجع *Perspectives on Initiation,* باب *48* ومن منظور الكون الأكبر فإن التمثيل المقصود يساوى القلب من 'بيضة العالم' فى التراث الهندوسى بالبذرة التى تنطوى عليها هيرانياجاربها..

’لوز‘[12]، حيث تفرض ’العين الثالثة‘ و’عين القلب‘ ’موضعين‘ مختلفين، كما أنه كذلك ’بذرة الخلود‘[13].

كما أن تعبير’ عين القلب‘ العربى له معنى مزدوج هو ’العين‘ و’ينبوع الخلود‘، ويعود بنا ذلك إلى فكرة ’الجرح‘ التى تناولناها سلفًا، فإن جدول الدم والماء الذى ينبع من قلب المسيح المجروح فى الرمزية المسيحية يعنى ’ينبوع الخلود‘[14]، وهو’ رحيق الخلود‘ الذى جمعه يوسف الأرمتى فى الكأس المقدسة، وأخيرًا لا بد من تذكر أن الكأس ذاته مكافئ رمزيًا لمعنى القلب[15]، وهو كالقلب الذى يُمثَّل له رمزيا بالمثلث المقلوب.

12 راجع ’ملك العالم‘ باب *7*.

13 أما عن الرموز التى ارتبطت بـ لوز فلنتذكر أن صورة اللوزة *mandorla* التى تعنى كلمة لوز أو *vesica piscis* فى العصور الوسطى، راجع ’الثلاثى الأعظم‘ باب *2*، وهو ما يثير فكرة العين الثالثة، وصورة المسيح فى مجده فى إطار لوزة يبدو متماهيا مع ’ بوروشا فى العين‘ عند الهندوس، كما أن ’إنسان العين‘ فى العربية يعنى حدقة العين يشير إلى الرمزية ذاتها.

14 ويتكامل هنا الدم والماء باستخدام التعبير فى تراث الشرق الأقصى، فيجوز قول إن الدم هو يانج وأن الماء هو يين، وعلاقتهما بأحدهما الآخر، وعن طبيعة الدم الحارقة راجع ’الإنسان ومصيره فى الفيدانتا‘ باب *13*.

15 كما أن أسطورة سقوط الزمردة من جبهة إبليس فى سقوطه تنتمى إلى الجريل مباشرة و’العين الثالثة‘، راجع ’ملك العالم‘ باب *5*، وعن الحجر الساقط من السماء راجع باب *44* ’الحجر السماوى‘.

73 حبة الخردل

نُشرت هذه المقالة فى *Etudes Traditionnelles* فى يناير عام *1949*، وقد كانت أصلا مكتوبة لمجلة *Regnabit*، ولكن لم يُقدر لها أن تظهر بها نظرا للتحيزات المدرسية الجديدة، وهو ما أدى إلى انقطاع التعاون بيننا، وهى مصنفة من التراث المسيحى بغاية بيان اتفاقه مع الأديان الأخرى والتراث الكلى، كما أنها استكمال ببعض الملاحظات لما كتبنا عن الموضوع ذاته فى الباب الثالث من كتاب 'الإنسان ومصيره تبعا للفيدانتا'، وقد كانت التعديلات طفيفة للغاية فى نقاط عدة، كما أضفنا بعض المراجع من أعمالنا الأخرى لعلها تفيد القارئ.

وقد ذكرنا أن رمز القلب المشع[1] فى كنيسة القديس دنيس *St Denis d'Orques* عن رمزية حرف يود العبرى داخل القلب[2] على اللوح الرخامى أن الجرح على شكل حرف يود، وقد كان ذلك التشابه الملفت له معنى عميق غير مقصود، ومن ناحية أخرى ظهر عام *1625* حفرا مطبوعا رسمه كالّو *Callot* عن موضوع ظهر فى ذلك الحين، فقد كان قلب المسيح يحتوى على ثلاثة حروف يود، وهو الحرف الأول من الكلمة العبرية *Tetragrammaton*، والذى اشتق منه باقى الحروف الأبجدية، وقوم دائما بالرمز عن المبدأ، وما إذا كان وحده ممثلا للوحدة الربانية[3]، أم كان يمثله ثلاث مرَّات بالمعنى 'التثليثى'[4]، فحرف يود فى القلب إذن هو المبدء الكامن فى المركز، وسواء أكان فى 'مركز العالم' وهو الموضع المقدس فى

---

[1] باب *72* 'العين الرائية'.

[2] راجع أول هذا الباب.

[3] راجع 'الثلاثى الأعظم'، باب *25*.

[4] ويوجد هذا المعنى على وجه اليقين فى تمثيل أحرف يود الثلاثة عند الكتّاب المسيحيين، كما هى حال لوحة الحفر التى أشرنا إليها، ونتعلق عموما بالرمز الكلى للمثلث، والذى يرتبط بالقلب..

القبالة العبرية[5] أم كان من منظور الجرم الأصغر، فى مركز كل كائن فى الأديان المختلفة افتراضيا على الأقل[6]، وهو أعمق نقطة فى الإنسان، فهى نقطة الاتصال بالربانى، وتقول القبالة أن 'شيكيناه' أى الحضور الربانى يتماهى مع 'نور المسيح'[7] والذى يسكن shakan فى الآن ذاته فى مذبح المعبد، ولذا سمى mishkan أى الساكن، كما يكمن فى قلوب المؤمنين[8]، والعلاقة الحميمة بين هذا المذهب وبين معنى اسم' عمانوئيل' الذى أطلق على المسيح بمعنى 'الرب فينا'، ولكن هناك كثير من الاعتبارات فى هذه المسألة، وخاصة عن واقع أن حرف يود يحمل معنى 'المبدء' وكذلك معنى 'البذرة'، وهكذا كان حرف يود فى القلب كبذرة فى ثمرة، وهاهنا نجد تماهيا فى جانب بعينه على الأقل بين رمزية القلب ورمزية' بيضة العالم'، ومن ثم يمكن فهم السبب الذى حدى إلى تسمية 'البذره' فى تطبيقها على المسيح فى كثير من السياقات الإنجيلية[9]، فقد كان المسيح قبل كل شيء 'بذرة' فى القلب لابد من الانتباه لها، وخاصة أنها ترتبط مباشرة بالمعى العميق فى أحد أمثال المسيح المعروفة على النطاق الأوسع فى كل الأناجيل عن 'حبة الخردل'.

ويلزم لفهم هذه العلاقة الإشارة إلى المذهب الهندوسى الذى أضفى على القلب صفة 'المدينة الربانية براهما بورا' فى مركز الكائن، والتى تشاكل 'مدينة الرب' فى وصف العلامات الأخروية ومدينة' أورشليم السماوية'[10]، وغالبا ما يُرمز إلى المبدء الربانى الذى يسكن مركز الكائن بعبارة 'الأثير فى القلب'، أى العنصر الأولانى الذى نشأ منه كل شيء، والذى اتُخِذ على نحو طبيعى لتمثيل المبدء، والأثير أكاشا هو ذاته Avir العبرية، والتى ينبثق منها النور Aor الذى تكشف

---

5 راجع 'رمزية الصليب' باب 4.

6 راجع 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا' باب 3.

7 راجع 'ملك العالم' باب 3.

8 راجع 'رمزية الصليب' باب 7، وحلول 'السقام' فى قلب المؤمن وارد فى التراث الإسلامى.

9 *Isa. 4:2; Jer. 23:5; Zech. 3:8 and 6:12. Cf. Perspectives on Initiation, chaps. 47 and 48, and also our article 'The All-Seeing Eye' [chap. 72].*

10 راجع 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا' باب 3.

أشعته الظاهرة[11] عن كل الامتدادات، "ليصنع شيئا من فراغ ولا شيء *thohu*، ومما كان لا مما هو كائن[12]، وفى حين يرتكز ذلك التمدد المشع يبقى فى القلب حرف يود، أى 'النقطة الخفية التى تتجلى' ثلاثة فى واحد وواحد فى ثلاثة[13]، ولكننا سنترك هذا المنظور عن هيئة الكون لننتبه إلى منظور يتعلق بكائن بعينه مثل الإنسان، ويظل فى حسباننا أن التشاكل بين الكون الأكبر والكون الأصغر باقيا حتى ينتقل المعنى من مستوى إلى آخر على الدوام.

وقد ورد فى كتب الهند المقدسة ما يلى،

> إن آتما أى الروح الربانية التى تكمن فى القلب أصغر من حبة أرز وأصغر من حبة شوفان وأصغر من حبة خردل، وهذه الآتما تكمن فى القلب، ولكنها أكبر من الأرض وأكبر من الجو وأكبر من السماء، وأكبر من كل العوالم معا[14].

ويستحيل ألا نندهش بالتشابه بين هذا المتن وبين المثل الذى جاء فى الأناجيل،

> وقدم لهم مثلا آخر قائلا "يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله، وهى أصغر جميع البذور، ولكن متى نمت فهى أكبر البقول وتصير شجرة حتى إن طيور السماء تأتى وتأوى فى أغصانها"15.

وسوف ندفع باعتراض وحيد يُلح علينا، وهو هل يمكن تمثيل آتما 'الذى يسكن فى القلب' نظيرًا لما يسميه المسيحيون 'مملكة السماء' أو 'مملكة الرب'؟

---

11 راجع 'هيمنة الكم وعلامات الزمان' باب *3*.

12 أول التجليات الربانية فى سفر التكوين، والبرهان الربانى على الكلمة وعملها فى الخلق، والتردد الأول الذى يفتح الطريق إلى الإمكانات المنطوية 'بفراغ بلا شكل' والفوضى الأصلية "توهو فا بوهو"،

13 راجع 'رمزية الصليب' باب *4* و *7*.

14 *Chandogya Upanishad, 3.14.3.*

15 متى *13:31-32; cf.* مرقص *4:30-32* ولوقا *13:18-19* .

وتؤكد الأناجيل ذاتها جواب السؤال، فحينما سأل الفرِّيسيون "متى تأتى مملكة الرب" فقد فهموا المثل بالمعنى الزمنى، وأجاب المسيح،

إن مملكة الرب لن تأتى بعلامات تُرى، ولن يقول أحد "هوذا هناك هى قد جاء" ولا "إن ملكوت الرب قد حل فى وسطكم *Regnum Dei intra vos est*"[16].

فالفعل الربانى ينبثق من الباطن[17]، ولذا لا تلحظه العين التى تنظر إلى الأمور الظاهرة فحسب، ولذا أسمت المذاهب الهندوسية المبدء بصفة 'الحاكم الباطن *آنتاريامى*'[18]، أى الذى يعمل من الداخل إلى الخارج، أى من المركز إلى المحيط، ومن اللامتجلى إلى المتجلى، وهكذا تفلت نقطة انطلاقه من كل الملكات التى تنتمى إلى الحواس[19]، و'مملكة الرب' مثل بيت الرب 'بيت إيل'[20] من حيث التماهى مع المركز، أى إنها الأكثر بطونا سواءً أنظرنا إليها من منظور كل الكائنات أم كلا منهم على حدة.

وهكذا نرى أن القضية المضادة مذكورة فى متون الأناجيل، وأن شكل حبة الخردل أصغر جميع البذور ولكنها تصير 'أعظم الشجيرات'، وتناظر تماما الهبوط والارتفاع التى وردت فى المتن الهندوسى للتعبير عن الأصغر والأكبر، كما أن الأناجيل فى آيات أخرى تناظر حبة الخردل ببذرة دقيقة، "ولو كان لكم إيمان

---

16 لوقا *17: 21*، وقد تذكرناه فى معالجتنا للمتن الطاوى المقتبس، والذى طُرح بتفصيل أوسع فى 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا' باب *10*، ولا تسل عما إذا كان المبدأ هو هذا أم ذاك فهو فى كل كائن مطلقا، ولذا اكتسب صفة 'الأعظم'، و'الأسمى'، و'الكلى' فى كل المعايير، كما أنه 'الوسط'

17 المركز الذى لايحول *'invariable middle'* ولكنه لا يتماهى مع الكائنات، فليس مختلفا ولا محدودا، كتاب تشوانج تسو باب *9*.

18 راجع 'الإنسان ومثيره فى الفيدانتا' باب *15*.

19 والفعل 'المنظِّم' الذى يستخلص كل الكائنات من الفوضى الأولانية يتماهى بالضرورة مع ما ذكرنا سلفا عن التردد الأول.

20 راجع 'الإنسان ومثيره فى الفيدانتا' باب *1*.

مثل حبة خردل..."[21] ، والتى تتصل بسابقتها، فالإيمان الذى يدرك ما يفوق الحواس عادة ما يُرمز إليه بالقلب[22]، لكن معنى التعارض الذى صارت إليه 'مملكة الرب' أو 'آتما الذى يسكن القلب' تصبحا الأصغر والأكبر فى كلى الحالين، والواضح أن ذلك يقبل الفهم بطريقين مختلفين، فما هى العلاقة بينهما؟ ويكفى لفهم ذلك معرفة أن الانتقال التشاكلى من الأدنى إلى الأسمى ومن عالم الظاهر المادى إلى عالم الروح، فلابد أن تُتخذ بالمعنى المقلوب حتى تنطبق على نحو صحيح، وهكذا كما تنقلب الصورة فى المرآة فإن الأول أو الأعظم من حيث المبادئ من ظاهر الأمور هو الأصغر فى عالم التجلى[23]، عموما فإن هذا التطبيق لانقلاب المعنى قد ورد فى الأناجيل من أحد جوانبه على الأقل، "وهكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين"[24] " ذاك لأن كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع"[25] "ومن يتضع كطفل فهو الأعظم فى ملكوت السماء"[26] "فمن وضع نفسه مثل هذا الولد ومن قبل ولدا واحدا مثل هذا باسمى فقد قبلنى"[27] "إذا أراد أحد منكم أن يكون أولا فيكون آخر الكل وخادما للكل"[28].

ولو اقتصرنا على الموضوع الذى يشغلنا حاليا وحتى نجعل التفسير سهل الفهم فسوف نلجأ إلى رمزية مشتقة من الرياضة باستخدام الرمزية الحسابية والهندسية معا، وكلاهما على اتفاق تام مع الآخر، فالنقطة فى الهندسة لا كَمَّ لها[29]، ولا تحتل مكانا مهما صغر، فالمكان ليس إلا تناميا لفرضيات النقطة، والتى تتحقق بالإشعاع

---

21 لوقا 17: 6.

22 وهناك علاقة بين رمزية 'عين القلب' وما نعالجه فى هذا الصدد.

23 راجع 'الإنسان ومثيره فى الفيدانتا' باب 3

24 متى 20: 16 و مرقس 10: 31 .

25 لوقا 18: 14.

26 متى 18: 34.

27 مرقس 9: 34.

28 لوقا 9: 48.

29 ويناظر هذا العدم ما يسميه الطاويون 'اللاشيئية'.

على الجهات الستة[30]، وكذلك الواحد فى الحساب أصغر الأعداد ولكنه يقوم فى كثرتها، فهو أعظم من حيث المبدأ حيث ينطوى على الأعداد جميعا وينتج كل المصفوفات بمجرد تكرار بسيط، ونعود ثانية إلى الرمزية المذكورة من أول الباب، فحرف **يود** هو أصغر حروف العبرية التى تشتَق جميعا منه[31]، كما أن مغزى رسمه مزدوج بمعنى 'المبدء' و'البذرة' موصول بهذه العلاقة المزدوجة، فهو فى العالم الأسمى مبدءٌ ينطوى على كل شيء فى العالم الأدنى، وهو البذرة التى احتوت على كل شيء، وهذا منظور التعالى والبطون اللذين تصالحا فى مبدأ واحد من الاتساق الكلى [32]، والنقطة التى هى مبدأ وبذرة امتداد والوحدة فى الحساب هما الأمر ذاته، كما أن الكلمة الربانية سواء أكانت قائمة بذاتها أم مركزا للعالم[33]، وهى فى الآن ذاته بذرة كل الكائنات[34].

ويكمن المبدء الربانى فى مركز الكائن، ويمثل له التراث الهندوسى بالبذرة دهاتو والنطفة بيجا[35]، ذلك أن 'الاتحاد' لم يتحقق بعد، ولازال افتراضيا فى الكائن[36]، ومن جانب آخر فإن هذا الكائن والتجلى بمجمله الذى ينتمى إليه موجود بفضل المبدء، وليس له حقيقة واجبة إلا بالمشاركة فى الجوهر

---

30 وعن العلاقة بين هذه النقطة وامتدادها راجع 'رمزية الصليب' باب *16*.

31 ومن هنا جاءت مقولة "...حتى تنتهى السماء والأرض ولن يبق حرف يود واحد ولا نقطة كشطر من حرف من الناموس حتى يُنجز كل شيء" متى *5: 18*.

32 *The essential identity of these two aspects is also represented by the numerical equivalence of the names El Elion, 'God Most High', and Emmanuel, 'God in us' (cf. The King of the World, chap. 6).*

33 ويسمى التراث الهندوسى الأولى سفايامبهو والثانية هيرانياجارها.

34 وهذا الاعتبار من منظور آخر مقلوب المعنى ولكنه ينطبق على مرحلتين متكاملتين من التجلى الكونى، مثل 'النمو والفناء' و'الميلاد والموت' و'الشهيق والزفير' و'القبض والبسط' و'الذوبان والتبلّور'. راجع باب *6* من 'الثلاثى الأعظم'.

35 *In this connection, the kinship of the Latin words gramen, 'grain', and ger- men, 'germ' should be noted. In Sanskrit, the word dhatu also serves to designate the verbal root, as being the 'seed' whose development gives birth to language in its entirety (cf. Man and His Becoming according to the Vedanta, chap. n).*

36 ونقول 'افتراضيا' *'virtually'* لا 'محتملا' *'potentiality'*، فليس فى المقام الربانى احتمالات، ولكنها ناتجة عن فهم الفرد لعلاقته بها، حيث يمكن الحديث عن 'الاحتمالات'، و'الاحتمال المحض' يعنى التفاضل المطلق بين عناصر 'المادة الأولية'، والذى يتماهى مع 'الفوضى الأولانية'.

وبمقدار تلك المشاركة، فالروح الربانى آتما هو المبدأ الأوحد لكل شيء كان، وهو ما يتجاوز الوجود بما يستعصى على الحصر[37]، ولذا قيل إنه لكى تكون أعظم من 'العوالم الثلاثة' الأرضى والوسيط والسماوى الذى يسمون معا هوفانا التى تشكل الوجود المتجلى، وهى كذلك أكبر من مجموع مكوناتها فيما وراء التجلى بكامله، حيث إنها خالدة ومطلقة ولامشروطة ولاتتغير[38].

ولازال هناك نقطة فى مَثَل حبة الخردل يستلزم توضيحا فيما تعلق بالفقرة السابقة[39]، فيقال إن نمو البذرة يجعلها تصير شجرة، ونحن نعلم أن الشجرة فى التراث أحد الرموز المركزية 'لمحور العالم'[40]، ويناسب هذا المعنى البذرة فى المركز على خير وجه، فالشجرة التى تنمو من المحور منبثقة مباشرة عن المركز، وتمتد فروعها فى العوالم أجمع، وتأتى إليها 'طيور السماء' التى تمثل لها المتون الهندوسية بالأحوال الأسمى للكائن، وهذا المحور الثابت هو حقا 'دعامة ربانية' للوجود بأكمله، وكما تقول تعاليم الشرق الأقصى إنها تشير إلى الاتجاه الذى يتخذه 'عمل السماء'[41]، أليس ذلك سببا كافيا لأن يأتى بعد الدعاء فى 'صلاة الرب' "مملكة السماء آتية" و"سوف تحقق على الأرض كما فى السماء"، وهو تعبير عن الاتحاد 'المحورى' لكل العوالم مع المبدأ الربانى، والتحقق الكامل للاتساق الكلى الذى نوهنا عنه سلفا ولا يمكن أن يُنجز إلا

---

37 *We take the word 'existence' in its strictly etymological sense: existere, that is, exstare, 'to have one's being from something other than oneself, 'to be dependent on a higher principle'; existence thus understood is therefore strictly contingent, relative, conditioned, the mode of being of that which does not have its own sufficient reason in itself.*

38 ولم يرد ذكر 'العوالم الثلاثة' فى مَثَل حبة الخردل، ولكنها مُمَثلة فى مثل مكاييل القمح الثلاثة، متى *13*؛ *33* و لوقا *13: 20-21*.

39 ولنُشر هنا إلى المصطلح الهندوسى للحقل كشيترا هو التسمية الرمزية للمجال الذى تنمو فيه قدرات الكائن.

40 راجع 'رمزية الصليب' باب *9*.

41 راجع 'رمزية الصليب' باب *23*، ومن دواعى سرورنا إمكان قول 'موضع ميتافيزيقى' بالتناظر مع 'الموضع الهندسى'، وهو ما يُعطى رمزا منضبطا بقدر الإمكان لما نتناوله هنا.

باندماج آمال الخلق فى اتجاه واحد، ألا وهو المحور ذاته[42].

وقد قال المسيح "ليكون الجميع واحدا كما أنك واحد أيها الآب فىَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضا واحدا فينا ... فأنا فيهم وأنت فىَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد"[43]

والاتحاد الحق هو مقدم 'مملكة السماء' من الباطن إلى الظاهر فى رضوان منظومة الكون، وهى الكمال لكل التجليات واستعادة تكامل 'الحال الأولانى'، وهذا هو مقدم 'أورشليم السماوية' فى نهاية الزمان[44].

انتبهوا، فإن الرب سوف يسكن مع الناس ويعيش بينهم، وسوف يكونون شعبه وهو معهم[45]، وسوف يمسح كل الدموع من عيونهم ولن يكون موت حينذاك[46]، ولن يكون ما هو ملعون، لكن عرش الرب والحَمَل سيقوم فيها، وسوف يجتلون وجهه وعلى جباههم تسابيحه[47]، ولن يكون ليل[48]، ولن

---

42 ونلاحظ أن كلمة توافق *'concord'* تعنى حرفيا 'اتحاد القلوب *cumcordia*'، ويعنى القلب فى هذه الحالة الإرادة بشكل رئيسى.

43 يوحنا *17: 21-23*.

44 ونشير هنا إلى ما ذكرناه عن 'شكيناه و عمانوئيل'. .

45 [3]وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً:«هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْبًا، وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلهًا لَهُمْ. [4]وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ»، وطالما كانت 'أورشليم السماوية' مركزا للعالم فهى 'موئل الخلود' را جع 'ملك العالم' باب *7*.

46 ويجوز أن يُفهم ذلك ككناية عن 'العين الثالثة'، وهى على رسم حرف يود كما ذكرنا فى باب *72* 'العين الرائية'، وسوف يمتلكا 'حاسة الأبدية' من اللحظة التى تم فيها الاتصال 'بالحال الأولانى'..

47 ولا بد أن الليل مفهوم هنا بمعناه الأدنى، حيث يمثل الفوضى، ومن الواضح أن كمال الكون هو الطرف النقيض للتجلى، حتى يمكن وصفه باليوم الدائم.

48 "*3* وَلاَ تَكُونُ لَعْنَةٌ مَا فِي مَا بَعْدُ. وَعَرْشُ اللهِ وَالْخَرُوفِ يَكُونُ فِيهَا، وَعَبِيدُهُ يَخْدِمُونَهُ. *4* وَهُمْ سَيَنْظُرُونَ وَجْهَهُ، وَاسْمُهُ عَلَى جِبَاهِهِمْ. *5* وَلاَ يَكُونُ لَيْلٌ هُنَاكَ، وَلاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى سِرَاجٍ أَوْ نُورِ شَمْسٍ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلهَ يُنِيرُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ سَيَمْلِكُونَ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ. سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتى *22*.

يحتاجوا إلى مصباح ولا شمس، فنور الرب ضياءهم، وسوف يهيمنون به إلى الأبد[49].

.

[49] سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي *22: 3-5*، وكذلك *21: 23*،

74 الأثير فى القلب

لقد كان حظ هذه المقالة مثل سابقتها 'حبة الخردل' التى كان مقدرًا لها أن تتبعها فى النشر فى دار *Regnabit*، وبالتالى أثارت الاعتراضات ذاتها، ورغم أن الملحوظات التى جاءت بها ليست غريبة عن قراء *Etudes Traditionnelles* فإننا نظن أنها لن تكون بلا فائدة حيث نقدمها فى ضوء مختلف بعض الشيء.

لقد نوهنا من قبل عن المذهب الهندوسى الذى يسمى رمزيًا 'الأثير فى القلب' مع مراعاة أن المقصود على الحقيقة ليس إلا المبدأ الربانى الذى يسكن فى مركز كل كائن، وهو القلب فى كافة الأديان التراثية ومركز الكائن الحيوى[1] بالمعنى الكامل، فليس دوره فى مسألة الأمور الجسدانية والدور الوظيفى فحسب بل بإبدال تشاكلى لهذه الفكرة لكى تنطبق على كل المجالات التى قد تمتد إليها إمكانات كائن مثل الإنسان بموجب أنها أحوالنا نحن، وهى التى تثير اهتمامنا على نحو مباشر، كما أن المركز الحيوى يناظر أقل شريان فى القلب، ومن الواضح أن ذلك بالمعنى الرمزى حينما ننتقل إلى ما وراء النطاق الجسدانى، ولكن لابد من فهم أن كافة الرمزيات التراثية الأصيلة، ولذلك أسس فى كل رمزيات التراث تتناول العلاقات الفعالة بين المركز بالمعنى الروحى وبين المنظومة العضوية.

ولنعد إلى فكرة 'الأثير فى القلب' التى يطرحها هذا المتن الأصولى،

---

[1] راجع 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا' باب 3.

هناك زهرة لوتس صغيرة فى موئل *براهما* كما أن هناك تجويفًا
دقيقًا *داهارا* يحتله الأثير *آكاشا*، ولابد أن يُفتش فيه المرء
وسوف يعرفه[2].

وليس ما ينطوى عليه مركز الكائن مجرد عنصر الأثير، أى مبدأ العناصر الأربعة المحسوسة كما قد يتبادر إلى الذهن عند الذين تجمدوا عند المعانى الظاهرية التى تتعلق بعالم الجسد، والتى يقوم فيها الأثير بدور المبدء، وحيث إن تفاضل الصفات المتكاملة والفتق بين الاتزان الأولانى الذى انطوى فى الحال 'اللامتمايز' فكل أشياء هذا العالم تولد وتنمو[3]، لكن هذا ليس إلا مبدءً نسبيًا على شاكلة هذا العالم، فليس إلا صيغة من التجلى الكلى فحسب، وليس أقل حقيقية من دور الأثير فيما تعلق بأنه أول العناصر، مما يجعل الإحلال الرمزى ممكنًا من واقع أنه لازال حقيقيًا فى مستواه، وهو صورة نائية كما لو كانت انعكاسًا للمبدء المطلق الأسمى، والأثير هنا مجرد دعامة لتحول الرمز كما تشير نهاية الفقرة المقتبسة، حيث إنها ليست مسألة أى شيء كان بل ما عبرت عنه الفقرة المذكورة حرفيًا، فليس هناك ما نبحث عنه إلا الحقيقة الروحية التى تناظر الأثير، وهو تعبير عن العلاقة بالعالم المحسوس فحسب، وقد نتج عن هذا البحث ما يمكن أن يسمى 'المعرفة القلبية *هادرا فيديا*'، والتى هى فى الآن ذاته 'معرفة التجويف *دهارا فيديا*'، وهو تساوٍ عبرت عنه اللغة السنسكريتية باستخدام الحروف ذاتها بترتيب مختلف، أى معرفة أعمق الأمور وأشدها بطونًا[4].

وقد كانت تسمية المصطلحات على منوال 'لوتس' و'تجويف' هنا على شاكلة تسمية 'الأثير'، ولابد بالطبع من فهما رمزيًا، فمجرد الخروج عن المستوى المحسوس لن يكون هناك مكان للمواضع بالمعنى المنضبط، وبمدى ما ابتعدت المسألة عن شروط المكانية، وهنا تتخذ التعبيرات عن الزمان والمكان قيمة رمزية صرف، وهذا النوع من الرمزية طبيعىٌ حتمى باعتبار أننا نستخدم صيغة مطوَّعة للحال الأرضى الإنسانى والفردى للغة الكائنات التى تعيش فى زمان ومكان بعينهما، ولذا كان هذان الشكلان الزمنى والمكانى متكاملان فى جانب بعينه، فهى عمومًا فى تداول لا

2 *Chandogya Upanishad 8.1.2.*

3 *See our study 'The Hindu Theory of the Five Elements' (Studies in Hinduism, chap. 4).*

4 *On the subject of the cavity or 'cavern' of the heart, considered more especially as the 'place' where the birth of the Avatara is accomplished, see also Perspectives on Initiation, chap. 48.*

يتوقف، وسواء أكانت بالتمثيل نفسه أم بتمثيلين مختلفين عن الواقع ذاته[5]، وهى ذاتها فيما وراء المكان والزمن، وعلى سبيل المثال يُقال إن الذكاء يكمن فى القلب، ومن نافلة القول إنه لا سبيل إلى وضع الذكاء فى المكان، ويبدو أنها كانت أمرًا 'محجوزًا' للفلسفة الدنيوية عند ديكارت، ولم تفلت نظريته من تناقض اصطلاحاتها ذاتها، فقد ادعى وجود 'موضع للنفس *seat of the soul*' فى منطقة بعينها من المخ، ولم يحدث مطلقًا أن ذهبت المذاهب القديمة إلى هذه الفوضى، فقد كان مفسروها المؤهلون دائمًا ما يعلمون كيف تُفهَم الرموز بجعل مستويات الوجود تتناظر دون أن تختلط، ويراعون بصرامة بنية مقامات الوجود الكلى، وكل هذه الاعتبارات واضحة لنا حتى إننا نكاد نعتذر عن الحديث عنها بهذا القدر، ولو كنا نفعل ذلك فمن جراء أولئك المستشرقين فى جهلهم بمبادئ الرمزية الذين 'بطّطوا' المذاهب التى يدرسونها من ظاهرها دون بحث عن التحقق بمعرفة مباشرة بها، وكيف كانوا يأخذون بكل شيء من منظور مادى عقيم، وكيف يشوهون تلك المذاهب إلى درجة التمثيل الكاريكاتورى، ونعلم كذلك أن سلوك هؤلاء المستشرقين ليس استثناءً ولكنه على العكس قائم على عقلية *mentality* فى الغرب تهيمن على معظم معاصرينا، والتى ليست إلا العقلانية الحديثة ذاتها.

ورمزية اللوتس لها جوانب متعددة، وقد طرحنا بعضها فى أعمال سابقة[6]، وقد أشرنا إلى المتن المقتبس عاليه، والذى يستخدم فى التمثيل لمراكز الإنسان المختلفة بما فيها المراكز الثانوية، وسواء أكانت وظيفية أم نفسية، وتسمى هذه المراكز فى الهندوسية 'أزهار لوتس'، وترسم فى الأيقونات بأعداد مختلفة من البتلات لكل منها معنى رمزى، كما تناولت الألوان[7] التى تسمى 'عجلات شاكرات'، والتى لاحظنا العلاقة بينها وبين رمزيتى العجلة والزهور وخاصة اللوتس والوردة.

كما أن هناك ملحوظة أخرى قبل أن نسترسل، وهى أن من الخطأ الاعتقاد أن الاعتبارات التى تتعلق بمعانٍ أسمى تناقض تدخل المعانى الحرفية فتدمرها وتحيلها إلى عدم، أو تظهر أنها زائفة على نحوٍ ما، فمن الخصائص الرمزية الحقة أن تتناول طائفة

---

5 وعلى سبيل المثال فإن التمثيل الرمزى لمقامات الوجود المتعددة للكائن تتكون من مصفوفة من الدوائر المتتابعة.

6 راجع على الخصوص باب 9 'أزهار رمزية'، فى هذا الكتاب.

7 *On all this, see especially 'Kundalirii- Yoga' in Studies in Hinduism, chap.* 3.

من المعانى لا تستبعد بعضها بعضًا بل تنسق بينها لتكمل أحدهما الأخرى، لكن الدور المركزى فى اعتبار العالم الجسدانى يرجع إلى الأثير بصفته حاضرًا فى كل شيء كمبدءٍ فى أى نطاق كان، ويمكن تمثيل تجانسه وتوازنه التام بالنقطة الأولانية المتعاد لة، والتى تبعد عن كل التمايزات والتناقضات التى تنبثق منها ومن ثم تعود إليها حتى تُحلَّ فى الحركة التبادلية بين البسط والقبض أو التمدد والانكماش أو الشهيق والزفير، والتى يتكون منها بالضرورة المراحل المتكاملة للتجليلت، كما أنها وجدت بتمامها فى المفاهيم الكونية القديمة فى الغرب، حيث كانت العناصر الأربعة تَمْثُلُ فى أطراف أذرع الصليب الأربعة، وتشكل بذلك زوجين متناظرين لهما خصائص أصولية، وهى البارد والساخن والجاف والرطب بموجب نظرية أرسطو[8]، وفيها ما يسميه الخيميائيون 'واجب الوجود *quinta essentia*'، أى العنصر الخامس وهو الأثير، والذى يبدو فى مركز الصليب على شكل زهرة خماسية البتلات، والتى تذكرنا بزهرة اللوتس فى تراث الشرق الأقصى، وتسمى هذه المراكز فى التراث الهندوسى 'زهرات اللوتس'، وتصوَّر فيه بأعداد مختلفة من البتلات، وكل منها له معنى رمزى، وقل مثل ذلك عن ألوانها، ناهيك عما يناظرها من الأصوات والأدعية مانترا[9]، كما أنها تسمى 'عجلات *شاكرات*' تؤكد على العلاقة الحميمة بين رمزيتا العجلة والزهرة.

ومن ناحية أخرى فإن النسق الهندسى الذى ترسمه ليس إلا الشكل الخماسى الفيثاغورى *pentalpha*[10]، وهو تطبيق خاص للصليب ومركزه، والتى تتسق تمامًا مع المعنى العام الذى تناولناه فى موضع آخر[11]، وفى الآن ذاته فإن الاعتبارات التى تتعلق بالأثير لابد أن تضاهى النظرية الخماسية فى القبالة العبرية عن الأثير *Avir* التى ذكرناها عاليه.

ولكن المذاهب التراثية فى علم الطبيعة بمفهومها القديم لا تكفى بذاتها، لكنها نقطة انطلاق و'دعامة' تسمح بتناظرها بالارتقاء إلى معارف فى مقام أسمى، كما أن

---

8 *On this, again, we refer the reader for further details to our article, already mentioned above, 'The Hindu Theory of the Five Elements'.*

9 *On all this, see especially 'Kundalini- Yoga' in Studies in Hinduism, chap. 3.*

10 ونلاحظ أن هذا الشكل ينتمى للهرمسية والصايب الوردى، وهو *Rota Mundi* الذى وضعه لايبنيتز على رأس رسالته *De Arte combinatoria*، راجع مقدمة 'الأسس الميتافيزيقية لحساب التفاضل والتكامل'، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

11 راجع 'رمزية الصليب' باب 7، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

هناك اختلاف جوهرى بين منظور التراث المقدس والعلوم الدنيوية كما يفهمها الإنسان الحديث، فما يكمن فى القلب ليس الأثير بمعناه الصحيح فيما تعلق بقلب الإنسان من منظور التكامل، وليس من الصيغة الجسدانية وحدها، فما يكمن فى هذا المركز هو 'النفس الحية *جيفآتما*' التى تنطوى على كافة احتمالات النمو الإنسانى فى سياق الوجود الفردى، مثلما ينطوى الأثير على كافة احتمالات التجلى الجسدانى، ومما يلفت النظر فى التناظر بين التراث الشرقى والغربى أن دانتى يتحدث عن 'الروح الحية *vital spirit*' التى تقطن فى أعمق مواضع القلب[12]، وهو ما يتطابق مع 'الفجوة' التى ذكرناها سلفًا فى المذاهب الهندوسية، وربما كان تعبيره *spirito della vita* ترجمة حرفية للاصطلاح الهندوسى *jivatma*، رغم استحالة معرفته بذلك.

وليس ذلك كل شيء فيما تعلق 'بالروح الحية' على الأقل بشكل مباشر، والتى تكمن فى نطاق وسيط يسمى باليونانية *psyche*، والذى لا يذهب إلى أبعد من اعتبارات الحال الإنسانى الفردى بما هو، والذى يستطيع الارتفاع منه إلى معان أسمى، وهو المعنى الروحى الميتافيزيقى الصرف، ولا حاجة بنا إلى أكثر من تطابق هذه المعانى الثلاثة التى تناظر بنية 'العوالم الثلاثة'، وعليه فإن ما يكمن فى القلب من المنظور الأول هو عنصر الأثير، ولكنه ليس وحده، فمن المنظور الثانى هناك 'النفس الحية'، لكن هناك كذلك ما يمثل القلب بنقطة الوصل بين المرء وبين الكون الكلى، أو بتعبير آخر بين الإنسانى والربانى، والتى تتماهى مع مركز الفردية، وبالتالى وجب أن نطرح المنظور الثالث الذى يمكن أن يسمى' ما فوق الفردى *supra-individual*'، حيث إن العلاقة بين الكائن الإنسانى والمبدأ تذهب بعيدًا إلى ما وراء حدود الحال الفردى، ومن هنا يجوز القول إن ما يكمن فى القلب هو براهما ذاته، أى المبدأ الربانى الذى ينبثق عنه كل الوجود ويعتمد عليه تماما، والذى يسرى فى كل شيء وينيره ويحفظه، وكذلك الأثير الذى يعتبر على المستوى الجسدانى ساريًا فى كل شيء، ولهذا السبب ترمز إليها المتون الهندوسية المقدسة وعظماء مفسريها برمز براهما، وما يسمى "الأثير فى القلب" بأسمى معانيها، أى *براهما*، وبالتالى "المعرفة القلبية" عندما تبلغ أعمق طبقاتها، والتى تتماهى حقًا مع "المعرفة الربانية *براهما فيديا*".

---

12 *In quel punto dice veracementa che le spirito della vita, lo quale dimora nella segretissima camera del cuore (Vita Nuova, 2) [At that moment, speaking truthfully, the vital spirit which dwells in the most secret chamber of the heart]. which is beyond the 'three worlds'; but this distinction, despite its extreme importance from the point of view of pure metaphysics, need not be brought into our present considerations any more than the distinction between the two different degrees in which, correlatively, 'Union' itself can be envisaged.*

ويُعدُّ المبدأ الرباني كامنًا على نحو ما في مركز كل الموجودات، وهو ما يتفق مع قول القديس يوحنا عن "النور الحق الذي يستنير به كل إنسان يأتي إلى هذا العالم"، لكن هذا الحضور الرباني' الذي مثلت له القبالة العبرية بمصطلح '*شكيناه*' قد يكون افتراضًا بمعنى أن الوجود قد لا يعيها، ولكنها تكتسب معناها الكامل عند الكائن الذي 'تحقق بالاتحاد'، وهو ما يعني 'يوجا' في السنسكريتية، وحينئذٍ يعرف الكائن عن طريق أكثر المعارف مباشرة، أي "آتما الذي يكمن في القلب"، وليس فحسب 'النفس الحية' للفرد الإنساني بل الروح الربانية للكون الكلي، وفي النقطة المركزية حيث ينصهرا معًا على نحو يستعصي على التعبير، فهما أمر واحد على الحقيقة، كما قال السيد المسيح "أنا وأبي واحد"، ومن استطاع الوصول إلى المعرفة الحقة وبلغ المركز، لا مركزه هو بل مركز كل شيء في الكون فقد حقق اتحاد قلبه 'بشمس الروح'، وهي القلب الحق للعالم، ورؤية القلب على هذا المنوال تبعًا للتراث الهندوسي فإن 'مدينة الرب *براهما بورا*' التي تكافئ 'أورشليم السماوية' التي تمثل 'قلب العالم'.

75 مدينة الرب

لقد ذكرنا سلفًا في عدة مناسبات رمزية 'مدينة الرب *براهما بورا*' في الهندوسية[1]، ونعلم أن القلب هو ما يسمى '*مركز الكائن*'، والذى يناظر المركز على المستوى الجسدانى، وهو سكن *بوروشا* الذى يتماهى مع المبدأ الربانى *براهما* 'الضابط الباطنى *أنتاريامى*' الذى يحكم ملكات الكائن بكليتها باللافعل *non-acting*، وهو النتيجة المباشرة للحضور الربانى، ولذلك كان اسم *بوروشا* يُفسَّر بمصطلح *بوروشايا*، أى قاطن الكائن *شايا* كما لو كان مدينة *بورا*، ومن الواضح أن هذا التفسير مشتق من مفهوم *نيروكتا*، لكن *كومارا سوامى* أشار إلى أن ذلك لا ينطبق على معظم الحالات إلا أنه يمثل اشتقاقًا لغويًا منه فى الآن ذاته[2]، وتدفعنا هذه التوازيات إلى التوقف عند هذه النقطة لنعالجها على نحو أدق.

ولنلاحظ أولًا أن الجذر اليونانى *polis* والجذر اللاتينى شيفيتاس *civitas* بمعنى مدينة يناظرا مقطعين تتكون منهما كلمة *بوروشا*، حتى لو لم يكن ذلك واضحًا من أول وهلة نظرًا لتغيرات صوتية بعينها فى الانتقال من لغة إلى أخرى، والواقع أن الجذر السنسكريتى *ب ر ى أو ب و ر* يصبح فى اللغات الأوروبية *pie* أو *pel*[3]، فتصير *polis* فى اليونانية، ونجد من المنظور الكيفى أن هذا الجذر يحمل معنى

---

1 راجع 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا' باب *3*، ترجمات تراث واحد قيد الطبع، وكذلك باب *73* 'حبة الخردل' و *74* 'الأثير فى القلب' فى الكتاب الحالى.

2 *'What is Civilisation?'; we borrow from this study some of the observations that follow, especially those concerning the linguistic perspective. [This study by Coomaraswamy is now contained in What is Civilisation? (Great Barrington: Lind- isfarne Press, 1989). chap. 1. ED.]*

3 *It is known that the letters r and I are phonetically very close and are easily interchanged, one with the other.*

الرضوان، أما من الناحية الكمية فيعنى الجماعية *plurality*، فلا تقوم مدينة إلا بجماعة من الأفراد الذين يسكنونها، والتى تبرر استخدام المصطلحات المذكورة لتسميتها، وليس ذلك إلا الجانب الظاهر فحسب، إلا أن الأهم هو محاولة التعمق إلى قرار الأمور فى فكرة الرضوان، ونعلم من هذا المنطلق أن الامتلاء والفراغ مترابطان، وهما من الرمزيات المتكاملة فى الرمزية التراثية للدلالة على تكامل المبدئين السلبى والإيجابى، ويجوز القول فى النقطة الراهنة إن حضور *بوروشا* يملأ 'مدينة الرب' بكل امتداداتها ومرافقها، أى كمال الكائن الذى يصبح بدون هذا الحضور حقلاً فارغاً *كشيترا* أو مجرد احتمال لم يتحقق فى الوجود، وتقول متون *الأوبانيشادات* إن *بوروشا* هو الذى ينير كل شيء بنوره *سارفام إيدام*، وهى الصورة التى يتخذها 'اللاعمل *non-acting*' الذى تحقق به تعينات الوجود بمدى سطوع نوره[4]، وعلى منوال الرمزية الأخروية المسيحية عن 'أورشليم السماوية' التى تضئ بنور 'الحَمَل' الذى يسكن مركزها كما لو كان 'ضحية' فى حال 'اللافعل'[5]، أضف إلى ذلك أن 'التضحية بالحَمَل' من أسس العالم، وتماثل تماماً 'تضحية *بوروشا* فى *الفيدا*'، والذى قسَّم نفسه فى بداية التجلى حتى يعيش فى كل شيء كان وفى كل العوالم الكائنة[6]، ورغم أنه ظل واحداً جوهرياً وينطوى على كل شيء فى واحديته فإنه يبدو جماعة من ظاهره وهو ما يناظر فكرتا الرضوان والجماعة معاً، ولذا قيل 'إن فى العالم اثنين من *بوروشا* أحدهما فانٍ والآخر خالد لا يفنى'، فأحدهما مُقَسَّم على الخلق والثانى صمدى لا ينقسم[7].

ونجد من ناحية أخرى أن كلمة *civitas* اللاتينية مشتقة من جذر *kei*، والذى يساوى فى اللغات الغربية *شى* التى جاءت منها *شايا* فى السنسكريتية، ومعناها الأولى هو 'الراحة' فى المنزل أو الاصطبل مما كان نتيجة مباشرة لقيام المدينة، وحينما 'يستريح' *بوروشا* فى مدينة الرب يمكن قول إنه مواطنها الوحيد[8]، حيث إن الجماهير

---

4 راجع 'هيمنة الكم وعلامات الزمان' باب *3*، ترجمات تراث واحد قيد النشر.

5 ولابد أن نتذكر هنا تجلى شيكيناه أو 'الحضرة الربانية' كالنور.

6 راجع باب *46* 'جمع ما تبعثر'.

7 'أنشودة الرب بهجافاد جيتا' *15*و*16*. وقد كان بوروسليوتاما الذى يتماهى مع باراماتما وراء هذين الجانبين كمبدأٍ أسمى، ويتعالى على عالم التجلى بأكمله، وليس فى هذا العالم بل إن العالم كله فيه..

8 *The equivalent Greek expression, monos politis, was applied to God by Philo.*

التى تستوطن المدينة توجد بفضل نوره وتحيا بأنفاسه *برانا*، والنور المضئ والنفَس الحيوى ليسا إلا جانبى *سوترآتما*، ولو اعتبرنا أن 'مدينة الرب' مركز للكائن لتمخضت عنها حقيقة أن *بوروشا* فحسب هو الذى يسكنها، كما أن امتداد هذا المصطلح إلى الكائن الكلى بكل ملكاته وعناصره مشروع للسبب الذى طرحناه توا، ولن يغير ذلك شيئًا حيث يعتمد كل شيء على *بوروشا* ويستقى منه وجوده، وتُضاهى علاقة الوظائف الحيوية للكائن وملكاته مع *بوروشا* كما لو كانت خدمًا لملك، كما أنها تتراتب فى بنية تشاكل الطوائف المختلفة فى مجتمع الإنسان[9]، ويقع القصر الذى يسكنه الملك ليدير كل شيء فى قلب مركز المدينة[10]، ولا يعدو كل شيء فيها استطالة أو تمديدًا له، لكن الرعايا بالطبع ليسوا فى حال استقلال مطلق عن ملكهم، ذلك أن الوظيفة الملكية فريدة فى المدينة، ولا بد أن يكون 'الحاكم' مختلف جوهريًا عن 'المحكوم'[11] رغم أنه إنسان مثلهم، وليس مبدئًا من مقام مختلف، وتقدم لعبة الماريونيت صورة مطابقة للحال، حيث إنها تتحرك بإرادة لاعبها فحسب، وهناك أسطورة مدهشة فى *كاتها ساريت ساجرا*[12] عن مدينة مأهولة بنماذج آلية خشبية تتحرك كالإنسان فى كل شيء إلا النطق، ويسكن فى وسط القصر رجل هو 'الوعى الوحيد *إيكا كام تشيتانام*' فى المدينة، وهو الغاية الوحيدة وراء الآليات التى صنعها بنفسه، ويقال إن هذا الرجل كان نجارًا مما يجعله ممثلاً *لفيشفاماركا*، أى المبدأ الربانى الذى يبنى العالم[13]، وتقودنا الملحوظة الأخيرة إلى قول إن رمزية 'مدينة الرب' تصلح لتمثيل الكونين

---

9 وقد عالج أفلاطون هذا المنظور فى 'الجمهورية'.

10 وقد كان هذا القصر معبدا فى الآن ذاته، ولا زالت هذه السمة المزدوجة تظهر فى آثار العصور 'التاريخية'، وننبه على حقبة مينج تانج فى الصين، راجع 'الثلاثى الأعظم' باب *16*.

11 والعلاقة بين الحاكم 'بالفعل' وبين المحكوم 'بالقوة' كما يقول أرسطو بأسلوب مدرسى، فكذلك كان المفهوم التراثى لعلاقة الملك بمملكته، فقد كان الملك هو المبدأ الفاعل وكانت المملكة مبدأ قابل، ولكن فيما تعلق بممارسة السلطة الزمنية للملك فإنه يصير نفوذا روحيا كذلك. والمرجع العمدة هو كوماراسوامى 'نظرية الحكومة من منظور النفوذ الروحى والسلطة الزمنية' *American Oriental Series, American Oriental Society, New Haven, Connecticut, 1942].*

12 *See A. K. Coomaraswamy, '"Spiritual Paternity" and the "Puppet-Complex"' [The Bugbear of Literacy (Ghent, NY: Sophia Perennis, 1979), chap. 6].*

13 راجع باب 'البناؤون والنجارون' من كتاب 'دراسات فى الماسونية وطوائف الحرف'، ترجمات تراث واحد، قيد النشر.

الأكبر والأصغر، رغم أن الأخير هو فحسب ما نعتبر فيه الآن، كما يجوز أن نتحدث عن عدة تطبيقات تتعلق بمستويات متنوعة من الكون الأكبر، وبحسب ما إذا كانت المسألة تخص عالمًا بعينه، أى حالًا بعينه من أحوال الوجود، أو عالم التجلى بكامله، وفى كل الأحوال فإن المبدأ الربانى كامن فى مركز العالم أو مراكز كل العوالم، ويتجلى فى كافة العوالم المناظرة، ويقوم بالدور ذاته كحاكم للباطن مثل *بوروشا* الذى يقطن فى قلب كل الكائنات، ويقوم فى كل منها كاحتمال لامكانات ذلك الكائن، ولذا كان تطبيقه على مجمل الكائنات المتجلية لا يتطلب إلا إجراء انتقال بدون أية تعديلات، وما قيل سلفًا عن الملكات التى يحتكم عليها الكائن فى التطبيق على 'الكون الأصغر' فإن الشمس هى 'قلب العالم'[14]، وتفسر *سوترآتما* التى تصل كل كائن مع *بوروشا* المركزى ممثلًا بشعاع الشمس الذى يسمى سو شومنا[15]، وتبين التمثيلات المتعددة *لسوترآتما* كذلك التقسيمات الواضحة *لبوروشا* فى الكون الأكبر والكون الأصغر كليهما، ولا ينبغى فهم هذا باعتباره تشظيًا وإلا ناقض وحدانيته الجوهرية، لكنه 'تمديد' يضاهى الأشعة التى تنبثق من المركز، وفى الآن ذاته حيث إن تسمية *سوترآتما* تكافئ الخيط *سوترا* فإن الرمزية أشبه برمزية النسيج[16].

وبقى أمامنا نقطة واحدة مختصرة كى تكون مشروعة من المنظور التراثى، وحتى تكون 'طبيعية' حقًا فإن مكوناتها وتركيبها يضاهيا كافة المدن والتجمعات الإنسانية، والتى تتخذ بقدر الإمكان مثالًا من 'مدينة الرب'، ونقول 'بقدر الإمكان' نظرًا لأن الأحوال الراهنة للعالم فسوف يكون هذا التمثيل ناقصًا حتمًا، وكما تبين من مضاهاة *بوروشا* بملك، وليكن فى ذلك ما يكون، فإن ما يبرر حديثنا عن 'الحضارة' هو مدى ما يتحقق منها، ويكفى القول بأن كل ما نصفه بالعالم الحديث يدعى قيامه بحضارة فائقة، ولا يمكن رؤيتها إلى على نحو كاركاتورى شائه، وغالبًا ما تكون لها نقيضًا تامًا،

---

14 ومن المفهوم أن هذا لا يخص الشمس كما يراها الناس، بل الشمس الروحية التى يعرفها القلائل من ذوى البصائر، ويمثلها ثبات سمت الفلك.

15 راجع 'الإنسان ومصيره فى الفيدانتا' باب *20*، فهذا الشعاع الشمسى هو ذاته 'الحبل الذهبى' الذى تحدث عنه أفلاطون..

16 راجع 'رمزية الصليب' باب *14*، حيث نتحدث عن رمزية العنكبوت فى مركز شبكته، وهى صورة الشمس تنبثق منها الأشعة كامتداد لها لتصنع نسيج العالم الذى تحققه بالانتشار فى كل الجهات.

وليس وصفها بحضارة مناوئة للتراث *anti-traditional* كافيا، فهي تستحق أن تسمى القضية المضادة للحضارة الحقة.

مسرد المصطلحات والأعلام